

رواية 2011



د. مجدي صالح

رواية

الطبعة الأولى (2019)

رقم التسجيل: VR. 33686.B

د. مجدي صالح

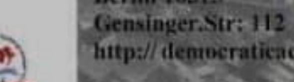
رواية 2011

المركز الديمقراطي العربي

"قالوا قديما "الصمت على الفساد فساد"، إلا أن المقولات تتعقد وتتركب مع الزمن حين تتكاثر أنواع الفساد ويتقدم خطوات بشكل متسارع حيث يصعب تفكيكه بشكل علمي. للفساد رجالاته وله مناصرون كثر وجماهير عريضة بحجمه، فكلما زاد في بلد ما زادت جماهيره وحراسه المدافعين عنه. في الحقيقة الفساد ليس وباء لنكافحه، هو عدوان نحاربه، لكن القطعات الحربية لخوض هذه المعركة متصدئة ومهترئة وتمسك زنادها كيانات فاسدة. الفساد ليس مالياً فحسب، فله أوجه عدة والجميع يخوضه ويصارع من أجله، ابتداءً من فساد الوقت والانتهازية مروراً بالفساد السياسي والإداري وانتهاءً بمناصرة المجرم في الحرب بأي وسيلة ولو بكلمة".






Germany:
Berlin 10315
Gensinger.Str: 112
http:// democraticae.doe



المركز الديموقراطي العربي
Democratic Arab Center
Strategic, Political & Economic studies



2011

روايـة

طبعة الأولى

2019

رواية : رواية ٢٠١١

المؤلف: د. مجدي صالح
رقم تسجيل الكتاب : VR. 33686.B
الطبعة : الأولى
تصميم الغلاف: أ. المصطفى بوجعبوط
الناشر:
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية. برلين _ألمانيا
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر .
جميع حقوق الطبع محفوظة: للمركز الديمقراطي العربي
برلين – ألمانيا.
2019
All rights reserved No part of this book may by reproducted. Stored in a retrieval System or tansmited in any form or by any meas without prior Permission in writing of the publishe
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية
:Germany
Berlin 10315 GensingerStr: 112
Tel: 0049-Code Germany
030- 54884375
030- 91499898
030- 86450098
mobiltelefon : 00491742783717
E-mail: book@democraticac.de

الإهـداء

إلى كل عربي أعتزل الحرب ولم يشارك بها حتى بكلمة واحدة.

كلمـة

هذه الرواية هي الجزء الثاني من رواية "رجل السماء الأول". يمكن للقارئ الذي لم يتحصل على الجزء الأول أن يستمتع بهذا الجزء دون أن يشعر بأن هناك ما فاته. لقد تعمدنا إغفال ذكر اسم البلد الذي تقع فيه أحداث الرواية حتى يتسنى لكل قارئ عربي حرية التأويل بما يوافق القطر الذي ينتمي إليه.

المؤلف

1

(ذهب الحمار يبحث عن قرنيين، فعاد مصلوم الأذنيين)

مسعد، هو أستاذ تاريخ، كان معلماً في مدرسة ابن خلدون للتعليم الإعدادي قبل سفره بعقد عمل إلى هولندا. ذلك الرجل المتدثر بعبق التاريخ والمغبون من الفساد وهذا سبب هجرته إلى هولندا وتجديده عقد العمل حتى قرر العودة فورا ليشهد هذا الحدث التاريخي وليشارك ثورة الجميع، يؤكد أن الحكم مستقبلا للكوادر واحتواء الشباب. في نفس اليوم من وصوله إلى المطار، توجه لساحة الاعتصام في العاصمة. ويوما بعد يوم، حتى صار أحد الناطقين المتحدثين باسم الثورة وشرعيتها عبر القنوات الإخبارية. واقع متغير، حتى لبس الأستاذ مسعد المعروف الكلاسيكي القديم والألوان الغريبة لبدلته ورَبْطَة العُنُق القديمة تغير. يرتدي الآن ملابس عصرية تناسب التغيير الحاصل في الساحة فقط من أجل الظهور الإعلامي. هو مفيد جدا عند الانتقاد والاقناع بوجهات نظره. لذا، كان يلقى احتراما في الساحة وتتزاحم عليه وسائل الإعلام ليقول ما عنده.

(المظاهرات والاعتصامات وسقف المطالبات التي تصدح بها الحناجر محرمة في الدستور وتعتبر خيانة وبل يجيز الدستور التحرك الفوري لقمعها لحماية البلد وإرساء الأمن والأمان والسلم الأهلي، لذا، التحركات هي خارج إطار الدستور والذي لا يوجد دستور في تاريخ الإنسان يشرع الثورة التي هي في المقام الأول وجدت لتعطيل الدستور تمهيدا لتغييره والذي بنظرها مشرعن وحامي الاستبداد. وبما أن الثورة دائماً غير دستورية ومخالفة للقانون، فهي تعلن نفسها شرعية ثورية تستمد شرعيتها من وجودها وتعطل الشرعية الدستورية لأنها أمر واقع تعتبر نفسها سلطة لا تخضع لقانون أو حتى حكم قضائي. وفي حال نجاحها، من المؤكد أن العجلة تدور وتتبلور أفكار ثورية تطيح بالثورة ودستورها بعد زمن وهكذا دواليك مالم يكن هناك وعي جماهيري عام ديمقراطي شريف فالمسؤول موظف لدى الديمقراطية والشعب حاميها بالمفهوم الغربي، مبتكرها من حيث الوعي والتعدد الحزبي بحزبين إلى ثلاثة فقط وليس بالمفهوم العربي مائة حزب ومائة منظمة مدنية على أقل تقدير).

فتحي، هو أستاذ جغرافيا كان زميل مسعد في المدرسة وصديقه المقرب، يختلف تماما ولا يلتقي مع زميله فكريا اليوم عكس الماضي حيث كان الالتقاء محدوداً. مسعد ثوري الآن، وفتحي يؤيد بقاء النظام. يشاهد فتحي

زميله عبر شاشات التلفزة وهو يقول كل ما اكتسبه خلال حياته من كره للفساد. اليوم، وبعد شهر من هذا الحدث وارتباك المشهد أمنيا كحالة طبيعة، الملل يتسلل إلى رواد السلمية ويبدأون بالانسحاب التدريجي. فلهم أعمالهم والتزاماتهم ويحل محلهم الفوضويون تدريجياً. غادر مسعد الساحة التي صارت مأواه ليلاً نهاراً من مسكن ودعم غذائي متنوع. بات يوما في منزله وصبيحة اليوم التالي في باله منذ أيام الاتصال بصديقه فتحي. اتفقا هاتفيا على الالتقاء أمام مكتبة عامة موقعها في ضاحية المدينة. اللقاء كان باهتا من قبل الأستاذ فتحي لأنه يشاهد ويسمع صديقه في قنوات الأخبار. مسعد حتى اللحظة لا يعلم توجهه صديقه. تبادلا أطراف الحديث عن أحوال بعضهما، مسعد امتدح حياته في هولندا، وصديقه قال إنه انتقل للسكن في حي متواضع ورزق بطفل أسماه مسعد، فرح الأستاذ مسعد لهذا. ولكن عندما سأل زميله عن رأيه بالثورة الشبابية، أجاب فتحي أنه ضد ما يحدث ويرى أن من واجبه مساندة السلطة، ومن وجهة نظره أن النظام هو منظومة مترابطة ومتداخلة ومتكاملة كأجزاء مرتبطة ببعضها البعض للتسيير الإداري بمعايير مطلوبة واقعياً لتكون النتيجة إنتاج مخرجات لنتائج ومواصفات معينة تكون محددة مسبقا. يبقى فتحي مدافعاً شرساً عن النظام، ويرى وجوب بقائه وأن الدهماء إذا أطُلق لها العنان في

التحكم في مصيرها ومصير الشعب سوف تخلق الفوضى المطلقة لأن النتيجة اللا نظام وسقوط للقوانين العامة،،، أما مسعد، فيرى أن المشهد ربيع عربي خالص يتصدره المثقفون والأكاديميون من الشباب في عصر التكنلوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي. نعم، ثاروا ومعهم المسحوقين الذين تضرروا من الفساد المالي والإداري والمحسوبية والانتهازية التي قتلت أحلامهم، ثاروا واندفعوا ببراءة من أجل مستقبل أفضل يضمن لهم ولأبنائهم حياة كريمة تحفظ لهم كرامتهم وتضمن لهم العدل في القضاء وتوزيع متساو للثروات. لابد أن يسقطوا حكم الفساد والتخاذل وأن غدا يختلف عن الأمس. وهذه فرصة لا تأتي مرتين لتغيير الواقع وإن القرار الآن بيد الشعوب وليس بيد الطغاة. من هنا، بدأ الشد والجذب وكلٌ يحاول إقناع الآخر بصوابية وجهة نظره، دقيقة تليها دقيقة والموقف في تصاعد مستمر ولا يبشر بالهدوء. نهاية اللقاء، خلافات واتهامات، وشق كلٌ طريقه في حال سبيله. الأستاذ مسعد تضرب قدماه الأرض غضبا وهو يخاطب نفسه: "ما هذا العقل الخشبي الذي يشكل حفريات قديمة، بتاريخي ما كنت أعلم أنه أحد أركان الفساد. يا له من "Dom" (يقصد غبي باللغة الهولندية)؟!". لا يختلف الحال عن رفيقه الأستاذ فتحي ذوي الطباع الهادئة سابقا: "صادقت غبياً، الجميع كان ينبذه وأنا الوحيد الذي

كان يتقبل غباءه، يا له من حاقد متصلب لا ينتمي للوطنية إلا بالشعارات الزائفة." للعلم، أنهما كانا أخوين في الثقافة والفقر والرسالة التربوية. بعد هذه الدقائق، صارا مختصمين متكارهين وكلٌ متحمس لقناعاته. كان هناك قديما مقهى ثقافي اسمه "الدب الصغير" يلتقي فيه المثقفون وهما من ضمن رواده، كان شاهدا على مودة الأدب والثقافة بينهما، كان يسمع أنفاسهما ويشعر بساطة قلبيهما، هُدم ذلك المقهى التاريخي ليشيد مكانه فندق سياحي، ولو بقيت جدرانه إلى هذه اللحظة، لصرخ في عقليهما. ومن يدري، فلربما كان له تصرف آخر معهما.

***

إبراهيم شاب أقترب من الخامسة والعشرين، كان يعمل جامعا للعلب المعدنية من الشوارع ومكبات القمامة وهو من سكان حي الصفيح. لم يلتحق بالمدرسة كون الأحياء العشوائية خارج اهتمام الدولة. كانت له قصة حب مع ابنة جاره يعقوب، تحابا إلى حد الجنون، ولكن التدين ونظرات التطرف التي طرأت فجأة على عقله وقلبه حالت دون تكلل ذلك الحب باللقاء تحت سقف قصديري واحد في ذلك الحي الموبوء الفقير. فضل إبراهيم الجهاد والآخرة حسب ما فهمه من مجنديه على الاستقرار في

الدنيا. إبراهيم مطلوب أمنيا منذ سنوات بسبب عمليات مسلحة قام بها بأمر من أبي البراء. إلى اليوم، لا يعلم ما هو اسم أبو البراء الحقيقي سوى كنيته. لم يغادر مكان التدريب في أحد الجبال منذ سنوات وهو متوار عن الأنظار سوى عند تنفيذ أي عمليه مسلحة. لا يعلم شيئاً عن قرب عن والديه سوى أخبار تأتيه من قائده أنهما بخير ويبعثون لهما شهريا مبلغاً مالياً. وبسبب الأحداث وارتباك الأوضاع الأمنية بشكل خطير، فقد تواجد مع الكثير للمشاركة في هذه الأحداث (الثورة). قضى أسبوعين في ساحة الثورة حر الحركة بشكل مطلق ولم يرجع لمنزل أبويه لزيارتهما. بعدها، جاءه أمر بالذهاب إلى حيه (عبد الله عيسى) المعروف شعبيا باسم (حي الصفيح) والعمل هناك مع من سبقوه حتى الاستعدادات الكبيرة. عاد للحي وسمع من شاب هناك أن والده متوف منذ عام ووالدته غادرت الحي. بحث عنها فلم يجدها وقيل له ممن يأتمر بأمره أنها في مخيم النازحين شُيد حديثاً وأنها بخير وواجبه الالتفات للجهاد. الحقيقة الغائبة عن ذهن إبراهيم أن أمه صارت مشردة وغادرت الحي لتتبع لقمة عيشها ولا أحد يعلم أين هي الآن والحقيقة لم يكن يصلها شيء من المال منذ وفاة والده. أصابه الحزن، واساه الجميع. أياماً وتحول حي الصفيح إلى أشبه بالمعسكر،

خرجت الأسلحة ووزعت وبنيت المتارس وتواجد خلفها شباب الحي ومن خارجه.

إلى الآن، لا أحد يدري ماذا بعد؟ هل سيسقط النظام الجمل بما حمل أو ما حمل فقط؟ هل سيعود الاستقرار سريعا؟ من سيتصدر المشهد القيادي؟ ما هي ردود فعل الموالين للنظام واجنحته الضاربة في باطن الأرض؟ من السهل جدا تعطيل المدارس وبناء المتارس وقطع الطرق وتعطيل أشكال الحياة، ولكن من الصعب تطبيع الحياة ورفع مخلفات الأزمة، فهل من خطة لاستعادة الحياة اليومية بشكلها المعتاد؟ على أية ضفة يقف الرقم الصعب في المعادلة "الجيش" وما هي رؤيته وحساباته؟ كيف لثورة أن تنجح وهي بدون قيادة أو مشروع والشعب منقسم لثلاثة أقسام؛ الثائر والمعارض للثورة والمحايد؟ هل هذه الانقسامات مع انعدام الوعي الثقافي والاجتماعي بالأصل هي شعار حرب أهلية مع تكون جماعات وائتلافات وفصائل بالعشرات وخلال فترة قياسية؟ ما هو البديل للنظام حقاً ومن هو المسؤول الآن؟ أم أن الشاعر البردوني أحسن وصف الحال قبل عقود حين قال "والأباة الذين بالأمس ثاروا... أيقظوا حولنّا الذئاب وناموا. حين قلنا قاموا بثورة شعب... قعدوا قبل أن يروا كيف قاموا. ربّما أحسنوا البدايات لكن ... هل يحسّون كيف ساء الختام؟"

***

جاسر نبيل الرجل الفاسد وإمبراطور المال. استحوذ على اقتصاد البلد بنجاح، فهو ليس بعيداً عن هذه الأحداث. بل إنه جزء أساسي ومحوري. فقد عمل في السنوات الأخير على حلحلة الكثير من العقد وسيطر على الإعلام والمثقفين ولديه جمعية خيرية فعالة وينظر له الناس على أنه منقذ البلد والرجل الصالح. تمويل الطرف المعارض بسخاء مطلق من بنك جاسر المعتمد من قبل الدولة، وأيضاً من أماكن مالية جاهزة منذ زمن. اشتغلت قنواته الإعلامية والدينية وشركة الاتصالات التابعة له حيث وزعت مودمات أنترنت فائقة السرعة من الجيل الرابع حصراً. ومن خلالها، خُلق عمل الناشط الإعلامي الميداني وشهود الأعيان. من داخل مكتبه، يعمل جاسر بلا توقف مع إدارة لخلية من المديرين تحت يديه. وهذا الظاهر له. وهناك محركون برزوا فجأة وصار هو مركز تزويد مالي مهم ويُعتمد عليه.



الشيخ أبو إيمان (مجيب القاف) المتهن لمهنة إمام لأمر في نفسه، قبل سنوات عندما أصيب بالمرض الخبيث النادر (في عضوه التناسلي) في مرحلته الأولى، فقد اتخذ قرارين، الأول تطليق زوجته القاصر صفاء متهما إيها أنها دخلت بالنحس والدبور عليه، فكان لزاما عليه في ذات نفسه التخلص من الحمل الذي أصبح فجأة عبءً عليه تحت ضغط نفسي لا يطاق. والثاني، السفر فوراً إلى ألمانيا للعلاج. هناك، خضع للإجراءات الطبية اللازمة حيث الطب متقدم وله نتائج فعالة. ودائماً، يسافر إلى ألمانيا لإجراء الفحوصات الطبية خشية ظهور المرض مجددا. وحتى هذه اللحظة، هو في حالة صحية متحكم بها... أبو إيمان أبدى تعاونا خلال السنوات الماضية مع الضابط رقم ثمانية "المخابرات" وأمده بمعلومات ولكنها ليست كل ما لديه. فقد أحسن التلاعب واستمر في عمله. اليوم، حيث اضطرابات الأوضاع الأمنية، فقد رسم خطته مع شخصيات معارضة للوصول إلى ذلك المبنى الذي خر فيه منهارا وهو يشاهد أدلة إدانته (فيديو له وهو في وضع مخل مع بائعة هوى). بدأت أمواج بشرية في اقتحام مباني الحكومة. مبنى فرع المخابرات الذي اقتيد إليه أبو إيمان ذات يوم، هو في حسبانه وتصدر المشهد وقد تلحف وغطى وجهه عند الاقتحام وانسحاب عناصر الحماية الخاصة بالمبنى، ووصل إلى ذلك المكتب الذي

جلس فيه يوما في ذل تام، استولى على الحاسوب الخاص بالضابط رقم ثمانية ونبش في أدراج المكتب، لم يجد الملف الخاص به لكثرة الملفات، انسحب من المكان قبل أن تُضرم النيران لتلتهم كل شيء.

***

طُلقت القاصر صفاء قبل سنوات عند إصابة زوجها أبو إيمان بمرض خطير. يومها، كانت شاردة الذهن وهي تخرج من المنزل يخالطها التحرر من زواج هو بمثابة اعتداء ومن مستقبل يبدو باهتاً على الأقل هذه الفترة المحصورة ببحث عن مأوى استقرار. عادت إلى منزل مربيها عنتر. استقبل خبر طلاقها بغضب واتهام لها بفشلها في إدارة شؤون زوجها. لم تكن صفاء تعلم أن زوجها مريض. وإلى هذه اللحظة، لا أحد يعلم ما حدث له. ما تعلمه هو تغير مزاجه فجأة. لم يعد ينام معها وصار أكثر عنفا وكأن مسا شيطانيا أصابه. هذا أدى إلى تحررها بنظرها وإلى طلاقها بنظر المجتمع. ولولا العلاقة الزوجية المؤلمة، لكانت في حال من التحرر وحب التفرد والملكية المنزلية. وإن كانت طفلة، فالسلطة تشكل ضغطاً نفسياً عليها. أيام قضتها في بيت مربيها عنتر استحضرت طفولتها الحلوة والمودة التي كانت تلقاها من مربيها قديما قبل انقلاب الحال عند بلوغ إخوانها

بالتربية سن المراهقة. خلال تلك الأيام وهي في غرفتها القديمة، كان مربيها عنتر قد اهتدى لفكرة تسليمها لدار الأرامل والعجزة (لأنها مطلقة وإن كانت طفلة فالتعامل معها كمطلقة). تقبلت صفاء ذلك وهناك بدأت حياتها الجديدة. في البدايات الدامية وضعف الحالة الأمنية، بدأ التسرب من الدار أسوة بغيره بشكل مفاجئ وجماعي. هربت صفاء مع الهاربين إلى المجهول. خرجت من بوابة الدار تتلفت نحو اليمين واليسار وإذا بالناس يركضون والصيحات تتعالى مما ينم عن قرب كارثة وكأن الجميع يهرب من الموت. فوضى الهروب ترعب كل قلب جسور وكأن القيامة تقوم. هناك في البعيد، يتصاعد الدخان وثوان حتى سقطت قنبلة مسيلة للدموع في منتصف الشارع. أطلقت صفاء رجليها للريح وراحت تركض بسرعة فائقة وعيناها تدمعان بشدة وهي تكح من الاختناق. في نهاية الشارع، تلقفها شباب ساعدوها على إزالة آثار مسيل الدموع. من هذه النقطة، تبدأ صفاء حياتها الجديدة في البحث عن مأوى.

***

نظر الفيلسوف الألماني هابرماس للإعلام المتدفق والمنتشر على أنه وسائل إعلام جماهيرية تسبب اختناق النقاشات الديمقراطية، وأصبح هذا

الاعلام الجماهيري يقوم بدور صناعة الرأي العام والتحكم به عن طريق الاستمالة والتلاعب والسيطرة، فتحول النقاش العقلاني المفتوح إلى رهينة بيد المصالح السياسية والاقتصادية. في الماضي، كانت الصحافة الورقية مؤثرة في الأوساط الثقافية والسياسية والمجتمع المتمدن المرتبط بالقراءة اليومية فقط. أما باقي الشعب، فحصتهم نشرة الأخبار اليومية مساءً والمهتم منهم لديه مذياع، حتى جاء عصر اللقطات الفضائية ومازالت حينها الصحف الورقية مؤثرة إلى إن ارتبطت الحياة بالصحف الكترونية وصار لكل صحيفة موقع، وجاء اليوم الذي اجبرت فيه الصحف لتسوق نفسها في مواقع التواصل الاجتماعي. اليوم، الغلبة لنجوم مواقع التواصل ولصحف جديدة ذات مواد فلمية متحركة بإخراج محترف حيث لا يتجاوز المقطع دقائق وذات إعلان ممول يصل للملايين دون طرق أبواب بيوتهم. مع أن الصحف الورقية لم تعد تربح أجور العاملين فيها، إلا أن الصحف الحكومية والناطقة باسم المعارضة مستمرة لأن التمويل مستمر. الصحافة في هذا البلد نوعان، ناطق باسم الحكومة ومعارضة صنعتها الدولة لتشكل هامش ديمقراطي لتسويقه إلى الخارج أو صحافة ناطقة باسم معارضة ذات تمويل خارجي رغم أن الجميع لهم اعتمادات سنوية من الدولة. وهذا ما ينص علية الدستور الذي يكفل الحق الديمقراطي والذي

تطور لحدود المائة حزب وجمعية سياسية وكلٌ يركض وراء اعتماد حكومي أو تمويل خارجي أو داخلي لمصلحة فرد ذوي قوة كذراع عند الحاجة.

محمود عبد الوهاب، كاتب صحفي مشهور ومؤثر جداً. بلغ العقد الخامس من العمر، له ثلاثة أبناء وابنتان. شخصيته مقنعة. وهذا متطلب لمهنة الصحافة بحيث تكون الهيئة متزنة ورصينة، أنيق جداً، ينتقي ملابسه بعناية ويتقن عدة ربطات للعنق كأنه وزير الأناقة. متوسط الطول، وجهه عريض عيناه واسعتان، حاجباه عريضان وأنفه متوسط الحجم ووجهه صاف بفعل الكريمات والمرطبات والاهتمام الكامل بنظارة البشرة، شعر رأسه الأبيض والممشوط جانباً يزيده رزانة. اكتسب شهرته منذ بداياته الأولى في مجال الصحافة ومطالبته بالتعددية والمدنية. استفاد من وسائل التواصل الاجتماعي وله متابعون يصلون لمئتي وخمسين ألف متابع والألف المتفاعلين. هو يعرف حق المعرفة أهمية الإعلام الشخصي والقناة الشخصية في اليوتيوب ودائماً يقول "المتابعون لي وعدد المشاهدين للبث المباشر أكثر من مشاهدين القنوات الحكومية". هو محسوب على المعارضة من جهة وعلى الحكومة من جهة وعلى المستقلين من جهة أخرى. وهذه متطلبات السوق والجماهير والزمن ومن الجيد أن يكون محبوباً من قبل جميع الشرائح ومكروهاً أيضاً من قبل جميع الشرائح. فالمحبون كثر والكارهون له كثر

وجميعهم يعلقون على منشوراته سلباً أو ايجاباً فهذا لا يهم، المهم التعليق والتفاعل فكل من يشتمه يراه كل أصدقاء متابعي صاحب التعليق وكذلك المدح، لكن هذا لا يلغي قوته الإعلامية وذكاءه وخبرته، ومن الطبيعي أن يكون له خصوم، فهو يلبي رغبات أصدقاء في شوكة الميزان للهجوم على خصومهم بطريقة صحفية. ولكنها بالأخير، تبقى تشهيراً ونشر فضائح خاصة إذا وقعت بيده وثائق. في هذه المرحلة بالذات، هو يستخدم منطق التوازنات بمهارة وذكاء بحيث لا يخسر الأقوى ويهادن الأضعف وإن نشر ما يغضب طرفاً، فسرعان ما يمرر رسالة سرية تبرر منشوره مع الوعد بأن يطيب الخاطر بمقالة قادمة أو بتبييض تلفزيوني وهذه أيضاً كواليس متعارف عليها في عالم السياسة السري..

***

صحيح في هذه البلد حدث ما ينظر إليه على أنه نضوج سياسي والجميع يتفلسف في السياسة دون استثناء منذ ظهور القنوات الإخبارية. ولكن هذا النضوج يبدو من الوهلة الأولى سطحياً ولم يكن عقلانياً يستند على المنطق بل استند على الجدليات العصبية والانقياد وراء الشائعات. ففرق بين ما ذُكر في هذه البلاد سلفاً وبين الثورة الفرنسية التي صنعت تغييراً اجتماعياً

عميقاً وكذلك سياسياً والتي سبقتها ثورة ثقافية عميقة وعلمية كبرى على يد الفلاسفة والتنويريين. وذلك كان جليا عند تطابق أفكار الفلاسفة التنويريين كفولتير وروسو مع رموز الجمعية الوطنية الفرنسية أثناء مناقشات حقوق الإنسان. فكثيراً ما يرددون أن الثورة الفرنسية قدوتهم، وهم بهذا لم يعلموا عنها شيئاً غير العنوان ومن النادر أن يوجد شخص ممن هو في الساحات يكون ملماً وقارئاً للثورة الفرنسية ولديه تفاصيل دقيقة. الثوار الفرنسيون ناضلوا من أجل حرية الإنسان وهذا عكس ما هو موجود هنا من تراشق واتهامات وفبركات متبادلة وكأن الجميع فقستهم بيض أبليس فالجميع يخوضون في ما يمكن تسميته عفناً من لغة سوقية ودعايات تمزق النسيج الاجتماعي لقرون قادمة. ويندرج ذلك في خانة (الحرية والحرب خدعة)، نعم مفهوم الحرية والحرب خدعة هنا هو ابتكار وسائل الكذب والتضليل والقذف والشتم والتزوير والتمثيل والقتل. مما يؤدي إلى الفناء العام ولا منتصر. ومن الأمثلة على ما تم الطرق له سالفاً: في ساحة الاعتصام، تم إحضار الجثث القتلى نتيجة حوادث السيارات من المستشفى وتصويرهم على أنهم شهداء نتيجة اقتحام الساحة من قبل الشرطة وكذلك الفبركات بتكفين أحياء وتصويرهم لكي يستثيرون الرأي العام. والعالم شاهد نساء وأطفالاً في ساحات اعتصام. ولتشجيع ذلك،

أقيمت الحفلات الغنائية والأعراس في الساحة. منطق السلطات حول وجود الأطفال والنساء يُعد دروعاً بشرية مضادة لاقتحام الجهات المسؤول الأمنية. وفي الطرف الآخر، وجود الأطفال والنساء يُعد دليلاً على مدنية وسلمية الاعتصامات. الأغرب في كل هذا هو شعار "لا دراسة ولا تدريس" واعتداء المتظاهرين على أساتذة المدارس ممن لم يوقفوا التدريس ويعطلوا المسيرة التعليمية وهناك من المدرسين ممن قتلوا أو أحرقوا. ما يدل على التخبط الآن في ساحة الاعتصام تأسيس ما يزيد عن مائة منظمة وائتلاف وحركة. وهذا دليل التفكك والتشرذم وراحت جميعها تأخذ طابع انقسامات وخلافات داخل هذه المساحة من الوطن وبل وصل الأمر لإنشاء مركز اعتقال وغرفة تحقيق خارج سلطة القانون. أظهر العقل الجمعي للمتظاهرين قدرة على التفكير الواحد السلبي للجميع وهم كالسيول الهدارة في الشوارع يفتكون بكل من يرتدي زي الشرطة ولو حتى شرطة المرور أو حارس لأي مؤسسة حكومية بتهمة انتمائهم للدولة. في السنوات الماضية كره الناس موظفي الدولة والسبب انخفاض قيمة الرواتب التي لا تكفي الموظف أسبوعاً مما يضطره للخوض في الفساد المادي المباشر وقبول الرشوة أو الأجرة (مبلغ مالي مقابل تقديم خدمات حكومية بالأصل هي مجانية) وأيضا الفساد المالي العام والمحسوبية

وفساد القضاء والمشاريع الوهمية وتعيين المشهورين بالفساد في مناصب عليا. أبرز ما أربك المشهد هو تصرفات كانت قديما تدخل في إطار الاحتجاج التي تختفي (لولا شعار إسقاط النظام) مثل حرق إطارات السيارات والمولوتوف وحديثاً فكرة الطلاء في أكياس يتم رميها على زجاج سيارات الشرطة فتتمزق الأكياس حال ارتطامها لتحجب الرؤية وتتعسر معالجة الموقف حتى يتمكن المتظاهرون من الفتك برجال الشرطة وإحراق سياراتهم واقتحام مراكز الشرطة (وعند وقوع متظاهر في يد الشرطة، فإن هتك الكرامة حاضر وبقوة من كلام نابٍ إلى عنف وتعذيب شديدين). والأحداث التي تبقى في علم الغيب من قام بها منذ الأيام الأولى للاحتجاجات مثل ظهور القناصين الملثمين واقتحام السجون بغرض نشر الرعب والفوضى. وزارة الداخلية تنفي نفياً قاطعا علاقتها بالقناصة وأن هذا ترتيب المعارضة لتأليب الشارع والرأي العام المحلي والعالمي ضد الدولة. وبالمقابل، اتهمت الداخلية مجهولين من أوساط المتظاهرين بأنهم استخدموا السلاح الناري في قتل رجال الشرطة، والمعارضة تقول أنها وسيلة تستخدمها الدولة لترهب الشباب لتثنيهم عن ثورتهم وكذلك اقتحام السجون. وفي هذا الشأن في علم القضاء، لحل هذا اللغز يتم

البحث عن المستفيد من عمليات القنص ومن اقتحام السجون وتهريب المجرمين..

وجهة النظر من جهة الشباب الذين بادروا بهذه التحركات: "أن شرائح الشباب من مختلف طبقات المجتمع حلموا ومازالوا يحلمون بوطن يحتويهم بلا فساد ولا استبداد ولا اضطهاد. بنظرهم أنهم ثوار يتحركون ويقومون بثورة نقية طاهرة لا تشوبها شائبة بصدور عارية تحت شعار (لا حزبية ولا أحزاب، ثورتنا ثورة شباب) والنوايا الحسنة تتصدر المشهد. فالجميع ثوار وكل من ينضم للثورة فهو ثائر مهما كان انتماؤه أو ماضيه. فالثورة تغفر وتتسامح وتصفح وكأنها أم. هكذا رؤيتهم. وسائل الإعلام تتغنى بهم وتدعم حقهم وشريحة شعبية مؤمنة بهم وبقراراتهم. ولذا، فالأحزاب السياسية المعارضة والموالية للحزب الحاكم والجماعات الدينية، أطلقت انصارها من الشباب لركوب الموجة وسلب القرار وإذا بالثورة التي تغفر تُسلب بسهولة فقط لأنها تغفر ولأن الشيطان يتحرك بحرية باللبس الملاك. لكن مازال أمل الشباب قائماً إلى هذه اللحظة رغم المعطيات السلبية القادم من تصرفات الأحزاب السياسية والجماعات الإسلامية التي لها سلوكان، واحد يتسم بالشرف الثوري أمام الشباب والإعلام. والثاني، بحق هو خبث ومصالح سياسية انتهازية لا حدود لها."

❋❋❋

تُرى صوابية المؤلف والقس الإنجليزي وليم رالف إنغ حين قال: "أعداء الحرية لا يجادلون بل يصرخون ويطلقون النار". الشوارع تحولت لأصوات فحسب، فكلٌ أخرج جماهيره لشارع ليبرز قوته ومدى شرعيته. ومثال على ذلك، الحزب الحاكم وحلفائه أخرجوا جماهيرهم يموجون في مساحات واسعة من العاصمة، وكذلك فعل من لم يلتحق بركب الجماهير الشبابية الثورية وأخرج جماهيره لتنضم لشارع. غدت حرب جماهير واستعراض مليوني وإذا بالحرية التي هي مطلب مشروع تحولت إلى صراخ وإضرام النيران تمهيدا لتخويل الرصاص وباقي أنواع الذخائر الحربية لتكون هي الفيصل والآمر الناهي في هذا الوطن. كأن كل شيء صار يفكر بنفس العقل، كأن حبات التراب لها فوهات براكين. كل من هو مغبون من وضع سحيق وجد نفسه يموج مع مواكب اقتحامات تحت شعار مؤقت (صدور عارية... سلمية... الشعب يريد) لكل المؤسسات المدنية وغيرها. بتزامن، اقتحام لكل ما هو قريب من المدينة، لا شيء يردد سوى شعار الخروج واسقاط النظام وتكبيرات تهز المنطقة. الجرارات حاضرة لعمليات الاقتحامات وتحطيم الأسوار واقتحام مؤسسات الدولة لسيطرة عليها.

المظاهرات المدارة والمصابة بجنون الجماهير والتي تفكر بنفس العقل الجمعي وتتحرك بنفس الحركة الجمعية وتقرر بنفس القرار اللحظي هي التي تتحرك بشجاعة مطلقة. فالفرد الذي لقب نفسه بالثائر تجتاحه نوبات من الشجاعة والإقدام دون وعي في العنف والتحرك السريع في حزمة جماعات مشاغبة تفتقد للمنطقية عند سلوك الحركة وتخضع للتوجيه الفردي دون تدبر كالسيل الكاسح في مدرب السيل.

اللواء نايف يباشر اتصالاته للجهات الأعلى منه. صدمة المفاجأة، لها وقعها وتأثيرها بالفعل. فهذه ليست حرباً بين جيشين أو هجوم عسكري، إنه هجوم مواطنين أطلقوا عليهم (المغرر بهم). ارتبك المشهد تماما، فكل قائد ينتظر أوامراً من الأعلى رتبة وهكذا. القيادات بحاجة لوقت لتشخيص الحالات وتزامنها. فعلا، لم تعد تأتي أوامر سوى بالتريث حتى تصدر توجيها أعلى فأعلى وتحت ضغط إعلامي ومعلومات تسيطر على الواقع بمختلف مفهوماته. لم تصل توجيهات للواء نايف بالتعامل مع الوضع من مكتب القائد الأعلى للقوات المسلحة، ولا يمكنه إصدار أوامر ذاتية. فالصدمة مربكة بكل المقاييس فقط (ضبط النفس). بعض الأفراد رد ناريا بدون أوامر وهناك زخات نارية يتلقاها الأفراد وكل جندي يقع بين أيدي المقتحمين يتم الفتك والتمثيل به حالا مما سبّب صدمات لكل من تبقى.

تهدمت الأسوار وانطلقت الجرارات تحوم في الداخل ومن حولها سيل بشري هائج ومنتقم يستولي على كل ما يصادفه من سلاح. ترك اللواء الهاتف وتناول مسدسه الشخصي وخرج من مكتبه ليرى مالم يخطر في باله يوما، الأسوار مهدمة والأعيرة النارية تصل بعد السيطرة على الآليات الرشاشة لكثير من الجنود المنسحبين أو المقتولين. توجه اللواء إلى خلف مكتبه لعله يرى شيئاً مختلف وإذا بالمشهد مشابه وكل ثانية تزيد الأوضاع تعقيد. مساعد اللواء يطلب منه المغادرة، لم يستجب حتى اللحظة، تقدم ضابط آخر ممن هم على اتصال مباشر مع القيادة وابلغ اللواء أمر الانسحاب. فقد تعقدت الأوضاع ولا حل سوى الحفاظ على الأرواح. من مخرج سري ونصف مظلم، يسير اللواء مع حراسته، يسرعون الخطى، سباق مع الوقت. قبل نهاية الممر السري كان هناك كمين جاهز للإيقاع باللواء وما أريد منه هو اللواء حيا. تبادل لإطلاق النار، سقط قتلى من الطرفين. بيد فيها مسدسه الشخصي وباليسرى قنبلة، لم يبق إلا اللواء وأفراد يبغون اعتقاله. صرخ فيه أحد المهاجمين بأن يرمي مسدسه ويتقدم. انحنى لوضع مسدسه. وبما أن الحال نصف معتم، فقد ساعده ذلك إضافة لتدريبه العالي المستوى من فتح القنبلة بثانية بتزامن مع ثانية انحرافه لتفادي النيران والشظايا وسقوطه أرضا لينبطح باتجاه بندقية لمحها مسبقا.

انفجرت القنبلة وتطايرت الشظايا وقتل وجرح الجميع ومن بين المصابين اللواء بشظية بكتفه. ما بعد انفجار القنبلة بلمح البصر، كان اللواء واقفا وبيده بندقية تخرج من فوهتها أعيرة تدمغ من أمامه أرضا. واصل تقدمه وقد تحزم بمسدسه بعد استعادته. خرج من المخرج السري وانغمس في حقول بين مزروعاتها متجاوزا حقلا يليه حقل ومنطقة تليها منطقة. يتساءل في نفسه "كيف عرفوا بالمخرج السري؟ الأمر مرتب جيداً. كارثة تعصف بنا، ويلاه ما هذه المصيبة؟!". توقف عدة مرات، أولها، لربط جرحه بقميصه العسكري بعد أن وضع أعشاباً على الجرح غير الخطير لوقف النزيف، نجح في ذلك جزئيا. وتوقف في حقل عميق يتوارى عن الأنظار حتى حلول الظلام.

الطابع المدني _في الطليعة المثقفون والمدافعون عن حقوق الانسان_ السلمي للتحرك الشعبي (جزء من الشعب فقط هو من تحرك) لا يعني أن الجيش بعيد عن مسرح الأحداث، بل هو مجبر تحت ضغط الهتافات لاتخاذ قرار ما إما لصالح النظام، أو ما يريده الحركيون (نسبة للحراك الجماهيري) أن يكون تحت واقع فرضه التحرك بضمان الأمن العام للمجتمع وتبني الثورة وإنجاحها وعدم السماح للنظام بالبقاء. فالعربي دائماً وعلى مدار تاريخه ينتظر الأمن من القائد العسكري أكان في إطار القبيلة أو الدين أو

الدولة. فمهما نشد المدنية، فهو لا يعرف مبادئها ولا معناها. ومهما شتم العسكرية وقزمها في عينيه، فهو بالمقابل ينتظر الفزعة من عسكري يُغير أو يساعده على التغيير. قيادات الجيش تحت ضغط لم يسبق له مثيل في تاريخ العسكرية في هذا البلد من الشارع والإعلام المحلي والعالمي. المشاورات بين قيادات الجيش مستمرة وترى أن الجيش مستهدف هو وقياداته أيضاً وكذلك الوطن والدليل الذي سيبرزونه هو ما يحدث من اقتحامات منظمة لمؤسسات الدولة المدنية منها والعسكرية على حد سواء. ومن المعلوم لديهم بوضوح جداً أن الأحزاب ليس لها مشروع بديل عن النظام الحالي وغير مؤهلة للحكم وأن التحركات في الشارع غير واضحة المعالم. لذا، القرار العسكري محسوم للوقوف إلى جانب النظام الحالي والدفاع عن المواقع العسكرية التي تتعرض الآن وفي هذه اللحظة لهجوم منظم.

***

اتصال تلقاه الصحفي محمود عبد الوهاب من شخصية معارضة إسلامية وتناقش معه حول الثورة ومستقبل الشعب. وفي نهاية الاتصال، طلب المعارض من الصحفي الانضمام رسمياً للثورة وإعلان ذلك عبر تصوير متلفز. وبذكاء الصحفي الفطن، استطاع التملص واقناع المعارض أنه

سيكون قلم الحقيقة. والثورة هي الحقيقة وأن من الجيد أن يبدو محايداً ومحللاً تثق به الجماهير. طال الحديث حول ذلك. وفي الأخير، طلب المعارض من الصحفي مساندة إعلامية تصب في مصلحة التحركات الداعية لإسقاط النظام، وعده بمقال تطييب خاطر المعارضة. أنهى المكالمة وشرع في كتابة منشور ونشره في صفحته على الفيسبوك:

"يقول ابن خلدون "فساد القضاء يفضي إلى نهاية الدولة". فماذا لو اجتمع فساد السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، فالنتيجة ستكون ٢٠١١ بكل ما فيها من آمال وأوجاع وهمة للشباب الواعي في تحويل البلد إلى حلم كان سيطول لولا إرادة جامحة لشباب طموح. فاض الكأس فساداً ووجد الشباب نفسه خارج التاريخ والمستقبل وقرر، وها هو بكل عظمة يهدر ويهز الأرض هزاً "إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها" وكنس الفساد الذي أدمى البلد لعقود. ها هو الشعب يهتف بصوت وأحد "الله أكبر" ضد كل مؤسسات الدولة الفاسدة والتي سلبها الفاسدون وتحولت لملكيات خاصة. في خضم زخم الثورة يدعو مجلس النواب إلى تطبيق القانون ضد من يزعزع الأمن العام ويعرض البلد للخطر. ويقصد هنا الشباب الثائر بدلا من استجواب المسؤولين عن قتل الشباب السلمي وممارسة العنف غير المبرر ضد الصدور العارية وبدلا من

تشكيل لجنة حقوقية استقصائية تبحث في سجل المعتقلين سواءً ممن ينتمون للمعارضة من إسلاميين وغيرهم. فهذا عصر الانفتاح وحرية الرأي لا تكميم الأفواه والاعتقالات. ألم يعلم المجلس الموقر أنه أحد أسباب خروج الناس للشوارع بحثاً عن النزاهة والكرامة والخبز التي بددها المجلس ومرر صفقات العار المشبوهة وتغاضى عن مساءلة الفاسدين؟! ألم يعلم المجلس الموقر أن من أعضائه من غرق حتى أذنيه في الفساد؟! ألم يستغل الأعضاء حصانتهم في فساد مطلق؟! أعضاء المجلس الفاسدون محصنون أنفسهم باسم الشعب ضد أي مساءلة والذي انتخب الفاسدين هم الشعب وروجوا لهم بالإضافة إلى تزوير سجلات الانتخابات وأسماء الموتى منذ قيام الثورة المجيدة إلى اليوم وهم ينتخبون فعلاً وصدقاً. يجب رفع قدسية البرلماني كما يجب رفع قدسية المسؤول من المساءلة، يجب أن يكون للقضاء الحقيقي بعد استقلاله حق في محاكمة كل فاسد كما يجب أن تلغى الحصانة. ألم توجد إلا لقصد التهرب من المساءلة مسبقاً؟!"

***

من الطبيعي أن يكره العسكريون الثورة بشكل مطلق دون نقاش لأنها تمس جوهر المؤسسة العسكرية سواءً كانت القتالية أو الاستخباراتية.

الجيش لا يبدي تدخلاً مباشر في أمور الحكم في زمن السلم، لكنه لا يمكنهُ البقاء مكتوف الأيدي زمن الاضطرابات دون الانحياز بشكل طبيعي للنظام الذي ينتمي اليه أو إلى الثورة حسب مقتضيات الظروف قبل الانزلاق الذي سيعصف بالجيش وقياداته إن استمر الصمت دون اتخاذ قرار حسب رؤية واضحة قد تتغير مع تغير الظروف. استنفار دفاعي عسكري استخباراتي غير مسبوق، فالمواجهات تتسع رقعتها بشكل غير مسبوق وتفتح جبهات قتالية في نقاط تشتت كل الإمكانيات والقدرات والتي لا تصل لربع حجم المواجهة مع جيش منظم.

منذ وصول خبر الاقتحام والعقيد عمر مستنفر طاقاته لإيجاد اللواء نايف رغم الارتباك العام والفوضى في العاصمة وبعض المدن. لساعات، لم يصل لشيء حتى أمر عناصر بلبس مدني بتصفح وجوه القتلى من الجنود في الموقع. وصله خبر مقتل أفراد حماية اللواء ومساعدين من الضباط في المخرج السري. ذلك أوجد احتمالين إما نجاته ومغادرته للموقع وهو في مكان ما، أو تم أسره واقتياده لجهة غير معلومة. ولابد أنه قريب من تلك المنطقة إن كان الاحتمال الأول هو الواقع حسب مجمل معطيات. أمر العقيد عمر بنقل عائلة اللواء إلى مكان آمن. بيديه تقارير لا حصر لها عن أحداث كثيرة تحصل تباعا، يعمل عليها بمساعدة فريق عمل متكامل ولم

يسعفهم الوقت لمعالجة جميع الملفات. رسالة شفهية وصلت للتو للعقيد عمر من قبل أركان حرب يسأل عن أية معلومة عن اللواء نايف. طمأنه العقيد بأن الاحتمال الأكبر اختفاؤه بمكان آمن وحتما، ستصل معلومات عنه في القريب وأنهم مستنفرون جهودهم ليصلوا إليه قبل أن يصل إليه الطرف الآخر المتسبب بهذه الفوضى. فقد وصلتهم إخبارية أن هناك من لمح رجلاً معصوب الذراع يتجاوز أحد الحقول. هذه هي المرة الأولى التي تصل فيها رسالة أركان حرب للعقيد عمر، فكل حدث يجد نفسه أمام شخصيات قيادية عليا دون أن يسعى هو لذلك. فكل متطلب لمرحلة أخرى هناك اتصال مع شخصية تناسب الحدث.

***

الجيش يستمد الدعم القوي من الفئة المؤيدة للنظام وهي ليست بالقليلة وكذلك الفئة المحايدة والتي ترى أن الأمن أهم من الخبز ووجب تدخل الجيش لوضع حد لأي تدهور أمني يزعزع استقرار البلد وفرض دكتاتورية عسكرية (حالة الطوارئ) كضرورة ومسؤولية تاريخية لإنقاذ البلاد. تحت جنح الظلام، واصل اللواء نايف طريقه متجاوزا قرى ومزارع حتى وقفت قدماه أمام منزل سبق له وزاره ذات مرة مع العقيد

عمر (منزل أحمد تامر) في قرية التواليب، أقاموا فيه حيناها لفترة بسيطة حيث عقدوا اجتماعاً سرياً وتناولوا غداء ريفياً. تلك الزيارات المفاجئة للقرى والنزول ضيفاً لدى القرويين، وعقد اجتماعات سرية أعطت اللواء معرفة كبيرة ساعدته اليوم على التنقل في هذه المناطق. الفجر يزاحم ما تبقى من الليل. واللواء أمام منزل أحمد منذ وقت منتظر ليس بطويل. لم يطرق الباب خلال بقائه تحت جنح الظلام لنصف ساعة كي لا يرعب أحمد، انتظر تلك الدقائق حتى يستيقظ لصلاة الفجر والخروج للعمل حيث أن القرويين يبدأ يومهم مع بداية الفجر من حلب البقر والماعز وإطعام المواشي أو إرسالها لمساحات خضراء لرعيها ومن ثم تبدأ الفلاحة. ما إن فتح أحمد الباب ومازال هناك حضور الظلام مع أذان الفجر من ميكرفون المسجد، حتى وجد جسدا أمامه. أخافه نوعا ما لأنها غير متوقعة في هذا الوقت ودون حركة سابقة تنذر بقادم. "هذا أنا اللواء نايف يا أحمد" بهذا بدا واضحا استيعاب أحمد وهو يستوضح ما يستطيع رؤيته من تقاسيم وجه. "سيدي... سيدي... سيدي" هكذا يردد أحمد. قال له اللواء إنه اليوم ضيفه. أدخله لغرفة سبق له أن نزل فيها ضيفا. ارتمى اللواء في زاوية الغرفة وهو يزفر. جلس أحمد إلى جانبه غير مصدق الحالة المزرية

التي يبدو عليها. ما بين سؤال وإجابة، فهم أحمد مطلب اللواء. بديعة بعدها كانت حاضرة:

- اذهب يا أحمد إلى حيث أمرك سيدي اللواء وسأعتني به حتى تعود.
- أحمد، هل لديك هاتف نقال؟ (سأله اللواء)

ابتسم أحمد وهو يقول:

- سيدي، هل يوجد أحد لا يمتلك هاتفاً نقالاً؟ نمتلك اثنين الخاص بي والآخر لزوجتي. (وكأنه ينتشي بامتلاك وسيلة تواصل هاتفية).

أمره اللواء أن يأخذ معه هاتف زوجته وأن يبقي لهم هاتفه. أعطى اللواء هاتفه. تصفحه اللواء وإذا بالهاتف من أقدم طراز، ذو زر للهمس، استحسنه اللواء لخلوه من البرامج الذكية. أمره بأن يذهب إلى المدينة فورا، إلى منزل شخص معين ويوصل له رسالة. الرسالة كانت تسليم هذا الشخص الهاتف النقال الخاص ببديعة يتصل منه على هاتف أحمد الذي بيد اللواء الآن بحيث يصدر توجيهاته دون معرفة طبيعة الاتصال لدى أي جهة تجسسية. انطلق أحمد. بديعة أيقظت ابنها وأمرته أن ينزل للحقل ويبقى هناك في العرزال لحراسة الحقل من الحيوانات السائبة كي لا تتغذى على الزرع لأن والده ذهب للمدينة لشراء سماد. أخذ ابنها ما جادت به

الأم من طعام وانطلق دون أن يعلم بوجود ضيف في منزلهم. زوجة أحمد فعلت ذلك كي لا يعلم أحد أن اللواء في منزلهم وللحفاظ على سرية وجوده وكي لا يتعرضوا للخطر كون الفوضى تعم المنطقة.

فوضى الأصوات تتزاحم في القرية بحثا عن اللواء المطارد. الباحثون عنه مروا من قرى عدة يقتفون أثره. طرق شديد على باب بيت أحمد تامر. أمسك اللواء بمسدسه المذخر وألقى نظرة خاطفة من النافذة، رأى مسلحين يتقدمهم عدل القرية. ردت بديعة على طرق الباب من نافذة المطبخ تسأل من الطارق. يسألها عدل القرية بصوت مجلجل هل رأت غريباً يمر من القرية؟ أجابته بالنفي. سألها عن أحمد، أجابته أنه ذهب لشراء سماد. قال لها العدل متوعدا أن حساب زوجها عندما يرجع وغادر المكان بصحبة المسلحين.

أخذت كأس الحليب لتقدمها للواء. سألها لماذا توعد العدل زوجها؟ لم تشئ أن تخبره، ألح عليها. فقالت له:

- سيدي تلك قصة يرفض زوجي إخبارك بها.
- ولِمَ يرفض إخباري؟!
- سيدي، عندما زرتنا قبل سنوات، طلبت من زوجي أن يشكو لك تسلط العدل وظلمه لنا. رفض أحمد أن يستقوي على ابن قريته

بضيفه. وعندما غادرت، كان الجميع يعتقد أن أحمد يعمل لدى الدولة وهابه الجميع. (هز اللواء رأسه مستحسنا أخلاق أحمد ونظرته الثاقبة في اختيار الأشخاص الأوفياء). وذات يوم يا سيدي، حصلت معركة في السوق بين زوجي ورجل من قرية أخرى. على أثرها، حجزوا زوجي في قسم الشرطة القريب من السوق لمدة ثلاثة أيام لأن الغريم له معرفة بشخص يعمل في الدولة. انكشف أمر زوجي أنه لا يعمل في الدولة والدليل أنه لم يستطع تحرير نفسه من السجن حتى قدمت للعدل معزة لقاء تدخله والصلح بينهما ليخرج زوجي. من ذلك الوقت والعدل عاد لأساليبه القديمة في نهب أشيائنا وليس لي مصدر رزق سوى عرق زوجي في الأرض...

ساعات مرت، وعاد أحمد وها هو يقف أمام اللواء:

- آسف سيدي، المنزل الذي أرسلتني إليه وجدته محروقاً والفوضى تعم المكان.

تنهد اللواء، وراح يفكر قليلا إلى أن قال:

- هناك امرأة أثق بها ولا أثق بزوجها رغم أنه قريبي، ومن الصعب أن يصل إليها رجل.

تدخلت بديعة وقالت:

- أنا أذهب إليها (ونظرت في وجه زوجها لعله يوافقها، هز رأسه مستحسننا).

أخذ اللواء الهاتف المحمول من يد أحمد واستبدله بالآخر الذي يخص زوجته وناولها إياه وهو يقول:

- اسمها عزيزة، إعطها الهاتف وقولي لها أن توصله لعمر ويتصل على رقم أحمد.

"بديعة" ناداها اللواء قبل خروجها. استدارت فقال لها:

- إذا أطبق الليل، فعزيزة لديها مكان لتبقي فيه حتى الصباح.

ابتسمت وكأنها تريد إثبات قدراتها على تحمل المسؤولية وواصلت خطواتها لتستدير وتعود نحو زوجها وتقول:

- أرسلت ابنك لحراسة العزال كي لا يعلم أن لدينا ضيفاً ويتسرب الخبر في القرية، اذهب إليه وارسله ليبقى عند خالته لهذا اليوم. (ابتسم اللواء من تصرف بديعة).

جلس اللواء ولجانبه أحمد وأخبره أن عدل القرية جاء إلى هنا متوعدا، عاتب أحمد لأنه لم يخبره أن العدل يبتزه، برر أحمد امتناعه عن الشكوى.

اللواء لم يعد يثق في جميع وسائل الاتصالات السرية أو في كثير ممن يتعامل معهم. فالأمر اختلف على غير توقع، الحدث أكبر من أن يتحمله قائد أو دولة. عرف حجم الاختراقات والسقوط المدوي حتى أسرار المعسكر التي لا يعلمها سوى هو والقليل سربت وكانت أول ما يتم السيطرة عليه واختراقه، حتى مخازن الأسلحة السرية توجه نحوها المقتحمون وكأن لهم معرفة مسبقة بمواقعها. لذا، قرر ابتكار طريقة للوصول للعقيد عمر دون غيره بحيث لا يُرصد اتصالاتها.

***

وصلت بديعة بعد مشقة بسبب انقطاع الطرق بالإطارات المحروقة والأحجار وتعطل وسائل النقل، مما اضطرها إلى المشي سيرا على الأقدام حيث طالت المسافة. التقت عزيزة في بداية الليل وأبلغتها الأوامر. جهزت لها عزيزة مكاناً للمبيت وأحسنت ضيافتها. وبعد ذلك، بطريقتها الخاصة، أوصلت الأوامر للعقيد عمر في ساعتها. استنفر العقيد العناصر الاستخباراتية بالزي المدني في تلك المنطقة للحراسة وتأمين المنطقة سرا. وفي منتصف الليل، كان هاتف أحمد يرد من هاتف زوجته الذي صار بيد العقيد عمر. فتح اللواء الخط وظل صامتا حتى سمع صوت العقيد ومن

ثم تحدث وحدد مكاناً سيكون به متواجداً خلال ساعة وربع خارج القرية على مقربة من هضبة مرتفعة سبق للعقيد واللواء أن وقفا عليها ذات يوم عندما كانا في زيارة اجتماع سري في هذه القرية. اتخذ العقيد عمر الإجراءات الأمنية السرية اللاّزمة لتأمين خروج اللواء ووضع خطة سريعة للرد على أي اعتداء طارئ، كلف عناصر تعمل لديه في تلك المنطقة باليقظة وأخذ مواقع قتالية إذا لزم الأمر والتدخل السريع. في الوقت المحدد لخروج اللواء، ارتدى ملابس شعبية وهم بالخروج. نظرا اللواء لأحمد آخر نظرة وهو يربت على كتفه ويقول:

- أنت شهم يا أحمد، وزوجتك أيضاً.

تبادلا الابتسامة، تلحف اللواء شالاً شعبياً على رأسه وغطى وجهه بحيث أبقى على عينيه وغادر تحت جنح الظلام بزي قروي إلى مكان الالتقاء. هناك، وجد الرجال الذين نقلوه إلى مكان آمن ونجحت المهمة.

"المقدم **عزيزة** ضابطة استخبارات كانت يوما ما تعمل في منزل الراحل العميد فاروق كحراسة للعائلة. تدربت عسكريا على يد اللواء، أحسن تدريبها وبنى تكوينها الاستخباراتي العميد الراحل ووثق بها في حماية عائلته. تناولت المقدم عزيزة العشاء مع بديعة، شكرتها وسمعت لها لبعض

الوقت. أهدتها هاتفاً نقالاً حديثاً لأن هاتفها صار في متناول العقيد عمر وعبره كانت المكالمة مع اللواء."

***

(في هذه الأرض يدفن الأطفال والنساء والأبرياء، وتعيش في ربوعها الأحقاد والكراهية والثأر)

يقول المثل البوليني "عندما تبدأ الحرب يفتح الجحيم أبوابه". نعم، ذلك الاعتقاد في بولينيا بأن الجحيم يفتح أبوابه عند بدأ الحرب، لكن بالمقارنة مع العقل هنا ومفهومه الديني الملوث بالدجل السياسي والمتدفق بغزارة نحو العقل في المساجد والمجالس والقنوات الدينية والإذاعية والمنشورات التابعة للتيار الديني أو التابعة للدولة. فهي الأخرى لها رجالات دين لإضفاء شرعية سماوية على وجودها "عندما تبدأ الحرب تفتح الجنة أبوابها". هنا، اختلاف الثقافات في عصر الحياة وتقديسها. ثقافة تكره الموت وتراه طريقا للجحيم وثقافة تقدس الموت وتراه طريقاً للجنة.

الأستاذ مسعد يمشي في شارع ويتأبط حقيبة فيها أوراق مكتوب عليها كل ما يجول في خاطره وبعض الصحف اليومية المتنوعة. فجأة، يجد جسده محاطاً بجثث حية تكبله وترميه في سيارة نقل رباعية الدفع. يصرخ، توجه

له لكمات لا حصر لها حتى تجمد. لا يدري كم من الوقت مضى حتى يجد نفسه في معتقل وفيه آخرون في وضع مزر تحت جنح الظلام المصطنع.

يتساءل أين هو ومن أتى به إلى هنا؟ يرفض الجميع أجابته. دقائق ودخل رجل مقنع اصطحب الأستاذ إلى غرفة مجاورة، بعد تعذيب طويل، سأله أحدهم:

- لأي جهة حكومية تعمل يا ابن ال.......؟

أجاب برعب يخالطه الألم الشديد:

- مستقل... والله ورب الكعبة مستقل... (جلد مجددا، يزيد من صراخه...)

هناك في أعلى الغرفة، طاولة مكتبية من خلفها كرسي يجلس عليه مجهول هو مسؤول التحقيق يتصفح الأوراق التي كانت بحوزته، أمر بتحويل الأستاذ مسعد إلى القاضي الشرعي. حالة مسعد لا توصف، فهو في حالة مزرية ولم يجرؤ أحد في غرفة الحجز على لملمة جراحه. فكل واحد فيه ما يكفي ألف مخلوق ويزيد. ساعات وجاء القاضي الشرعي، أخرجوا مسعد لمقابلته. اطلع على أوراق مسعد وخلال دقائق، أصدر حكمه بالإعدام ذبحا بتهمة الكفر والعمل لدى الحكومة الكافرة. يصرخ مسعد "قسماً بالله إني مسلم وأشهد أن لا إله ألا الله وأن محمداً رسول الله". لا جديد سوى

اتهامه أيضاً بالزندقة وادعائه الإسلام، يبطن الكفر ويظهر الأيمان هرباً من الموت.

شيء لا يصدق، ذهول وجنون لواقع ممحوق. دنيا تدور وقلوب فقط لضخ الدم ولا وظيفة حسية لها. ما بين لحظة وإفاقة، يتحسس مسعد رقبته، ينتظر لحظة سقوطها بين أقدامه، يتخيل رأسه المفصول وهو يتدحرج نحو القاع والعينان تتصفحان آخر لقطات الوجود. يتخيل رأسه المفصول عن جسده وهو ينظر لنفسه وحيدا وقد صار اثنين. يستحضر تاريخه ولا يجد شيئاً يبتسم له. "آه، يا ويلي ماذا يحدث؟! ها أنا ذبيح في أي لحظة، أياماً ويأكل جسدي الدود، ولا ذكرى لمسعد أستاذ التاريخ صاحب النضال المجيد والحالم بمستقبل عظيم. سأودع كل جميل، زوجتي وابني، طاولات وكراسي المدرسة، الأوراق والأقلام، الكتب والتاريخ والأدب. لِمَ أنا هنا يا رب؟ لِمَ أنا هنا؟!". لم يعد ينفع شيء، قضي الأمر، لا منجي له اليوم من غضب البشر، حكم عليه، انتهى الحلم والأمل وبدأت أدعية لقاء العبد بربه بحضورها الكثيف والمستعجلة ما استطاع إليها سبيلا.

في نفس اليوم، يُلبس مسعد بدلة الإعدام، نعم صار لديهم بدلة إعدام برتقالية اللون وبمقاسات أيضاً. يُقتاد مسعد كارها إلى ساحة جمع لها جمهور غفير من أهالي المنطقة. تم تثبيت الكاميرات، اقترب القاضي

الشرعي من مسعد ليشرف على العملية. تقدم منفذ العملية وهو مقنع. حدق في عينيه مسعد وكأنه يعرفها، يجمع ما تبقى من فضوله الذي عاش بداخله، لم تسعفه الذاكرة ليتعرف عليه سوى جملة للوجود "لربما يكون أحد طلابك لم تحسن عملك التربوي معه" اهتزاز بسيط في يد الذباح وكأن شيئاً في القلب لا يُباح. فم مسعد الجاف وعيناه الجاحظتان على غير عادتها وبشرته المتحولة للجفاف الشديد، ولم يعد لعقله قدرة على التفكير ولا قدرة للسانه وقلبه على الترتيل. فقد اختلطت الكلمات وذابت في لحظات. تحسس القاضي رقبة مسعد وحدد مكان مرور السكين وكأن عنده ما يقوله قبل التنفيذ: "من أعلى البلعوم تمرّ السكين وأحسن الذبح (وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح).." بعدها، ابطحوا مسعد أرضا على بطنه ويداه مكبلتان للخلف. تهيأ الذباح واقترب وهو يتمتم كلمات، اقترب، انحنى، أمسك بشعر الضحية وشده نحوه، شخصت عينا الضحية، فقد جزءاً من الوعي بالواقع والمحيط، اشتدت قبضة الذباح وأنزل يده لذبحه....... هنا، دوى انفجار عجن الجميع. قذيفة سقطت، ارتبك المشهد شظية أرقدت الذباح أرضا، يتوالى سقوط القذائف. أما البقية، فلا أحد يعرف لهم مصيراً، شعر الأستاذ مسعد بحرارة النيران، وجد نفسه يتحرك ورقبته تتحرك، استدار بجسده لينبطح ظهرا ويداه خلف ظهره،

عيناه لا ترى سوى النيران، يتزحزح نحو أقرب شعلة يحرق الحبل البلاستيكي الخاص بالاعتقالات الذي ربطت به يداه، تلسعه النيران، تحمل حتى انفرجت يداها، كرر العملية على قدميه، وإذا به حر بلا قيود، ينزع قميص وسروال الإعدام ويبقي الملابس الداخلية ويخترق كتلة الجحيم وهي تصلي جسده حتى خرج من موقع الانفجارات. يركض ويركض لعله ينجو بنفسه. الانفجارات المتتالية نتيجة القذائف أربكت الوضع. وهذا سهل على مسعد الفرار، واصل ركضه، وتسابق كل حي يركض لينجو بروحه، لم يحس بالأم المفجوعة والتي تركض مثله وبينهما امتار قليلة وفي يديها طفلاها وقد شدتهما بإبطيها وهي تتحمل الثقل على مفاصل قدميها المتعثرتين لكن الأمومة ترفض السقوط وتناضل للحياة، فتحت إبطيها روحان فيهما الحياة والغد، تستنشق الغبار ومن خلفها النيران، تواصل ركضها الذي يقل تدريجيا بفعل التعب والارتباك، يسقط حجابها أرضاً، تلمحه بطرف عينيها فشعرها المكشوف الآن لم يعد في نظرها عورة وقدماها المنهكتان لم تعودا إلى الخلف أو تتوقفا وأنفاسها المتقطعة تنشد الحياة لطفليها. خرجت مع الكثير من الحي المضطرب، يليه الحي الآخر وترامى من غلبه التعب حيث وجد الأمان وواصل من له قدرة بدنية. وصل مسعد إلى خارج منطقة نفوذ المسلحين لهذا الفصيل.

وهنا، كان مرهقا إلى حد لا يُحتمل وعليه أثار دماء وحروق، اسُعف إلى المستشفى حيث يتلقى العالج.

***

أنهى الكاتب الصحفي الشهير والمؤثر محمود عبد الوهاب مكالمة هاتفية تلقاها من وكيل وزارة الإعلام يطلب منه الكتابة بما من شأنه أن يُهدئ من الاحتقان الذي يعيشه البلد بالتزامن مع مبادرة تُطلقها كتلة الأحزاب الموالية للدولة. أقلع الصحفي برنامج الويندوز وفتح برنامج الوارد وراح يطبع مقالة لينشرها في حائط صفحته الإلكترونية وفي صحيفة "الشارع والمواطن":

وفي الإصلاحات خير

"إذا توفرت شروط نجاح الثورة، فهي تنقل المجتمع إلى بر الأمان وإلى عوالم من الرخاء والإبداع والحماس العلمي والثقافي. بينما إذا انعدمت شروط النجاح، دخل البلد في نفق مظلم تراق فيه دماء المنغمسين والأبرياء معاً إلى ما شاء الله ولا عاصم للجميع من غضب الفوضى والدمار. لذا، يقف الإصلاح تحت عتبة الدرب ويطلب الإذن من الشعب القبول به كحل قبل الانزلاق وتهور أنصاف المتعلمين والمثقفين. والذين هم أخطر

من السلاح الكيماوي. فأثار التهور تبقى عالقة على تربة هذه الأرض حتى أعلى مستوى الكعب كنتيجة واضحة لنصف ثورة والتي قال عنها ماو تسي تونغ "من يقوم بنصف ثورة، كمن يحفر قبره بيده". الإصلاح لغة نقيض الفساد، فحتى هذه وجدها الساسة وجماهيرهم هي المستحيل. والأسهل منها هي الثورة، فمن عجز عن وضع خطة إصلاح فهل ينجح في ثورة كاملة؟! الوضع معقد بحيث أن المصطلحات لا تُفسر. وإن فُسرت، لا تُفهم، وإن فُهمت، لا تُطبق. تبقى المشكلة في فكر وواقع واتزان ومسؤولية قبل الانطلاق في عملية الإصلاح كبديل للثورة والتي من الواضح أن الجميع غير مستعد لها وتفتقد لأدنى مقومات نجاحها وانعدام فيلسوفها. الإصلاح كمعنى لحركة عامة للقضاء على السلبيات تدريجيا ووضع الحلول للمدى القريب والبعيد حسب المنطق والواقع وترميم ما أفسده الفاسدون والحفاظ على المكتسبات العامة وإن كانت متواضعة بغية تطويرها والاستفادة من سيادة القانون والتماسك الداخلي في المجتمع والأمن العام وتعديل المواد المثقوبة في الدستور والتي تم تغييرها بما يناسب فئة سياسية معينة. فبدون رؤية وخطة للإصلاح، فالفشل المضاعف هو القادم كون الحركة التصحيحية لن تفرق بين السلبيات والإيجابيات حيث ستمس جوهر الإيجابيات وتتكرر الاسطوانة

منذ الاستقلال حيث عجلة الإصلاح تدور حول نفسها. الثورة الجارفة لكل شيء كالأعاصير البحرية التي تلتهم كل ما يقابلها، لم تعد ممكنة. فالأيدولوجيات لم تعد حية في زمن تطور فيه الفكر الإنساني وسادت الحلول وفن إدارة الأزمات والدراسات الاجتماعية والقدرة على توجيه المجتمع إعلاميا وتهذيبه والتحكم به نحو الترميم والتصحيح. فلا صلاح وكل طرف لديه القدرة على إخراج انصاره إلى الشوارع والتحكم بهم ذهنياً إلى حد استعدادهم للموت من أجل أسيادهم. نصف الثورة انتحار جماعي، حيث ترتهن البلد وتصبح بيد المشاغبين والفوضويين من جهة، والمتطرفين من جهة أخرى. وجميعهم باسم الثورة ويزودون أنفسهم بشرعية تبرر أعمالهم ويحصلون على المكاسب المالية التي يستخدمونها لتصفية الخصوم وخلط الحابل بالنابل. فمنهم من أوجدتهم الظروف أو التطرف عينه ومنهم من أوجدتهم السلطة لخلط الأوراق وحرف مجرى الأمور واختراق صفوف وقيادات الغاضبين في الشوارع. لذا، التجارب التاريخية تنحو نحو الإصلاح حيث يكون التعطش للمزيد من الإيجابيات والتي يمكن أن يتفق معها حتى أعداء الإصلاح أنفسهم لأن الفوضى تجعل أعلى سقف للطموحات الشعبية هو الاستقرار الأمني لتوفير الخبز والماء والأمن. وبالمقابل، ليكف النظام عن التدليس واللف والدوران،

ففي رد النظام الدائم على من يطالبون بالديمقراطية ومكافحة الفساد بأنه فعلا يتبنى ذلك وهذا حق مشروع وأنهم يكررون ما تكرره الحكومة منذ سنوات. لذا، لا يفترض بعد اليوم بأن يكون هناك وجود للتهم الجاهزة والمعلبة في انتظار كل معارض يزعج السلطة وببساطة عبر جهاز قضائي غير مستقل تُصدر الأحكام ويرمى المعارض في سجن لا يُعرف له قرار إذا لم يحالفه الحظ للهروب إلى الخارج ويتحول إلى معارض شرس بغية الانتقام وليس التغيير."

***

(إذا وجدت الكراهية دمرت كل شيء جميل)

لا أصدق من المقولة الشهيرة لرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية براهام لينكون: "ليس هناك طريقة مشرفة للقتل، ولا طريقة لطيفة للتدمير، ولا شيء جيد في الحروب سوى نهايتها." حقيقةً، الحرب مجرد وجه قبيح للسياسي، وفي الحرب تسقط الأقنعة والوجوه معاً. فمهما روج إعلام رموز الدم بفوائد وأهمية وضرورية الحرب، تبقى الحقيقة المؤلمة أن هذا التذاكي على البسطاء هو الرافد المهم لجبهات ونقاط القتال.

حي الصفيح، هجره سكانه جميعا وبقي فيه القليل ممن عز عليه مكانه وارتبط بمسكنه وأيضاً من قبل حمل السلاح مع الطرف المطالب بالسيطرة على الحكم بشرعية ثورية والتي تتحول بسرعة لأطراف عديدة. فمنطق أنصاف العقول والتي زادت الطين بلة "الثورة تجب ما قبلها". وهذا شجع انقسام أجنحة الدولة الفاسدة أصلاً وبروز الخلافات إلى السطح وأصبح جناح يدعم الشرعية الثورية لإسقاط جناح يقود الشرعية الدستورية. تلك البيوت القديمة في الحي لم يعد يسكنها سوى العناكب والحشرات حتى الحيوانات كالكلاب والقطط نزحت إلى مناطق لا صوت فيها للقذائف. إن التفت وجدت مسلحاً أو شعارات كتبت على الجدران القصديرية أو موتاً قادماً، تفنن وتسابق في زراعة الألغام والفخاخ بنيت المتارس وحفرت الخنادق بحرفية عالية وتم خنق المدينة وقطع طرق الإمداد لأن هذا الحي ذو موقع استراتيجي. سكان الحي تحولوا إلى نازحين ولاجئين في مخيمات ويعيشون أوضاع مأساوية. بما أن الأستاذ فتحي نقل سكنه من هذا الحي قبل سنوات إلى منطقة متواضعة داخل المدينة، فقد ظل في بيته ويعيش كما يعيش الأخرون من أيام عصيبة كلها تشييع جنازات لا حصر لها. وأجمل ما في الحياة أنه أب لطفل. هذا هو المتغير الوحيد. أما جزئيات وتفاصيل يوميات، فلا تقل تعباً وحرقة أعصاب ومتابعات

الأخبار كغيره وضائقة مالية وخطر محدق والموت يمكن أن يطرق جسد من يصادفه. أسابيع حتى انفجر الوضع في الشوارع والأحياء في الجهة الشرقية للعاصمة وكلُ طرف مسلح يسيطر على بنايات سكنية تقابلها بنايات ليمارسوا الحرب من مبنى إلى مبنى والتي هي ممتلكات المواطنين. كانت الحروب القديمة والمألوفة تجري رحاها في الجبال والوديان والسهول والصحاري وهناك مسلح يواجه مسلح وأحيانا تكون القرى ذات صلة في الحروب الداخلية، وتنهي الحرب أسرع مقارنة مع حرب الشوارع في المدن. أما الآن، فالحروب تزلزل الأرض بداخل المدن وبين المباني السكنية وفي عمق ملايين البشر كنوع من أساليب الدروع ولا نصر لطرف وبقاء الحرب كما هي عليه إلى ما شاء الله، وكما قال الفيلسوف فريدريك نيتشه: "من كان يحيا بمحاربة عدو ما، تصبح له مصلحة في الابقاء على هذا العدو حياً". هذا ما يتيقن به الكثير من أصحاب المعرفة والنظرة الثاقبة للأحداث. الآن، يحدث هدم وتدمير كل شيء من المنشآت العامة الغذائية كالمصانع وتفجير صوامع الغلال إلى هدم بنى وقيم جمعاء ووسائل للنهب والاختطافات بغرض الفدية وابتزازات وإتاوات، إلى تصفية الكوادر العلمية والإدارية (جميع الأطراف متورطة في ذلك). وكل هذا يحدث في عمق أملاك الناس وارتعاد كل خلية في جسد مدني. بين ليلة

وضحاها، كل شيء في هذه البلد هي ملك كغنيمة أو مجهود حربي أو مجهود ثوري لمن يحمل السلاح أيا كان ولأي طرف ينتمي دون قواعد أو أخلاق أو أعراف حتى أن العرف القبلي الصامد كقيم مكتسبة منذ آلاف السنين تلاشى فجأة وسقطت كل القوانين وصار لكل مسلح حق التصرف دون الرجوع لأحد كانتداب قضائي فردي لمسلح جاهل نصب عينيه فقط هدف بالأصل هو لا يلمس منه الحرف سوى غيره هناك في مكان مجهول يحرك عبر اللاسلكي وشاشات التلفزة ووسائل الاتصال الاجتماعي. يتساءل كل من ترك بيته وماله "بأي حق تُقتحم بيوتهم لتكون منطلقا للقتال وتنهب وفي أحسن الأحوال تتحول لمأوى المسلحين أو متارس عبر ثقب يحدثونها من الجدران؟!" الأمر غريب فعلا، فلا شرف ولا رجولة ولا أخلاق، وإلا لذهبوا جميعا خارج المدن حيث لا مدنيين ولا أملاك عامة ليتحاربوا حتى الفناء. فلا ردهم الله جميعا..

***

الهوة واسعة جدا بين فتحي وبين صديقه العزيز مسعد الذي انحاز للطرف المعارض وعمل معه في البداية إعلاميا لتحفيز للجماهير، عكس فتحي الذي ظل منحازاً للنظام ويرى أن التغيير لا يمكن أن يكون بهذه

الطريقة. منذ عودة مسعد، كان له لقاء مع زميله فتحي. اللقاء كان ملغما وتحول من شوق وزمالة وذكريات إلى ملاسنة واتهامات ثم فراق. حتى أن الأستاذ فتحي تغير مزاجه الهادئ وصار منفعلا بسبب هذه التطورات على الساحة الوطنية.

من داخل المشفى وعلى سرير المرض الأبيض والستائر البيض والحائط الأبيض يعج بالآلام، مسعد موجوع داخليا أكثر مما حدث له، الحروق في القلب وليست في الجسد. خلال أيام مراجعات كبرى لقواميس ومجلدات أفكاره، الماضي وسكونه برغم من العبث، وجد نفسه بين فكي كماشة العنف وحتما ليس هذا ما ابتغاه، كان يطمع بأشياء حسب منطق العقل. أما انفراط عقد الأمن وتشبث الجميع بمواقف متطرفة تجر البلد ومن عليها إلى جهنم، فهذا لم يكن في الحسبان. يحدث نفسه إنه إن عاش فلا يسلم من الرعب بكل طقوسه. وهو غير مصدق للتو أنه هنا بعد حدث مزلزل لا يحدث حتى في عالم الخيال غير المريض. قال لزوجته:

- هاتفي الأستاذ فتحي.

أخرجت الهاتف النقال وثوان كان صوت الأستاذ فتحي في أذن مسعد:

- مرحبا صديقي... (لم يرد فتحي ففي قلبه الكثير...تابع مسعد كلامه) أنا في المستشفى.

كلمة المستشفى تعبد الطرق أحياناً بين المتخاصمين وإن كان الخصام من النوع السياسي العنيف الذي لا تبرأ من نتائجه القلوب بسهولة فهو يبني أحقاداً لا تقل غلا عن الثأر. في هذه الحالة، التعبيد يكون متواضعاً وأحياناً مقبولاً وعند القلوب المتحجرة تكون تشفياً:

- سلامتك أستاذ. (هكذا رد فتحي متجاوزاً جزءاً من الخلاف الأخير حتى هذه اللحظة.)

استعلم عن اسم المستشفى وذهب إليه على وجه السرعة. هنا، كانت صعقة لفتحي من القصة المأساوية التي حدثت ومعجزة الإفلات من تحت حد السكين. لا يخفي مسعد صراحته بكره ما يحصل الآن، هناك سؤال يطرح دائما عند العربي "ولكن من السبب؟" هذا من أجل تبرير جهة أو إثبات صحة ميل معين كنوع من المغالطات اللغوية الناتجة عن إحباط شديد وعدم الاعتراف بالخطأ. مسعد قالها أيضاً اليوم، تدخلت زوجته بحكمة وحزم وهي تعنفه لفظياً وتعنف فتحي أيضاً ومظهرة صلابة وشكيمة غير متوقعة:

- ما دخلكما بالسياسة؟ هل لأحد منكما مستقبل وزير مثلا؟! هل لأحدكما قريب مسؤول؟! بينكما رفقة عمر وها أنتما تتشاجران من أجل غيركما ليستأثر بلقمة عيش شعب، كلهم مجرمون ولِمَ نموت

نحن من أجل المسؤول أو من أجل المعارض؟ فليذهبوا جميعا إلى خلف الشمس، ولتعودا إلى وعيكما.

استحسنا ما قالت وأيدا طرحها، وتعاهدا أن يعتزلا هذا الصراع حتى آخره.

***

الضابط رقم ثمانية يمارس عمله من مبنى بديل للذي تم حرقه. من حاسوبه الذي حصل عليه أبو إيمان، استطاع الأخير معرفة مكان إقامته وبيانات أخرى. وباقي المعلومات سربها لقائد جماعة مسلحة أخرى كعربون مودة ولقاء تعاون مستقبلي بينهما. أبو إيمان فعل ذلك حتى تكون له يد ومعرفة وكلمة في مناطق تحت سيطرة جماعة مسلحة أخرى ولتزيد من قوته ونفوذه. روح الانتقام تتدحرج من أعلى فوهات قلبه كبركان يقذف حممه، وكم عاش من سنوات مقهورا وهو يتمنى لحظة ينتقم بها لموقف تحقيق جعل مستواها لا يرتفع عن مستوى بلاط ذلك المكتب البارد تحت سطوة محقق استفزه وكشف كثيرا عن أسراره التي كان يعتقد جازما أن لا أحد يعلمها غير نفسه. نعم، لم ينس أبو إيمان تفاصيل ذلك الاستجواب الذي أذله به الضابط رقم ثمانية. فقبل سنوات، استطاع

الضابط كشف خيوط أبو إيمان منذ بداياته الأولى ووضعه تحت المراقبة وعرف أن الرجل ليس سوى انتهازي متسلق ومرتدي لدرع الدين لغرض التربح والشيطنة مستغلا ذكاءه وقدرته على الخطابة والحوار وطلاقة اللسان وحضور شخصيته المؤثرة، واكتشف الضابط أيضاً أن الهدف إذا سافر الى خارج البلد لا يذهب لصلاة واستطاع أيضاً تصوير الهدف في فندق راق وهو في وضع مخل ووثق أيضا أن الهدف تم تجنيده. حينها، استدعاه الضابط وحقق معه وهدده بتسريب الفيديو إذا لم يتعاون معهم ويخترق الجماعة التي يعمل معها. من هنا، حدث العداء بين أبو إيمان والضابط رقم ثمانية.

وضع خططته وأرسل مجموعة تحت أجنحة الفوضى العارمة إلى بيت الضابط رقم ثمانية، اختطفوه من بين أهله وتم وضعه في سيارة من الخلف. وبكل حرية، تنقلوا وسلكوا طريقهم إلى منطقة لم تعد خاضعة لسلطة الدولة. رموه أمام أبو إيمان وهو معصوب العينين. أمر الخاطفين بالخروج وبقيا وحدهما. وما حدث بعد ذلك لا يهم سوى رصاصة استقرت في رأس الضابط رقم ثمانية لتنتهي معه أسرار إلى الأبد.

***

العقيد عمر يحتضن اللواء نايف ويبارك سلامته. ناقشا خطورة الوضع وتبادلا الآراء وكلٌ كشف عن أسماء سرية للعمل الجماعي في هذه المرحلة شديدة الخطورة ووضعوا خطوط عريضة للعمل. تحدث اللواء عن عدل القرية أنه جاء رفقة مسلحين يبحثون عنه وهذا دليل على تورطه وأن الريف لم يعد آمناً وأن الخطر يزحف من جميع الاتجاهات. قال العقيد عمر أن ملف الريف سيتولاه المقدم خالد وسيركزون على الريف المحاذي للعاصمة كون تلك الأماكن لا يجب أن تكون خواصر رخوة. في ختام اللقاء، كشف اللواء للعقيد عن كهف جبلي سري فيه أرشيف قد يحتاجه يوما ما في عمله المستقبلي وأن فيه جميع وسائل العمل السري من تقنيات وإلكترونيات وأن هذا ضمن إدارة سرية بنيت في السنوات الأخيرة تحسبا لحرب محتملة ولكنها لم تكن متوقعة أن تأتي من الداخل بهذا الشكل الفظيع.

***

استفزاز الشعب وبشكل خاص الطبقة المسحوقة نتيجة قرارات حكومية ارتجالية وخاطئة وعبثية أو متعمدة تعمق من شرخ المجتمع وتوسع فجوة الفقر وكأن صناع القرار يريدون ردة فعل من هذه الطبقة لتنتهي إلى

مسلك الفوضى ولا تفسير واضح لهذا السلوك غير أن الفوضى تضاعف أرباح المتنفذين وصناع القرار. ومن جهة أخرى، يستمر مسلسل الاستفزاز. فمن الفجور في الخصومة لأثارة حفيظة الشعب بغية استفزاز أكبر نسبة ممكنة منهم لينخرطوا في حمل السلاح على سبيل المثال، تفجير المساجد وكل طرف يتهم الآخر، أو قتال أطفال وتصويرهم وكلُ طرف أيضاً يتهم الآخر، أو حرق الناس أحياء أو سلخهم لنفس السبب. فكل ما هو مقرف ومقزز في عالم الجريمة يتم ابتكاره لرعب الخصم إلى حد استحضار المنقرضات كالعبيد بعد أسرهم لاستخدامهم في حفر الأنفاق أو في شق طرق يشتبه بأنها مزروعة بالألغام والعبوات الناسفة. فكل ما هو محرم صار مباحاً حلالاً في خدمة الحرب واستمرارها. يقول الفيلسوف اليوناني شيشرون "في الحرب، تصمت القوانين". وها هي صمتت القوانين والأعراف والإنسانية والدين وبُعثت العبودية وتجارة البشر من جديد والتي كانت إلى عهد قريب تجارة عربية نشطة ومشروعة ولها أسواقها وعرابوها. كانت السبية أو الأمة أو العبد (الضحايا) يتعرضون لفحص تجاري دقيق عند الشراء. مثلا شراء العبد، فالمشتري يجب أن يكون حصيفا ذكيا حاذقا ولا يشتري سلعة فيها عيوب مثلها مثل شراء الناقة، يتفحص المشتري فم العبد ليتأكد من خلوه من الأمراض، يتفحص

عضلاته وتقاسيم ظهره ويتحسسها بيده ليتأكد من صلابتها. أما عند شراء السبية وغالبا تعرض في سوق عام شبه عارية ومن الغلط أن تستر جسدها بقطعة قماش حتى ثدييها، فالزبون يتحسس ويلمس ويثمن. وإذا اتفق البائع والمشتري، تمت البيعة وإلا ينتقل الزبون لجارية أخرى (ضحية ما بين سن الثانية عشرة والسابع عشرة وهي المفضلة دائماً). وهذا ينطبق عند بيع وشراء الأطفال في الأسواق ومن قواعد الحصول على الأطفال العبيد هو نتاج عن زواج بين عبد وأمَة بموافقة سيدهما طبعا. والمولود ملك لسيده وله الحق في بيعه متى شاء. هذا الشكل العام لأسواق رق كانت موجودة إلى ستينيات القرن الماضي. وبسبب الإعلان العالمي لحقوق الانسان وقانون المعاهدة الأممية لتحريم العبودية وتلتها حركة مارتن لوثر كنج والتي امتد تأثيرها حتى بعد اغتياله، كانت سببا واضحاً ومعلوماً في إلغاء العبودية. ولولا تلك التحركات، لكانت أسواق الرق مصدر اقتصاد واستثمار داخلي وعليها حتى ضرائب مبيعات. والدليل تحريم إلغاء أسواق الرق في ذلك العهد وافشلتهم قوانين هي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في جنيف ومعاهدة تحريم الرق والتي صارت نصوص دستورية في بداية تأسيس منظومات الحكم العربية تزامنا مع حركات التحرر العربي. اليوم، ومع سقوط القوانين الإنسانية الأممية بفعل غياب واضح لسلطة دولة ما

ومع سقوط الدستور والقوانين المحلية التنظيمية لحياة الفرد وغياب كل أشكال الردع، عاد اصحاب النفوذ لعادة انتهت بفعل قوانين وليست قناعات دينية ونفسية لأن الوازع الديني ضعيف. وهي تجارة البشر والسبي والاستعباد التي اختفت لعقود قليلة على الأقل في العلن. أما في السر، فيبقى العلم عند الله. ومن يعلم الغيب في ذلك ليؤكد أو ينفي. هكذا هي الحرب الداخلية موجعة تماماً. وهكذا هو الإنسان العبثي. فقد تواردت تقارير مصورة من مناطق صورها المسلحون المتشددون دينياً وهم يسبون نساء الخصم ويستحدثون سوقاً للرق. ليس هذا فحسب، بل أن الفتاوى أُصدرت بالصوت والصورة عبر القنوات الفضائية ومواقع رجال دين متشددين منهم من حمل السلاح ومنهم من يُفتي بهذا من دول مستقرة ولم يتعرضوا لا لاعتقال ولا حتى لتوبيخ أو كف الضرر. هكذا شجعتهم الظروف وسقوط القوانين والحماية للفرد لاستعادة الوسخ المدفون وسنّ قوانينهم الخاصة التي يرونها أوامر إلهية وإرضاء للخالق وتقربا منه بهكذا أعمال تشمئز لها النفوس ولا يقبلها الخالق عز وجل..

***

(اللهم ارفع الأطفال إليك، إلى السماء، حتى ينتهي الكبار من حربهم)

واقعياً، سبقت التحركات والاعتصامات أشكال عدة للتغيرات الاجتماعية الواضحة والتي تنبئ بتغير فجائي ما. وما لا شك فيه أن السلبية عنوان كون المجتمع لم ينضج بعد ولم تتكون لديه الأفكار الثورية ولم يتهيأ ولو محاولات تنظيمية لتشكيل هيكل قيادي وإداري للثورة. التغيرات الاجتماعية الواضحة كانت اقتصادية في الدرجة الأولى حيث وصل الحال لحد التعب. واجتماعياً، حيث ظهر التفسخ المجتمعي. وسياسياً، حيث أقحم البعض نفسه ممن يتابع نشرات الأخبار بنهم في فلسفة سياسية عقيمة ترديدية لما يقوله المحاورين في البرامج التلفزيونية السياسية، وكذلك المسمار اللعين في نعش البلد هو تمهيد الحزب الحاكم إعلامياً للتوريث.. ونفسياً، متلازمة البطة (the Duck Syndrome) يعاني منها الكثير من الشباب المستبد المضطهد المُتجاهل، وأطلق عليها علمياً هذا الاسم لأن البطة تبدو من فوق الماء هادئة ورصينة بينما تحت الماء تجدف بواسطة ساقيها بصورة محمومة ومضطربة. لم يدرك صقور الحكم أن الشباب يعانون من متلازمة البطة ويبدون خارجيًا هادئين ومطيعين ولكنهم يعانون من صخب واضطراب داخليين شديدين. اطمئن الحاكم لخنوع الشعب وفجأة، انفجر كل ما يحمله الناس من ضغوط وكبت

خاصة وعامة ليحرق كل شيء حتى نفسه. عندما تتحول شعوب بكاملها إلى مكبوتين ومغبونين دون أن يشعروا، عندما تتصور أن هذا الهدوء الخارجي يوحي بالسكينة وهو يخفي حالة من الغليان والفوران مثل ما يحدث في قلب الكرة الأرضية، وعندما تحين الفرصة لظهوره، يتحول إلى بركان يدمر كل شيء.

طبعا، خلال أسابيع من الاعتصامات حصل ما هو معلوم من انفجار للوضع وسالت الدماء وتسلحت جميع الأطراف واستلم الجميع رواتب لقاء مواصلة القتل وكلٌّ وجد نفسه مدافعا إما عن الوطن أو عن الوطن والدين أو عن الدين حسب المذهب. وكل طرف له وسائله الإعلامية والداعمين ولا أحد حصل على دعم من السماء كدليل معجزة الحق بما يمارس، والجماهير تتخبط والعقول منفتحة على تدفق سيول من الأخبار العواجل دون قدرة على التدقيق من مدى صحة ما تتلقيه (الجيل الرابع من الحروب) فقد وصف هذه الحالة الكاتب القيرغيزي جنكيز ايتماتوف بقوله: "المعدة أذكى من الدماغ .. فالمعدة تستطيع التقيؤ بينما الدماغ يبتلع كل القاذورات". وصل الحقد العام إلى التلذذ في طعم الدم وكأنه عصير فراولة والجميع يتحدث عن حرية الآخر بعد قتله. الكذب والدجل والتزوير للوقائع من قبل جميع الأطراف بغية كسب مناصرين ومقاتلين

وسيطرة نارية على العقول بواسطة إعلاميين هم عمود ارتكاز الدم وهم وسيلة التحشيد للقتل مقابل عشرات الأوراق المالية أو لانتماءات عصبية أو سياسية وانتقام واضح من أي كائن حي مادام ذلك تحت المكيفات وارتداء ملابس أنيقة أمام كاميرات التصوير وبجيبه فيزا كارت أو ما شابه. وفي الجيب الآخر، جواز سفر حصل عليه مؤخرا هو وكافة أسرته ليكون مواطناً مزدوجاً.

من الأهداف الواضحة لحرب لا قيم ولا أخلاق ولا دين لمن حمل السلاح فيها هي ترويع الناس وتطويعهم وتحويلهم إلى عبيد بالمفهوم الفكري والسلوكي. في نهاية المطاف، يقبل الناس بأي وضع قادم وجديد مهما كانت المنطقية صفر، فالمشاريع القادمة لن يعترض عليها أحد سواء كانت تقسيم البلد أو تجارة حرب فيها من المال مالا يتخيله عقل وسلطة ونفوذ. مناطقية تعيد زمن سلطة المنطقة ونفوذ الأقوى. الجلي في الإعلام هو التصرف الشيطاني اللعين في ترويع الناس وخلق جيل مريض نفسياً وهي الإشاعات التي تُجد بغية تشويه الخصم مثل إشاعات تسميم خزانات مياه الشرب، فبرسة الحقن والأدوية، سرطنة المنتجات الزراعية والاغتصابات بحق الخصوم، ولم تترك صور كل الحروب والحوادث وأفلام الرعب ولم يتم إعادة تذييلها بأن الخصم قام بتلك المجازر. بل إن على الأرض يتم

ابتكار أساليب ترعب المواطنين ومنها إطلاق الأعيرة النارية على نوافذ بيوت المدنيين وقنص خزانات المياه ليتسرب الماء ويدخل الناس في حالة عطش ويصبحون مجرد أذلة أمام أقرب مساعدة مائية من ورائها وضع المواطن تحت السيطرة يجري خلف الماء والطعام ويتغاضى عن الممارسات البشعة فالأولوية لحاجة الجسد اليومية. وهذا يفسر السبب الممنهج لتفجير صوامع الغلال وحرق المزارع وتدمير الثروات الغذائية وتفخيخ المصانع الاستهلاكية وخروج المستشفيات والعيادات الطبية عن الخدمة المدنية وتحولها لأولوية عسكرية لطرف الدولة وكذلك مناطق سيطرة المسلحين بمختلف مشاربهم. المهم أن غالبية الشعب منخرطة في الدم بطريقة أو بأخرى ويخسر نفسه وكلٌ من صار يعمل على زوال الآخر لأسباب تكاد تكون ساذجة بتبنيهم تلك الأسباب والترويج لها عن جهل مطلق. صار لهم مئات الجيوش والجماعات والفصائل وكلها مجهزة بالأسلحة الحديثة ووسائل الاتصالات للاسلكية والمال اللازم لمواصلة الاقتتال حتى يوم القيامة. ومن مات أقسم الجميع أنه الآن يمارس الجنس مع حورية أو أقسم الآخر وعلم الغيب أن الله راض عنه. صار الجميع يعلم قرارات الله وماذا يريد الله بالضبط. الجميع في ابتكارات متواصلة لأساليب القتل. وفي الطرف الآخر من العالم، الجميع في ابتكارات متواصلة لوسائل الحياة.

يبقى الفرق واضحاً بين بقعة في الكوكب تمارس الذبح بطرق تشريحية وتفسيرات خرافية باسم الإعجاز العلمي لفوائد وطرق ذلك، وبين بقع في العالم صارت رقمية الحياة تقدم للبشرية مالا يصدق من علم واضح وملموس. ها هو الشعب يتخلص من بنيته المتواضعة أصلا ويتخلص من اقتصاده المتواضع. فهو يشبه الدولة وكادرها الوظيفي ويشبه المسلحين. ومهما اختلفت المسميات، فالمضمون من نفس المنبع. فملايين الموظفين وعسكر الدولة وخصومهم من المسلحين وجماهير الحرب على هذه الأرض هم مواطنون ولم ينزلوا مع المطر من السماء. وأخيرا، الشعب في طريقه إلى نقطة البداية وهو الإنسان البدائي الأول عقلاً وفكراً وأفعالاً. والذي هو بالأصل يُشكل حفريات قديمة. وأغرب ما في الشعب في عصر التفكير ميوله للدمار والدماء على نحو مفاجئ سواء بالمشاركة الميدانية أو الإعلامية أو الدعائية المباشرة. برز العنف المتبادل وجُهر بالكراهية المتبادلة. يقول مارتن لوثر كينج: "الكراهية تولد الكراهية، العنف يولد العنف". للكراهية جذور فعلاً، ولها روادها بقصد أو بغير قصد منذ زمن ليس بقريب، والعنف غريزة متأصلة. الأكثر غرابة عندما يكتشف الشعب بعد آلاف السنوات أنه منقسم طائفياً أو مناطقياً وحان وقت التنفيذ الآن. مثالا على ذلك قصة حدثت قبل سنوات وحينها اعتقد الكثيرون أنها حالة

شاذة مرضية وليست قاعدة عامة. ومع مرور السنوات وما يحدث الآن، تبين للجميع أن تلك القصة هي تعبير عن مكنونات المجتمع. (ذات مرة أفاقت البلد على تقرير صحفي في قسم الحوادث لجريدة محلية تتحدث عن جريمة قتل ابن الخال لابن العمة وهم أصدقاء ورفقة عمر وزملاء عمل. جريمة القتل حصلت بعد استدراج المجني عليه إلى منطقة معزولة باسم رحلة ترفيهية. باشر القاتل المغدور بصفعة على الخد وأطلق عليه النار، وعاد منتشياً ليعلن جريمته للعامة من أبناء قبيلته والقبائل المجاورة أنه أخذ ثأره من قريبه وصديقه حيث أن المجني عليه صفع القاتل على خده عندما كانوا أطفالاً؟؟؟ وعند التحقيق، تبين أن القاتل تذكر مؤخرا تلك الصفعة وقرر إعادة الصاع صاعين والقتل). من تلك الحادثة الواقعية فعلا، استهجن الناس حينها الجريمة، وبعد سنوات صارت هناك وسائل إعلامية وتواصل تكنلوجيا وكل إنسان له وسيلته ليوصل صوته واكتشف هذا الشعب أن له ثارات أقربها تسع مائة سنة وأوسطها ألف وأربع مائة سنة وأبعدها ما قبل الميلاد، وحان الوقت لكل واحد أن يأخذ بثأره لأجداد ماتوا وتحللت جثثهم وتحولت إلى نفط وربما تم تزويده لسيارة في أي مكان من هذا العالم وتبخر مع الهواء بفعل احتراقه بداخل المحرك، واليوم تذكروا الثارات. وهنا، بدأت السنوات الحمراء، سنوات الدم.. من

الواضح، أنه لابد من الحرب للهروب من فشل السلام والبناء والارتقاء وصناعة الإنسان..

***

زمن السلم، لا يمكن أن تقتل لأنه سيتم إنزال العقاب عليك بسبب أن هذه الجريمة تستوجب الإعدام في قانون هذا البلد. لكن في زمن الحرب وعند سقوط آليات المتابعة والمساءلة والعقاب، يبقى الرقيب الوحيد هو الضمير فحسب، ويغدو الصنع القبيح والسلوك الشاذ ليس حصرا بالشيطان بل أن للإنسان قدرات تفوق شياطين هذا الكون جميعا حيث طور وسائل قتل مباحة ينجو منها الفاعل ولا يمكن بأي حال من الأحوال للقانون أن يوصل المرتكب للجرم إلى مربع الإعدام، بل أنها تبقى في زاوية العقاب المخفف. في هذا الصباح، الدكتور رؤوف طبيب الأمراض النفسية في طريقه إلى المستشفى العام لمزاولة عمله. قبل ولوجه إلى بوابة المستشفى لاحظ بأن لا وجود لأحد ولا حتى سيارات في الموقف المخصص كالعادة. واصل مشيه ودخل المبنى وإذا به يراه خاليا من أي كائن حي، لا مرضى، ولا أطباء، ولا موظفين. إلى جانب الاستغراب، نزلت عليه كمية من الأسئلة ولا إجابات لها حتى خرج من المبنى. وعلى

بعد مسافة طويلة، أخبره مسلح بأن المستشفى تم اخلاؤه ليلا وهرب المرضى والموظفون، والسبب اتصال هاتفي تلقاه موظف الاستقبال من مجهول عرف عن نفسه بأنه (فاعل خير)، وحذر من هجوم فجر هذا اليوم على المستشفى بالقذائف. بعد أيام من ذلك الحدث، تبين للأطباء حقيقة أن الأمر فيه خدعة حقيرة جدا، حيث جاء الاتصال التحذيري من مستثمر في القطاع الصحي الخاص بهدف بث الرعب الذي يؤدي إلى هروب المرضى من المستشفى الحكومي المجاني، والذين لن يبقى أمامهم خيار للتطبيب سوى الذهاب إلى العيادات والمستوصفات الخاصة لمواصلة العلاج. وهذا ما حدث فعلا..

***

سبق للشاعر عبد الله البردوني وأن شخص حال الحكام العرب، وفي الحقيقة ينطبق ما قاله في قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) حيث قال: "حكامنا إن تصدوا للحمى اقتحموا... وإن تصدى له المستعمر انسحبوا... هم يفرشون لجيش الغزو أعينهم... ويدعون وثوباً قبل أن يثبوا." المعروف أن الجيوش العربية لم تنتصر في حرب مصيرية وسرعان ما ترزح تحت الاحتلال والأمثلة كثيرة والأسباب معروفة. لكن،

عند الاقتتال الداخلي داخل المدن، الجميع يستبسل، ملاحم بطولية يسطرها عناصر الأطراف المتقاتلة وجميعهم يجترحون الصبر والثبات والشجاعة، فقط وحصراً ضد بعضهم البعض. حي واحد فقط يتقاتل عليه الدولة ضد فصيل مسلح والصمود أسطوري! يا ألهي، من أين جاءت هذه البسالة وفجأة وداخل البلد ولو كانت هذه القوى نفسها مجتمعة تحمي حياً ضد مستعمر، لسقط الحي وتبخر المقاتلون بفترة قياسية تنافسية على موسوعة جينيس للأرقام القياسية؟! من هذا تأكد للجميع ما قاله ابن خلدون كمثل حي نعيشه "العرب أمة وحشية، أهل نهب وعبث، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، يهدمون الصروح والمباني ليأخذوا حجارتها أثافي للقدور، ويخربون السقوف ليعمروا بها خيامهم، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد، وإنهم أبعد الناس عن العلوم والصناعات." تبين أيضاً لكل عاقل ناظر أن العرب شرسون ضد بعضهم ويكرهون بعضهم، يستحضرون الخيمة والسيف والرمح والصحراء في ثوان في العصر الرقمي ليمارسوا الحرب ويفخرون بها وبقتلاهم وجرحاهم وقتلى الخصم وجرحاه أيضاً. فجميعها مفاخر وقصائد تعظم. طباع البداوة في دمائهم وسلوك القبيلة في جيناتهم يتوارثونها. والنمط العبثي في عقولهم. فلا حداثة أو عصرنة تنفع ولا

جمهورية تصلح. فكل فرد يرى في نفسه شيخ القوم وفارسهم وحامي حماهم ومسؤولاً فكريا عن أفكارهم ووجب عليه انتزاع هذا الحق ولو بالقوة وفي أي ظروف تسمح له بحرية السلوك حيث يستحضر شريعة القبيلة البدوية وقوانينها. وزاد الطين بلة الصبغات والملونات حسب الحاجة للمائدة القبلية حسب الجغرافيا والانتماء منها الطائفية أو المذهبية أو الحزبية أو المناطقية أو يجتمع جميع ما ذُكر في قالب واحد.

الوضع العسكري العام ما بين كر وفر ولا يختلف عن لعبة القط والفار. نجحت قوات الجيش اليوم بدخول حي الصفيح. وبانهزام هذا الحي، سقطت الأحياء المجاورة تباعاً وفر المسلحون للجبل وللمناطق المجاورة. وفي مثل هذه الحالات عندما يسقط حي، تبدأ فرقة الهندسة في عملها لنزع الالغام والعبوات الناسفة، يلي ذلك التمشيط وملاحقة الفلول وتفتيش المساكن بدقة عالية وحرفية. حالة الطوارئ (الأحكام العرفية) تعطي حق تعليق الحقوق والحريات للمواطنين كإلقاء القبض على المشتبهين (بمجرد الاشتباه بدون أدلة) لفترات قد تكون غير محدودة وبأماكن محددة دون توجيه اتهام لهم أو منع حق التجمع واستهداف أي تجمع يثير الشك والريبة. وعند البحث وتفتيش البيوت، تم الاشتباه بالكثير ممن اسمه مرصود بتهمة التسهيل والتعاون مع المسلحين (وإذا لم يتعاون مع

المسلحين، يقتلونه بتهمة ولائه للدولة). قائد الاقتحام وضباطه من حوله في مكان مناسب للجلوس بعد نصر مهم وهو يتحدث عبر اللاسلكي ويصدر أوامره العسكرية، وأمامه تم بطح الكثير من المتهمين ومازالت العملية مستمرة في جلب المزيد. تقدم جندي وهو يجر شاباً من شعره الطويل بعد ضربه بعنف، رماه أرضاً وركله بالبوط وهو يقول: "سيدي، هذا المخنث، ألقينا القبض عليه وهو بيت صديقه". هز القائد رأسه مستحسنا هذا الصيد ووقف ودار حول الشاب وسأل جنديه: "هل كان في وضع مخل؟" أجاب الجند بالنفي، "فقط وجدوه في بيت صديقه ولكنه مخنث. ومن المُعيب والحرام أيضاً وجوده في بيت شاب ليس من اقربائه." سأل القائد الشاب عن اسمه، أجابه وهو منكسر "سامي". أمر القائد بنزع ملابس الشاب للتأكد من اضطراب هويته الجنسية. بتجرد تام من القيم الإنسانية، تم نزع ملابسه بالقوة والشاب يصرخ وابقوا على ما يستر عورته. بدا للشاب نهدان كبيران وكأنهما نهدا أنثى. تأكد القائد من خلال عينيه وفهمه للموضوع بأن الشاب لديه خلل جنسي وهو مخنث. صرخ الشاب مدافعا عن نفسه وهو يبكي "سيدي، والله هذا الأمر ليس بيدي، هكذا خلقني الله، أنا مسكين ولست مذنباً". لم يضيع الضابط وقتاً في هذه

المسألة أكثر من دقائق حيث نعت سامي بالملعون وتعوذ منه ثم أمر بزجه في السجن المستحدث في أحد منازل الحي المجاور.

سامي شاب في الواحدة والعشرين من عمره، وجهه فيه سمات رجولية، شعره السلس والجميل ينافس الجميلات، لديه نهدان وخصر أنثوي، هو (ثنائي الجنس)، ولد بجنس وسط. في هذا المجتمع يعتبر مجرماً ومنبوذاً وكلٌ له توصيفه في هذه الحالة. ولولا التخلف الذي حال دون حل هذه الحالة عند الصغر حيث يلزم عرضه على طبيب للتصحيح الجراحي للجنس. سامي متعود على الذل والمهانة والمطاردات بغية النيل من جسده. وهذه حقيقة، فالكثير يتظاهرون بالعفة ويصرخون بها تشدقا وفي داخلهم نزعات العفن والجرم الرخيص. وهكذا هو الرياء في العالم الثالث القبلي المزور حتى تستحدث لهم الأمم مستوى دول العالم الرابع ليكونوا في الصدارة.

داخل المعتقل المؤقت والعشوائي والذي هو بالأصل منزل مواطن هُجر قسراً، تتراكم الأجساد ملْء الغرف في حالة مزرية معتادة في هكذا وضع. سامي بين مخالب مرعبة تنم عن مدى ما وصل إليه الناس من تخشب للعقول، حالة سخرية كبرى بين المعتقلين وتحرشات يخوضها، مما ضاعف عليه الضغط النفسي المرهق فجسده يتعرض للمس ما بين ثانية وأخرى

سواءً كانت لمسة رغبة جنسية أو لمسة سخرية وأذية. قضى سامي يومه في حال مزرية جدا يتعرض فيه لتحرش لفظي من قبل المعتقلين الذين نسوا وضعهم محاطين بالجدران. ليلاً، نادى الحارس باسم سامي وقاده إلى غرفة مخصصة كمكتب لحارس المعتقل الصغير وتركه مع الضابط المسؤول. طلب منه الضابط بود أن يجلس وقدم له وجبة عشاء من تلك المخصص للعسكريين وعلبة عصير وقال له برقة "يبدو أنك جائع، تناول وجبة العشاء، لا تقلق أنا هنا لن يمسك أحد بسوء". اطمأن سامي وراح يتنفس بنوع من الارتياح وهو يشرع في تناول الوجبة. وما أن بلع عدة لقم حتى تبدد ذلك الشعور بالطمأنينة حيث أحس بيد الضابط تقترب من فخذه وتلامسه برغبة لم يستطع الراغب في كتمها لدقائق حتى يتناول الضحية الطعام. لاحظ الضابط امتعاض سامي، رفع يده وراح يراقب بخبث حركة شفتيه وهما تلتقمان الطعام ومجددا ثوره مريضة تجتاحه على شكل رغبة إجرامية وينجح في كبح جماحها بنسبة جيدة ومؤقتة تتمثل في مداعبة شعر سامي الذي توقف عن الأكل وقال وهو يقف: "شبعت يا سيدي شكرا". وقف الضابط وراح يتحرش به لفظياً ويدويا وبدا سامي رافضاً، وما كان من الضابط إلا أن يلجأ للابتزاز الرخيص "معي لن تندم، لن يمسك مكروه هنا، سوف أنقلك إلى غرفة وحدك بعيداً الوحوش

المعتقلين". تابع الابتزاز والضغط حتى رد عليه سامي بهزيمة أمام قوة بشرية لعينة تمتهن الضعيف وتستغل الملهوف بخلاعة الضمير "إطلاق سراحي يا سيدي" وكأنها مقايضة؟! جسده مقابل إطلاق سراحه! لا أحد يعلم، سامي وحده من يعلم ما يقصده، شك الضابط بأن يقايضه بأن يمكنه منه مقابل إطلاق سراحه فكان رد الضابط: "ليس من صلاحيتي إطلاق سراحك، لكني سأكون في صفك وأحميك هنا من أي خطر". دمعة قهر سالت من عين سامي وهو يقول "شكرا لك سيدي، صحيح ما أنا عليه ليس بيدي وهكذا خلقني الله، لكني أمتلك أحاسيس وأتوجع مثلك ولا يمكنني قبول عرضك". بعد محاولات، تغير وجه الضابط إلى الشكل العدواني والشرس وأمر بإعادة سامي إلى زنزانة (مجرد غرفة ثلاثة أمتار طولاً ومتران ونصف عرضاً)، أمر بتربيته بدرس قاس وكان ما أمر به منذ منتصف الليل حصص تعذيب يتعرض لها سامي. لا نوم ولا ماء، سامي يرتعد رعباً ووجعاً وهو يخاطب نفسه: "أين الرحمة؟! ما دخلي أنا ولماذا يعتقلونني وبأي حق؟! يدعون الشرف وهم جماعة وغالبيتهم يتوددون لينالوا مني على انفراد، خبيثون، لو أن الله خلقني أنثى أو رجلاً أو حتى معاقاً، لكنت حراً طليقاً بدون مضايقات. آه ما أقساهم وما أخبثهم."

حي الصفيح موقع استراتيجي يتحكم بمدخل العاصمة. لذا، الصراع المرير حوله ما بين كر وفر. أيام لم تقفل اليوم الرابع حتى تعرض الحي لهجوم قوي وشرس من قِبل فصائل مسلحة ومتنوعة وحدت صفوفها لتستعيد الحي والمناطق المحيطة به. أسندت القيادة بالتفاهم لجبهة السلف الإسلامية، هجوم من عدة محاور ونجاح في قطع الإمداد بالتزامن مع قصف الأحياء بقذائف الهاون بشكل دقيق ومدروس وبزمن قياسي تواصل لمدة ست ساعات حتى نجح العسكريون في زرع الألغام وفتح طريق للانسحاب والتراجع إلى ما وراء حي الصفيح وما جاوره من أحياء. وكما هو معتاد ومشترك كصفة متوحدة بين جميع أطراف الحرب وهي التمشيط وتفتيش المنازل بحثا عن مطلوبين وخونة حسب منطق كل طرف وتبدأ حالة الاعتقالات ومن ثم الاستجوابات تحت التعذيب يليه التصفيات أو الاحتفاظ بمن يرغبون الإبقاء عليهم على قيد الحياة. فتشوا البيوت واعتقلوا كل متعاون مع الدولة حسب تقارير وردتهم من أتباعهم فيها أسماء محددة. سقط معتقل العسكريين بيد المسلحين وفيه معتقلون كثر ممن اتهموا بموالاة المسلحين. بعد اقتحامه، بدأ الفرز واستبدالهم بمعتقليهم المتهمين بموالاة الدولة والتعاون معها. ممن سيعرضون على أمير الجماعة (أبو البراء) أربعة أشخاص منهم سامي. يجلس أبو البراء قائد

العملية وأمير جبهة السلف الإسلامية، وبجانبه إبراهيم فهو ممن يعتمد عليهم أبو البراء منذ سنوات من قبل الحرب أيام التدريب في الجبال. اقترب أحد المسلحين من أمير الجماعة وهو يجر سامي وبطحه أرضا لتتناثر خصال شعره، تمعن الأمير بالنظر لسامي وسأل ما قصة هذا ليقطع الشك باليقين، فرد عليه المسلح "إنه مخنث يا أمير". علت الدهشة الوجوه وتقدم الأمير نحو سامي ودار حوله، هز رأسه وهو يقول: "يجب الكشف عليه من قِبل الهيئة الشرعية وعلى ضوء ذلك نقرر." رفع سامي رأسه وصوب ناظريه نحو عيني الأمير المكحلتين، أدرك الأمير جمال عيني سامي ولكن الضحية بادرت بالدفاع عن نفسها بعد امتهان وحشي "يا أمير، والله لست أنا السبب، وليس هذا بيدي". رد عليه الأمير "أنت مخنث، أنت فتنة على المسلمين، سننظر في أمرك حال قدوم القاضي الشرعي للجماعة والكشف عليك. فقال سامي دون شعور وبتعب وألم وإرهاق "يا سيدي الأمير، منذ أربعة أيام وأنا أتعذب. أنظر إلى جسدي (يكشف عن أماكن الجروح على جلده الناعم) أنا لم أقترف ذنباً، ليس هذا ذنبي، أنا لم أخلق نفسي، الله خلقني هكذا، وددت لو خلقني مكتملاً سواءً ذكراً أو أنثى".... هنا، قطعه هتاف أصابه بالذهول فلم يعرف ما السبب والجميع يهتف "كافر... كافر... زنديق... عدو الله" لم يدرك السبب حتى قال له أبو البراء:

"وكفرت بالله يا مجرم!" حاول أن يبرر ما قاله بأنه ليس كفراً وأنه لم يقصد وأعتذر مراراً. ولكن هذا لم يغير من قرار أبو البراء والذي في الحقيقة قد قرر حال تفحص سامي بالنظر بأن يطبق عليه الحد ليكون مصدر متعة للمسلحين بأن أحد الأحكام تم تطبيقها على مرأى ومسمع (المجاهدين) وأن تُقام له محاكم صورية. مفتي الجماعة هو رفيق درب أبو البراء واسمه أبو خالد المسلم وكلها كنى حركية. أمر باستدعائه على وجه السرعة وأطلعه على القضية. وفعلا، تم نزع ملابس سامي بحضرة مفتي الجماعة وأميرها وشاهدين من ضمنهما إبراهيم وتم على الفور عقد محاكمة مستعجلة وحكم القاضي برمي سامي من قمة شاهقة ليكون عبرة. صلوا العصر، واجتمعوا لتنفيذ الحكم بحق سامي والذي بحق سيرتاح من هذا العذاب من حيث لا يعلم رغم حالة الصدمة والرعب التي تصاحبه الآن والتي لا تختلف عن أي شخص يُساق للإعدام. أرتقوا به إلى سطح أعلى بناية في حي مجاور لحي الصفيح بقصد تنفيذ الحكم، وراح مفتي الجماعة يحدث سامي وكأنه يسدي له معروفاً "تب إلى الله، هذا الحكم خير لك، والله وبالله وتالله إن الله لمطهر ذنوبك بهذا الحكم، ستلقى الله طاهراً إن أحسنت التوبة..." أكمل محاضرته القصيرة وتم تنفيذ الحكم. وكما قال الأديب أنطوان تشيكوف: "ما أسهل سحق الضعفاء في هذا العالم"..

ليست هذه أول مرة ينفذ فيها حكم شرعي يصدره مفتي الجماعة تحت اسم مستعار وينفذ فورا وتحدث جلبة ويتم أمر السكان صغيراً وكبيراً بالحضور تنفيذ الحكم فقد تم قطع أيادي متهمين بالسرقة وتم رجم متهمة بالزنا حتى الموت وتم جلد الكثير لأسباب كثيرة.

***

قال صمويل كولت عندما اخترع المسدس "الآن يتساوى القوي والجبان". ذلك كان قديماً في القرن الثامن عشر والقصد هو التساوي بين فردين. أما الآن في القرن الواحد والعشرين، فالأمر مختلف تماماً. فمن كان يتخيل أن قناة تلفزيونية حكومية تتساوى وبل يغلبها موقع على منصة التواصل الاجتماعي وبكل بساطة؟! إمكانيات البث ووكالة الأنباء العريقة يهزمها تسجيل ضبابي في ثلاثين ثانية لحدث ما ويلقى رواجاً منقطع النظير وتأثيراً عالياً في العقول والقلوب معاً بغض النظر عن مدى صحته من الفبركة وعدمه والذي يدوش الإعلام الحكومي ومنابر الموالين والمؤيدين لتبرير أو تكذيب تصوير قصير لنصف دقيقة أو صورة ثابتة. شاهد أعيان تُبث شهادته صوتياً أو بوجهه المموه أكثر تأثيراً من بيانات تُصدرها جهات رسمية أو منظمات نشطة. التساوي على الأرض بين الدولة بكل إمكانياتها

المادية والعسكرية والجماهيرية وبين معارضة على الأرض تشكلت خلال فترة وجيزة. التساوي في الاختطافات لرفد جبهات القتال، نعم تساووا في ذلك حيث أن كل طرف يمارس خطف الأطفال والشباب في منطقته المسيطر عليها سواءً تحت اسم التجنيد الإجباري أو الجهاد الاجباري، تساووا في التعذيب وابتكار وسائل أشد إيلاماً.

لا شك أن الصدمة أربكت كل التوقعات فمن المعلوم أن المعارضة نوعان، معارضة داخلية ذات قدرات (نجحت الدولة في القضاء عليها بواسطة الاغتيالات والاعتقالات والاختفاء قسراً وما تبقى منها هم الجبناء والذين فروا للخارج كمعارضة خارجية وعجزت ولم تعد تمتلك الأدوات على الأرض)، ومعارضة شكلية صنعتها الدولة لكي لا تبقى بلا معارضة وتلبية المتطلبات الديمقراطية. الآن، تشكلت معارضة جديدة، كانت طور التكوين. وما إن اشتعلت النيران، حتى وجدت موطئ قدم تستمد قوتها من تساويها مع إمكانيات الدولة الإعلامية والتحشيدية الجماهيرية والعسكرية والمالية وعكس المألوف. فقدراتها على التفكير الحربي والإعلامي تخطت المعقول مما ينبئ عن قدرات تطويرية تواكب الحدث العسكري مستفيدة من التكنلوجيا ومن المعارضة الخارجية العجوز في صناعة أحداث إعلامية مجلجلة. ليس القلق دائماً من الذكي وإن كان

فاسداً، بل من الغبي النزيه فهو عامل تدمير مضاعف، فالغباء يدمر ما يعجز عنه الفساد. ولهذا، ما أقدمت عليه الدولة طيلة عقود من تصفيات للمعارضة سُيدفع ثمنها لأنها كانت بديلاً منطقياً للدولة الفاسدة وإن كانت لا تقل فساداً عن الدولة. اليوم، الغباء يواجه الغباء بجماهير عريضة وكأنهم تحولوا للآلات حربية فحسب فلا كلل ولا ملل ولا تعب بل عقول تعمل على مدار الساعة في التطوير الحربي وأساليب القضاء على الخصم بطرق غير معهودة عند هذا الجنس من البشر.

قبل أسبوعين، شخصية ذات منصب سياسي رفيع تطلب لقاء اللواء نايف. حدث اللقاء وتم مساومة اللواء للانحياز للطرف الآخر. رفض بشدة. وضعت خطة القضاء عليه فورا والتنفيذ يسابق الرياح في وقت فيه نشاط تصفيات واغتيالات للكوادر المدنية والعسكرية للدولة. وتحسباً للأخطار، المحدقة فقد أخذ كبار الصف الأول في الدولة احتياطات أمنية مكثفة وحراسات مشددة وتغيير مواقعهم ومساكنهم بشكل دائم. اللواء نايف يغير مسكنه كل ثمانية وأربعين ساعة فقط. من مسكنه وعبر وسيلة الاتصالات العسكرية والتي تتغير شفراتها تلقائياً كل ثلاثين ثانية لتجنب الاختراقات، ينسق ويصدر أوامره في ما يخص انتشار الجيش في أهم المناطق الاستراتيجية ومحاولة استعادة ما سقط في يد المسلحين (أو ما سماه

البعض المعارضة المسلحة). خرج من مسكنه للقاء عمل في غاية الأهمية مع العقيد عمر في مبنى سري، إحدى عشرة دقيقة حتى وصل للمبنى المسور، دخل بسيارته وثلاث سيارات مصفحة ترافقه إلى ساحة المبنى، توقفت السيارات بجانب سيارات متنوعة واقفة منذ فترة تستخدم للمهمات السرية. دخل المبنى وتحدث للعقيد عمر عبر الجهاز العسكري وأبلغه العقيد أنه سيتأخر ما لا يزيد عن خمس دقائق لأنه أخذ الطريق رقم ٤٧ كون الطريق المخطط للعبور منه فجأة سيطر عليه مسلحون. وعلى بعد دقيقتين من المبنى، وصل العقيد عمر ليضطر إلى التوقف والتراجع بسيارته حال سقوط أول قذيفة صاروخية صوب المبنى الذي فيه اللواء. عبر الجهاز العسكري، ينادي العقيد للواء بالانسحاب، رد عليه اللواء أنه سيفعل فوراً، ثواني فقط حتى نزلت زخات من القذائف الصاروخية أشعلت المبنى ومحيطه وتصاعدت النيران والدخان نحو السماء والأرض تهتز من شدة ارتطام وانفجار القذائف. العقيد عمر في حالة انسحاب رغم انقطاع الاتصال مع اللواء. توجه العقيد عمر نحو مقر المخابرات البديل والسري. هرعت إلى عين المكان فرقة الإنقاذ بعد أن توقف القصف، المبنى متضرر جدا والسيارات محترقة. الشريط الإخباري بالتزامن مع نزول أول قذيفة، عاجل بالشريط الأحمر في كل قنوات المعارضة والمسلحين "قوات

منشقة من الجيش تقصف اجتماعاً للصف الأول من القيادات العسكرية المناهضة للثورة". يليه عاجل: "مقتل الصف الأول من القيادات على يد الجيش"... قتل اللواء ومن معه من حراسة، العقيد عمر يحلل البيانات ويقود عملية تحقيق من جهته والمخابرات العسكرية من جهة خشية أن تكون هناك تكنلوجيا اخترقت وسيلة الاتصالات العسكرية عالية التشفير. فاللواء والعقيد عمر حددا مكان اللقاء حال خروج اللواء من مسكنه بلغة مشفرة بينهما بموقع اللقاء والمسافة إحدى عشرة دقيقة لمكان اللقاء والقصف المركز بدقة عالية حدث بعد وصوله بخمس دقائق. وهنا، يبقى السؤال "كيف حدد العدو الموقع؟! وهل فعلاً تمكنوا من اختراق شبكة الاتصالات العسكرية؟! كيف تمكنوا خلال دقائق من فك شفرة التواصل بينهما؟! كيف تمكنوا من تصويب القذائف الصاروخية خلال دقائق فقط؟!"

***

تواصلت التحقيقات المكثفة بالتزامن مع الاستقصائيات الاستخباراتية من داخل المسلحين. مع بداية النواة الأولى لتكون المعارضة والفصائل المسلحة اندمجت بداخل كل فصيل وجماعة عناصر استخباراتية بكل

تشكيلاتها وعناصر حزبية تتبع الحزب الحاكم. وهذا أسلوب متبع للتحري والمراقبة والمتابعة والتجنيد أيضاً ومن المعروف أن هذه العناصر (المدسوسة) تسلك سلوك المسلحين وتعمل معهم وكأنها منهم لتنال الثقة بل تصارع من أجل الوصول لمراتب قيادية لتكون في نهاية المطاف عنصر متفاهم مع الدولة. وحينها، تتفاوض الدولة مع نفسها (عناصرها). ونتاج تحر دقيق، اقتربت الصورة من الوضوح كلياً عند تحصل المخابرات على فيديو لعملية القصف من طائرة بدون طيار حيث اخترقت بيانات الطائرة من قبل فرقة المعلومات والتكنلوجيا في المخابرات العسكرية لحظة تفعيل الطائرة لجهاز البث لقيادة عمليات تتبع فصيل مسلح. حلّ كثير من الألغاز، تبين أن الطائرة بدون طيار انطلقت من الأرض قبل خروج اللواء من المسكن بربع ساعة فقط وكانت في السماء تصور المسكن وتابعت تحرك اللواء نحو وجهته الجديدة. وما أن دخل عين المكان المقصود حتى حددت الإحداثيات مباشرة عبر الطائرة المُسيرة لتنطلق فوراً طائرتان مسيرتان انتحاريتان بمواد شديدة الانفجار وتم فورا اعادة توجيه مرابض (في عمق حي سكني) مدافع الهاون حديثة التصنيع بحرفية عالية جداً وتدريب عالي المستوى وتم القصف بنجاح (مدافع الهاون كانت موجهة نحو مسكنه ولم يُصف ليلاً حتى شروق الشمس لأن الهاون يُصدر شرارة نار عند

الانطلاق وحينها سيتمكن الجيش من معرفة مصدر الانطلاق بسرعة ويرد على مصدر النيران). تبين للعقيد عمر أن العدو توهم أن المبنى مليء بالقيادات واستند على عدد السيارات المتنوعة المتوقفة في داخل سور المبنى. وهذا ما جعل المسلحين يوعزون لإعلامهم أن قيادات الصف الأول تحت القصف. ويبقى السؤال كيف عرف المسلحون مسكن اللواء المؤقت؟! وكيف عرفوا أنه على وشك الخروج من مسكنه؟! ثلاثة أيام من التحري وتحليل البيانات ولم تصل الجهات المعنية إجابة كيف تم تعقب اللواء وهل حدث اختراق لشبكة الاتصالات العسكرية وعلى ضوء ذلك تمكن المسلحون من تحديد موقعه بالضبط؟! وكيف وصلت هكذا تقنيات للمسلحين؟! أما الخبرات، فمنهم الكثير ممن خدم في الجيش سواءً متقاعدين أو من هم في حالة فرار وأيضاً لا أحد يغفل المساعدات الفنية من خارج الحدود. في اليوم الثالث، وصل مساعد العقيد عمر وسلم له نتائج تشريح الجثث حيث يعتبر هذا قانوناً لتحديد سبب الوفاة بشهادة طبيب. فتح الملف وراح يقرأ وإذا بعينيه تقعان على الفقرة التاسعة وفيها كتب طبيب التشريح: "تبين أن في أمعاء الضحية ما يشبه حبة أسبرين لم تتحلل رغم مرورها من المعدة بمدة زمنية وبقيت كما هي..." سأل العقيد عمر "أين حبة الأسبرين التي ذكرها طبيب التشريح؟!" أجابه مساعده أنه

تم إرسالها للمعمل الجنائي لتحليلها. أسند العقيد ظهره على الكرسي وهو يفكر ثم عاد للعمل على ملفات عديدة. نصف ساعة حتى وصلته معلومة أن حبة الأسبرين هي مجرد جهاز تعقب عن بعد مرتبط بالجي بي أس. من المعلوم أن اللواء نايف منذ أشهر وصف له الطبيب الأسبرين لتجنب تكون الجلطات المسببة للنوبات القلبية. وبعد تحر وتحقيقات، توصلت المخابرات في التحقيقات أنه تم تجنيد صيدلي قريب للواء عائلياً يزوده بالأدوية وتم استبدال علبة الأسبرين بواحدة فيها حبات أجهزة تعقب. تبين من هذه الحادثة أن الفصائل المسلحة والتي تشكلت حديثاً وبتعاون مع جهات عديدة، لديها من الامكانيات ما يكفي لإرهاق عدوها.

***

بناءً على إيعاز من مكتب الرقابة الإعلامية التابعة للمخابرات العامة للصحفي محمود عبدالوهاب لاستخدام تأثيره الإعلامي في سبيل خدمة الخط الإعلامي الحكومي من خلال خلط المواضيع لتنتهي إلى كشف زيف تحركات الشارع حيث قال له المكلف بالاتصال به بأن صحف ومواقع المدعومين من الدولة مسخرة له آمراً إياه بتكثيف جهوده بطريقة لا توحي بأنه يميل للجانب الحكومي بل بإقناع جمهوره بأنه يقول الحقيقة التي تخدم

البلد. لم يتردد الصحفي وراح يكتب مقالاً سينشره في صحف ورقية وفي صفحته على الفيسبوك والذي يلبي الرغبات في إرباك المشهد الإعلامي وأيضاً توضيح بعض الحقائق التي تخدم الحكومة.

"الاستبداد في هذه البلد طوَّلَ أمد حالة التخلف الفكري المتجذرة والمستبلدة، ولم يولد التخلف إطلاقا لأن الحالة لم تكن تقدماً يوماً ما حتى يعمل الاستبداد على غرس التخلف. فالحالة الدائمة هي تخلف، لا وعي، والطبقة المحظوظة نصف تعليم. لذا، عند سقوط سطوة الدولة في منطقة ما مثلاً وتعطل العمل بالقانون أو على الأقل الخوف من العقاب السلطوي أو الانتقام، يبرز قانون الجريمة وتسود الشوارع حالات من الفوضى والعنف حسب الامكانيات المتاحة من قبل فئة مشاغبة تتصدر مقدمة المظاهرات وتفرض نفسها لينسحب تدريجيا كل مناشد للسلمية ليعود مرتبكا حاملا خيبة أمل كبرى. وإذا بالوضع العام انتقل من الفئة الأولى الأكثر سلمية التي ترغب بالتغيير لفئة ثانية أكثر عنفاً وشغباً تنفذ اجندتها الخاصة ومنها تولد الطائفية والمذهبية والتي تجند لديها الفئة الثانية المشاغبة لخدمة مشروعها. ويبقى الشعب ضبابي الرؤية والتفكير. فهو كما قال الفيلسوف ناعوم تشومسكي "عامة الشعب لا يعرفون ما يجري، ولا يعرفون حتى أنهم لا يعرفون". ومع غياب القيادة والمشروع الثوري

والبديل الكامل لهيكل وجوهر الدولة. فلا أحد ينكر الشعارات الوردية الحداثية كـــــ خبز، حرية، عدالة اجتماعية. الكرامة. الديمقراطية. وأبرزها الدولة المدنية. من كل ما ذكر حتماً المعرف والمعلوم معنى وطعماً هو الخبز فقط. أما البقية، فالغالبية الساحقة لا تعلم ما مبادئ الدولة المدنية ولا الفرق بين المدنية والعلمانية. على الرغم أن المدنية هي علمانية مدنية لا دور للعسكر فيها ولا رجال الدين ولا أي جهاز أو مؤسسة غير مدنية. وهنا التناقض، حيث ركبت الموجة الأحزاب الإسلامية والجماعات المذهبية والطائفية تحت شعار المدنية وتنادي بها بشراسة، وكل تصريحات القيادات الدينية تطالب بالمدنية. قبل ذلك، كانت حراماً شرعاً، بل تم إصدار فتاوى تكفير العلمانيين. واليوم، ينشدونها. ما أن ظهرت بوادر حرب شرسة، من نشدوا المدنية أنفسهم عادوا لتكفيرها وأعلنوا حربهم لإعادة زمن الخلافة الإسلامية. لا تفسير لذاك غير أن الإسلاميين جاروا الجماهير المطالبة بالتغيير ونشدوا ما ينشدون حتى يتمكنوا. حينها، يكشفون عن نواياهم وأهدافهم الحقيقية وأنهم استخدموا أصحاب النوايا الحسنة كمطية لأهدافهم الوجودية التي من أجلها لا يترددون عن حمل السلاح. هنا مصالح على وشك الزوال إلى الأبد إن نجح الشعب بفرض المدنية، مصالح رجال الدين ورزقهم وشغلهم في مجال الدين على كف

عفريت وكذلك مصالح القادة العسكريين ورزقهم وشغلهم في الجيش أيضاً على كف عفريت. لذا، تلتقي مصلحة إجهاض مدنية الدولة بين رجال الدين والعسكريين والساسة من حكام ومعارضة. فمهما اختلفوا وسال الدم بينهم (دم من أبناء الشعب) فهناك نقطة يشتركون بها تحفظ لهم وجودهم ورزقهم ومستقبلهم وهي مكافحة المدنية. إن الفرق بين الثورة والفوضى، أن الأولى لها قيادة مستعدة للتضحية ومشروع ورؤية أسس لها نخبة فكرية سياسية واجتماعية وفلسفية تستبدل نظاماً قديماً بنظام جديد متكامل وليس إسقاط نظام واستبداله باللا دولة وباللا استقرار، بل ارتباك بماذا بعد السقوط ليفر الصف الأول بما استطاع من مكاسب شخصية ويظهر صف ذو غريزة للعنف بطبيعته يعيش ويتكاثر تحت ظل آلة القتل. من الخطأ الفادح اعتبار مظاهرات تطالب بحقوق بأنها ثورة على الأقل في بادئ التحركات في حين تقف الأحزاب والجماعات في حالة ارتباك قصوى لتقرر الإذعان لوسائل إعلام توصف الأمر على أنه ثورة وتنضم للجماهير وكل حزب أو جماعة يجهد نفسه ليكون الرابح ويحقق المكاسب ولو على حساب الوطن والمواطن والقيم، وبدلا من العمل على استيعاب حجم الحدث بما يناسبه من أفكار ثورية تطويرية تتسارع بالتزامن مع تسارع الأحداث يجد المراقب بأن الأحزاب والجماعات

تستحضر أفكاراً تاريخية بسببها كانت الحروب الأهلية منذ قرون طويلة، فمنهم من استحضر الطائفية ومنهم من استحضر الاشتراكية أو اللبرالية وكلٌّ وجد نفسه منهمكا في شرح وجهة نظر حزبه أو جماعته وكشف فساد الحاكم وخلق فبركات وأخبار بالأصل لا يحتاجونها مادام الشارع يغلي فعلا لكنهم يترجمون فشلهم في التفكير والتنظير وشغل الفراغ وقيادة المرحلة وبل أكدوا أنهم مجرد أحزاب وجماعات للحشد والتعبئة الجماهيرية فحسب بفضل وسائل التواصل الاجتماعي والفضاء المفتوح. ولو لم يكونوا كذلك، لما سمح لهم النظام بالمعارضة الداخلية واستمرت الاعتمادات وتبادل الأدوار والمصالح، بل إن منهم الكثير من صنيعة الدولة نفسها للمعارضة الصورية لنقل مظهر ديمقراطي وإن كان معلولاً ليتمردوا فجأة وتبقى المصالح والشعور بغرور الجماهير والتي تُشعر المعارضة بالنشوة السلطوية وبأنها قريبة من السلطة وأنها حقاً ثورية نضالية حتى تصدق نفسها. ونقطة عند هذا الحد."

***

مخيم اللجوء الداخلي هو المساحة الوحيدة شبه الآمنة في عرض واتساع هذا الوطن المضطرب والذي تحول إلى وطن صغير وكل خيمة هي منزل

وما تجود به المنظمات العالمية من غذاء وطوابير ومعارك عند كل وجبة هو الرزق الوحيد الآن. الخيمة أمست الدار والحضن الدافئ في قرصة الشتاء والسقف الآمن عندما تمطر السماء، الخيمة أحن ما في هذا الوطن على أبناء الوطن من أبناء الوطن. للخيمة رقم في مخيم اللجوء، وكل زائر يستدل على العنوان برقم الخيمة، وإن قال المضيف لضيف تفضل في حالة شهامة كانت موجودة، فإلى أين يتفضل بالدخول؟! عدد من الأمتار المربعة فيها كل تفاصيل البيت الذي صار مهدما أو فيه مسلحون يخوضون بطولاتهم الزائفة؟ كيف يتشرف الضيف بالدخول لخيمة فيها عائلة بكل مآسيها؟! ها هو فتحي يستقبل ضيفه وصديقه مسعد أمام باب الخيمة (ستارة) وها هو ديوانه للاستقبال عبارة عن حجرة تم جلبها ليجلس عليها الضيف أمام الخيمة. ويالتعب والفقر والحاجة التي مست الجميع. فضيافة الضيف بكأس من الشاي هي أعلى مراتب الرفاهية، فالجميع أخوة في الجوع والتشرد. بدموع الأستاذ مسعد، استقبله زميله فتحي أمام خيمته، أخبره بأن مدير المدرسة قُتل ذبحاً (من نتائج الأحداث المتسارعة، بلغ مسامع الأساتذة أن مدير المدرسة اختطف ولا أثر يدل على مكانه، حتى شوهد في فيديو على اليوتيوب لإعدام جماعي وهو من بينهم) صدمة لفتحي لا تقل عن باقي الزملاء. من خلال الفيديو، تعرف فتحي على مكان تنفيذ

الإعدام في حيه القديم (حي الصفيح). لكنه لم يتعرف على إبراهيم أحد المنفذين لأنه مُقنع، إبراهيم اشترك بدموية في الحرب وبقلب قاس ويحسب ذلك زيادة لرصيده من الحسنات، هكذا أفهموه. مقتل مدير المدرسة كان له أثر بالغ على نفسية الزملاء. أقاموا مجلس عزاء في المخيم في الهواء الطلق وتذكروا محاسنه وترحموا عليه. الآن، هي القيامة الصغرى وعلى الجميع التعايش مع الأوجاع والأمراض والجوع والخوف إلى أن تعود العقول لمشاجبها لعلها تعي حجم الخوازيق التي لا أحد في هذا الوطن سيفلت منها ما عدا قادة الحرب وعوائلهم وممتلكاتهم بمختلف تنوعاتهم ومشارب اختلافاتهم السياسية والأيدولوجية والدينية، والرحمة على الشعب. فهو الدافع للأثمان دائما وهذه المرة ليست كسابقاتها وبالتزامن مع تطور وسائل الاتصالات وأساليب القتال ومنطقية وشرعنة الحرب وأبواق الفتن وكمية وفعالية الأسلحة والكم العظيم من الأموال، فهي حرب مدمرة لا تقل وصفا عن وصف الفناء التام.

***

كل جمهور من جماهير المتقاتلين يرون أنفسهم على حق وبأنهم الخير ولا يبتغون إلا إرضاء الله ورسوله ومصلحة البلد. فهم جميعاً ناصروا

الحرب لأهداف يرونها ويفهمونها على أنها مقدسة وشرعية وإلا لاضمحلت رقعة الحرب، ولربما صح توصيف الصحفية بربارة جريزوتي هاريسون: "أكثر المعارك البشرية إيلاماً لا تكون بين الخير والشر، بل بين أهل الخير بعضهم بعضاً". وفعلاً هذه حرب مؤلمة جدا. مثلاً، دعوة محاربة الوثنية بتدمير المتاحف لقيت تجاوباً من قبل طبقة الجهل الشعبية (تحت سطوة الاعتقاد الراسخ بأن التماثيل ستُعبد يوماً ما دون الله)، ولاقت استحساناً من قبل لصوص كبار وجدوا أن الفرص مؤاتية لتهريب الآثار إلى الخارج وهناك تصرف كان حاضراً في القرن المنصرم بإهداء التحف والتماثيل لحكام الاستعمار كنوع من التقرب والتزلف. نفس الشيء يحدث الآن إلى جانب ترحيل آثار البلد وليس تهريبها لأن لا تشديد أو مراقبة موجودة حتى يمكن إطلاق كلمة تهريب على ما يحدث. ما يحدث للآثار يحدث للمخطوطات التاريخية. وكما دمرت التماثيل الكبيرة بالمعاول بالتزامن مع هتافات (الله أكبر)، تم إحراق دار المخطوطات بعد سرقة ما يمكن سرقته. الاعتماد على الحكم أو السطوة الدينية أو القبلية عبر تجهيل الشعب لها آثار مدمرة على المدى القصير والبعيد معاً حيث يصل التدمير الذاتي للنفس والروح لكل فرد من الأمس حتى يوم القيامة. ولو قارنا بين

ثوار إسبانيا وبين ثوار هذه البلد لكان الفرق جلياً في مدى الوعي وحب التاريخ والحفاظ على المستقبل وعدم الرغبة في مغامرة ثورية نتيجتها تدمير الماضي والمستقبل. فقد خسر ثوار إسبانيا في الحرب الأهلية، لكنهم آثروا مكسب الحضارة والمستقبل حين وقفوا عاجزين عن اقتحام المتاحف والأبنية الأثرية التي اتخذها فرنكوا دروعاً وحصوناً ولربما أنه اتخذ هذا القرار النذل بالتحصن بين الآثار لكونه أدرى بالنفسية الإسبانية ونمط تفكير الفرد الإسباني حيث لا يمتلك الجرأة على الإقدام على قصف تاريخه ومستقبلة فقط لينال من فرانكو وقواته. فالثمن باهظ جدا، وفعلاً آثر الثوار الانسحاب وتركوا الدكتاتور ينتصر نصراً مؤقتاً لكن النصر الدائم هو الحفاظ على تاريخ وحضارة شعب يمتلكه كل إسباني إلى الأبد.

***

يقول غاندي بعد أن أصيب بطلق ناري وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة _من متطرف يعتقد أن غاندي خائن ويستحق الموت_ "لقد كان ذنبي، لم أعلمك الحب". فهل ستقول البلد للذين تقاتلوا مع بعضهم نفس عبارة غاندي؟! ومادام الكل يجادل ويلقي باللائمة على كاهل الآخر وكلٌ يبرر

موقفه وتصرفاته وشرعية سلوكه، فلن يستطيع أحد إقناع أحد بمن هو المسؤول عما حدث، فقط يمكننا أن نلقي باللائمة والعتب على البلد كونه جماداً _لأنها لم تعلم الشعب الحب_ ولا يستطيع النطق والدفاع عن نفسه، إذا البلد هي السبب والشعب المتقاتل والمحرض والمشجع على الاقتتال والداعم والصامت ليس منهم من هو مدان. فلا أحد يجزم الآن من تصرف بنزاهة بلا رذالة، ومن سلك درب الجريمة، وهل النوايا الحسنة كانت سبيل للمجازر الجماعية والجوع والتشرد والخراب؟! ألم تكون ومازالت الطريق إلى جهنم مليئة بالنوايا الحسنة؟! فمهما نقول، يبقى البلد هو المسؤول، وفي أقل مسؤولية أن القتال من أجلها كعذر وسبب ومبرر، ومع ذلك هي المسؤولة فلنواصل حماقتنا وننفض غبار الدماء من على اكتافنا ومن رقابنا ليحط رحاله على هذا البلد كمن يمسح الدم عن سكين الجريمة في ثوب بريء إما لتحمل الجريمة كاملة أو الاشتراك بها ونكرر أن البلد هي المسؤولة.

هناك فئة المصدومين، يشعرون بارتباك تام أمام الأحداث المتسارعة والفجائية، حتى المختصون في العلوم الاجتماعية عاجزون تماماً عن تفسير الأحداث الآن ونتائجها مستقبلاً، وتظل الأسئلة بارزة: هل ستفشل الثورة إذا كانت حقاً هي ثورة؟! هل هم أمام ثورة فعلية مكتملة الأركان

أم هي هزات ارتجالية بسيطة مثل سابقاتها من مظاهرات فقط تغيرت الشعارات والإعلام ضخمها ووجهها وضخ في مجرى دمها الأخبار في كل دقيقة خبر وخبر عاجل واقنع الجماهير بأنها ثورة وبأنهم ثوار؟! وماذا عن السلاح الذي ظهر فجأة بما يكفي لهكذا نار لا تنطفئ إلا بمعجزة؟! لكن، يبقى الأمر الواقع الآن هو أن الحرب الداخلية كالأعاصير المدمرة تخوضها قوى الشر ضد بعضهما البعض. والأبشع من الحرب جمهورها. فمن الحماقة أن نموت من أجل الحرية، لأن الصح أن نحيا ونعيش من أجل الحرية، وهذا حقنا. ماذا عن المحايدين وهل صح في حقهم قول مارتن لوثر كينغ "أسوأ مكان في الجحيم محجوز لهؤلاء الذين يبقون على الحياد في أوقات المعارك الأخلاقية العظيمة"؟! وهل في ما يحدث من حروب داخلية شرسة في هذه البلاد شيء من عناصر المعارك الأخلاقية؟!

***

على الأريكة يجلس الصحفي محمود عبد الوهاب يتصفح شاشة الهاتف ويقابله جهاز التلفاز وصوت المذيع من قناة إخبارية يهدر بأخبار عاجلة عن الوضع الأمني في البلد. أطفأ الصحفي سيجارته بعد بلوغها منتهاها، تابع تصفحه للصفحات الإلكترونية حيث وقعت عيناه على منشور

استحسنه تماماً وشاركه في صفحته. وكالعادة، المشاركات لمنشورات مجهولة وتُذيل بكلمة "منقول" أمر مألوف في وسائل التواصل والتي تدل أن كاتبها مجهول ولا تُنسب لأحد بعينه. وهي قوانين افتراضية فرضها واقع هذا العالم الافتراضي:

كيف تدفع بلداً إلى الحرب الأهلية:

١- قسم البلد إلى مجموعتين أو أكثر، ثم انزع الصفة الإنسانية عن كل مجموعة في نظر المجموعات الأخرى، صوَرّ كل طرف بالنسبة للآخر بأنهم مجموعة وحوش ومصاصي دماء يستحيل التعايش معهم ويستحقون جميعاً الموت بأي وسيلة ممكنة والسحل والتقطيع والحرق للجثث ويفترض اجتثاثهم بإبادتهم مع نسائهم وأطفالهم. يجب أن لا تثير الشفقة أو التعاطف الفطري في قلوب أفراد كل مجموعة تجاه الأخرى بل أجعلهم يعتقدون بأن أولئك الوحوش يستحقون ما يجري لهم.

٢-ركز على ما يُثير غريزة الكراهية والعصبية والعنف وحبب لأنظارهم مرأى الدماء والجثث، والعب على وتر المناطقية والجهوية والقبلية واشغل عقول الأطراف عن التفكير والفطرة الإنسانية قدر الإمكان.

٣- إصنع من كل طرف عملاء يشوهون الطرف المعادي ويختلقون الأكاذيب ويفبركون ويضللون ويحرفون تفسير تصاريح الطرف الآخر ويشككون بنواياه ويقولونه ما لم يقل.

٤- أدرس التاريخ المذهبي والمناطقي للمجموعتين وابحث عن الهفوات ونقاط الاختلاف واجعل كل عميل من المجموعتين يهاجم خصومه ويكفرهم.

٥- أوجد لك عملاء مفكرين من الطرفين واجعل كل عميل يؤلف كتباً يهاجم بها الخصم. وامر المفكرين أن يؤلفوا كتباً تاريخية بأسماء وهمية أو أعد إصدار الكتب الدينية التاريخية الجدلية والمتشددة والتي تُثير حفيظة المجموعة المعادية.

٦- أطلق قنوات خاصة للهجوم الإعلامي على كل مجموعة ويتم البث من دولة خارجية. ولا داعي أن يكون لكل مجموعة مبنى للبث التلفزيوني ويمكن أن يكون الإعلاميون في نفس المبنى لأن المجموعتين تتقاضان مرتبا من نفس الجهة الممولة لهذا المشروع والتي هي أنت.

٧- أقتل الشعور الوطني قدر الإمكان وحاول استبداله بأي انتماء آخر ولا تدع جماهير الطرفين تشعر بالملل من الحرب من خلال إيهام

كل الاطراف بقرب الانتصار، واقنع جميع الأطراف بأن الانتصار على الخصم ضرورة حتمية من أجل الاستمرار بل أقنع الاطراف بأنها حرب بقاء.

٨- من الضروري أن تقلب مفهوم العدالة الفردية التي تقوم على محاسبة المخطئ أيا كان إلى مفهوم الانتقام الجماعي الهمجي والثأر بحيث ينتقم كل طرف من الخصم بقتل أفراد منهم تحت مبدأ عكسي للمفهوم القرآني "تزر وازرة وزر أخرى"

٩- اقض على كل رمز أو قائد يمكن أن يلم شملهم ويذكرهم بأنهم شعب واحد وأن الوطن للجميع وخصوصاً العلم والصروح العلمية. وإذا استطعت إبعادهم جميعاً عن العلم، فأنت قد قطعت شوطاً متقدماً.

الآن، أصبح البلد في متناولك ويمكنك أن تدخل بجيشك لتنقذ الأطفال من الموت ولتوقف إراقة الدماء خاصةً بعد أن وجدت فيك المجموعات المتقاتلة المخلص الوحيد من هذا النهر الدموي وأصبح بمقدورك بعد دخولك البلد دخول الفاتحين أن تعلن قوانينك وتعين حاكمك العسكري. حدد وقتا لدستور الإنقاذ وأعلن لكل مجموعة وطناً داخل وطن (تقسيم الدولة لدويلات تحت اسم أقلمة مبدئياً قبل إثارة حق تقرير المصير)

وتستطيع التوسع بالمشروع وجعل الأقلية تضطهد الأكثرية لتعميق الخلاف بين الأكثريات والأقليات وتهيء الجو للانتقام بعد خروجك...

منقول،،،

***

2

(سنوات من عمر هذا الوطن وهذا الجيل ذهبت وتركت مآسي يجب أن تُنسى وتبدأ الحياة)

الغزو من الداخل، هكذا رأى الشاعر البردوني الحال ووصف واقعاً جديداً مرعباً يعصف بكل أوراق الشجر والأفانين معاً حيث يبقى التعري قائماً حيث قال: "ترقّى العار من بيع إلى بيع بلا ثمن... ومن مستعمر غاز إلى مستعمر وطني... لماذا نحن يا مربى ويا منفى بلا سكن... بلا حلم بلا ذكرى بلا سلوى بلا حزن؟"

أهم المسائل التي صارت مدركة حتى الآن: "أولا، متلازمة البطولة أو البطل (hero syndrome) ظاهرة اختلاق الإنسان للأزمات والمصائب والمشاكل ويعقدها. وفي نهاية المطاف، يحلها ليظهر بمظهر البطل. هذه المتلازمة تُصيب على سبيل المثال وبصفة عامة السياسيين والعسكريين وضباط الشرطة ورجال الحماية المدنية والممرضات. بمعنى أدق تُصيب من عملهم وشغلهم وواجبهم إنقاذ الناس. وأغلب من

يُصابون بهذه المتلازمة يقومون بعملية انتقام. مثلاً، شرطي فُصل من عمله، فإنه ينتقم حيث يفتعل مشاكل يعرض من خلالها حياة الناس للخطر ثم يقوم بالعمل البطولي ليظهر بدور البطل المشكور المحمود. هل هذا ما حصل فعلاً في هذه البلد أم أن الأمر مختلف؟ لا أحد يجزم أو ينفي بل تبقى المسائل والأحداث قابلة للبحث والدراسة. وإن كانت متلازمة، فهي لا تعفي أحداً من المسؤولية القانونية والأخلاقية ولا تسقط صفة مجرم عن كل من سولت له نفسه إزهاق الأرواح وكل من شرع لنفسه ملكية البلد والشعب. وعلى ضوء هذا، سلك سلوكاً بغيضاً مقرفاً. ثانيا، يعتقد الناس أن الحرب لعبة الرجال وإشفاء غليل وانتقام من طرف لا يؤيدوه، ويعتقدون أن الحل كان بقائد شريف أو بحرب لجلب قائد شريف لسلطة وعبره يكون التعافي. وأي حرب في الكون تأتي بالشرفاء؟! إنها منظومة متكاملة ومتداخلة بين شعب له ضمير يمتلك مقومات وجودية وبين قائد نزيه وذكي هو أحد أبناء هذا الشعب نفسه. فالقائد يُخلق بين شعب ولا يُصنع أو يستورد مهما كان مضمون القائد، شراً فاسداً أو خيراً سائداً. ثالثاً، قال الشاعر محمود درويش: ستنتهي الحرب.. ويتصافح القادة.. وتبقى تلك العجوز تنتظر ولدها الشهيد.. وتلك الفتاة تنتظر

زوجها الحبيب.. وأولئك الأطفال ينتظرون والدهم البطل.. ونحن لا نعلم من باع الوطن؟!.. لكن شاهدنا من دفع الثمن."

انتهت السنوات الحمراء باتفاق سياسي بين أطراف الصراع. كلٌّ منهم هو الأسوأ فيهم، وكما طمئنهم دوستويفسكي حين قال: "اطمئنوا، الجحيم يتسع للجميع، الأمر لا يستحق كل هذه المنافسة الشرسة على من سيكون الأسوأ فيكم". بعد كل هذه الدماء، لم ينتصر طرف على الآخر، بل انتصرت جميع الأطراف على الشعب وعلى هذا الوطن الذي حولوه بالغباء وقوة السلاح إلى مجرد مقبرة للأحياء والموتى معاً. خلال مفاوضات بعد تدمير كل شيء ولم يبق شيء لتدميره وبعد تعب الشعب من تشجيع هذا أو ذاك، وأخيرا، قرر قادة الحروب الصلح، وعفو عام عن كل من حمل السلاح وانخرط في الأزمة وحصانة من المساءلة كمبادرة حسن نية، ثم التقوا حول طاولة مفاوضات مستديرة وتبادلوا المجاملات، والابتسامات، وتناولوا الطعام معا وشربوا الشاي معا وناقشوا كل شيء في ما يخص تفاصيل المرحلة القادمة وتقاسمها. فهم جميعا يعرفون بعضهم بعضاً جيداً. فقبل الحرب، كانوا في خط واحد سواء معارضة أو قادة السلطة وانقسم قادة السلطة وكونوا جماعات وتحاربوا. والآن، تصالحوا ولله في خلقه شؤون. ومن مات في سبيلهم، يرحمه الله ولا عزاء للأغبياء.

الآن، كلٌ يرى نفسه بطل ويسوق لذلك ويسعى لنيل المكاسب، كثر أبطال الحرب والنضال والكفاح وكما قال المثل الروماني "بعد الحرب يتكاثر عدد الأبطال". نعم، جلسوا على طاولة المفاوضات وكانت بنود فيها كل شيء غير شيء واحد، الضحايا سيلقبون جميعا بلقب (شهداء) جميعهم ضحايا هذا وذاك قتلى حملة السلاح التابعون لهذا وذاك والسفاح الذي حق به عقاب السماء وقتل أيضاً سواء كان من جماعة هذا أو ذاك، فكلهم شهداء! هذا ما يمكن تقديمه وانتهت ذكراهم للأبد. أما الجرحى، فتم مواساتهم بعنوان كاذب وهو (معالجة الجرحى) وليس في الحقيقة من شيء ولا دواء ولا فعل تجاه اليتامى والأرامل وعوائل المفقودين، فجميعهم في مهب الريح في سبيل من لا يستحق أن يكون، رغم أنهم أعلنوا أن لحكومة الوحدة الوطنية أولويات وهي معالجة الجرحى ورعاية أسر الشهداء وتسوية ملف المفقودين والمختطفين وتحديد هويات القتلى في المقابر الجماعية والشروع في الدعوة لمؤتمر عالمي للدول المانحة للمساعدة في التبرع لإعادة الإعمار، لكنهم لم يتطرقوا لذكر آلية نزع الألغام والعبوات الناسفة وعلاج آثار الحرب النفسية. هناك موقف واحد عند الخطاب الجماهيري لمصلحة سلطوية يذكر فيه الشهداء للف الجماهير تحت الإبط والمضي بهم نحو تعبيد طريق السائر إلى السلطة. أما العمران والتعويضات، فهذا شعار

سيُستهلك إلى ما شاء الله وسيعود الخصوم جميعا إلى نفس المنوال القديم ليبدأوا من جديد ومن أنقسم لصالح أحد الأقطاب فليلحس نفسه، لا من قتل له فائدة ولا من عاش له فائدة ومقابل سوى أن من اعتقد أنه محق بقي حيا ولو على براثن الموت الوطني.

القانون غير الحاضر، الغائب، المغيب عمداً، والمجهول معرفياً لدى عموم الشعب (العدالة الانتقالية): "هي المساءلة وجبر ضرر الضحايا والاعتراف بكرامتهم كمواطنين وكبشر". المسألة القضائية والتدابير الأخرى التي تعالج وتخفف وتحاول القضاء على إرث الحرب وانتهاكات حق الإنسان. الملاحقات القانونية لكل من شارك في الحرب ومن روج وفبرك وأشاع الأخبار المزيفة والمثيرة لحفيظة شرائح المجتمع، لمحاسبة الانتهازيين من تجار وسياسيين ورجال دين ومعارضة وعسكريين. العدالة الانتقالية هي اعتراف بالخطأ والكارثة وتتزامن مع المساءلات القضائية وإصلاح المؤسسات وتقديم التعويضات العادلة. ما يجبر خاطر المتضررين هو إنشاء لجان تحقيق في فساد الحكومات السابقة ومحاكمة كل متسبب في تدهور الوضع الذي كون شرارة حرب طاحنة ومصادرة أموال الفاسدين والمتربحين من المستفيدين من الحرب. على قضاء العدالة الاجتماعية إلزام كل من حرك ومول وقاد الحرب بالاعتذار الشفهي والخطي للشعب.

العدالة الانتقالية هي حامي الضحايا الضعفاء وهي التي تعيد لهم ما يمكن إعادته من حقوق ومنع تكرار المآسي مجددا بحيث لا يُعاد نفس الفيلم مالم يقض على مسببات الحرب ومن يفكر في إشعالها."..

الحقيقة، أفاق الجميع على جراح غائرة (خوازيق) وبعد كل ما حدث الجميع صار يُمني نفسه ببداية جديدة. لكن الأثر باق. يشد الأستاذ فتحي الرحال لمغادرة مخيم اللجوء والعودة إلى منزله الأصلي في حي الصفيح لإعادة تقويمه وترميمه والبدء من جديد. يأخذ ما يملك من أثاث النوم وبعض الملابس وابنه الذي سماه مسعد على اسم صديقه يرافقه وعمره في حدود الثالث عشر عاماً. ينظر فتحي إلى الخلف وكأنه ينتظر من يأتي معه، ثم يمضي بألم ومازالت ذكريات زوجته نرمين تذيب تماسكه. ففي هذا المخيم غادرت روح نرمين إلى بارئها قبل ثلاث سنوات بعد أن اشتد عليها المرض نتيجة الوضع والرعب والتوتر، فمن القلب إلى السكري ومن الضغط إلى التراب لتنام بسلام بين وجدانه. في هذا المخيم أيضاً قضى مسعد سنين وعادت صداقته مع فتحي بنفس العمق القديم، وكلاهما كره أطراف الصراع وانتهوا إلى الوقوف في المنتصف. كأنت لحظات ملؤها الصدمة ولا غير. بيت مسعد لا يوصف شكله من الداخل والخارج لأن المقاتلين تمترسوا فيه ما بين انسحاب وسيطرة.

***

فرق بين التبحر في الإلياذة للشاعر الاغريقي الأعمى هوميروس وبين التبحر في كتاب كيف تصبح مليارديرا في خمسة أيام مع أن المؤلف مدلس لأنه ليس ملياردير ولا مليونيريا. فرق بين امتطاء القطط والكلاب بدلا من الخيول، وبين ركوب دراجة هوائية أو ركوب البحر أو الخيال ذاته. هناك فروق بين الحقائق والوقائع وبين الانغماس الرخيص في ترويج الحرب وإشاعات تثير الضغائن في النفوس وفتاوى التكفير يطلقها مهزومون ممن مكانهم المصحات العقلية وليس ممارسة عتوهم في منابر مؤثرة تقود ممن لا عقول لهم إلى المتارس... وها هي خسارة البلد بنيتها المتواضعة أصلا وانهيار عملتها الضعيفة، خسارة العقول جميعا منهم من قتل والمحظوظ من قبل الغرب بدخوله أراضيهم. عامت الناس في فوضى فكرية ونفسية وعصبية شديدة. فمن المؤلم أن يدفع الشعب دمه من أجل حياة قائده أو سيده أو حزبه. خلال تلك السنوات، توقف جيل كامل عن التعليم سواء المدارس أو الجامعات في سبيل المتارس، وقلة ممن التحقوا بالتعليم حسب سخونة المنطقة. القلوب جميعها موجوعة فكل بيت له قتيل أو جريح أو مفقود أو قريب أو صديق حدث له مكروه. الجيل الحالي من

الأطفال يعاني من الأمراض المعدية والحالات النفسية، ارتفاع معدلات مرض السكري والضغط والقلب إلى مستوى لم يحدث في تاريخ البلد، ماتت نخوة الناس وأصالتهم وصار كل جار يشك بجاره وكل أخ مرتاب من أخيه.

يقول الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون "الحرب هي تسلية الزعماء الوحيدة التي يسمحون لأفراد الشعب بالمشاركة فيها". شارك الجميع في الحرب ووقع الفأس بالرأس، وانفجر الناس سفالة عصبية تنم عن الجهل، رأت الدولة أن لا حل لتجاوز الأزمة إلا بالانضمام إلى عصبية من بين العصب، تخوض صراعها لاستعادت ذاتها من براثن الموت كانت هي سبب في برثنتها. والتصرف المتأخر بالتوعية كان أشبه بإعطاء علاج لميت، أخطأت في البداية حيث حاولت الاستفادة من العصبيات لتبقى هي ممسكة بالخيوط وكمن يقول (طير يا طير وحبلك في يدي). لكنه طار وأخذ معه الحبل. كان يفترض في أول قرار للحكومة يوم نشأتها وضع قوانين تجرم العصبية وتعاقب أي متعصب، لكنها قررت الاستفادة من العصبية لتستمر في استبدادها، كذلك فعلت ماليزيا حتى أقرت قوانين تعاقب بالسجن الفوري لكل مواطن ينعت مواطن من عرقية أخرى (مثلا صيني ينادي مواطن باسم عرقيته، تعتبر جريمة، فقط ناده باسمه)

ونجحت في حجب العصبية من تصرفات مجتمعها لأن سكانها من أصول هندية وصينية وملايوية وكأنت النتيجة ماليزيا اليوم. لكن هنا بعد صراع قاتل شمل شعب بينه وبين نفسه، تفجر المجتمع عصبيات جديدة لم تكن موجودة أو أقلها كانت ميتة مؤقتا وتم إحياؤها ومدها بوسائل الإنعاش منها العصبية الإقليمية والمناطقية والهجية والحارتية والمذهبية والطائفية في إطار البلد الواحد وصار واقعا قابلية التعصب وقابلية التحارب وقابلية الانقياد خلف اسم مستعار. إشكالات توالدت من إشكالية واحدة وتفرعت لتشمل البنية الخارجية والداخلية للعمق المجتمعي.

***

الأستاذ مسعد، الحقيقة أنه تغير أولاً في بعض سلوكياته. مثلاً، لم يعد يجبر أحداً على قراءة عناوين الأخبار كما كان لسببين. الأول، فقدان الثقة بالجرائد لأنها انخرطت في نشاط تهييج مشاعر الكراهية والعصبية والتحريض والفبركة واكتشف أن أخبارها في الماضي كانت جزءاً من التمهيد للحرب الأهلية. والسبب الثاني، أن ثمن جريدة صار استنزافاً للجيب مالياً. ثم، تغير شكله، فقد بدن جسمه قليلا ليبدو قصيراً على ما كان عليه، وامتلأت وجنتاه واسودت جفناه لتزيد من سواد عينيه، وفقد

بعضاً من أسنانه الأمامية، شعر رأسه النصف أبيض يتساقط ويبرز منظر جبهته العريضة، صار يحلق شاربه ليخفي الشيب الذي يزيد من كبر سنه للناظر. أما جلده، فقد زادت سمرته وخشونته بشكل كبير. والسبب إلى جانب العمر والظروف التي مرّبها والنزوح هو المشي تحت أشعة الشمس ليوفر ثمن النقل. ورغم أن لهذا فائدة للجسم كرياضة، إلا أنها لم تخفف من رعشة يده اليسرى التي تزيد مع الزمن. ولا سبب طبي واضح لذلك لكونه صار يُهمل صحته إلى حد بعيد. ليس هو فحسب ولكن الناس جميعا تآكلت وجوههم وشاخت وأضافت الحرب عقداً إلى جانب الدمار الشامل على الكبار والصغار.

أعُلن مسبقا أن اليوم بداية تأهيل المدارس بحيث تبدأ نشاطها التعليمي في القريب العاجل وعلى كل موظف الالتحاق بمقر عمله. وقف الأستاذ مسعد على أطلال المدرسة، يتذكر الماضي ويتمزق ألم، يمرّ على مكتب المدير ويتصفح الجدران وهي مغطاة بشعارات الفصائل المسلحة فكل من سيطر رسم شعاره وكتب عبارته، كل شيء مسحوق ومحطم. يزيل بقدمه الأعيرة النارية بغضب. يقف خلفه الأستاذ فتحي يربت على كتفه وهو يقول "من هنا نبدأ، لم نحسن البدايات وكانت هذه النتيجة، اليوم نحن أمام بدايات جديدة ويجب علينا أن نحسنها لتكون النهايات وردية". استدار الأستاذ

مسعد لتقع عيناه المغرورقتان بالدمع على عيني فتحي واللتان لا تختلفان عن عينيه وقال بانكسار:

- مجهود جيلين تم محوه، لم أكن أتوقع يوما أن طلابي يتركون المدارس ويرابطون خلف المتارس، طلابي صاروا مجرمين، قتلوا بعضاً ذبحوا بعضاً أكلوا لحم بعض.
- جميعنا موجوعون يا مسعد.
- أضعنا زهور عمرنا لتكون النتيجة كراهية، كم كنت أتوج بملك الدنيا وطالب يُجيب على السؤال، كنت أرى سهر أمي وعرق أبي في تربيتي وتعليمي يثمران أمامي كزهرة ربيع متمثلة بطالب أمامي يحمل على أكتافه أحلامي. لم أكن أتوقع أن أكتافهم ستحمل البنادق ويحفرون الخنادق ليس ضد مستعمر كما كنت أقول لهم بل ضد بعضهم البعض.
- فتنة كبرى ستلعننا الأحجار جيلاً بعد جيل.
- ستلعننا الأصلاب قبل التكوين لأننا فقأنا أعيننا بأيدينا.
- يا مسعد، سنبدأ من جديد والتجربة لن تتكرر فالجميع أدرك أنهم ضحية.

- أهذا ما تتوقعه يا فتحي؟! صدقني، لو قررت مجموعة قنوات إعلامية إقناعنا بذبح بعضنا مجددا لضربنا الأعناق أضعاف ما قد حصل لأننا سنستحضر الأحقاد والكراهية والانتقام.
- لا تكن متشائما، لنؤدي دورنا التربوي بكل أمانة ونضاعف جهودنا كأقل ما يمكن تقديمه. والباقي على الله...

***

قرار من مكتب التربية والتعليم بتعيين الأستاذ مسعد مديرا لمدرسة ابن خلدون. في الطابور الصباحي الأول، يتحدث الأستاذ مسعد لطلاب وهيئة التدريس والإداريين، أشاد بالمدير السابق وقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة، ومن ثم استمعوا لنصائح وأوامر المدير الجديد. بدأ الأستاذ مسعد حازما رغم قلة عدد الطلاب والالتحاق تدريجيا حسب استعادة دورة الحياة. من الزاوية الغربية لأطلال المدرسة، يقف الأستاذ مسعد وزميله فتحي، أعينهم تتصفح الطلاب وهم يغادرون، كل شيء تغير حتى النشاط والحيوية، بدا مسعد أقل اندفاعا من الماضي. يهز راسه ويده تتأبط كتف زميله وراح يتحسر:

- أنظر يا صديقي، بالأمس، كنا نراهم أملاً قادماً، وحصل ما حصل. واليوم، هل يحق لي أن أراهم أملاً قادماً؟
- لنأمل بهم خيرا.
- نحاول معهم.

الأستاذ فتحي أستاذ مادة الجغرافيا. خلال السنوات الماضية التي فقدها من عمره فقد خسر شعره تماماً وهو الآن أصلع. ونتيجة للصلع وبالإضافة للعمر، فقد بدا أنفه أكبر من المعتاد. ولتعويض ذلك، فقد اعتاد على تربية عثنون (سكسوكة) لتحسن من مظهره وتبرز وجهه العريض وبياض جلده. برزت له كرش خفيفة وهذا ما يزعجه كثيراً وقد راح يكثف من رياضة المشي وليفرغ أيضاً الطاقة السلبية كما يقول. تغيرت طباعه من الهدوء إلى الانفعال في بعض الأمور وما زالت حكمته في التعاملات متحكماً بها. الجديد في حياته هو عادة التدخين والتي أيضاً أصابت مسعد. وبالتزامن، كانت البداية شيشة في حالة هروب من واقع وخلق جو بديل في مخيم اللجوء ولم تكن لهما تأثر ملفت حتى تطور الأمر إلى تدخين السجائر بشراهة.

***

الرجل المتعجرف العنيف، خشن الطباع، الحذر، داهية الاقتصاد، جاسر نبيل، اشتعل رأسه شيبا ولكنه يداوي بياض الشعر بالصبغة، هو متوسط الوسامة، في السنوات الأخيرة لم يلتزم بالرياضة كما كان متعودا حتى زاد وزنه قليلا واسمر وجهه وظهرت التجاعيد على وجهه وبرزت حنجرته. وخلال السنوات الماضية صار أيضاً رجل سياسة، لم يعد ظلاً كما كان. توحش بشكل علني وواجه الرياح وصمد في أشد الأوقات قساوة، ساند المعارضة وكان ارتكازاً مهم لصمودها، شريحة شعبية تراه مهيئاً لإخراج البلد من محنتها بسبب قوة إعلامه وأيضاً لنجاحه الاقتصادي. كان ينتظر للحظة التي يتوافق عليه الجميع وكم وعُد بذلك. كانت زياراته للبلد قصيرة جدا لرفع المعنويات، وأبقى على نفسه بالخارج حيث اللقاءات والاجتماعات والمفاوضات. في الداخل، أعوانه كثر وقد أداروا الأمور بحرفية حتى طال أمد أزمة الصراع. نتائج المفاوضات لم تكن مرضية لجاسر ولكنها فرضت عليه واقُتنع أن لا دور قيادي له وكما اتفق الجميع أن ملف إعادة الإعمار تحت سلطته ونفوذه وإدارته والدول المانحة هي أكبر ضامن له ولمستقبله الاقتصادي. هذا لم يمنع الحذر، بل إنه في أعلى درجاته. ومع توسع وسائل الاتصالات وشركة جاسر هي الرائدة في هذا المجال فللخدمات المرئية المباشرة نفعيتها في شتى المجالات وفي مجال إدارته

لشركاته عن بعد وعقد اللقاءات عبر سكايبي أو برامج مشفرة إن كانت سرية. أسبوعيا، يعقد اجتماعاً للشركة عبر البث المباشر ويمارس عمله عن بعد. أجيرته (بتلة) تعيش إلى اليوم معه وهي تخطط لتركه فقد ملت البقاء. مساعده صبور، هو الجني المصور بشكل بشر الذي يخوض أشد المناطق سخونة واقتتالاً، ظل إلى يومنا هذا ممارسا لعمله في حماية أملاك الشركات وتسيير ما يتطلب منه.

***

رجل المخابرات العقيد عمر هو الآن برتبة عميد. تجاوز هذا العام العقد الخامس من العمر، ملامحه الجذابة متغيرة بشكل دائم، رغم ذكائه وهدوء أعصابه وعمله المستمر بشكل مكثف فهو مهتم بمظهره وأناقته وتسريحة شعره، ما بين الفترة والأخرى تكون له تسريحة جديدة. هذه الأيام حضوره بلحية خفيفة وإن كان نصفها أبيض وكذلك الشارب ليزيد قليلاً من عرض وجهه النحيل. وبين الوقت والآخر، يغير شكل اللحية ففترة تكون خفيفة وفترة ملساء ويبقي على الشارب وأخرى يحلق اللحية والشارب. ولا يختلف الأمر حتى بشعر رأسه رغم سلاسته كالحرير إلا أنه يقسو عليه بحلاقته حسب الموضات المتاحة ومنها الصفر. هو يرى ذلك

من نقطة تغيير ملامحه وكي لا يكون له شكل ثابت ويفوت فرصة التعرف عليه عند التنقلات مع تغيير نوعية الملابس ما بين شعبي متنوع ورسمي وشبابي. ولو هناك حل للتنكر وتغيير طوله ورشاقته المتناسقة. لفعل من باب التمويه. فهو مهووس بذلك. لا يحب النظارات السوداء فهو يرى فيها تمييزاً لشخصيته. جلده الأسمر وعسلية عينيه وهندامه الأنيق تجعله أشبه بممثل سينما. هذا هو العميد عمر والذي له أسرار شخصية في داخل قلبه (لا أحد يعلمها سوى مدربه الراحل العميد فاروق وشخصيات معدودة أكثر سرية في الجهاز لا أحد يعرف عنها شيئاً) ليكون الغموض في شخصية أهم عوامل النجاح في عمله وبقاء عينيه أمامه ولا حتى التفاتة واحدة للخلف في مجال عمله.

يرتمي العميد ليسند ظهره على كرسيه بانتظار تقرير طلبه من نائبه الذي شغل هذا المنصب (العقيد خالد). عينا العميد معلقتان في سطح المكتب، وتفكيره يعود إلى لماضي ويحاول تجميع المعلومات. فالبداية الآن هي أكثر صعوبة لربط أرشيف الماضي بتقارير الحاضر واتصالها بالمستقبل. صحيح أن أرشيف الجهاز وكثير من مبانيه تعرضت للاقتحامات والحرق، إلا أن النسخ السرية التي لا يصل إليها أحد تحبس في مخازن سرية للغاية تتبع مكاتب سرية للإدارة والتوجيه وكانت من أولويات العميد الراحل فاروق

إبان شغله لمنصب خوله لمثل هكذا احتراز تحسبا لأي حروب قد تنشب. اقتحام المباني والسطو على محتوياتها خلال السنوات الحمراء، كشفا الكثير من الأسرار والمعلومات والأسماء وهذه كانت لها نتائج وخيمة من تصفيات وتحولات كبرى أثرت وربما سبب في انهيار مدن وفقدان السيطرة عليها. اليوم، هو يعيد ترتيب البيت الداخلي للجهاز بما يتناسب مع المرحلة القادمة وفق أسس جديدة تواكب أهم التطورات العلمية في هذا المجال.

دخل العقيد خالد، استعاد العميد وضعيته وسأل:

- وجدت الملف؟
- وجدت معلومات فقط، ومازلت أحتاج وقتا. (ناول العميد ورق وتابع...) لن يطول ذلك كثيرا.

العقيد خالد هو في منصب مهم وسري حتى في إطار جهاز المخابرات والذي أسسه العميد الراحل فاروق. العميد عمر زكى العقيد خالد ليشغل منصب نائبه السري رغم أن طبعه انفعالي دائما، واختياره تم على أساس المرحلة والتي اتسمت بالعنف وتكليف مهمات لضابط يكون فيها غير متعاطف عند تنفيذ العمليات والتي هي خارج إطار الجهاز وخارج إطار القانون بمبرر بأن الإعلام كان قبل الحرب ينحاز دائما للمجرم الكبير عند محاكمته ويصفه بالبطل المناضل ضد الدكتاتورية والنظام القمعي

الذي يحاكم الكلمة أو الشرفاء أو الخصوم وتتحرك للدفاع عنه منظمات وأحزاب تجعل منه بطلا لا فاسدا خائنا. وكانت تساعد في ذلك ثغرات قانونية. لم تردم ولم تطور النصوص بحيث تغلق الأبواب أمام لصوص النصوص القانونية. وهذه مراحل تستخدم فيها المغالطات اللغوية والتوصيفات تحت ضخ إعلامي هائل. وبالتدريج، يتحول الخائن إلى بطل في نظر المواطنين الذين وقعوا تحت تأثير مخدرات الإعلام غير المهني. ذلك كان قبل الحرب، أثناء الحرب ومن المؤكد سقطت سلطة القانون وإن كانت في الأصل ضعيفة أو غير مُفعلة وسقط حتى الدستور وأضحت المدن كلُ فصيل يملك مدينة وبعضها تملكها فصائل ولكل زعامة قانونها الخاص يُطبق بعشوائية. وهنا، برز الدور الأكبر للمخابرات للعمل بشكل أوسع وأسرع وفي سباق مع الزمن والأمر لم يقتصر على الفصائل، فكل فصيل شكل لنفسه مخابراته ومنهم من تمكن من اختراق الطرف الآخر وكانت الاغتيالات حدثاً يومياً بأرقام مخيفة وبنيت السجون في كل مراكز الفصائل وتفنن الجميع في علم التعذيب وبطرق بشعة وكأنهم تخرجوا من أكاديمية الشيطان يمارسونها بحرفية عالية ودون ضمير أو وازع أو رحمة أو أي انتماء ولو بسيط للإنسانية. العقيد خالد، كان في زمن الحرب ناجحا في تنفيذ المهام وساعدته شخصيته الانفعالية والشرسة في ذلك حتى أنه لا

يداهمه التعب بسهولة ويستطيع التحكم برجال المهمات تحت إمرته بصلابة ولا يسمح للخطأ بالمرور من مربعه السري. بعد انتهاء السنوات الحمراء، العميد عمر سبق له واتخذ قرار استبعاده من منصب نائبه وإسناد منصب آخر له، لكنه منتظر الوقت المناسب حتى ينتهوا من باقي الملفات الأمنية وفي الوقت المناسب سُيعلن عن قراره.

***

يوم ماطر والرياح تتجول بحنان موزعة قطرات المطر لتتسلل عبر شقوق النوافذ والأبواب. الأستاذ مسعد جالس يتصفح كتاباً إلكترونياً من ضمن الكتب المتاحة سواءً كانت مجانية أو مقرصنة. لم تعد الكتب الورقية متواجدة ولا لها باعة. يرن هاتف مسعد النقال، يتصفح رقم المتصل، وإذا به رقم فتحي، يرد مبادراً:

- مرحبا أستاذ فتحي.
- "عمو" مسعد. (المتصل هو مسعد بن فتحي)
- يا حبيب "عمو" (ينتصب الأستاذ مسعد فخراً لأن هناك من سُمي باسمه)

- "عمو" أبي يضربني دائما، لم يعد يحبني. (كلمات لا تعجب الأستاذ مسعد...)
- ولمَ يفعل ذلك؟!
- لا أدري "عمو".
- نصف ساعة وأكون عنده. لا تخف يا بني.

مسافة الطريق والأستاذ مسعد أمام فتحي، وجده أكثر اضطرابا من الأيام الماضية ومن الأمس أيضاً. بادره الأستاذ مسعد "أعرف أن لنرمين رحمها الله مكانة في قلبك، فقد كانت لك حبيبة ورفيقة. ولكن مشيئة الله أن تغادر الحياة مبكرا". قاطعه فتحي بغضب يهز جسده وتعرق شديد وعيناه محمرتان:

- ليست مشيئة الله، أنها الحرب اللعينة. لو لم تكن الحرب، لكنت عرفت مرضها، إن علاجه بسيط لو علمنا، كم عاشت مرعوبة، كم بكت لأشهر.

ربت زميله على كتفه وهو يعلم أن فتحي يمرّ بحالة نفسية ليست بالعادية إلى مستوى تعنيف ابنه، فقال له بهدوء:

- الدكتور رؤوف، لنذهب إليه.

تساءل فتحي بانكسار:

- وهل الطبيب النفسي سيعيد لي نرمين؟ (رؤوف كان زميل الثقافة في المقهى الثقافي سابقا).

أخذ الأستاذ مسعد نفسا عميقا وتلفت يمنة ويسرة وقال:

- كن عاقلا، أنت أب. وإن كانت نرمين انتقلت إلى رحمة خالقها، فإنها قد تركت لك أمانة جميلة وبصمة لروحها الطاهرة، أنه مسعد ابنك... شعب بأكمله يمر بما تمر به اليوم وأشد وأقسى، آثار الحرب باقية. قال الروائي واسيني الأعرج في رواية مملكة الفراشات: "الحرب ليست فقط هي ما يحرق حاضرنا، ولكن أيضاً ما يستمر فينا من رماد حتى بعد خمود حرائق الموت." لكننا يا صديقي سنتجاوز المحنة كما سبق وتجاوزنا محن.

من تحت عتبة الباب طلت السيدة كلثوم أم فتحي بوجهها المنكسر وموجة التجاعيد التي تركتها أعاصير قساوة السنوات الأخيرة وهي تشير برأسها لمسعد وكأن الحلول السحرية بيديه الذي بدوره أخرج هاتفه النقال من جيبه وبحث عن رقم هاتف الدكتور. ثبت معه موعداً في الغد، إلا أن مسعد تصرف كعادته وضغط على الدكتور بأن يلقاه في اللحظة. أخبره أنه ليس في العيادة. قال له "نأتيك لبيتك ونتحدث"، وتساءل إن كان الدكتور

لا يرحب بهم في بيته. وقع رؤوف في إحراج ورحب فيه فورا وها هو في انتظارهما...

جلسا في غرفة الاستقبال والدكتور رؤوف يرحب بهما. المنزل من الداخل خضع للترميمات المقدورة عليها من قِبل المالك، الأثاث متواضع جدا. تبادلوا أطراف الحديث وسمع الدكتور لمسعد وفتحي وهو أيضاً يعلم أن الجميع مصاب بنفس الحالة، فهي عامة. فقال مسعد مكابراً:

- أنا تعرضت لموقف بين السكين وبين ذبحي ثانية، عانيت كثيرا. ومع كثر المآسي، تناسيت ماحل بي تدريجيا وأثره مازال في قلبي إلى اليوم لكني قوي وأتحدى وعورة الظروف والنتائج القهرية.

بصدق قال لهما الدكتور رؤوف:

- أنا طبيب نفسي وأصبت بمرض نفسي، وفي حقيقة الأمر أنه الوجع. فقد عانينا كثيراً وما شاهدناه يوازي ملايين أفلام الرعب، بل عشناه ولامسناه واقعيا. ولكننا كبشر نستطيع التأقلم في المرحلة الأولى والتغلب على الحالات النفسية بالإرادة وتذكير أنفسنا أنها انتهت ولم تعد موجودة.

- أوف، طبيب ومريض (يتهكم مسعد ويخلق جو من المرح) كم مات من الشعب في السنوات الحمراء ولم أر طبيباً مات أو سمعت بجنازة طبيب؟!

سحابة خفيفة من السرور خلقت للتو. ذكاء الطبيب حرك جسده ثم وقف مخاطبا:

- لنتجاوز محنتنا النفسية، لا دواء، نحن نخبة وكوادر، لنعد للرفيق الذي لا يمل رفقتنا (ينظران إليه بتركيز وهو يفتح ذراعيه) لنعد للقراءة للكتاب لنستعيد الثقافة والأدب والتاريخ والجغرافيا، إذا مات الكاتب فالكتاب ذكره الجميل. ومن ماتت حبيبته فابنه ذكراها البديعة.

قاطع مسعد متسائلا:

- أين الكتاب؟ فقد اندثر سوق الكتب والمكتبات والقدرة الشرائية صفر.

عقل فتحي يعمل الآن على عدة محاور من الذكريات، كتب، فصل دراسي وشرح الدروس وابنه. أجاب الطبيب:

- سأشتري طابعة سريعة ومن لديه كتاب إليكتروني عليه فقط شراء الأوراق وطبع الكتاب ورقيا. هذا حل.

تنهيدة أخرجت فتات قلب مسعد:

- أين مقهانا الثقافي؟! يا وجع قلبي ويا وجع التاريخ.

صمت الدكتور قليلا وصرخ وهو يقرع أصبعيه:

- وجدتها... وجدتها يا رفاق، سنؤسس مقهى ثقافياً.

نظر مسعد نحو فتحي وكذلك الأخير فعل، وبصوت واحد ولكلٌ كلماته المختلفة، مسعد وهو يشير بسبابته نحو الطبيب:

- مجنون، من أين لنا القدرة المالية لفعل ذلك؟!

فتحي أيضاً يشير نحو الطبيب ونظراته معلقة على مسعد:

- لم نستطع ترميم منازلنا، فكيف نؤسس مقهى ثقافياً؟!

نطق الطبيب بعد صمت لبرهة من الزمن:

- يا رفاق، الحل عندي (وقفا بلهفه وهو يتابع...) لؤي يمتلك مبنى ورثة ويجب هدمة لبناء جديد والمنطقة ليست تجارية، لنستأجره منه ونرممه ونشغله.

انطلقت أصابع مسعد نحو أرقام لوحة الهاتف وإذا به يتحدث مع لؤي عبر برنامج الفيبر. عبر لؤي عن سعادته لذلك وأنه لا يقبل تقاضي إيجار من الثقافة وأن ذلك المبنى ليس بموقع رئيسي حتى يكون إيجاره مرتفعاً، وسيمنحهم صك استخدامه واعدا أنه سيعود حال انتهائهم من تأهيل

المقهى. (لؤي لجأ قبل سنوات إلى أوروبا ولم تكن حياته هناك كما توقع ويترقب الوقت المناسب لعودته).

***

قانون دولي معمول به وملزم عند أبرام عقود مشاريع الاستثمار الدولية، وهو نص في العقود كنوع من ضمان حقوق الشركات المستثمرة. "عند استحالة التنفيذ لأسباب قاهرة خارج مسؤولية وإرادة الشركة وكنتيجة سببها أحداث داخلية للبلد المستثمر فيه، فيحق للشركة إعلان قانون حالة القوة القاهرة"، أصبح تنفيذ العقود المبرمة مستحيلا، أعلنت الشركات حالة القوة القاهرة وعلقت التنفيذ عندما تراءى لها أنها لن تتمكن من إنجاز عملها أو إكمال المشاريع وفقا للاتفاقات ونظرا لنشوب حرب داخلية، وما يبدو أن الأعمال القتالية لن تنتهي في أجل قريب. يترتب على ذلك تعويضات مهولة، تقاس فيها أرباح الشركات التي أوقفت المشاريع خلال سنوات التوقف وكأنها كانت تنتج، والتعويض يرمى على عاتق الدولة بعد الاستقرار وقد يستمر التعويض لجيل قادم. وتضاف إليها الأرباح المالية التي من المفترض أنها حصُلت لولا نشوب حرب داخلية. كل خسائر الشركات الاستثمارية لا تساوي خسارة شركة نفطية واحدة.

خلال سنوات توقفها، تحسب يوميا حصتها من الإنتاج وتضاف إلى رصيدها وكأنها انتجت برغم من توقفها عن ذلك تحت بند القوة القاهرة. لجاسر شركة نفطية أبرمت عقود مع الدولة وشرعت في التنفيذ قبل بداية السنوات الحمراء بأشهر وكان ذلك محسوباً حسابه ومقصوداً حيث تكثف الاستحواذ على حقول غنية جدا، وصارت الدولة بعد الاستقرار مديونة لهذه الشركة فقط ما يمنحها أحقية امتصاص النفط لأضعاف مدة التوقف حتى تستوفي حقوقها، خاصة وأسعار النفط أيامها كان ثلاثة أضعاف ما هي عليه اليوم للبرميل الواحد. الدولة تخوض مفاوضات مع الشركات على أن يتم التعويض جزئيا وعلى فترات أطول، بحيث تتحصل الدولة على سيولة تمكنها من الاستمرار الجزئي وإن كان ذلك لا يفي بالغرض إطلاقا والأمر يحتاج لنهضة دولة من حاكم ومحكوم وفق خطط اقتصادية مبتكرة وحديثة وقوانين معصرنة مواكبة للحداثة واستقلالية قضائية وانفتاح على العالم بشيء مبتكر ينقل الفرد من حامل سلاح إلى مهني منتج وفعال. وهذه لا تُخلق حقيقة في حاضنة اجتماعية للجمود الفكري والممارسات الخاطئة من استحضار للماضي وتوابعه ولا من ترقب وتربص لأي انفلات مستقبلي ليأخذ كلُ فرد بقوة السلاح ما يحسبه له. الأمر يحتاج تجرداً من ماضي يصل إلى حدود الأمس. وكما أن البذور الزراعية المحسنة

والتي تنتج أضعاف ما تنتجه بذور قديمة مازالت تزرع اليوم في هذه البلاد حصرا، فالتغيير أمر لا مناص منه، كاستبدال بذور الأمس ببذور اليوم التي تضاعف الانتاج الزراعي. ومن هنا، منطلق استبدال ذهنية الماضي السحيق والعنيف المتخلف بذهنية الغد المعصرن والمتداخل مع جزيئات الحداثة من أرقام وأشكال هندسية ونظريات وتحليلات ونتائج مسبقة محتملة قبل أي حدث مع نظريات لمعالجات لأية سلبية مفاجئة.

***

(حي الصفيح تغير للأسواء) كل عام يمرّ، والمعنى تحسر على السوء. فعلا، لابد أن المتغيرات في الحي جلية. لم يعد هناك سوى القليل من السكان، منهم من فر ولجأ خارج البلد بطعم الذل المجاني، وهناك من قُتل نتيجة الاقتتال، وهناك من قتل طرفا في الحرب. البيوت القصديرية (متارس) ممهدة في الأرض، اختفت حتى الإطارات القديمة حيث استهلكت في تضليل العدو بواسطة كتلتها النارية والدخان الأسود، السخم يغطي الأحجار والقلوب. ما تبقى من أحياء كلٌ يلملم جراحه بإعادة نصب صفيح بمكان منزله للسكن (إعادة إعمار حي الصفيح بالصفيح، إعادة إعمار العشوائية بعشوائية). مقهى صغير هناك كان يقدم الشاي ويجتمع فيه

الكثيرون لمشاهدة مباريات كرة القدم، وسوق صغير لبعض باعة الخضار أو الأشياء البالية، ومكان لعطار يقدم خدماته. وفي مكان مقابل، أبو احمد البقال. كل ذلك سوي بالأرض أبو أحمد البقال يعمل على إعادة متجره الصغير لما كان عليه بعد أن اطمئن لإعلان الجهات المختصة أن الحي صار خاليا من الألغام والمخلفات الحربية.

رشيد أبو حفيظ عاد للحي وكان أول من استعاد وضع بيته وسكن. تواجد أبو أحمد البقال مع رجل من الشؤون الدينية أمام باب رشيد، سأله الموظف إن كان لا يمانع بتولي شؤون المسجد بقرار رسمي يتم تكليفه بذلك. قبل المهمة باغتباط شديد. وبما أنه موافق، عليه التواجد غدا بمكتب الشؤون الدينية لتسلم القرار. رشيد أبو حفيظ، متدين جدا وواقعي ومنطقي، لا ينتمي لأي حزب أو جماعة دينية، يؤمن إيمانا مطلقا أن الدين واحد والرب واحد والنبي واحد والكتاب واحد والقبلة واحدة وأن ما اختلف فيه الناس وتقاتلوا ليس سوى نزغات الشيطان وحب التسلط وليست من الله ورسوله في شيء. لا يؤمن بالفروقات ولا التكفير، كان قبل الحرب يحفظ جزءاً لا بئس به من القرآن، الآن، أوشك على الانتهاء من حفظه، هو فاهم في أمور الدين والتفسير ولكنه ليس طليق اللسان بالمعنى الفصيح الذي يجمع الناس من حوله تحت تأثيرات وسيطرة

الصوت ومخارج الحروف والتي تكون حالة انبهار بالسامع. الرجل وصل لسن الخامسة والخمسين. سنوات الحرب، التزم خيمته في مخيم اللجوء الداخلي وكان إمام الصلاة في المخيم في الهواء الطلق. ورغم سلوكه المتزن تحت جناح السلم الذي ينشده ويحدث به دائما، فقد شكل هذا حوله عداوات وكراهية لشخصه بأنه سلبي ولم ينطق بالحق ويحدد من هو السبب ولا بد أن الله مع الحق الذي يجب أن ينتصر في نهاية المطاف، هكذا يقولون له. فكان رده واضحاً ألزمه البقاء في خيمته دون تدخل في الأمر حين قال إن الله ليس مع أحد من جميع الأطراف المتقاتلة ولا مع أية حجة من الحجج وإن الله لن ينصر أحداً. اعتزل الجميع ولم يشارك في الرأي الحربي ووجد أن في الحياد خيراً تلبية للحديث الشريف الذي يقول (كُونُوا أَحْلَاسَ بيوتكم).

***

الدكتور رؤوف الرجل الأربعيني، يعاني من قصر النظر. باتت النظارة الطبية نصف ملامح وجهه المستطيل، يتفرمل إطارها بأنفه الحاد. قصير القامة نحيل الجسد، أسمر وشعره أجعد، هادئ الطباع وكثير الحركة. من يراه للمرة الأولى، يعتقد أنه مرتبك ولكنها جزء من تركيبته الخارجية.

ثلاثتهم، مسعد، وفتحي ورؤف، يتصفحون جدار المبنى القديم الذي ورثه لؤي، استحسنوه، طابق ارضي، فيه جداران يجب تهديمه في الداخل وفتح باب على الشارع الرسمي من الخلف. ما بين خيوط العناكب والأتربة المتراكمة من سنين غابرة وروث الحيوانات كون المبنى مؤجر لراعي يضع فيه مواشيه. الرائحة مقيتة جدا. فتحوا النوافذ الخشبية للتهوية. أكثر من استحسن المبنى هو مسعد كونه قديماً يذكره بعبق التاريخ. خرجوا ووقفوا في الخارج قليلا. وعلى بعد أمتار هناك، بقايا شجرة مكسورة ولها ارتباط بالتربة، توجهوا نحوها وأزالوا بعض من أغصانها المطروحة أرضا، افترشوا الأرض وولد نقاش مفيد لخطة تأهيل المبنى. انتهوا من النقاش ليبدأوا من الساعة تأهيله بأيديهم. أمامهم مهمة كبيرة، وكلٌ منهم هاتف رفيقه من القدامى ليتواجد. تأسيس مقهى ثقافي لم يكن موضوعاً لا أثر له في النفوس، بل دبت أوصال الحياة في قلوبهم وتناثرت نسماتها في دهاليز الأرواح وكأن مخلفات السنوات الحمراء لم تكن وكلٌ يرسم في مخيلته الصورة القادمة لمقهاهم والذي سيحمل نفس اسم المقهى القديم (الدب الصغير). نعم، سيفعلونها وبأيديهم وحسب امكانياتهم المتاحة، ترميم الجدران بالطين كما كان. فهو مبني من الحجر والطين فقط.

***

في قاعة اجتماعات تضم أبرز ضباط المخابرات، رئيس الجهاز يترأس الاجتماع للوقوف على العهد الجديد بعد بدء الاستقرار وما تتطلب المرحلة القادمة. تحدث رئيس الاجتماع كثيرا، خاض بمواضيع لا حصر لها، وما أن انتهى حتى أمر من له اقتراح تطوير فليقل ما عنده. العميد عمر مقترحا:

- سيدي، أقترح تشكيل لجان تقييم، لجنة اقتصادية، ولجنة إعلامية، ولجنة تعليمية، ولجنة صحية، مهمتها دراسة الحالة العامة وما يجب علينا متابعته ومراقبته. وأقترح لجنة تحقيق سرية للوقوف على مسببات الحرب ومن السبب لكي لا تتكرر المأساة ولنكتفي بتوصيات فقط.

لم يعجب البعض ذلك، حتى رئيس الاجتماع كان رده فورياً:

- أتريد أن نتولى دور وزارة الاقتصاد والتعليم والإعلام والصحة؟! لتلك وزراء يديرون شؤونها، لدينا ما يكفينا من الأعمال.
- سيدي، أقترح أن يخضع أهم ما يخص المواطن تحت مجهر الأمن الوطني السري للدراسة، لمَ لا نشرف على المناهج الدراسية ولا نسمح للأفكار الدخيلة أن تمارس في عقول أبنائنا؟ لمَ لا نشرف

على شركات الأدوية؟ أيضاً، لا يجب أن تُمنح تصاريح ممارسة الإعلام إلا بموافقة، كم كان بلاء الوطن بسبب الأقلام والأصوات المدلسة؟ لو كان ملف الاستثمار يمرّ من تحت أيدينا ما امتلك مستثمر اقتصاد البلد وصار هو المهيمن عليه. والآن، البلد تحت مقصلة قانون القوة القاهرة من يخلص البلد من بند القوة القاهر الذي بموجبه صار الوطن مديوناً لشركات بثروت أجيال؟

- يا سيادة العميد، أنت تخلط بين دور مؤسسات الدولة ودورنا، صحيح أن عملنا تعقب. ولنا ارتباط بتعقب الإعلام. لكني لا أرى فائدة من تعقب التعليم والصحة. لذا، سنوعز للسلطات العليا أن تزودنا بأسماء الوزراء قبل إعلان التعيين ويتخذ القرار بعد موافقتنا.

أحد الضباط الكبار قال مجاملا:

- اتفق مع رئيس الجهاز، أتفهم طرح العميد عمر، ونكثف تجنيد من يعمل في الجهات التي ذكرها سيادة العميد. لا يمكن أن نتوسع أكثر، وربما هناك توجه مستقبلا لإنشاء جهاز استخباراتي آخر وموازٍ ولا اعتقد أن الأمور ستدار بنفس المراحل السابقة.

بعد انتهاء الاجتماع، ذهب كلٌ إلى مكتبه، دخل العميد عمر إلى المكتب يتبعه العقيد خالد والعقيد قمر الدين جلس وهو يأمرهم:

- بيانات الشركات الدوائية وتجنيد عملاء جدد ليعملوا معنا ليزودنا بالمعلومات، ملف الشركات الدوائية يُوضع في أرشيفنا، أيضاً معدو المناهج الدراسية يكونون من رجالنا، الشركات الاستثمارية وقانون القوة القهرية، أريد دراسة لثغرات القانون. لا يجب أن ننام، البلد تحت المقصلة للأبد، البلد في مراجل النار لأجيال قادمة أدخلوها إلى شفرات الفرامة.

جلس على الكرسي المقابل للمكتب، العقيد قمر الدين راح يشرح:

- قانون القوة القهرية للأسف قانون دولي وأي إخلال به نخضع للتحكيم الدولي وإلى محاكمة دولية وسترفع ضدنا قضايا رابحة في دول مؤثرة ومن يدري ورفضه يعني الفصل السابع أو الاستعمار، لا أرى سوى تفاوض الجهات المخولة في بلادنا مع الشركات.
- لن يتمكنوا منا. لن يتملكوا بلادنا بواسطة عميل تجاري قذر..
- سيدي، عدم التفاوض والوفاء بالمعاهدات الدولية خاصة في الجوانب المالية لا مزحة فيها، فلنعد لتاريخ قناة السويس. بسبب الديون، استحوذوا عليها.

- لا تنس أنها أممت. لن يستحوذوا علينا ويملكوا قوت أجيالنا.
- سيدي، وكان الثمن باهظاً ولولا الالتفاف الشعبي حول القيادة لما نجح التأميم. سيدي القانون يسري على الطرفين دولتنا والشركات، ومن يتسبب بتعطيل الإنتاج يتحمل الحصيلة المحتملة من الأرباح مع أرباحها التراكمية. والتعطيل جاء من خارج نطاق الشركات نتاج حرب داخلية تسبب بانسحابها ولها استثماراتها وأموالها. ولو أن الشركات هي سبب التقصير، لكانت دولتنا طالبت بها يطالبون به.
- لا مناص إذا. قل لي! وما حكاية العقود النفطية والتي تخضع لقانون القوة القهرية والشركات لم تقلب حجرا وسجلت دخول أموال عبر البنوك ومعدات من الموانئ. وبالأخير، خرجت الأموال _غسيل أموال_ وخرجت المعدات من مواني لم تكن تحت سيطرة الدولة ولم توثق عملية الانسحاب. إنها عملية مرتبة ومخطط لها.
- للأسف سيدي. الحل أن نقف في وجه أي استحواذ آخر.
- وهل بقي شيء غير مملوك لغير الدولة؟ لا أدرى كيف نطلق رصاصات الرحمة على ما تبقى من روح فينا. كيف نستطيع النوم

ونحن مديونون لأجيال، ليت العقول تعي وتدرك النتائج السحيقة.

استدار العميد نحو العقيد خالد، وقال له:

- لِمَ لا تجتمع بأهم الاقتصاديين في الجامعة وتدرس معهم تصور للمرحلة القادمة، وما نوعية المشاريع التي يمكن ان تكون مناسبة وبديلة، ونحن سنضغط من اتجاهات عدة لتنفيذها أو على الأقل نلم بالمواضيع الحساسة؟!

- سيدي..

قاطعه العميد:

- أعرف أنه تجاوز لعملنا، ولكن هذه بلد منهكة والأغلبية لا تواكب المتغيرات، وأي شيء له نتيجة فعالة سنتدخل وإن كانت نهاية وجودنا. هنا سيعيش أطفالنا وليس في وطن آخر. لو لزم الأمر سنكون سنداً لرجال أعمال وطنيين. لا أدري أي ضمير يمتك هؤلاء، كيس القمح يباع هنا أربعة أضعاف سعر الشراء من البورصة. بالأمس، دخلت الى موقع البورصة وتابعت الأسعار، بل راسلت شركة بيع وردوا على رسالتي وبأسعار البيع بالجملة ولا فرق بين باقي أسعار المنتجات الاستهلاكية الأخرى. ففي

بلادنا، تباع بأربعة أضعاف سعر الشراء من المصدر وبجودة رديئة.
كيف تسمح الدولة لهؤلاء بالتوحش؟!

رد المقدم قمر الدين:

- صوامع القمح اشتراها من الدولة رجل المال جاسر نبيل. القمح يدخل للبلد حصرا عن طريق شركاته ولا أحد يستطيع القيام بهذا غيره.

عقب العميد عمر:

- ونحن بكل سذاجة نقول له شكرا لأنك تبيع لنا القمح بأرباح تصل لأربع مائة بالمائة. صح؟ نقول له شكرا لأنه طيلة سنوات الحرب يبيع الشعب قمح بأسعار خيالية وبجودة سيئة والشكر له لأنه استمر بالبيع والاحتكار؟! المفروض هو من يشكر الشعب لأنه سبب غنائه الفاحش يشكر غباءنا لأننا سمحنا له بالتوحش. رجل سيئ توغل حتى بالدم. (وجه أصبع السبابة نحو العقيد خالد وأمره...) افعل ما أمرتك فوراً...
- أمرك سيدي.

***

ما أروع التكنلوجيا، آلة زمن، تستحضر الإنسان في أي زمن أو مكان بلمح البصر، حضور كلي رغم بعد الجسد، اختصرت المسافات ووفرت المجهودات ووسائل الأسفار. نقل حي بالصوت والصورة كأنهم في غرفة واحدة، هكذا بدأ اجتماع جاسر نبيل رجل المال والسلطة الخفية بقوة ما يملك مع رؤساء شركاته وخبرائه عبر سكايبي. تنقلوا من موضوع لآخر، مطمئنا للبث المباشر كونه صعب الاختراق كونه مالك شركة الاتصالات كما فتح للتو هذا الحساب الذي أطل منه وكذلك المدير التنفيذي لشركاته. احتراز يعتقد أنه منيع ويبقى الاجتماع لمناقشة أمور مالية وإدارية وليست ذات محتوى سري والتي لها برنامج خاص.

اطلع على سير طلائع إعادة الإعمار وآخر المناقصات المستحوذ عليها. انتقلوا إلى الملف الإعلامي ونسبة المشاهدين الذين تناقصوا بشكل ملحوظ لقناته الإخبارية. قال رئيس الشركة الإعلامية موضحا الأسباب:

- مجمل أسباب أهمها، تناقص سعر رصيد شحن الأنترنت الجيل الثالث والرابع. الآن، بوسع المستخدم الاعتماد على الهاتف الذكي واستقبال التدفق الإعلامي. الأغلب انسل من إدمان التلفاز وانغمس في وسائل التواصل الاجتماعي ويستقبلها بالثانية عبر

نافذته. هناك نسبة لم تعد تقتنع بما تطرحه قناة الأخبار لميولات إلى اتجاهات أخرى...

- باختصار، ما هو الحل؟ لا أحب كثرة التفاصيل، أحب الحلول الناجحة. (هكذا قاطعه جاسر)
- الحل، أن نؤسس مواقع إخبارية ونروج لها الكترونيا بإعلانات ممولة على مدار الساعة. وخلال أسابيع، نصل لملايين المتابعين. وتحت تأثيرنا مواقع إخبارية تلبي جميع المختلفين، كل توجه نلبي رغبته بموقع يقول ما يرغب فيه وما يستحسنه. وسنركز على عناوين تجذب القارئ للولوج للموقع مجبرا.
- لا أرغب في التخلي عن قناة الأخبار.
- نبقيها ونقلل ميزانيتها إلى أقل مستوى مقابل إنشاء قناتين إخباريتين، واحدة تتحدث باسم طرف، والأخرى باسم الطرف الآخر. ويمكننا شراء صفحات ومواقع إلكترونية لها متابعون بمئات الآلاف والملايين، ونستخدمها لاحتياجاتنا الترويجية.

حك ذقنه وهو يقول:

- حسنا، ينفذ فورا. رئيس شركة الإسمنت والحديد، ماذا لديك؟

- سيدي، مازلنا مسيطرين على السوق، مصنع الإسمنت الحكومي بحاجة لعامين حتى تنتهي إعادة تأهيله فالأضرار بالغة وطاقة إنتاجه ضعيف جدا وقديم أيضاً. مصانعنا لا تكفي لتغطية إعادة الإعمار. لذا، الجدوى الاقتصادية جاهزة لنستورد باقي الاحتياج. الحديد أيضاً، مصنعنا لا يكفي. سنستورد وهناك عروض بأسعار ممتازة كون الاحتياج يفوق التوقعات في فترة قياسية.
- جيد... جيد، الصناعات الغذائية، هل نفذت نتائج الاجتماع الأخير؟

أجاب رئيس الشركة الغذائية:

- نعم سيدي، مطلع الشهر القادم لن يخلو أي منتج مهم من شارة (حلال).

(شارة حلال، تكتب خلف الغذائيات لاعتقاد لدى المستهلك أنها توافق الشريعة وخالية من دهون الخنزير وغيرها، هناك اعتقاد مسبق أن المكونات الحرام قد تدخل في كل الصناعات، أيضاً هناك ارتياح عام ونفسي لدى المستهلك عندما يرى شارة حلال، يتخلله شعور مقدس ويجد نفسه مستهلكا للمنتج).

- رئيس شركة الأدوية، ما عندك من جديد؟

- استهلاك الدواء زاد مؤخرا منها المضادات الحيوية وأدوية الأمراض النفسية رغم تكلفتها الجيدة لنا وثمنها الباهظ في الصيدليات. حسب الإحصاءات العامة فإن الأدوية المصنوعة أجنبيا هي الموثوق بها مقارنة بالمحلي.
- إذا لنصنعها في الهند، الأمر في غاية البساطة.
- نحن وكلاء شركات كبرى سيدي، ولا يمكن تقليد منتجاتها.
- صبور.

أجاب صبور بنعم سيدي

- هذه مهمتك.

سبق لجاسر أن ناقش ذلك مع صبور، على أن تصنع منتجات الشركات العالمية باهظة الثمن في الهند بنفس العلامة الأصلية وتستورد كميات قليلة من المصنع الأصلي وتلتقي الشحنتان في ميناء ترانزيت لتجمع في شحنة واحدة وتدخل البلد كأنها من مصنع واحد وهو الأم للمنتج. بمعنى الوكيل هو من يوزع المقلد لنقاط البيع.

***

يقول المثل الإنجليزي: "خطأ الطبيب يدفن تحت الأرض وخطأ المهندس يقع على الأرض أما خطأ المعلم فيمشي على الأرض". لذا، يرى المدير مسعد أن له دوراً تربوياً إلى جانب الإداري. له حصص أسبوعية في الفصول الدراسية. يقف أمام السبورة المهترئة وبيده أصبع الطباشير. بزاوية حادة من عينيه يراقب طالبا ما، بدا مظهره غريباً وهو جالس على كرسيه، أصلع ولم يبق سوى جزيرة معزولة من الشعر في مقدمة رأسه. يرتدي نظارة سوداء، يتقلد سلساً فضياً، أزرار قميصه مفتوحة تظهر جزءاً من صدره. سنه أكبر من زملائه. كتب الأستاذ على السبورة (تاريخ التاريخ) واستدار ليقابل الطالب الغريب ويأمره بالوقوف، وقف والأستاذ يتهالك نفسه من التقيؤ. صوب ناظريه لسروال الطالب وإذا به يبرز جلده. بغضب سأله:

- عرف التاريخ.

أجاب وجسده يتراقص:

- أنت أستاذ تاريخ وتعرف الإجابة، لمَ تسألني؟

ضحكات الطلاب تتعالى بسبب وبغير سبب، فقد بدا للأستاذ أنه من الصعب التحكم بهم. فالطلاب أمامه يشبهون بعضاً باستثناء الواقف فقد زاد قليلا عن زملائه. الأسلوب المتبع في هذه المرحلة اللين مع الطلاب

لأن تمردهم نتيجة لصغائر، الأستاذ يعرف أن الأحداث كانت لها أثرها السلبي، ولكن الميوعة أوسع من أي وقت مضى.

- يا ابني، سألتك سؤالاً. لا ترد عليّ باللامبالاة، أنا أستاذك وأحب لك الخير. (هكذا رد على تمرد طالبه)

ضحك الطلاب ساخرين دون سبب يدعو لذلك. خرج على أثرها الأستاذ غاضبا إلى مكتبه. هدأه زملاؤه الأساتذة، لكنه قال لهم بألم:

- في الماضي، كان الطالب قليل أدب ويخاف أستاذه. اليوم، قليل أدب ومنحرف.

رد عليه الأستاذ فتحي:

- لا تنسى أنهم خرجوا من حرب، ولذلك أثر نفسي.
- كل الأمم خاضت حروباً، وبتاريخي لم أقرأ عن مثل هؤلاء.
- حروب الماضي اختلفت عن اليوم. الآن، كل قطرة دم على بعد مئات الكيلو مترات يشاهدها الجميع، سواء بالتلفزة أو بالأنترنت. هذا خلق جيل متعب نفسيا متشبع بلون الدم، لا يرتعد لمنظر جثة ولا يهتز لحادث دهس طفل.
- نتيجة مرعبة ولا تبشر بالخير. على الدولة إخضاعهم للطب النفسي لتجاوز هذه الحالة.

- ومن أين للدولة عشرات الآلاف من الأطباء النفسين يا مسعد؟! يعاني الشعب بأكمله نفسيا. الدولة نفسها معلولة نفسياً.
- تنشط وزارة الإعلام حصص للأطباء لتوجيه الشعب صحيا.
- دورها مهم في هذه المرحلة.

صمت مسعد قليلا ليتراجع عن اقتراحه ويشكك بنجاعته:

- ولكن يا فتحي، كيف ستصل القنوات الإعلامية الحكومية للشعب وهي غير متابعة. لكل مواطن قناة ترفيهية لا حكومية ولا وطنية، ولكل مواطن موقعه الافتراضي. بتاريخي لم أر أحدا يسمع الراديو منذ زمن. من كان يتوقع ابتعاد المواطن عن الراديو.
- تغير الزمن وصار لكل إنسان قناته الإعلامية.
- لابد للقنوات المحلية أن تعمل بجد للتواصل مع الشعب واستعادته من أحضان القنوات التي لا تمت للوطن بصلة.
- كيف ذلك يا مسعد؟ ببرامج إباحية أو انحطاط فني؟ أو بمسلسلات مدبلجة البطل يطلق زوجته لتتزوج صديقه لأنها حامل من الصديق، ويشعر البطل بالخزي والعار أنه حرم حبيبين من نعمة الحب ويقصد صديقه وزوجته؟؟؟!

- مقرف يا فتحي. فعلا، هناك مسلسل شهير تدور أحداثها حول ما ذكرت، شهرته تخطت كل بيت. كم قرأت من مقالات نقدية بالصحف. انحدرت الصحف لمستوى الوضاعة.
- تتذكر في الماضي عندما كنا نصحو مبكرين إلى كشك الجرائد لنحجز واحدة. كم كان جميلا ذلك اليوم وأنا أرتشف البن بالحليب والبرد الرقيق يدثرني وأنا أتوجه للكشك.
- آه، آه، يا فتحي، إنك تعود بي إلى الزمن الجميل الذي ننتقده وكنا نكرهه. كم كانت الأخبار في الصحف لها نكهة ومذاق. كنت أقلب الصفحات وأستمتع بالألوان والدعاية، حتى مدح الدولة والتطبيل كان مهذباً. اليوم، اليوم تتناعت الصحف بالأم والأخت واتهامات بالمثلية وبالاغتصاب و...
- مؤسف يا صديقي أن يفقد المثقف ومعه المواطن الثقة بالصحافة، إنها موت قيم وجدت لتكون نبيلة، وجدت لتنصر المظلوم وتعالج المشاكل بالطرق الأدبية وفن الخبط الصحفي. اليوم، أرى الجريدة فتثير قرفي، أفتح قناة الأخبار وأنا أرى الجميع يكذب واتقياً.
- والله يا فتحي، شاهدت خبراً عاجلاً بقناة أن عشرين قتيل في حارتي. وبعد دقائق من الخبر فعلا حدث قتلا وكانوا ثمانية. وعند

المساء، وجدت في قناة سبعة عشر وآخر واحد وستين قتيلاً. يا لها من مصيبة، عندما تسير قنوات الأخبار وتوجه أطراف لتنفيذ عمليات القتل.

- ماتت أخلاقيات المهنة الصحفية ولن تعود مهنة نظيفة لأن ثقة الناس بها انهارت وشاركت في هلاك ملايين البشر. يفبركون حتى معلومات الأبحاث والاختراعات ينسبوها لغير مخترعيها والقصائد تنسب لغير أصحابها وإن كانت مشهورة، حتى المعلومات الطبية تفبرك.

***

للتكنلوجيا ضريبة. نعم، بغمضة عين، بين الأمس واليوم وغروب الشمس وشروقها، وجد الناس حياتهم مختلفة في نمط تتبع الكتروني وتواصل ورسائل مجانية صوتية وحرفية ومباشر. لا أحد يمكنه البحث عن شخص ولا يجده بثوان وإن كان لا يملك رقم هاتفه، يكفي كتابة الحروف الأولى من الاسم ليجده في الإنترنت. هذا، نقل الإنسان من عصر لعصر. ومن عاش العصرين، يجد الفرق ونكهاته. الأستاذ مسعد تخلى عن الجريدة الورقية تدريجيا خلال السنوات الماضية ووجد نفسه بدون عادة

خلُقت معه، ولأسباب عدة منها انعدام بعضها في مكان إقامته خلال السنوات الحمراء، والبعض الآخر أعلنت إفلاسها مؤخرا ولم تعد قادرة على دفع التكاليف وتحولت إلى صحف إلكترونية، وإن وجدها يقرأ فيها ما يُخجل من قذف وفبركات مما جعل المثقف حيراناً ويدرك أن يد السطو الشيطانية استولت على الحروف والسطور والحبر والورق والحقيقة. لذا، كان لزاما وطبيعيا أيضاً في هذا العصر أن يكون متواجدا في صفحات التواصل الاجتماعي حيث قربت زملاءه منه وصار يرسل كل ما تصادفه من معلومة أو مقالة غريبة إلى بريدهم الخاص وينتظر التعقيب ويغضب إن تجاهله أحد. اليوم هو في حالة غضب، أرسل مقالة عبر المراسلات الخاصة لزملائه ومعارفه، لم يرد عليه البعض بتعقيب. فقط الرد محصور باللغة الالكترونية والعصرية والتي هي إشارات ورموز ولكل منها معنى، منهم من أرسل له شارة تبتسم وآخر شارة تدوخ وآخر شارة لسان بارزة..

***

حالة الطوارئ في أوجها وستستمر لسنوات. فهناك خلايا تنشط في نقاط مختلفة ولها تأثير بشكل عام والتي ترسل من خلال عملياتها أن الوضع ما زال مضطربا وغير مستقر وأنها مازالت قوية. بشكل عام، الوضع الأمني

أفضل من سنوات الحرب في الشوارع والحارات السكنية. لا أحد يجرؤ على حمل حقيبة يدوية والمرور من أماكن فيها نقطة تفتيش كي لا يتعرض لردة فعل كاشتباه، ولا تجمع يزيد عن إثنين أيضاً كي لا يكون الناس موضع اشتباه تكوين جماعة. فالحرب قتلت النخوة، والوسائل الانتقامية والعملياتية غير الشريفة عادت سلبا على المواطن بشكل خاص. فلا يستطيع من له حالة إسعاف أن يسرع في قيادة السيارة كي لا يعتقد أنها مفخخة وتتعرض لنيران. وكم حدث هذا كنتيجة طبيعية للتصرفات الرعناء والتي تنم عن قصد لإيصال المجتمع إلى حد التفخيخ النفسي.

الدكتور رؤوف في طريقه لعيادته، يمشي سيرا على الأقدام لتجاوز شارع لا تعبر منه وسائل النقل كونه لم يرمم بعد. لا يحمل حقيبة بيده ولا يرتدي سترة يمكن أن تثير الشك حوله، هكذا هم المارون بين الركام جميعا. ما حول الشارع مبان مدمرة ويجب رفعها وإعادة بنائها، كانت محلات تجارية زاخرة لمواطنين. فهناك في الطرف، كان أشهر محل للحلوى، وبجانبه صيدلية من ثم متجر للمجوهرات. وبالجهة المقابلة، كان مطعم يقدم وجبات سريعة وبجانبه مكتبة ثم محل ملابس أطفال. وهكذا حتى نهاية الشارع، كان شارعاً رئيساً وكان جميلا بفعل التنافس التجاري. وعلى جزيرة الطريق، واحة من الأشجار تمتد من بداية الشارع إلى نهايته وكذلك

أعمدة الإنارة العمومية والكهرباء. ليلا، كانت الأنوار ذات الألوان المتنوعة المنبثقة من لوحات إعلانات المحلات تعطي الشارع جمالا كأنه تحفة فنية، كانت الشقق في الدور الثاني للمباني عبارة عن مكاتب تجارية ومكاتب محاماة وعيادات أطباء ومعاهد لغات صغيرة. كل هذا انتهى ودُمر تماما وسوي بالأرض بخبث وغل عميق لا سابق له وكأن البلد لم يكن لهُ تاريخ، أعراف قبلية ولا دين وصل لأهله ولا قانون سمعوا به. نهبت المحلات والمكاتب وبعدها كل مسلح تمركز خلف عمود هو ملك مواطن وليس ملك أبيه أو أمه. الدكتور رؤوف يتوغل في الشارع ولم ير حتى ورقة شجرة واحدة، راح يقول بصوت أقرب إلى الهمس "أفرغوا حقدهم حتى على الأشجار وقتلوها. شعب مريض نفسيا". عنده حق الدكتور رؤوف بما قاله فقد سرقوا كابلات الكهرباء والهواتف الثابتة ونزعوا حتى أنابيب المياه وزرعوا الألغام حتى في المزارع وتوقف الإنتاج الزراعي. الدولة أحرقت الغابات الصغيرة والبساتين خارج المدينة كي لا تكون منطلقاً للمسلحين يتخفون فيها وتكون منطلقاً لعملياتهم وأماكن فخاخ. إن كان ذلك حقاً أو باطلاً، فالنتيجة تدمير كل شيء.

***

مدير المدرسة مسعد، يقرر على ضوء خطة تعليمية، ربط الطلاب مع معلميهم من خلال موقع على الفيسبوك. بحيث كل أستاذ يذكر طلابه بما يجب وتُطرق أبواب المعرفة في أي وقت أو زمان لأن الناس صارت على اتصال دائم ما عدا أوقات النوم حسب طبيعة توقيت النائم. بدأ العمل على ذلك وتم ربط الطلاب بمعلميهم وتم إلزام المعلمين بنشر نقاط علمية تذكيرية عبر الصفحة الكترونية. يتوقع المعلمون تجاوباً من قبل الطلاب، وكلٌّ يطرح سؤاله ونقل الفصل الدراسي إلى الافتراضي في الأوقات الأخرى لزيادة التحصيل العلمي والبقاء على اتصال طوال اليوم. ينشرون لطلابهم كل شيء، ولا إعجاب للمنشور ولا مشاركة أو تعليق، الأسئلة تأتي من بعض الطلاب بعدد الأصابع. فشل الأستاذ مسعد في مشروع تنمية جماعية لتنمية قدرات طلابه. فهو يصرح دائما لكل من يسأله عن الوضع أن استيعاب الطلاب لم ير مثله من قبل، مستوى متدن إلى حد لا يبشر بخير.

يهرش المدير شعره ويذرع مكتبه ذهاب وجيئة وهو يقول:

- الطلاب غياب في الفصل وغياب في صفحة الفيسبوك الخاصة بالمدرسة. شاردين في المدرسة وشاردين في الصفحة الكترونية. يا إلهي! ما هذا الجيل؟!

- هدئ من روعك يا أستاذ. نبذل جهدنا فحسب. (هكذا قال الأستاذ فتحي)

توقف المدير عن ذرع المكتب وجلس إلى جانب الأستاذ فتحي وأصابعه تتداخل مع بعضها بانفعال:

- بتاريخي، لو كانوا طلاب هتلر لأنهزم قبل الحرب بشهرين.
- ولمَ شهرين بالتحديد يا أستاذ؟ (تساءل مازحا)
- همممم (يفرك شعره ويفكر ثم يتابع...) شهرين قبل أن يتورط بهم هتلر وتكون فضيحته بجلاجل. تخيل، هؤلاء طلاب في زمن أبقراط أو سقراط أو أفلاطون، تخيل... لسخروا فلسفتهم في لعنهم.
- جيل مائع.

يطلق المدير ضحكة مجلجلة ويقول:

- مائع، مائع... بربك، أنت بعقلك يا أستاذ؟! زمان، كنا نقول مائع، اليوم لا هم تأنثوا ولا هم تذكروا. أول مرة أعتقد أن داروين كان يقصد هذا الجيل. تخيل، منذ الأمس أتصفح صفحات الطلاب على الفيسبوك، ماذا رأيت؟ رأيت صوراً لا تدل على شيء سوى أنها عدم، لا سلبية ولا إيجابية، يضحكون على كلام عادي،

مصطلحات جديدة لا نعلم لها معنى، لم أصل لفكرة ما في عقولهم، يبدون لي تائهين، مشردين، هائمين، لا أعلم، حقيقة لا أعلم يا أستاذ فتحي.

- الاستخدام السلبي للوسائل الاجتماعية سيقود هذا الجيل للموت الافتراضي، فلا هم أحياء ولا هم موتى. الأمر بحاجة إلى معجزة إنقاذ.
- كل شيء صار في تناول أولادنا في الإنترنت، يمكن الولوج للعلم بثانية، ويمكن الولوج للإباحية بثانية. لا شيء يوقف هذا التدفق ولا يمكن التحكم بهم. فهناك تعطش غريزي لهذه الأمة من بين الأمم بكل ما له علاقة بالمسخ.
- الأمر لا يقتصر على الإنترنت، فشاشات بعض التلفزة العربية أكثر إباحية مقارنة بالماضي، ولا يفاجئني ظهور قنوات عربية بعد الساعة الثانية عشر ليلاً.
- أقسم لك عندما كنت في هولندا، فقنواتهم التلفزيونية أكثر حشمة من القنوات العربية. القنوات الإباحية باشتراك ولا تتدفق للبيوت تلقائيا. قنوات العربية فيها أكثر إثارة ولقطات ساخنة في الفيديو كليبات والأفلام والمقاطع الإعلانية.

- ألهذه الدرجة يا أستاذ؟! هل يعقل هذا؟! التصور العام لدينا أن في الغرب الناس يمارسون الإباحية وحياتهم انفتاح مطلق. (قالها فتحي باستغراب مطلق)
- معلومة، في الدول العربية جلسات مساج (تدليك) تقوم بها نساء في الفنادق الكبيرة وبعض المراكز المخصص لذلك. لو قلت لك إنها ممنوعة في بعض المدن الغربية ويمنع حتى الترويج للجنس. صحيح لديهم مراقص ولكنها ليست كمراقص العرب حيث خلف الجدار غرف نوم تؤجر للرذيلة. هناك دول عربية فيها بيوت دعارة مرخصة وهناك مدن غربية بالأصل الأهالي يرفضون وجود بيوت دعارة في جوارهم. قديما، كانت الأوربية تلبس ما يغطي أخمص قدميها. ومع الانفتاح، صار النبلاء يذهبون للقرى الأوربية بقصد الزواج وسموا النساء القرويات الفاكهة المحرمة.
- أنا لفت انتباهي الأفلام الأمريكية عندما تمشي الأم مع صغيرها وتسمع كلاماً مُعيباً، تضع إصبعيها في أذني طفلها كي لا يسمع الكلام السفيه. وحتى إشارة الأصبع الوسطى إذا حدثت مشادة وأشار أحدهم بذلك، فالأم تغطي عيني طفلها وكذلك الحركات التي تدل على الانحراف.

- نعم، فليس الغرب منحلاً كما نفهم. نُقلت لنا فكرة خاطئة بأنهم ليسوا حتى اجتماعيين ولا يرتبطون بطاعة الوالدين وأشياء كثيرة هي مجرد هرطقات نتناقلها نحن العرب دون واقعية. فالناس في الغرب مسيحيون ولهم تعاليم دينية والأمر سائر على باقي الديانات. ولا يوجد دين بالأصل يأمر بالفاحشة.

***

منزل الصحفي محمود عبدالوهاب أنيق جداً من الداخل يشبه النمط الغربي من حيث الديكور والإضاءة والأثاث الراقي. منزله لم يتضرر في الأحداث الدامية. فهو يقع في حي خارج دائرة الصراع فيه سكنات الدبلوماسيين وبعض السفارات ويسمى بـــــ (حي السفارات). يعيش وحيداً، فجميع أفراد العائلة متواجدون في أمريكا منذ بداية الأحداث الدامية حيث كان من الأوائل الذين تقدموا بطلب تأشيرات لأمريكا وهناك طلبت أسرته حق اللجوء والتحق أولاده بركب التعليم هناك. لذا، يُعد قهوة الصباح بنفسه ويذهب إلى البلكونة المطلة من الدور الخامس ويجلس ويحتسي قهوته بتذوق حيث يعشقها ويتلذذ بها. طبعاً، هذا بالتزامن مع استخدامه للوحة الإلكترونية، راح يتصفح أهم الصفحات

المحلية لناشطين لمعت نجوميتهم ولهم متابعون كثر، لاحظ أن موجة الجهر بالإلحاد الكترونيا كثرت ولكن بشكل مختلف عن مفهوم الإلحاد العام، حيث قرأ لمرات عديدة منشورات لمن يُبرز ثقافته الإلحادية التي تتمحور حول عصبية وهجوم ضد خصم لأسباب دينية وهجوم مكثف لأسباب مذهبية أي أن ملحداً (شيعي سابقاً) يهاجم السنة وملحداً (سني سابقاً) يهاجم الشيعة، استفزه ذلك وراح يكتب منشور لينشره على منبر صفحة في الفيسبوك:

الفرق بين الإرهابي والملحد

"لا أسوأ من الإرهابي الإسلامي إلا الملحد العربي، فكلاهما يدعون للاجتثاث وثقافة الموت حاضرة وبقوة. لا توجد لديهما ثقافة للتعايش في وطن وأحد. فكل طرف يعود لجذوره الدموية سواء بالفعل أو القول والترويج. لم يُعلن ملحد عربي واحد بأنه ابتكر مشروعاً ونظرية للتعايش والبناء _مع أنه لا يستطيع_ فقط ثرثرة وسب وقذف للخصوم ولا مرونة في الطرح والنقاش، مما ينم عن جهل بالشيء مقارنة بملحدي الغرب الذين منهم العالم والمخترع والمكتشف والمؤلف والفيلسوف. الإسلامي يدعو للخلافة بالسيف والدم وينشد الذبح والسبي والغنيمة وهو لا يمتلك عقلاً ليفكر ويحلل ويبتكر. والملحد العربي يدعو لإزاحة الدين عن

حياة المسلم بكميات لا حصر لها من السباب والشتائم والتهم ولا يمتلك عقلاً يُبدع وينظر ويتفلسف ويتتلمذ ويُتلمذ. الملحد العربي مازال متأثراً بالتطرف الذي خرج من عباءته للتو. فهو يحمل في قلبه الكره والضغينة للآخر المخالف وعدم قبول الرأي ولا يتحمل النقاش ويدعو للعنف أيضاً وبمبررات ساذجة لا تختلف عن مبررات الإرهابي. الملحد ذو خلفية سنية سابقة مازال يضمر الشر للشيعة، والملحد ذو الخلفية الشيعية سابقاً مازال يؤمن بمظلومية الحسين ويضمر الشر للسنة. يا سادة، الإرهاب هي جينات عربية أكان المرء إسلامياً متشدداً أو ليبرالياً أو علمانياً أو اشتراكيً أو قومياً أو ملحداً أو مسيحياً أو يهودياً، فإذا عرفت عربياً فقد عرفت كل العرب، واسألوا التاريخ عن مجازرهم جميعاً في حروبهم الداخلية والأهلية فقط منذ خمسينيات القرن الماضي إلى اليوم. يا سادة، الخلل في العقل العربي الذي يتدحرج بين الأقدام فلا دين نافع معه ولا إلحاد، هؤلاء يحتاجون إلى اختراع لقاح للأنسنة والتفكير يتم حقن الأجساد العربية لعلها تُنشط العقول وتتعلم معنى المنطق والواقعية ومعنى التفكير الإيجابي والتعايش في وطن واحد.."



حرية الرأي، أوهم الناس أن لهم حقوقاً في ممارسة آراءهم أيا كانت بدون ضوابط، وبدلا من تقسيم الشرائح الإدارية للمجتمع كلاً له حرية الرأي في مجال عمله ولا يحق له ممارسة الحرية بجهل لأنها لبنة أولى للاحتراب ولاقتتال طويل ما يعلم نهايته إلا الله، مثلا: الطبيب يمارس حرية الرأي المطلقة في مهنة الطب، والمهندس في مجال الهندسة، والأستاذ في مجال التعليم، والصناعي في مجال الصناعة، والثقافي في مجال الثقافة و يطبق ذلك على كل المهن،،، حينها، ينشط الإبداع والحرية المنظمة لتكون النتائج إيجابية تكلل بالبناء وإعداد جيل يكون مفتاحاً لنجاح أجيال من التقدم والابداع الاقتصادي والصناعي والمعرفي والبحثي. أما إعطاء الحرية لجاهل، فهو كمن يعطي سلاحاً مذخراً لقرد بداخل سوق، النتيجة مجزرة. إذا كان جاهل واحد يستطيع هز مجتمع بجريمة واحدة، فكيف بتجهيل نسبة ولو واحد بالمائة من الشعب مع إعطائهم أحقية وحرية وشرعية لتصرفاتهم تحت شعارات تبدو لهم أنها تستحق النضال العنيف. حينها، يدمرون المجتمع ولا تستغرب إذا امتد هذا الداء باتجاه مجتمعات مجاورة، إنه سلاح دمار شامل بدون تخضيب اليورانيوم أو شحن وقود صواريخ، فقط شائعات وكلمات تبدو بسيطة وحناجر تصدح بالآراء بصوت رنان. كل ذلك هو نعش الأمة وأول مسمار كان الفساد الاقتصادي، حيث أن

الفقر جعل المجتمع فاشل يبحث عن هوايات بدت له سهلة منها القيل والقال في الأمور السياسية. كل مواطن وجد نفسه خبيراً في علوم سياسية بمجرد متابعة قنوات الأخبار ظانا أن الأمر يحتاج متابعة وقدرة على الكلام والتراشق بالحجج ولا يعلم أن ذلك علم عريق ينشط من قراءات ودراسات طويلة. نهاية الفقر التعمق في القيل والقال والسبب هو الفراغ الموجود في حياة المجتمع الفاشل اقتصاديا. وبما أن أغلب المجتمع ليس لديه ما يخسره، فمن السهل عليه المغامرة بوطن تحت شعار مزيف، ولو كان الاقتصاد متوازي بين المجتمع حيث أن الطبقة الاجتماعية طبقة وسطى، لخافت على مصالحها وترفض أي مشروع وإن كانت تبدو لوحة وتحفة فنية. فالخوف على المكاسب الشخصية يجعل المرء يقظاً ويرفض أي مشروع لا يعود علية بالمكاسب.

حارس المدرسة الحاج هجرس، مهمل في عمله إلى حد الملل. ورأفة بأسرته ولطيبته، لم تُرفع به تقارير عن هذا الإهمال. ينسى نفسه ويشرد بين الدقيقة والأخرى. المذياع لصق بأذنه ليزيد تركيزه عند سماع الأخبار أو البحث عن قنوات إذاعية. مدمن نشرات أخبار وتحاليل. هو الوحيد الذي مازال يستعمل مذياعاً قديماً مغلفاً بالجلد البني لكنه فعال. هوايتهُ السمر على أثير المذياع وشرب الشاي حتى وقت متأخر من الليل. ومع ذلك، فهو يمتلك

ثقافة إذاعية متنوعة. فللمذياع رونقه الثقافي والفكري والحسي. يحفظ أسماء الساسة والمحللين منذ أربعين عاما، ولكنه يبقى عاجزا أمام سيل الأخبار عن استيعابها بشكل الصحيح. إن استمع لإذاعة لندن، اقتنع بما يُقال، وإن تحول للمونت كارلو، صار مؤمنا بالطرح. وهكذا دواليك بين تدفق الإذاعات. كل هذه المتابعات خلقت له تخوفات مستقبلية، فمنذ عشرين عاما وهو منتظر الحرب الصغرى، هكذا يسمع الحصص التحليلية. اليوم صار ينتظر الحرب الكبرى وفناء العالم.

إلى جانب غرفة الحراسة، يسند ظهره للحائط ويبحر في الخيال. يقف أمامه المدير مسعد ويقول له بعتاب:

- يا عم هجرس، أترك المذياع وتفرغ لحياتك. كما أنت منذ أن عرفتك. إذهب لزوجتك، إنس هذا الجنون قليلا.

يرمقه بنظرة الستيني ويرد:

- أنسيت يا بني، عندما كنت تنام وبيدك الجرائد؟
- لكني لم أقصر في عملي، أنتهي من قرأتها وأضعها جانبا. أنت تسمع نفس نشرة الأخبار المعادة طوال اليوم. وتسهر إلى وقت متأخر وترهق جسدك.
- جميل أن أعرف ما يدور في العالم.

جلس إلى جانبه وقال:

- ماذا يدور في العالم ونحن لا نعلم؟
- ألا تعلم أن روسيا ستهجم على أمريكا بالنووي بالتحالف مع الصين؟
- الذي أعلمه أن لا أحد سيهجم على أحد، مصالح وتقاسموهم. وكلٌّ أضحى ينبذ الحرب لأن شعوبهم صارت تكره الموت لأنها استبدلت ثقافة الموت بثقافة الحياة.
- أقسم أنك لا تفهم شيئاً بالسياسة يا بني.
- ألهذه الدرجة؟!
- أنا أعرف الحرب قبل أن تحدث، أربعين سنة وأنا أتابع الأخبار. قبل عشرين سنة وأنا أسمع المحللين يتحدثون عن نهايات الغرب في ما بينهم. وسينتهون جميعا.
- الشعب بأكمله محللون سياسيون، ولكل واحد فكره المختلف عن الآخر.
- أغبياء، كلهم يفهمون السياسة غلط يا بني.

- هممم، وما دخل العامة بالسياسة حتى يفهموها صح أو غلط؟ ليتني أعلم لمَ يترك المواطن حياته وينشغل بالسياسة وهو ليس سياسياً وعلى حساب عمله وحياته؟!
- مثلك يا أستاذ، تهتم بالسياسة وليست مهنتك.
- أنا أستاذ تاريخ ومرتبط بالأحداث. أنا لست من الدهماء الفضوليين.

***

يا إلهي، ما هذه الحيوية التي بعثت في هذا المشروع الثقافي؟! ما إن نشر الأستاذ مسعد إعلان في صفحة عبر الفيسبوك بخصوص إحياء المقهى الثقافي، حتى تداعى الكثير من المثقفين والحالمين بهكذا مشروع وإذا بالمكان متزاحم بالأفراد للعمل معا وكلٌ يقدم إمكانياته المتاحة. الرفض قاطع لوسائل الحداثة في هذا المبنى. لذا، الترميم للأجزاء المتضررة وإزالة المخلفات من الداخل والخارج. انتهوا من هذا خلال أسبوع وانتقلوا للتأثيث، وكلٌ أحضر ما يملك من القديم، زينوا حائطاً بمكتبة عريضة ووضع فيها بعض الكتب المتاحة. أيضاً، بث إعلان جديد في الفيسبوك للتبرع بالكتب القديمة لمن يملكها وله حرية إن أراد مالك الكتاب كتابة

اسمه عليه والتوقيع. السعادة غمرت الجميع بعد أيام من استقبال الرسائل الواردة من أصدقاء الفيسبوك من الداخل والخارج وإرسال كتب زينت رفوف المكتبة وتحف وصور تشكيلية لمبدعين لم يحالفهم الحظ بالنجاح لأن هذا النوع من الفن مطمور وغير مهتم به. للدكتور رؤوف لمساته الجميلة في زراعة الشتلات حول المبنى. وأيضاً، الأشجار الظلية داخل المبنى. صار المنظر بديعاً، وتزينت المسامع بزقزقة العصافير التي قدمها هاو تفاعل مع منشور الفيسبوك، ليصير المنظر العام مريحاً لنفسية قارئ كتاب أو كاتب كلمات. اتفقوا أن ينشئوا صفحة الكترونية باسم المقهى ليقدموا نموذجا للشباب. هكذا كانت الفكرة. وحددوا موعد الافتتاح في أول أيام الشهر القادم (نوفمبر) وأعلنوا عنه. الملاحظ أن نفسية الأستاذ فتحي أخذت في التحسن.

***

تداعى أهل حي الصفيح حول صوت وأصوات ليتفرجوا على جسد رضيع في لحاف مرمياً على قارعة الطريق. يتصفحونه عن بعد، يراقبون حركته وبكاءه، تتجول كلمة لقيط حول المحيط للجلبة المصطنعة. لم يجرؤ أحد على لمسه أو حمله، يشعرون بشيء غريب يمنعهم من احتضان

الرضيع، فصفة لقيط! تشعرهم بالإثم وبالذنب المقترف، الطفل كائن مختلف، ولم يكن قادراً على إبرام عقد الارتباط. تلك الورقة حددت نسيج جسده وفساد جيناته، تراءت للناظرين والمحملقين والمفسرين. ليس مختلفاً عنهم بالخلق والتكوين والاحتواء، الفرق هو جدول حب تعثر في منتصف مراجل الحديد لاعتبار أسري أو حب من طرف واحد، لتعتقد الأم أن غسل عار تلك الورقة التي لم تبرم فيها اتفاقية التداخل تكون برمي الرضيع كرها بأب انسحب بمنتصف الطريق. العملية المتكاملة ليكونوا الواقفين والرضيع مخلوقين تمت بنفس الديناميكية واكتملت العناصر البيولوجية والتي يتشابه بها كل مخلوق في هذا الكون. ونقصها ورقة تحدد اسم الرضيع ووجوده المجتمعي وبل تسقط حق الانتماء وإن كان مرّ بنفس مراحل الوجود من نية وديناميكية الى بيولوجية وولادة، فهي متشابهة. لا فرق بين الواقف القائل (لقيط...) وبين الرضيع إلا ورقة من حبر ممهورة بتوقيع بأن فلان يملك فلانة. لم يجد الأهالي بأنفسهم القدرة على التصرف سوى التسابق على التقاط الصور بواسطة هواتفهم ونشرها عبر وسائل التواصل. وخلال دقائق، علم كل ناطق بالعربية أن في مكان ووقت كذا هناك رضيع (لقيط). استدعوا رشيد أبو حفيظ كونه القدوة الدينية في الحي. جاء على وجه السرعة يركض، دفع الجموع بمنكبيه إلى أن وصل

لينحني ويحمل الرضيع بحنية بين ذراعيه، يتصفح وجهه، بريء كأي رضيع، عيناه الواسعتان تصدر صفاءً أبيضاً يتوسطه سواد، وجهه عريض فيه من البيض ما يلفت الناظرين، ابتسامته عذبة رغم بكائه، يتسرب من بين شفتيه لعاب طاهر، الدموع الساخنة بريق مضيئ كأنها ندى على زهرة ربيع. الجوع يعتصره يبحث عن شبه حلمة ثدي ليلتقمها. يضمه رشيد إلى صدره، يشعر بولوجه إلى قلبه، يشق الطريق بصمت وعين تتحسس دربها وعين تستلطف الرضيع. في بيته، له ضيف سيطول بقاؤه، هكذا قال لزوجته. عزم على تربيته. لكن بالشفقة لرضيع من مستقبل العتاب الذي سيوجه له أنه لقيط ستبقى تطارده إلى أبد الأبدين. ولم تتوقف هنا القضية، بل تطورت إلى شائعات وتكهنات وتساؤلات، من هي الفاجرة التي أنجبته؟ لم يخطر على بال أحد في هكذا بيئة أن الفجور الأكبر رميه في قارعة الطريق. يبقى ذلك اللغز المحير مستمرا (من هي الباغية؟) وهكذا مجتمع الرجل لا يعيبه الشيء. فلم ولن يتطرق أحد لسؤال "من هو الباغي والفاجر؟" من هو النصاب الذي أغوى انثى ضعفت؟ وربما اغتصبت لا أحد يعلم الغيب، ألا يكفيها وجعها الأزلي بالتخلي عن رضيع حملته في أحشائها؟! ألا يكفيها فقدان مستقبلها الأسري وإلى الأبد ولن تتزوج؟ لم ينحصر السؤال في زاويته فحسب، بل وضعوا إجابات غيبة وكلٌ وضع

نفسه عالم غيب "ربما تكون فلانة أو فلانة". وتستمر الأقاويل والأطروحات ذات مستوى العقول إلى مشاء الله.

***

بشع ذلك الشعور الممزوج بالألم المادي المزمن (أو المعنوي المزمن) والغضب والحسرة. نعم، شعور يقطع الجسد من الداخل كسم أفعى يؤلم ولا يقتل، يشل الجسد ولا تطلع الروح؛ لا الضحية حي ولا ميت. هذا لا يشعر به إلا من عاش هذه الظروف وكان من أشد الخاسرين الموجوعين المكلومين وليس من شاهد في شاشة التلفزة كمن شاهد على أرض الواقع. صحيح أن الذكريات المؤلمة المرتبطة بتجارب العنف المسلح أكثر إيلاما من تلك المتعلقة بالألم البدني، والتي تجتمع مع الغضب في آن وأحد وتتمثل بنتيجة ألم مضاعف بدني كـــــألم ملتهم مثل حرقان المعدة، وألم مرضي ناجم عن الأضرار التي لحقت بالجهاز العصبي كـمتلازمة القولون العصبي. الحاصل الآن، الدكتور رؤوف ضحية، هُجر قسراً من شقته، سكن مخيم لجوء، متألم لتشرده وخسرانه سنوات من عمره، وغاضب لأنه خسر شقته حيث تم تفخيخ المبنى. كلما تذكر اشتاط غضبا وتحول الغضب إلى آلام تنهشه نهشاً، يقول في نفسه "أحرقوا قلبي وقلب زوجتي ودمروا

مستقبل أولادي وسلبوا سنوات عمري دون وجه حق، من سمح لهم بنهب بيتي وأثاثي؟! هؤلاء أولاد الكلب أنجبهم الشيطان. لا يجبر خاطري ما لم أر من أحتل بيتي ودمره معلقا على المشنقة". القصة بدأت عندما تحولت الحارة إلى منطقة عسكرية فجأة، المدنيون في البيوت أوصدوا الأبواب، لا أحد متأكد من هم المسيطرون على الحارة والحارة المجاورة. في البداية، كانت التغذية بالتيار الكهربائي تعمل والمدنيون يتابعون الأخبار، قنوات الدولة تدعي أنها مسيطرة على الحي، وقنوات المعارضة تدعي أنها مسيطرة على الحي، رمادية الواضع واضحة وازيز الرصاص والقذائف مرعبة والرصاص الطائش. فمن المدنيين من قتل أو أصيب ومنهم من تمركز في الحجرات الداخلية بين الجدران في حالة مزرية حتى انقطع التيار الكهربائي وشحت المياه ونفد الطعام. هدنة بين المتحاربين وممر آمن واحد ولمدة ساعتين، بالكاد استطاع الكثير من الأهالي مغادرة الحي ركضا مع أطفالهم وانتهت الهدنة ولم يتسن للبعض المغادرة والبعض الآخر ممن رفض ترك منزله وفضل الموت. كان الدكتور رؤوف وزوجته وطفلاه من ضمن المغادرين. لم تكن الصورة واضحة حينها لرؤوف حول العمل القتالي في الحارة. وبعد خروجه من الحي، تكشفت له الحقائق تدريجياً، فقد عرف أن الحي بين كر وفر مرة تسيطر عليه الدولة ومرة يسيطر عليه

المسلحون (قوات الثورة) بالتناوب، الدولة تتمركز في حي والمعارضة في حي مقابل، وحي "العرجون" في الوسط وكل طرف يعد الانتصار بالسيطرة عليه. عرف رؤوف أن حيهم حي العرجون موقع استراتيجي بين الأحياء المجاورة. وبعد فترة، عرف أن المبنى السكني ذا الخمسة طوابق وبكل طابق أربع شقق يعتبر موقع استراتيجي في قلب الحي حيث يشرف على الممرات الثلاثة ويقطع خط الامداد عن العدو. وبعد فترة، عرف أن شقته في الدور الخامس تعتبر موقعاً استراتيجياً مميزاً للعمليات العسكرية، منها يمكن تمركز أكثر من قناص يسيطر نارياً على شارعين بامتدادهما والسيادة النارية تكون للقناصة في شقة رؤوف لأنهم يتحكمون بالأسطح المقابلة وتدمغ أي متمترس افتراضي لأي قناص يعتلي أي مبنى مقابل. تم حفر ثقوب من داخل شقة رؤوف، ثقبان للقناصة وثقوب متعددة لرشاشات الآلية الثقيلة والخفيفة. كل طرف يسيطر على حي العرجون لابد وأن يسيطر على العمارة وخاصة شقة رؤوف والتي تحولت إلى مسكن خاص لمن يسيطر، استعملوا الأثاث كملكية خاصة وكأن الثورة تبيح استخدام الملكيات الشخصية وكأن سلطة الدولة تبيح أيضاً استخدام أملاك الناس. شاهد رؤوف ذلك في اليوتيوب حيث نشرت فيديوهات عدة للأعمال القتالية وكل طرف ينشر فيديو ليثبت أنه سيطر على الحي

والكاميرا تنقل من شقة رؤوف حيث تصور الشارع ونقاط السيطرة، شاهد المسلحين في شقته وعلى فراش نومه العائلي يستخدمون ممتلكاته وشاهد كذلك رجال الدولة. في أحد الفيديوهات شاهد ملابس زوجته يعبث بها حامل سلاح. عامان على هذه الحال حتى قرر أحد الأطراف نصب فخ للطرف الآخر وفخخ المبنى وبكبسة زر صار ركاما وغباراً يعانق عنان السماء. هذه هي حكاية شقة رؤوف والتي توجعه وتؤلمه بنفس الوقت وتغضبه كلما مرّت ذكرى شقته على باله والتي في الحقيقة لم تفارق خياله وكثيراً ما يقول "شاءت الأقدار أن تكون شقتي ذات موقع جيوستراتيجي. تقاتلوا عليها لمدة عامين. عليهم لعنات الله وعلى من أيدهم ومن حمل السلاح معهم".

***

يركض الأساتذة نحو الساحة تلبية لصرخات مجلجلة وصلت لمسامعهم وفوضى طلابية، يزيحون الطلاب ليفتحوا ممراً لهم حتى وصلوا لمنتصف الساحة حيث يستلقي طالب جريح ودمه الغزير يسيل من فخذه. قاموا بربط قدمه لوقف النزيف وطلبوا سيارة الإسعاف. أكثر من ربع ساعة حتى وصلت السيارة ولم يفهموا ما الذي حدث من فوضى الطلاب

وكثرت الأقاويل والتهم سوى ما رأت أعينهم (طالب نال طعنة بفخذه ويرفض البوح باسم الفاعل). نقل الطالب للمستشفى. بدأ التحقيق الداخلي الخاص بالإدارة واستدعي الطلاب المقربون على انفراد لسماع إفاداتهم. توصلوا إلى أن الخلاف نشب بين الطالب الجريح وزميله بادئ الأمر. مزاح عبر رسائل الوتساب في مجموعة خاصة بالطالب في ما بينهم. وتطور الأمر إلى سباب من العيار الثقيل والتهديد وكلٌ يتوعد الآخر ويتحداه إن كان رجلا ليلاقيه. تلاقوا وكان الحادث.

- ما هذا يا أستاذ فتحي؟! أي جيل هذا؟! طلاب يتخاصمون في العالم الافتراضي ويتطاعنون في العالم الحقيقي؟ (هكذا عبر المدير عن مدى صدمته)
- الجينات عربية، فمن شابه جده ما ظلم.
- أعتقد أن لمرأى الدماء أثر في نفوس الطلاب، كل الوسائل الاجتماعية المتاحة كل ثانية تبادل لصورة قتيل أو جريح.
- لم يعد مرأى الدماء يثير الرعب والهلع لدى الأطفال. إنه لأمر مؤسف.
- نتيجة طبيعية للحرب والتي تنتج جيلاً عنيفاً ومنفعلاً.

***

صفاء تلك الفتاة التي زوجها مربيها وهي قاصر وعانت أهوال وأشكال العذاب الجسدي والنفسي. تقف على بعد سنوات من الذكريات التي لا شك أثرها باق إلى هذه اللحظة. الأحداث الدموية مست كل ماله علاقة بالعمل الإنساني كتوجه مريض. كلٌ يعمل هكذا لإلصاق التهمة في خصمه ليكسب تعاطف ومنضمين جدداً من حملة السلاح. في بداية هذه الأفعال المقصودة والمصورة أيضاً، حدثت مجازر في دور العجزة وفر من نجى وفر من الأيتام من استطاع وحالفه الحظ ومنهم من اختطف واستخدم لأغراض ملوثة بشتى أنواعها. صفاء هربت وعادت حينها لبيت مربيها عنتر وعلمت أنه هرب مع عائلته من ويلات الحرب التي نشبت.

في مخيم اللجوء وبعد أربع سنوات تزوجت صفاء من شاب له علاقة بجماعة مسلحة واشترك معها بعمليات مسلحة وكان ما بين الوقت والآخر يطل على زوجته في مخيم اللجوء الداخلي مستفيدا من إقامتها وأمن حياتها. عانت ومازالت تعاني من الآثار النفسية المكتسبة لزواجها طفلة إلى اليوم. كبرت إلا أن الآثار تنقلها لطفلتها الصغيرة من ممارسة العنف ضدها ومن سلوكيات غيرتها من صفاء العصفورة إلى طائر من الجوارح

مخالبه حادة وكأنه تصرف تلقائي ينم عن اختزال الماضي وتحوله إلى أعمال عدوانية صرفة.

***

استلم رشيد أبو حفيظ مسؤولية المسجد، يتوقف عن عمله في السوق (بيع الخضار) قبل الأذان بعشرين دقيقة ويتوجه إلى المسجد، يكمل صلاته ويعود إلى عمله، لم تعد رائحة كريهة تفوح لا من السجاجيد أو الحمامات. فالمسجد يخضع لعملية نظافة واهتمام يليق بأن يكون بيتاً لله عكس أغلب المساجد والتي لا يتم غسل سجاجيدها والروائح الكريهة تغطي المسجد وما حوله لقلة المياه واستخدام الحمامات دون تنظيف المستخدم ولا القائم على المسجد. وبما أن صناعة الروائح السائلة والمنظفات والمعقمات زاخرة وأسعارها زهيدة إلا أنها لا تلقى طريق إلى القائمين على المساجد رغم حجم التبرعات اليومية والكثيفة يوم الجمعة.

اعتلى المنبر ليلقي خطبة الجمعة، صحيح ليس بالمفوه برغم من حفظه للقرآن وإلمامه بالدين. لكن ذلك لم يمنع دخوله قلوب بعض الناس الكارهين لاستغلال بيوت الله لممارسة السياسة والمغالطات المنطقية والتراشق اللفظي والتربحي. استهلّ الخطبة بحمد الله ونصح المصلين

بتقوى الله والعمل والتسامح: "يا عباد الله، إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا. المساجد يرفع فيها اسم الله ولا يرفع فيها أي شيء آخر. استغفر الله، لقد تحولت المساجد إلى ساحات لتصفية خلافات سياسية ومذهبية ما أنزل الله بها من سلطان. المساجد طاهرة والسياسة نجسة فيها الكذب والدجل والزور والخداع. فلا يجوز إطلاقا أن تكون هذه الصفات النجسة في منابر بيوت الله. هل من المنطقي أن يُجمع الدين بنجاسة السياسة؟! هي الكذب والمكر والخداع والتلاعب. فن مشروع والدين يحرم ذلك. السياسة فيها تبرير للقتل والدين يحرم القتل. تبرر الخلافات المذهبية والطائفية كتنوع عرقي، والدين يحرم الاختلاف الديني وأن الدين واحد والله واحد والنبي واحد. لا أدري ما الذي أدخل الحقد للقلوب وكلُ واحد مال إلى مذهب ولد فيه وكل المذاهب تسجد لله وقبلة وأحدة وتقرأ قرآناً واحداً، ونبي واحد، أليس اختلاف أمتي رحمة كما قال عليه الصلاة والسلام؟! قال الله في القرآن "يا أيها الذين آمنوا"، ولم يذكر الذين تسننوا أو الذين تشيعوا. وإن وجدت الكراهية وهناك نصوص اختلاف، فليس ذلك مبرراً للقتل لأن القتل جريمة يهتز لها عرش الرحمن. ماذا سنقول لله يوم القيامة؟! كم من أسر مفجوعة، كم من بيوت لله دمرت؟! اللهم، ارحمنا برحمتك واغفر لنا وارحم موتانا إنك مجيب سميع الدعوات. يا عباد

الله، أحب مسلم لله من سلم الآخرين من لسانه ويده وسلم من سوء ظنه. أليس أحب مسلم لله من لا يشترك في الفتن. ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بلزوم البيوت عند كثرة الفتن واشتدادها. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمناً، ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً، ويُصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيَّكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة". عند الفتن أمرنا الله بالسعي في درب الصلح لا نفخ النار حيث قال الله في كتابة "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" وقال أيضاً "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون". ادعوا للموعظة الحسنة وتناصحوا بمودة ولا تنظروا للآخرين بأنهم سيدخلون النار، هذا علم الغيب يعلمه الله والتفوه به هو تجرؤ على الله والعياذ بالله. فالرسول عليه الصلاة والسلام وقف في جنازة يهودي وبكى وقال أفلتت مني نفس. اذكروا الله كثير واحمدوه على نعمة ولنصف قلوبنا ليرضى الله عنا"... انتهى من الخطبة وأقام الصلاة. خرج المصلون منهم من مازال موجه العقل ولم يرض عن الخطبة، ومنهم من أعجب بها ووجد أن الخطيب قال ما يجب قوله، ويبقى الناس كلٌّ له مسقى فكر وكثافة معلومات. الأستاذ

فتحي ممن أعجبوا بهذه الخطبة، وقال لأبو أحمد البقال وهما يخرجان من المسجد معا:

- رغم عدم نظم الجمل وترتيب الخطبة إلا أنه قال ما في قلبه بصدق.
- هذا هو رشيد أبو حفيظ، رجل يخاف الله وحريص على الآخرين. وتدينه لله.
- ليست له مآرب من وراء التدين.
- يا أستاذ، منذ سنوات والمنابر تدعو للفتن. قبل سنتين، كان خطيب الجمعة يخطب في كيفية ذبح الكافر بطريقة شرعية، وتناول خنجر ووضعه في موقع أعلى رقبته وقال إن من هنا يجوز الذبح، وأسفل من تلك المنطقة حرام.
- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذه الجرأة؟ لا أعتقد أنهم يعبدون الله، إن هناك من يحركهم بغرض تشويه الدين. فمنهم المرضى النفسيون ومنهم الحاقدون ومنهم النصابون. قال ابن رشد: "أكبر عدو للإسلام جاهل يكفّر الناس".
- رجال الدين يشوهون الدين يا أستاذ فتحي.

- قال الداعية أحمد ديدات: "أشرس أعداء الإسلام هو مسلم جاهل، يتعصب لجهله ويشوه بأفعاله صورة الإسلام الحقيقي، ويجعل العالم يظن أن هذا هو الإسلام."
- لقد شوهوا وخلصوا تشويه. لم يعد هناك مسلم يثق بشيء، أقسم أني لا أدخل المسجد إلا مرضاة لله ولولا مرضاة الله ما دخلته أبدا.
- إذا كان المسلم يفر منهم ومن تحريضهم، فكيف بباقي العالم الذي يشاهد كل يوم رؤوس مذبوحة وتفجيرات لأسباب مختلقة لأبناء الدين الواحد؟ لم يعد أحد في العالم يرغب بسماع كلمة إسلام. فقد تم تشويهه. الأمر بحاجة لقرون لتصحيح ما حدث وتبريره.

***

وسيم القيصري ذلك الرجل الذي دخل السجن بتهمة السرقة، سرقة علبة حليب ذات يوم لطفله الرضيع. حينها، حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات. تعرض لهزات اجتماعية، منها اختطاف ابنه أيام كان في السجن ولم يُعثر عليه. بعد خروجه من السجن، استمر في حياته حتى بدأت السنوات الحمراء، انضم لفصيل مسلح وكان ما كان. بعد عودة الاستقرار الأمني وصدور العفو العام ليشمل الجميع، عاد لمزاولة حياته ويبقي حي الصفيح

موطنه الأصلي قديما وأبان الصراع والآن. يقف بجثته الشديدة البؤس، وخشونة جلده وللامبالاة التي اكتسبها جميعا أيام المعارك. يبحث عن مشروع يقتات منه. فمنذ الاستقرار، انقطعت مستحقاته من الجهة التي انضم إليها. ليس له سوى الاستفسار من أبو احمد البقال كونه تاجراً صغيراً ولعله يرشده إلى طريق يبدأ به مشروعه التجاري الصغير ليقتات منه. أمام محل أبو احمد البقال، جلس معه على الركن الأيسر للمحل وفاتحه بما ينوي طالبا المشورة. قال له أبو أحمد:

- إياك أن تفكر في مشروع في الحي، فلن تنجح أبدا.
- ما نوع المشروع المناسب؟
- يعتمد على المال الذي تمتلكه؟ هل لديك الكثير؟
- ما وفرته من راتبي الشهري.
- أأنت موظف ونحن لا نعرف؟!
- كلك نظر يا أبو أحمد، أتدعي عدم المعرفة؟! وفرت من الراتب الذي كنت أتقاضاه عندما كنت في مهمة الدفاع عن الحي.
- تدمر كل شيء مقابل راتب شهري؟!

- ليس مقابل راتب. نحن دافعنا عن وطننا، نحن أصحاب حق. ولولا الخذلان وعدم دعمنا، لكنا حققنا العدالة. كل دول العالم خذلتنا.
- عدالة غير مفهومة.
- بل مفهومة، على الأقل انتقمت لسنوات التي قضيتها في السجن بسبب علبة حليب، أنا مظلوم، ودافعت عن حقي، الظلم وصل للركب يا أبو أحمد. ونحن شرعية ثورية نضالية. وإن عادوا عدنا.
- لم تحققوا شيئاً.
- بلا، على الأقل أثلجنا صدورنا، على الأقل دمرنا أملاكهم ويقضون عمراً لإعادتها. على الأقل، عرفوا قيمتنا وبوجودنا وأننا لا نسكت. ولو يعود بنا الزمان، لعملت أكثر وأكثر، إنهم ظلمة لم يعطونا حقوقاً ولم ينظروا إلينا، نصارع الجوع والمرض وهم في قصورهم ووظائفهم.
- الثمن دفعه الشعب. أما الكبار، فلم يمت أحد من أبنائهم وزادوا ثراء. والشعب زاد موتاً وجوعاً.
- أتدري ما قاله الشيخ مفتي الثورة؟
- ماذا قال؟!

- قال: تأخر النصر ولعل ذلك حكمة من الله، ولأن الله وعدنا بالنصر واستعادة الأرض لله وحده فالنصر سيأتي يوما ما مهما تأخر.
- وهل ينوون إعادة الكرة مرة أخرى؟!
- كله بأمر الله. نحن معنا الله والوطن. ولولا تخاذل الداعمين، لكنا قضينا عليهم..

وجد أبو أحمد أن وسيم يزداد انفعالاً، فقال له "لنخرج من هذا الموضوع ولنعد لمشروعك، وأفكر لك بمطعم وجبات سريعة في مكان مزدحم".

***

اليوم هو الواحد من نوفمبر، يوم عيد في روح كل مشترك في تأسيس المقهى الثقافي الذي حمل اسمه من مقهى تاريخي باعه الورثة يوما ما وشيد مكانه فندق سياحي وكان اسمه (مقهى الدب الصغير). كلٌ أحضر معه حلويات ومشروبات للاحتفال، وجهزوا شريط الافتتاح ليتم ذلك عصرا. المفاجأة كأنت جميلة أن يطل عليهم لؤي بجسده النحيل والطويل وشعره السلاب النصف ابيض من الجانبين وهو عائد من أوروبا ومنهي سنوات اللجوء. سنوات الحياة هناك اكسبته صحته النفسية في المقام الأول إلى

جانب أن شكله يبدو أصغر من عمره حيث يبدو في العقد الثالث وهو في الحقيقة هذا العام تخطى العقد الرابع. جسمه رياضي ووجهه مستطيل وأنفه حاد، صافي الوجه، أبيض. يرتدي ملابس شبابية؛ حذاء رياضي وسروال جينز وسترة من الجلد الأنيق. فيه من المرح ما يميزه عن أصدقائه. وهذا واضح من طريقة كلامه وابتسامته الدائمة والضحك بخفة دم عند كل موقف يُثير الضحك عكس الكثيرين ممن لم تعد تضحكهم المواقف الكوميدية. لم يستطع التأقلم في أوروبا عكس غيره ولم يتمكن من اللغة الألمانية. فهو كاتب قصة قصيرة معروف وكان يرى أحد أسباب لجوئه إلى خارج البلد بأنه سيتعلم اللغة وسيكتب بها قصصه القصيرة لكنه لم يتمكن وبقي هناك حتى خف توتر الحرب وأبرمت الاتفاقات السياسية. كم فرحوا به، واحتفوا به أولاً كصديق مقرب. وثانيا، لدوره المهم في هذا المشروع كونه مالك المبنى، فقال له مسعد مازحا "إياك أن تغدر بنا وتبيع المبنى مستقبلا". ابتسم لؤي ورد عليه "أتراني مادياً ولا أحترم الأدب، إنها بدمي، وفي بالي، سأذهب إلى وزارة الثقافة وأسأل عن إجراء وقف المبنى ليكون منتجعاً ثقافياً. احتضنه مسعد وعبر له عن شكره لهذا الموقف الجميل. أبى مسعد ألا يقص الشريط غيره. كان له ما أراد. احتفوا بين أحضان صوت نجاة الصغيرة (اليوم عاد) يمتزج

الصوت واللحن مع طرب زقزقة العصافير في أقفاصها. تناولوا الحلويات، وبدأت ساعتهم الأدبية بكلمة ألقاها مسعد وشكر لؤي وصفق الجميع له. وكان من بين الحضور كتاب مشهورون (كالكاتب الصحفي محمود عبد الوهاب) والمطرب المطمور إلى يومنا هذا حمدي سلامة حيث اسمعهم معزوفة "جفنه علم الغزل"، أبدع فيها ما استطاع.

***

في ركن من حي الصفيح، منزل صغير تمتلكه عجوز، كان لها ولد قتل في معركة ولم تدر لصالح من كان يُقاتل، انسل من تحت طاعتها ليختفي وجاءها خبر مقتله عندما كانت في مخيم اللجوء الداخلي. قالوا لها: "ابنك استشهد فداء للوطن"، فالصرخات المدوية عند سماع النبأ كانت مسيطرة على أي شيء آخر. لم تر جثته، لا يوجد وقت لنقل الجثث أو الصلاة عليها أحياناً. فغريزة التسابق نحو هدف منشود قاتل أو مقتول هي الأولوية. بعد أيام سألت من قتل ابنها أو مع من كان يقاتل، لم تحصل على نتيجة لأن من أبلغها بذلك كان قد عاد لمترسه فقط فداء للوطن. وانقطع الخبر، لا جثة ولا قبر معلوم ولا شهادة وفاة ولا إعالة للأم. لها أيضاً بنت متزوجة فرت مع زوجها وأولادها إلى خارج البلد. هذه العجوز ينادونها أم

أشرف. عاشت حياة مالية متعبة، ولكن ليس أكثر تعباً من بعد مقتل ابنها الذي كان سندها الأول والأخير. ليست قادرة على العمل، مصابة بأمراض مزمنة الضغط والسكري والآم المفاصل المزمنة. عند العودة للحي وتأهيل غرفة الصفيح، وجدت نفسها في حاجة مالية لتخفيف ألامها وشراء الأنسولين وباقي الأدوية. مع اشتداد حالتها النفسية نحو الاضطراب، تحولت إلى عمل استهجنته مجموعة وسكتت عنه الأخرى كون لها رغبة في ذلك العمل، فقد عملت على تنسيق بين أناث يقدمن أجسادهن مقابل المال، وبين ذكور يرغبون بذلك، وتوفر العجوز غرفتها لهذا الغرض وتنال مبلغاً مالياً مقابل ذلك... عصر هذا اليوم، فارقت الحياة وتركت وراءها جدلاً في الحي، هل يصلى عليها أم لا لأنها كما يقولون (قوادة وفاجرة وباغية) تنطق كأنها جملة مضبوطة. أدلى رشيد أبو حفيظ برأيه بأن يصلى عليها ويطلبوا لها المغفرة. قبل البعض بذلك، والبعض تنحى جانبا، دخل الأستاذ فتحي في خط الإقناع لترك الحساب والعقاب على الله، فهو وحده المحاسب. أبو أحمد البقال، أمسك بمعصم الأستاذ فتحي وجذبه نحوه ليقول له بصوت منخفض وهو يتعجب:

- أقسم لك أن أغلب الرافضين لصلاة عليها ودفنها رأيتهم يدخلون منزل أم أشرف. (يشير بيده إلى رجل هناك يدخن وينصح بأن

يقاطعوا دفنها وقال...) أقسم لك يا أستاذ هذا رأيته بالأمس وهو يخرج من منزلها، وأزيدك من الشعر بيتاً، اشترى مني العصائر قبل أن يتوجه نحو منزلها.

- ما هذا النفاق والفجور؟!
- إنهم سفلة، يلعبون دور الطهارة أغلب هؤلاء زبائنها. يا للعجب! زبائنها يرفضون الصلاة عليها وحضور دفنها! (يكفكف يديه عجباً) آخر زمن.
- سنذهب نحن وهذا يكفي. والله يعلم ما في الصدور.

***

بدأ المدير مسعد بالتجول داخل فناء المدرسة للإشراف على النظافة العامة، إذا وجد ورقة ساندويتش، ينحني لأخذها، يفتحها ويقرأ ما فيها، يغضب عند ما يجد ورق الساندويتش كانت كتب مدرسية. رغم حزمه الشديد، إلا أن مالك المقصف يأتي بالكتب المدرسية القديمة وأحياناً جديدة من زملائه في المهنة من مدارس أخرى. كتب مسعد تقارير عن ذلك ولا أي إجراء اتخذ بهذا الصدد. على سور المدرس كُتبت عبارات تربوية كما هو مألوف، ولفت انتباه المدير كتابة عشوائية إلى جانبها كتبها مجهول (انثر

الدرجات على طلابكم حتى لا يقال رسب طالب في بلاد المسلمين). أراد المدير معرفة الكاتب، جعلها قضيته الأولى لهذا اليوم، أبلغ المدرسين ولا نتيجة. لم يعلم أحد من كتبها. ظلت العبارة في قلب وعقل المدير لم تفارقه حتى اليوم التالي في الطابور الصباحي، ألقى كلمة توجه بها للطلاب وقال لهم إنه يريد من كاتب هذه العبارة أن يتقدم للإدارة فورا.

الأستاذ فتحي يطرح سؤاله على المدير:

- ماذا تفعل بكاتب العبارة، هل ستفصله أم تستدعي ولي أمره؟
- لا هذا ولا ذاك، أريده لشيء أفكر فيه.
- لا تضع عقلك بعقل طالب أحمق.
- لو سمحت يا أستاذ فتحي، ليس طالباً أحمق، بل موهوب.
- أمرك عجيب؟!
- أريده لأضمه إلى الفرقة الثقافية التابعة للمدرسة لأنه قال شيئاً يشبه العبارات المسرحية.
- ربما لم يقلها هو، ربما قرأها في الفيسبوك أو الوتساب.
- سأختبره عندما أجده.
- أتدري ما هو الفرق بين التعليم في بلادنا وبين الغرب؟ عندنا الطفل المشاغب يُعنف على أنه قليل أدب. وفي الغرب، يعامل على

أن حالته افراط في الطاقة ويتم التعامل معه بشكل خاص لأن لديه طاقة عالية. وفعلا، يتحولون إلى مبدعين. فالمحامي الناجح هو بالأصل طفل مشاغب. وكذلك الصحفي والكاتب المتمرد، هو كان طفلاً رافضاً لواقعه وابتكر عالمه الخاص. في بلادنا، يعامل الأبوان أو الأستاذ الطفل على أنه مشاغب قليل أدب ويصفونه دائما بالحمار والغبي حتى يتعقد ويصبح بليداً أو منتقماً. وعندما يكبر، يتحول إلى مجرم وفاسد.

- فرق يا صديقي بينهم وبيننا والمسافة بيننا وبينهم كالمسافة بين السماء والأرض.

في اليوم التالي، وقف المدير أيضاً يحدث طلابه وقال لهم إنه لن يعاقب الطالب الذي كتب العبارة، بل إنه سيختبر قدراته لعله ينضم إلى فرقة الثقافة المدرسية. المفاجأة كانت عندما تقدم الكثير من الطلاب كلٌ يدعي أنه هو من كتب العبارة. هذا أغضب المدير وقال للمدرسين بغضب "الكذب، أسوأ مرض أصابنا. حيث يتحول إلى تضليل. الأول يستخدم ضد فرد، والثاني يستخدم ضد أمة. طلاب يكذبون، كيف سيكونون عندما يكبرون؟!" طرح أستاذ اللغة العربية فكرة مقارنة الخط وطلب منهم جميعا كتابة العبارة على ورق، وعرف المدير كاتب العبارة من خطه

واعترف أنه قرأها في الأنترنت. شرح لهم الأستاذ فتحي ما الهدف من فكرة المدير وسبب غضبه، ونصحهم بأن الكذب يهدم القيم ولا يمكن للناجح أن يكون كاذبا.

***

في مجتمع شرقي يكسوه العفن، تحسس من المرأة ودورها وطبيعة عملها وهواياتها، يبقى هذا المجتمع حاملا تلك الصورة إلى ما شاء الله ولا يمكن لها أن تتغير على الأقل بمرئيات المستقبل القريب. مازالت نكرة في التصرف والهواية وأغلب المهن محصورة في الذكورة، فذكورية الأشياء غريزة مكتسبة منذ القدم. مثلاً، هل سيأتي يوم وستتنازل فيه السلطة الذكورية عن بعض من احتكاراتها في كل المجالات ابتداءً بالمناصب الدينية على مستوى العالم وبشكل عام والتي هي حصراً ذكورية مروراً بالسياسية والتي لم تتسامح ذكورية الرجل بأن يكون منصب الأمين العام للأمم المتحدة لأنثى، وانتهاءً بكرة القدم الذكورية والتي لا يُسمح لأنثى مهما كانت أبرع من مردونا مثلاً بأن تنضم لفريق نادي برشلونة أو غيره أو للمشاركة في كأس العالم؟! أيخشى الذكر جدية الأنثى وقدراتها أم أن

الأديان مازالت تقود أغلب قرارات العالم وتدعو للذكورية في هذا الوجود؟! العالم مازال بحاجة للعادلة أكثر وأكثر..

بما أن مسعد هو صاحب القول الفصل في المقهى إداريا، فقط لسلاطة لسانه وحدته في الانتقاد اللاّذع، فقد نُصحت (ميساء) أن تأخذ الإذن من مسعد باستعارة الكتب من مكتبة المقهى التي هي حصرا برواده. قابلته وتحدثت له بطلبها، "أكون شاكرة لو سمحت لي باستعارة الكتب لأقرأها في المنزل، لأني لا أستطيع قرأتها في المقهى لأنه خاص بالرجال". ميساء، تخرجت من كلية التجارة قسم تسويق قبل تسع سنوات، مسوقة ناجحة، جريئة، قوية الشخصية، عنيدة، تغطي شعرها بوشاح حيث يظهر منه خصلات، لا تستخدم مساحيق التجميل، ملامح الجمال تبدو عليها متوسطة إذا دقق النظر أكثر من مرة، طولها يصل لمائة وخمسين سنتيمترات، عيناها متوسطتا الحجم، أنفها صغير فمها متوسط، واسعة الشفتين إلى حد يثمن جمال أسنانها البيضاء المتراصة بحرفية وإتقان بديع، مما يجعل ابتسامتها سحراً وروعة، صوتها الإذاعي يترك أثراً في النفس يداعب القلب والعقل معاً. بلوغها سن الثلاثين زادها رصانة وحس المسؤولية. نقاشاتها تجر المستمع إلى علم السيطرة عن بعد. قرأت عن المقهى في الفيسبوك ومشتركة في الصفحة وتشاهد يوميا صور الفعاليات التي

ينشرها الرواد وتشعر بالغبن لعدم قدرتها على أن تكون عضواً فيه لأن سلطة الرجال سائدة ومن ذا الذي سيسمح ويخرق قاعدة عادات شرقية ضاربة جذورها في عمق الأرض؟! هي عالية الثقافة وقارئة نهمة. والحقيقة أن الكتب أصلا متوفرة إلكترونيا، لكن هناك فضول أنثوي أحياناً حين تعلم أن هناك شيئاً لها نصيب به كمثقفة ولا يمكن لها التواجد كأنثى نشطة. الأستاذ مسعد استوضح وفهم المقصود. وهنا، العلوم الإنسانية دبت فيها النخوة ليخترق ويسمح لها بأخذ ما تريد وتكون زائرة للمقهى ولها الحق المشاركة الثقافية في الساعة الأدبية. أبهجها ذلك وعرضت اقتراح البث المباشر في الساعة الأدبية عبر صفحة المقهى لمن يحب متابعة مثل ذلك. استحسن مسعد ذلك ووافق وطرح الأمر على الرواد ولم يمانع أحد. فهم جميعا إخوة في العلوم الإنسانية. الهاتف ذو الكاميرا عالية الدقة كان هدية ميساء للمقهى حيث سيكون منه ليلة الغد البث الأول عبر صفحة (مقهى الدب الصغير) في الفيسبوك.

***

في شارع عريض حيث يكثر المارة، يمشي مسعد ولؤي باتجاه محل عصائر شعبي مشهور يبيع خلطة فواكه سرية مع أنواع الآيسكريم أسماه

(روجينا)، للعصير مذاق كلٌ يصفه بمذاقه. يبقى لهذا العصير هوية وطن، اختلف الجميع على كل شيء سياسة، عقائد، حضارة وتاريخ، واتفقوا على المذاق اللذيذ لعصير روجينا. في الطريق، ارتمى رجل مسن على الطريق وبدأ يكح ويقذف من فمه دم. تجمع الناس من حوله، تقدم منه مسعد ولؤي، رفعه مسعد، وذهب لؤي لجلب الماء. غسل فمه بالماء وتواصلت الكحة وأنفاس الموت وتقلب العيون وصعوبة الكلام. بالكاد ينطق شكرا. أصر مسعد على نقله للمستشفى، بينما رأي لؤي أن تطلب سيارة الإسعاف. عندما سمع العجوز لؤي ينطق (سيارة الإسعاف) قال بصوت متقطع ومتقاتل:

- لا داعي يا بني لسيارة الإسعاف. صباحا، كنت في المستشفى ووصف لي الطبيب دواء غالي الثمن. (يصمت ويكح ويذرف دموعه. ويتابع...) ولم يعد لي مطلب غير الموت، ففيه حياة بلا ألم وبلا فقر.

قال له مسعد:

- لا تيأس، وليس من المنطق أن تنشد الموت.
- الموت خير لي من عيشة الكلاب. كنا صغارا نقلد أصوات الكلاب الشاردة ولم نكن نتوقع أن يأتي يوم ونعيش عيشتها.

رفعاه إلى مكان آمن على الرصيف، وبدأ البعض بالانصراف. بدأ العجوز بالكح مجددا. أخرج مسعد ما بجيبه من مال وقدمه للعجوز ليشتري الدواء، وكذلك فعل لؤي وبعض المتحلقين. تركاه وهما غاضبان من هذا الحال وفرحين لإنقاذه بثمن الدواء. واصلا طريقهما. نظر إليهما الشيخ وهم يمشيان عن بعد. وبعد أن جمع مبلغا من المال، وقف وتوجه نحو شارع آخر. شرب مسعد ولؤي العصير، وأخذا وقت انتعاش بين روائح الفواكه الطبيعية المتدلية من كل مكان في محل العصائر ليغادرا المكان والشارع مشيا على الأقدام. مرّ وقت وهما يمشيان، حتى وقعت عين لؤي على تجمع بشري، ذهبا إلى عين المكان وتجاوزا الناس ليجدوا مكافحة التسول تلقي القبض على الشيخ وتقتاده. تدخل مسعد ولؤي، كيف يساق رجل مريض بهذه الطريقة وهو مريض؟! فرد عليهم مسؤول الحملة إن ذلك الشيخ نصاب محترف. وعند تفتيشه وجدت بحوزته قارورة مركز التوت يستخدمه على أنه يتقيأ دما. ينظر مسعد في وجه لؤي وكذلك لؤي. قالا لمسؤول الحملة إنهما أعطياه كل ما يملكا من مال. قال لهم المسؤول إنه نصاب وكاذب، واصطحبهما ليقابلا الشيخ الذي بدوره أنكر أية معرفة بهما وأنه لم يمرّ من ذلك الشارع وإذا به الآن يظلم على مسعد ولؤي. يمسك

لؤي بذراع مسعد لينسحبا من المكان ويتابعا مشيهما. مسعد انتابته موجة ضحك رغم غضبه في بادئ الأمر، توقف قليلا عن الضحك وقال للؤي:

- أتدري ماذا تذكرت؟
- تعرضنا لخديعة تقتل مبدأ النخوة لدى الناس وأنت تضحك؟!
- تذكرت توم عندما يغلبه جيري، ويرى نفسه في المرآة برأس حمار طويل الأذنين وكتب أعلاه (Jcaks).
- يعني أنا وأنت توم؟
- بالضبط عندما يقف أمام المرآة!!

***

يضرب العميد عمر براحتي يديه على طاولة مكتبه وقد انتابه مس من الغضب الشديد. الضباط من حوله في صمت مطبق ولا ينبس أحد ببنت شفة إلا إذا وجه له سؤال. "كيف حصل ذلك؟! لمَ لم تكن لديه حراسة؟! إنه استفزاز واضح لنا وسخرية من الاتفاقات والعفو الأخير" هكذا يقول العميد. كان مدير الشرطة في زيه المدني يتسوق في مركز تجاري، حيث جرت العادة أن يتسوق أسبوعيا. وبينما كان في غفلة وهو يتصفح مكونات سلعة، حتى أمُسك خلفا من شعره لتعبر برودة حادة السكين على رقبته

بثوان معدودات، ليترنح الجسد أرضا محدثا جداول من الدم، وليرفع الذابح الرأس مفصولا بقبضة أصابعه على الشعر والدم يقطر أرضا، يصرح بشعار ديني، أصاب الذعر من لمح حتى لقطة من الحدث، أصوات تتعالى وهروب وتزاحم وارتباك وعيون شاخصة كأنها في دقائق قيامة. وتحت وطأة رعب وهروب بشري وكبر مساحة المركز التجاري، يرمي الرأس بعنف. وإلى الجانب الآخر، يرمي السكين. يمشي بخطوات واثقة بجسمه المفتول، الطريق أمامه خال. فالجميع في حالة فرار وتدافع نحو البوابات. مما أربك رجال الحراسة في مثل هكذا أماكن. فهم عناصر حماية من الشغب بعصي وليسوا متخصصين في الوقوف أمام هكذا جريمة حيث يتطلب الأمر تدخل قوات خاصة. دخل القاتل الحمام، فتح النافذة والتي تم تهيئها مسبقا في وقت ما، أخرج رأسه ونظر يمنه ويسره، الهروب مهيأ، خرج من تحت إطار النافذة، وواصل مشيه وغاب في زحام البشر الهاربين، عشرات الأمتار، تقف دراجته النارية. يشاهد العميد عمر تسجيل كاميرات المراقبة مرات عديدة من اتجاهات مختلفة مع إعادة إلى الخلف، حدد الذابح من ملابسه، دخل من باب الحراسة للمبنى بسهولة بعد مروره من جهاز الكشف عن المعادن، يردتي قبعة طويلة من الأمام حيث تخفي نصف وجهه عن كاميرات المراقبة، دار بداخل المركز التجاري. وفي قسم

المواد المنزلية، تظاهر بشراء أواني ووضعها في سلة البضائع، تناول سكيناً حادة ووضعها فوق الأواني، جاءته رسالة نصية، فتح هاتفه ورد عليها. ثم مشى ودار في أقسام مشتريات عدة حتى وجد الهدف، اقترب منه وهو يدفع سلة البضائع وعلى بعد نصف متر من الضحية، تناول السكين... بدا لهم الذباح محترفاً وذا خبرة في العملية، طريقة تناول السكين والإمساك بمقبضها، مسك الضحية وطريقة حز الرقبة والركل السريع للجثة المفصولة بقدم الذباح. يصرح العميد عمر..."إنه هو.... نعم هو". يفتح متصفحاً اليوتيوب، يكتب كلمة (ذبح إنسان) ظهرت مقاطع لا عدد لها من مشاهد الذبح المصورة ومنها بجودة عالية توازي القدرات السينمائية. يتصفح مقاطع ويتجاوز أخرى، يدقق ويدقق حتى وقع على مقطع ذبح لإنسان بنفس الطريقة وتتطابق تقاسيم الجسم وإطار الرأس مع المقنع الذباح في تصوير تم تحميله على اليوتيوب. هز رأسه وتموجات الغضب أفسدت أداء عضلات وجهه، استدار نحو الضباط وأمر:

- "أريده، حيا أو ميتا، لا يمكن أن يبقى طليقا ولو لساعة واحدة".

ردوا عليه بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم. قال لهم وهو يقف ويلكم الطاولة:

- مثل هؤلاء خطر على الأحياء، ينفذ جريمته بالسلاح الناري، أو السكين إن تعذر عليه الحصول على السلاح، سيقتل دهسا، حزام ناسف، يخنق بواسطة حبل أو حتى قميصه، كل وسائل الحياة وسائل قتل بيد هؤلاء، تم إطلاقهم ولا شيء يوقفهم سوى قاتل أو مقتول أو كلاهما معا.

***

انتهى الصحفي محمود عبد الوهاب من الحديث مع زوجته وأولاده المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية عبر برنامج التواصل بالصوت والصورة. في هذا المساء، بباله موضوع أراد الكتابة عنه، فقد سمع مفتي البلاد وهو من رجال الدولة أفتى بحرمة الاعتراض على رفع الأسعار حيث ذكر حديث "الله هو المسعر" وقال أن الأسعار لم ترتفع بسبب التجار أو الحكومة ولكن من الله بسبب قلة السلع وكثرة المعاصي. وبما أن الآن العاشرة ليلاً، ساعة الذروة لتواجد المتصفحين والفيسبوكيين، فقد قرر الكتابة والنشر ومتابعة ردود الفعل على هذا الموضوع:

"أصناف رجال الدين"

"الدولة لم تكن صائبة يوماً في تبني النظريات المكيافيلية وبالأخص "الدين ضروري للحكومات، لا من أجل الفضيلة، ولكن لغرض السيطرة على الناس". رغم هكذا منظومة حكم عربي متوارث منذ زمن الأمويين إلى اليوم. فالحاكم له رهط من رجال الدين كحاشية وملكية خاصة وكذلك المعارضة لها رهطها من رجال الدين والذين جميعهم يعملون جاهدين لشرعنة مشغله وتعبيد الطريق لقلوب الناس وإيهامهم بالاستقرار الرباني للمشغل. وبما أن رجال الدين كانوا صنفين، ففي هذا العصر أصناف رجال الدين خمسة: "صنف دعوي وصنف مذهبي وصنف حكومي وصنف إقليمي وصنف دولي". فهذه الجغرافيا الساخنة من هذا العالم يمكن إثارتها واستثارتها دموياً في ساعات لتغرق في بحور الدم حتى الفناء، فكل طرف (صنف) محصن نفسه جيداً بجماهير عمياء به وبوسائل إعلامية متنوعة وقدرات مالية منها الدعم المباشر كالاعتمادات ومنها صناديق التبرعات. وكل صنف يتمترس خلف كتب اختلاف تراثية وفتاوى تدعيمية إن لم تنصره لا تهزمه. لا يمكن في أي حال من الأحوال الخلاص من سلطة من يعملون في مجال الدين بالأدوات التقليدية، فإنهم يمتلكون مهارات تبدو للبسطاء معجزات وسحر الخطابة يسكر العقول ويخبل السلوك، فمن قدراتهم الخارقة سلب بصيرة البصير بواسطة خطبة

دينية دون إبراز وقول دليل صحيح من القرآن الكريم، بل أنهم يتمادون في التضليل ويوغلون أيما إيغال في تفسيرات للنصوص عكس أصلية التفسير بما يتوافق مع المرحلة والسلوك السياسي الذي يخدمهم أو يسخر الجماهير والتابعين لهم لخدمة المُشغل الأصلي. الأدوات القديمة ليست صالحة في عصر التضليل واللسانيات والهرج، بل يتوجب على أصحاب الفكر التدخل لكشف الزيف وإضاءة مشاعل منيرة في دروب الناس تعيدهم نحو الأصل الكريم وهو القرآن وتوحيد التفاسير بين الأصناف المذكورة آنفاً وتجميد المتناقضات وكل ما من شأنه التسبب في إهراق الدم وحل الخلافات بين المذاهب لقطع الطريق على قراصنة الأرواح قراصنة الدين السمح.

***

في عمق شارع الاستقلال، صدى دندنات العود يتسلل عبر مدى المنتهى إلى الشارع ويعبر خطوط الدمار ويبذر نفسه في عمق براثن الموت. كل خطوة يتقدمها السامع تزيد لفحات طربية تتساقط على القلوب قبل الآذان. يقترب لؤي من مصدر رنين العود، لا يبدو ازدحام حول العازف، أشخاص قلائل لا يزيدون عن الخمسة. وصول لؤي تزامن مع نهاية

العزف. هز المطرب رأسه غير مستحسن تفاعل الجمهور. أخرج لؤي من جيبه ورقة مالية وأعطاها له. سأل المطرب ماذا يريد من أغنية، أجاب لؤي "على ذوقك". تنحنح المطرب، وبدأ العزف حتى وصل إلى الصدح بصوته الجميل "ســــــــواح". المطرب رشيد لا يغني الأغنية كاملة. فبقدر الورقة المالية، مقطع غنائي فقط. صوته الجميل كأنه العندليب فعلا. ولكن المارة لم يعد يستهويهم هذا النوع من الفن، حيث صارت الأذواق عابرة لا علاقة لها بالصوت الجميل ولا اللحن ولا العزف. لذا، الفنان رشيد مرمي على الرصيف يبيع أغنية ولوحة معلقة على صدره مكتوب عليها (ادفع مائة تسمع أغنية) ترافقه في كل تحركاته التسويقية في شوارع العاصمة، ولا يغني إلا بالدفع المقدم. المطرب تجاوز الستين من عمره، قضى ثلاثين عاما في بيع الأغاني مقابل قوت يومه. انتهى من الأغنية، صفق لؤي بحرارة، وصفق من بجانبه أيضاً، وصاح لؤي "رائع... رائع". انفعل المطرب وأخرج من جيبه الورقة المالية وأعادها للؤي وقال "التشجيع المعنوي أهم لي من المال" وعاد للعزف والغناء، ويشير بين مقطع وآخر للتصفيق والتشجيع له. نهاية الثلاث أغاني، جلس إلى جانبه لؤي وقال له:

- كم أنت مهضوم في بلادنا؟!

- في بلادنا فقط. أنا مشهور ولي صولات وجولات في العالم العربي.

يقف لتفترش الأوراق المعلقة على جسده وكلها مقالات عنه في الشرق الأوسط في تسعينيات القرن الماضي، ومجلة العربي والأهرام المصرية ومقالات قديمة في صحف عربية. يشير بيديه للمقالات ويقول:

- هذا أنا. كنت مذيعاً. يسمونني في الأوساط الفنية العندليب الثاني.
- أعرف ذلك. أعرض عليك تقديم سهرات فنية في مقهى الدب الصغير الثقافي. البث مباشر، نافذة ممتازة ليعرفك الناس.

اشتط غضبا وقال بغضب:

- أنا مشهور ولا أريد شهرة إضافية عمن لا يقدر الفن.
- لا تفهمني غلط، أنت ستقدم سهرة فنية أمام كبار المثقفين في المقهى الثقافي. وستنال مقابلاً مالياً لقاء ما تقدمه.
- جيد، لكني لو كنت أستلم راتباً من وزارة الثقافة لما أخذت المال مقابل الأغاني بطريقة تشبه الشحذ في أرصفة الشوارع.
- لا عليك، ذلك مصدر رزقك. أعرف أنهم ظلموك.
- قتلوني أيضاً، تصور ثلاثين سنة وأنا أتلقى دعوات لمؤتمرات فنية وترفض الوزارة منحها لي وتمنحها لغيري لآن لهم معرفة ووساطة.

- لا يستطيعون تغطية عين الشمس بأصابعهم، أنت فنان كبير وقدير. إذا كانت الشمس لا تُشرق على سيبيريا، فهذا لا يعني أنها لا تُشرق على باقي بقاع الأرض.
- الشمس لا تُشرق يا عزيزي. الأرض تدور حولها وهي ثابت..
- أمم. موضوع جدلي. على العموم، أنت فنان كبير وصوتك أهم من الجدليات.

***

تولى العميد عمر بنفسه قيادة البحث عن (الذباح) ليلاً نهاراً لخطورته واحتمال سقوط ضحية وارد إذا لم يوقفوه. في هذه الأوساط، أطلق على المجرم لقب الذباح. حتى الصحافة تتناول الموضوع وراحت تؤثر على نفسيات القراء بأخبار أقل ما يقال عنها أنها ترويجية وتضعف الثبات العام. تسلم العميد ورقة سرية من عنصر سري جاء فيها أن (الذباح) طليق بمجمل أوامر تنفيذية وشوهد آخر مرة قبل الجريمة الأخيرة بأسبوع. ومن المؤكد أن رهطاً من المتربصين يتحركون معه. وقف العميد واستدار لخلف طاولة مكتبه يتصفح صورا ويقرا أسماء مثبتة على سبورة حائطية. يعود لكرسيه ويتحدث لضابط ميداني ويأمره أن يزوده بسيرة

الذباح منذ الطفولة. جاءه للتو خبر أن الدراجة النارية عثر عليها محروقة بمنطقة معزولة وهناك منزل مهجور في وسط واحة من الأشجار تفيد معلومات أنه متواجد فيها. يتحزم العميد بمسدسه ويتحدث عبر اللاسلكي ويطلب فرقة المهام الخاصة للتدخل. انطلق بسيارته ترافقه حراسته إلى تلك المنطقة التي حاصرتها القوات المختصة منتظرة أمر الاقتحام. وصل العميد ليتابع العملية، صدرت الأوامر بالاقتحام، لاحظ قائدها أن فخاً قد نصب وتم تفخيخ أشجار وزرع ألغام، بدا واضحاً أن المنطقة شائكة. استدعيت فرق الهندسة وتم فتح ممر للاقتحام، تقدم حذر إلى أن وصلوا للمنزل، طوقوه، فحصت فرقة الهندسة مدخل المنزل وتبين أنه مفخخ أيضاً، قاموا بعملهم وأمنوا الاقتحام. (الذباح) ليس موجوداً وبدا أنه ومن حوله يراوغون ويتبعوا أسلوب التمويه والتفخيخ. ربما هذه مقدمة لجريمة سترتكب، هكذا عقب العميد. أطلقت الكلاب البوليسية لاقتفاء الآثار. كان الذباح قد انغمس في المدينة ولا أثر حتى الآن يحدد مكان تواجده.



المنشور الأخير لصحفي محمود عبدالوهاب في الفيسبوك أثار ضجة من قبل الكثير الذين راحوا يهاجمونه في خانة التعليقات. وبما أن مفتي الدولة كان في شبابه ممن شدوا الرحال إلى أفغانستان في الثمانينات وبقى هناك أشهراً وعاد للبلد يتحدث عن المعجزات ليتولى مهمة جمع الشباب وإرسالهم للجهاد هناك، فقد قرر الصحفي بأن يوجه له أسئلة غير مباشرة عبر مقالة ينشرها الكترونياً:

"سؤال مشروع"

دائما يتبادر إلى عقلي سؤال عمره بقدر عمري، كبر معي وترعرع بمحاذاة مسامعي، وجلس إلى جانبي في فصل المدرسة نتشارك كرسياً وأحداً، وطاولة واحدة. سؤال كان موضوعه وأخباره اليومية حوار الشوارع والممرات الضيقة والطرقات غير المعبدة ومنابر المساجد وأثير الإذاعات والمنشورات الورقية على الجدران وفي أيادي المنادين في الجولات والكتب المجانية في كل الصالونات والمنتديات والمناسبات وسيل من الفتاوى الزندانية والعزامية والقرضاوية وألادنية والبازية والتصريحات الدينية والسياسية والتجنيدات.... ذلك السؤال، ما دخلي بأفغانستان؟! وما دخل بلادي بأفغانستان؟! وما دخل المنطقة العربية بأفغانستان؟! وما العلاقات والاستراتيجيات من تدخلنا في أفغانستان؟! وما الفائدة والمصلحة التي

جعلتنا أكبر الهموم بحياة الأفغان وبحياتنا؟! ماذا استفدنا ونستفيد من تلك البلاد البعيدة التي جيشنا لها شعوباً وامكانيات وتجنيد واقناع وفتاوى؟! ذلك المجتمع الوسخ اجتماعيا والذي فيه كل سلبيات الأرض ارتداداته تعصف ببلداننا لمائة سنة قادمة... ذلك المجتمع الذي فيه شرعية الانتقام بالاغتصاب كان ومازال هم رجال ديننا ومحور قصص خيالية كيف أن الملائكة تُعين الأفغاني وكيف مد الله بعونه الرباني المقاتل الأفغاني في مواجهة الدبابة وسلاحه السيف وتراتيل تساعد على تفجيرها... أضعنا مستقبل شعوب من أجل عيون أفغانستان، ومن أجل بلد بعيد عن بلداننا دون فائدة استراتيجية... فقط، تحت عنوان من الوهم، تم إرسال أولاد الناس للموت هناك ولم يرسل مفتي واحد ابنه ولم يُقتل مروج واحد لحرب افغانستان على تراب أفغانستان، وهم أنفسهم من أصدروا فتاوى الحرب والخراب والدمار والذبح في الجزائر وفي سورية والعراق واليمن وليبيا ومصر، وأيضاً لم يُقتل قريب لهم... ومهما طال الحديث عن هذا الموضوع، فالسؤال يبقى، ما دخلنا في أفغانستان؟!!!!"

***

الشعب يعاني من المآسي والآلام النفسية الناجمة عن الحرب التي نشبت في أغلب المدن وفي كل شارع وحارة لسنوات حتى أفقدت الناس الأمل وسبل الحياة النفسية الطبيعية ومن لم تصل الحرب لمنطقته قطعا كان الإعلام وسيلة الرعب التي خلقت حالات نفسية معقدة وجميعهم يعانون دون أدنى اهتمام لحجم المأساة. وذلك بسبب انعدام الدراسات الإكلينيكية والميدانية. لم يناقش أحد ذلك، فثقافة الدراسات عن الظواهر بشتى أنواعها ليست من الثقافة العربية في شيء. فلا تجد لها طريقاً رغم أهميتها وتبؤها الأولوية منطقيا كون هناك معاناة نفسية جماعية لنساء وأطفال وحتى المقاتلين ولا حتى في الأحلام إنشاء مراكز متخصصة تقوم بالأبحاث النفسية وتقوم بتأهيل وعلاج المتضررين الذين عاشوا أهوال الحرب والتعذيب، فاضطراب ما بعد الصدمة سيعيش إلى جانب الروح في نفس الجسد. وهذا ما يؤثر بشكل يومي على الأسرة والمحيط ويعيق البناء الأسري والمجتمعي.

اليوم، دخل لؤي إلى محل بيع المواد الغذائية واشترى قنينة ماء ودفع للبائع الثمن ورقة مالية من الفئة الكبيرة، وما إن وقع نظر البائع على الورقة المالية حتى استشاط غضبا ورفع صوته في وجه لؤي بحجة أنه لا يمتلك الصرف وراح يتطاول ويحمله مسؤولية فتح قنينة الماء والشرب منها قبل

الدفع، رد عليه لؤي بالمنطق "هذا هو المال، فاقتطع ثمن قنينة الماء ولا داعي للصراخ". تواصل انفعال البائع دون مبرر منطقي حتى انفعل لؤي وراح يرد عليه بما يوازي الموقف حتى انفجر الوضع إلى تشابك بالأيادي استمر لدقيقتين حتى تدخل من كان متواجداً من الزبائن وتدخل من هم على مقربة من المحل وفصلوا بينهما بعد أن فسد ترتيب البضائع المحيطة بحلبة الاشتباك. خرج لؤي وهو يعاتب نفسه بعد هدوئه لأنه لم يمتص غضب البائع ويتحمل الموقف ولو اضطر لترك المبلغ المالي والذهاب ومن ثم العودة في وقت آخر. "ويلاه، ما هذه الأخلاق المعفنة الهمجية، كيف تحول الناس إلى عدوانيين وهجوميين ولم يعد للنبل مكان في قلوبهم؟!" واصل لؤي طريقه وأعصابه تهدأ تدريجيا ليعود إلى ما كان عليه ومازال في تعجب رغم لومه لنفسه لعدم التصرف الإيجابي مع أنه دافع عن نفسه فقط ووجد نفسه مضطراً ويبقى السؤال الأهم العالق في ذهنه هو "لماذا صار الناس يميلون للانفعال والعنف ولا تكاد تخلو منطقة كل يوم من ملاسنات وعنف لفظي أو جسدي؟!

***

العقيد خالد يقدم ملفاً للعميد، يتصفح العميد الأوراق، يغلق الملف ويتحزم مسدسه ويخرج يتبعه العقيد. يشير لخالد بالبقاء في مكتبه. ينطلق العميد بسيارته إلى عنوان مكتوب بين يديه، يغوص في أزقة الشوارع ويواصل البحث، ما إن اقترب من العنوان حتى تحدث لحراسته أن يبقوا بعيدا، اقترب وأوقف سيارته، ترجل وهو يمشط الشارع بناظريه. خطا خطوات وتوقف أمام الباب. نظر إلى الخلف لثوان وكأنه يتثبت من شيء ما وعاد لطرق الباب. "من الطارق؟" جاء ذلك من خلف الباب. رد عليه "افتح الباب من فضلك أريد التحدث إليك". فتح الباب، يقف شاب مهيئاً نفسه للخروج ويقف أمامه رجل واضح عليه الوقار ببدلته الزرقاء الغامقة ورَبْطَة عُنُق أنيقة.

- "هل يمكن أن أدخل للتحدث إليك؟"

رد عليه بسؤال المستغرب:

- من أنت؟!

"أنا ضابط في الدولة". هكذا رد العميد ليمهد لنفسه طريق الدخول والحديث مع من يريد وهذا تصريح الوصول إلى أي مكان مقصود. رحب به الشاب وأدخله إلى غرفة استقبال متواضعة. سأله ما يريد أن يشرب، شكره وبادره بالموضوع:

- أنا ضابط كما قلت لك وأنا في زيارة ليس لكم فيها علاقة ولا شيء يدعو للخوف أبدا...

بدا الشاب مرتبكاً وهو يقول:

- سيدي... سيدي... مرحبا. أنا لا علاقة لي بأي مشاكل ولم أكن مع أحد ضد أحد، أنا رجل بيع وشراء متواضع ولست حتى بتاجر.
- الأمر لا يتعلق بك، أريد معلومة عن عائلة كانت تعيش في حي الصفيح إلى جوار عمك يعقوب، هل لي أن أتحدث مع زوجتك لمياء وسأكون شاكرا لك؟
- حسنا.

استدعى لمياء، وضعت وشاحها على رأسها ووقفت أمام العميد وهي تنظر إلى الأرض وتشعر أن خطبا ما يحدث.

- تحت أمرك سيدي.

طلب منها الجلوس قبالته وقال:

- لا تتوتري، لا علاقة لك بأي شيء. أنا أبحث عن إجابات عن عائلة عبد الحميد جيرانكم في حي الصفيح.

قاطعته:

- هل ماتت السيدة شفيقة؟

- ليس هذا ما يهمني. أريد أن تحكي لي قصة إبراهيم منذ الطفولة.
- وما دخلي به سيدي (قالتها وتلفتت للنظر صوب زوجها)
- طفولته، أبوه، أمه. كل شيء يخص تلك العائلة.

نظرت مجددا في عيني زوجها، فقال العميد لزوج: "أرجوا أن تسمح لها بالكلام، لا شيء فيه مضرة، فقط تحكي لي حياة جارهم وجارتهم."

أمرها زوجها: "احكي للضابط ما تعلمينه عن تلك العائلة".

- كانوا جيراننا وعبد الحميد رحمه الله كان صديق والدي رحمه الله، توفي بعد والدي متأثراً لاختفاء ابنه وفقر الحال. كانوا عائلة طيبة تربطنا بهم مودة الجيرة، عاش عبد الحميد باقي أيامه على إعانة كان يقدمها له الشيخ أبو إيمان، لكن ذلك لم يدم سوى عام وتوفي عبد الحميد. في سنوات الحرب، تشردت الأم وسكنت عند أمي ولجأنا لمخيم واحد ولكن حالتها النفسية تغيرت. وفحصها أطباء المخيم وصرفوا لها دواء. وفجاءة، لا ندري أين ذهبت فقد اختفت إلى اليوم. (صمتت...)
- إبراهيم، كيف كانت طفولته؟
- عادية.
- أقصد هل كان يميل للعنف ماذا يحب وماذا يكره؟ متى اختفى؟

- لا أتذكر الكثير. فقد مرّت سنوات طويلة.
- قولي ما تتذكرينه.
- كانت مثل الناس. لم يكن عنيفاً، كان يحب صعود الجبل خلف حي الصفيح. كان متذمراً من عمله كجامع للعلب المعدنية ويسميها النفايات، كان يُمني نفسه بالعلم والسكن في المدينة.
- هل شاهد أمه منذ اختفائه لأول مرة.
- حسب علمي، عند اختفاء الأم ورحيلها لجهة غير معلومة، أنهما لم يلتقيا. ولم نسمع شيئاً عن الأم حتى اللحظة.
- متى آخر مرة تواجد إبراهيم في الحي؟
- آخر مرة زارنا لواجب العزاء في موت والدي قبل الحرب. وكان متغيراً بعض الشيء.
- مثل ماذا؟!
- لم يعد يتحدث لأهل الحي، الجميع لاحظ تغيره منذ عمله ببيع الكتب.
- أين كان يبيع الكتب؟
- أمام المسجد؟
- أي مسجد؟

- الذي يخطب فيه الشيخ أبو إيمان؟
- هل تعلمين أنهما أصدقاء؟
- من أين لي أن أعلم سيدي؟ سوى أن أبو إيمان كان يفعل الخير ويتصدق على عبد الحميد أبو إبراهيم. هذا ما أتذكره.

دخل طفل جميل عمره الثماني سنوات ينادي "أمي" جلس إلى جانب أمه. نظر الطفل بارتياب للعميد، وقف العميد وانحنى وقبله، ثم قال: إذا جاء إبراهيم إلى هنا لا تقولا له إني جئت أسأل عنه كي لا تتعرضا للخطر.

قال الزوج متسائلا: وما الذي سيأتي به ولا علاقة تربطنا به؟

- ربما يأتي إليك أنت ليسأل إن كنت تعلم مكان أمه. تعامل معه بشكل طبيعي ولا تسرف معه في الكلام (أخرج ورقة فيها رقم هاتف...) وهاتفني على هذا الرقم..

***

ازدحام مروري خانق ودرجة حرارة مرتفعة، طال الانتظار ولم يُفتح الشارع لمرور السيارات، ضاق الصحفي محمود عبدالوهاب ذرعا بداخل سيارته وقرر عدم التجوال داخل المدينة بسيارته حيث يضيع الوقت

ويتوتر عند الازدحام الخانق، فقال في نفسه "لولا السيارة، لمشيت سيراً على الأقدام وانتقلت لشارع المجاور واستوقفت سيارة أجرة بكل بساطة". ولج لبرنامج الفيسبوك من خلال هاتفه الذكي وغرد:

"في عصر الذكاء، تعتمد المدن الذكية على تكنولوجيا الأنظمة الذكية، مثل الأمن الذكي، الطاقة والبناء والتنقل الذكي، والرعاية الصحية الذكية، وكذلك التعليم والإدارة الذكية، وصولا إلى المواطن الذكي. المهم المواطن الذكي، ذلك ما يتناسب مع تقدم التكنلوجيا. فلا فائدة من الذكاء الاصطناعي إذا الإنسان مستخدم غبي. لذا، بناء العقل العلمي تحت عناوين حديثة لشتى أنواع العلوم هو انتقال الفرد من ماضي القبيلة والخيمة والبدوية إلى مستقبل العصرنة وذكاء الآلة."

***

بطريقهما نحو محطة باصات النقل الداخلي في قلب العاصمة حيث تتوزع خطوط النقل على كل الشوارع، يمشي فتحي وصديقه لؤي. الوسيلة المثلى لهما ولغيرهما هي النقل العام المشترك وإن صار سعره مرتفعا نتاج ارتفاع أسعار المشتقات النفطية مرارا لتصل إلى سعر جنوني أثقل كاهل المواطن حيث تسببت الارتفاعات المتكررة في الأسعار في شتى مجالات الحياة

بالتزامن والتوازي من مواد غذائية إلى وسائل نقل. فالمشتقات النفطية، وإن كانت من باطن البلد أو المنطقة، فهي صارت أغلى من استيرادها مجددا بعد تصديرها للأسواق العالمية، الاعتماد عليها واقع في المضخات الزراعية إلى نقل المنتجات والبضائع. الرواتب لا تكفي للنقل العام. أما سيارات الأجرة، فهي للرفاهية أو للاستعجالات. وهذا هو المعمول به كواقع معاش حتى أن البسطاء من الشعب يتجاوزون محطات سيرا على الأقدام لتوفير جزء من ثمن النقل. وهذا ما يفعله لؤي وفتحي. وتحت أشعة الشمس الحارقة لا يمكن أن يكون لمواطن شيء يلهيه غير التذمر إلى حد القرف من سوء الحال العام. وهذا حاضر الآن ولؤي يتابع في وصف النقل في أوروبا: "بطاقة نقل ممغنطة ومخفضة ذات اشتراك شهري وسعر خاص لطلاب والموظفين، جميع الدول الأوربية تحرص على الاهتمام بوسائل النقل وتطورها بحيث توفر وقت شعوبها وتخفف من توتراتها، زرت كل الدول الأوربية ببطاقة لاجئ ولم ألاحظ مشكلة واحدة في النقل. وفي بلادنا، وزير نقل ولا علاقة للدولة بالنقل". عقب عليه فتحي: "ليس لدينا ما يكفي من عربات نقل القمامة من شوارع العاصمة فما بالك بوسائل نقل كالقطارات وغيرها، الناس عبارة عن جثث ميتة تمشي في الشوارع". أشار لؤي نحو رجل خمسيني يبدو من شكله أنه سبعيني وقال:

- العام في عمر الأوربي يوازيه ثلاثة أعوام في عمر الناس هنا، يبدون أكبر من أعمارهم منهكين متعبين إلى حد التوفير من وجبات الطعام. لو هذا الشعب في أوروبا لبنوا لهم جميعا مستشفيات لمكافحة سوء التغذية، الغرب يستثمر في الإنسان ونحن نستخدم الإنسان في الحروب لصالح الحاكم أو لصالح معارضته وغالبا هو صانعها وكلاهما طلاب سلطة وعلى جماجم الملايين.
- والله تعبنا يا لؤي... تعبنا كثيرا وتحملنا مالم يتحمله أحد، وما زلنا مطالبين بالتحمل وكل عام تتضاعف القيامة في بلادنا.
- قدرنا أن كل عام ألعن من سابقه. أما الغرب، كل عام أحسن من سابقاته.
- مهما تحسن حالهم الغربيين إلا أن التفكك الأسري يزداد اتساعا ولهم مشاكلهم الاجتماعية وحالات الانتحار في ارتفاع.
- وهل تصدق يا فتحي ما تسمعه عن الغربيين؟ أنا شاهدت بعيني وكل ما يقولونه لنا عنهم كذب لا تفكك أسرى ولا حالات انتحار أكثر من النسبة الطبيعة الناتجة عن أمراض بالأصل موجودة في كل المجتمعات. فالحرب في بلادنا أدت لموت مئات الآلاف وبدون سبب شرعي ولا أحد يعرف أحداً وهم يتقاتلون سوى إن

قادتهم أمروهم بذلك، أليس هؤلاء مرضى نفسيين وهم ينتحرون بالاقتتال؟! وقارن العدد. أما التفكك الأسري، فلا أدري عن مصدر هذه الكذبة، لو كان فعلا ما قالوه لنا وروجوا عن التفكك الأسري الغربي، لما كانت قوانين لم الشمل سائدة وتحترم. المقيم العربي هناك بمجرد حصوله على الإقامة يحترم حقه في لم الشمل مثله مثل ابن البلد. قارن بينهم وبين المقيم في دولة عربية حيث لا يوجد قانون عربي واحد يتحدث عن لم شمل المقيمين ولا حتى لأبناء بلدهم بل إذا تخاصمت دولة وأخرى سياسيا يتم فورا طرد الرعايا وتملك ممتلكاتهم. ولو كنت مقيماً من ستين سنة، لطردوك وأنت على فراش الموت. لا تعتقد أن هناك أحقر من دولنا وعصبيتنا، لا يوجد في العالم مواطنون عديمو الجنسية وبلا كرامة سوى في بلداننا.

- عندما يكون الدستور مسخراً لحماية المواطن وليس لحماية الحاكم، تكون النتيجة حقوقاً لا استبداداً.
- لا يا فتحي، عندما يكون الدستور مسخراً لحماية كرامة الإنسان أياً كانت، تكون النتيجة أوروبا الملتزمة أخلاقيا وطاعة لدساتير تأمر بالدفاع عن كرامة الإنسان على اراضيها. الأولى من الدستور

الألماني: "كرامة الإنسان مصونة ويقع واجب حمايتها واحترامها على كل سلطات الدولة." وهناك بند من الدستور ينص على أن المادة الأولى هي إحدى المواد التي لا يمكن تغييرها بغض النظر عن أي قرارٍ لأغلبية في البرلمان. (ضمان وحماية كرامة الإنسانية كإنسان وإلزامية احترامها مبدأ أصيل وثابت في الدستور الألماني لا يمكن تعديله أو تغييره، وتتولى المحكمة الدستورية العليا بحزم التصدي لأي محاولة للنيل من هذا المبدأ تحت أي مبرر كان.) المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة تتحدث عن الشأن ذاته "يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق." أما في فرنسا، فقد أقر الدستور الفرنسي حماية كرامة الإنسان من كل انواع الاسترقاق والإهانة. وفي اليونان "احترام وحماية قيمة الكائن البشري واجب أساسي للدولة". وهكذا هي كل دساتير الدول المحترمة. أما الدول العربية التي أوصدت الأبواب في وجه الهاربين من نيران الحرب وبل وصلت النذالة أن من ينجح بالدخول لدولة عربية لا ترحب بالمنهك العربي بأن تمنعه من العمل والتملك وبل يتعرض على يد المواطنين لأبشع أنواع الاستغلال.

- مع أني لم أسافر قط خارج بلادنا لكني دائما أبحث في جوجل وأقرأ وكل المواضيع التي تتحدث عن التفسخ الأسري. وها أنت لفت نظري إلى مواضيع جديدة للبحث عن أوروبا ودساتيرها.
- لا... كاتب المقال لم يزر أوروبا ولم يكتب كأدب الرحلات بل اجتهاد سامع أو للمقارنة الدينية. نبهتني يا صديقي لتحميل كتب أدب الرحلات لنتعلم عن الشعوب الأخرى.
- نعم والله. على الأقل نعرف عنهم عبر شهود الرحلات ما دمنا عاجزين ويستحيل سفرنا.

***

المعلومات التي تحصل عليها العميد عمر من لمياء وإن كانت شحيحة إلا أنها مفيدة للغاية في عملية البحث. أمر العميد بفحص ملف أبو إيمان باسمه الحقيقي مجيب القاف. فقد توصل لنتيجة أن احتمال علاقة إبراهيم بمجيب قبل السنوات الحمراء أمر واقعي. "سيدي العميد، لا ملف موجود لمجيب القاف لدينا، ولم يكن تحت أنظارنا. فقد كان من مهمة طرف استخباراتي آخر ولم يزودونا بقاعدة بيناتهم الأخيرة قبل بداية السنوات الحمراء وتم اقتحام المبنى وإحراق الأرشيف. المعلومات لدي أن

مجيب القاف قد قتل." (هكذا قال العقيد خالد وهما يمشيان في ساحة مبنى المخابرات).

قال العميد معقبا:

- لم اقتنع بقصة موت مجيب القاف، ولا أصدق أي شيء دون فحص المعمل الجنائي والطبيب الشرعي. لا جثة لدينا، ولا تقرير رسمي. مجرد خبر عبر مواقع التواصل الاجتماعي وبعض القنوات الفضائية.
- نستطيع التحقق سيدي.

أمره العميد باللحاق به إلى المكتب. وهناك، طلب العميد صوراً لمجيب القاف. دخل العميد للمتصفح جوجل وكتب "مقتل مجيب القاف" أبرز له المتصفح مقالات واقتراح التصحيح للبحث (عصابة النظام قتلت الشيخ الجليل أبو إيمان) ضغط عليها. تصف المقالات ونسخ الصور للجثة المحروقة التي قيل إنها لأبو إيمان. وبالمقارنة عبر برنامج لقياس طول العظام في الصور، استطاع العميد تحديد طول العظام وشكل الرأس التشريحي لصورة الجثة. أدخل الصورة الحقيقية له وطبق نفس الطريقة وحدد البرنامج طول العظام وشكل الرأس التشريحي. ربط العقيد خالد مأخذ البرجكتور للحاسوب وأطلقه لحائط خاص به في زاوية المكتب

لتتوضح الصورة أكثر وبتكبيرها حسب الحاجة. من أرقام طول العظام في الصورتين والشكل التشريحي للرأس والمقارنة عمليا بين الصور، تبين لهما أن الصورتين تختلف وان الجثة ليست لمجيب القاف وأن هناك شيئاً من وراء هذه الفبركة.

***

شوهد إبراهيم فجرا على بعد شارعين من منزل لمياء، هذه آخر المعلومات المتوفرة قبل أن يختفي ويفقد أثره الرائي. إجراءات مشددة في تلك المنطقة. خاصة بعد أن وصلت معلومات من جار آخر أن إبراهيم كان يحب لمياء وسبب انفصالها كما تواتر إلى مسامع أهلي الحي أن إبراهيم انزعج من عمل لمياء في محل لمواد التجميل واعتقد أنها تخالف أمر الله وبأنها ليست ملتزمة. شكوك العميد تحوم حول عمل انتقامي يقوم به إبراهيم ضد لمياء، أو أنه في سؤال عن والدته وربما يفسر ذلك نية إبراهيم القيام بعملية كبرى. لذا، تم تشديد الإجراءات.

هناك مكان آخر يدور في عقل العميد ويحضر لعملية اقتحام مفاجئة وحرفية واضعا في حسبانه وعورة المكان من حيث الطبيعة واستعداد إبراهيم ومن معه لأي ردة فعل عنيفة كون المطلوب أمنيا من أخطر

العناصر وقد تحصل على تدريب عال جدا وخاض معارك كبرى وبل قاد مجموعات ونفذ عمليات قتل جماعية بطرق مختلفة.

- سيدي العميد، وصلت معلومات عن أم إبراهيم، تم التعرف على جثتها في ثلاجة الموتى في المستشفى، للأسف انتحرت... (قالها العقيد خالد).

رد العميد:

- يا له من أحمق، فقد دمر عائلته وعوائل أخرى بسبب جهله. يجب القضاء عليه بأسرع وقت ومنعه من ارتكاب جريمة، إنه هائج ومتعطش لسفك الدماء. أطلب إلى مكتبي قائد الاقتحام في فرقة المهام الخاصة.

عند تواجد قائد فرقة الاقتحام، طرح العميد عليه معلوماته عن المكان المستهدف وطبيعة المهمة ونسبة خطر المطلوب أمنيا واحتمال تواجد مطلوبين إلى جانبه ومن المرجح أن يلجأوا إلى تفجير أنفسهم أو الظهور لأحدهم من مكان ما لعمل ما يسمى (عملية انغماسية) يقتل ويُقتل عند المعركة. ومن السيرة الذاتية لإبراهيم، فهذا متوقع.

- هذه العملية ستتسبب بجرح واستشهاد بعض من نخبة الاقتحام. وإذا لزم الأمر تكون هناك طائرة عمودية للمساندة.

- سيادة العميد عمر. لا أرى حاجة للمروحية، فلدي فريق مدرب جيدا وله خبرة ميدانية.
- نتوقع الألغام في طريق تقدم القوات.
- فريقي مدرب على المشي فوق الصخور والأحجار ولا يمشون فوق التربة إلا ما اضطرتهم التضاريس، وهذه المنطقة حجرية. فريق الاقتحام مدرب على الهندسة العسكرية، وأجهزة الرؤية الليلية وتحديد حرارة الاجسام عن بعد تزيد من نسبة تفوقنا في المعركة، ولنا تدابير قبل المعركة.
- هؤلاء يمتلكون أجهزة رؤية ليلية وبل وصل الأمر لتحصلهم على قناصات كاتمة لصوت ورؤية ليلية، علينا وضع كل الاحتمالات.
- أتفهم حرصك الشديد سيدي العميد.
- جرح أحد أفراد فريق الاقتحام خسارة كبيرة جدا.
- سيدي، أنا حريص أيضاً على فرقتي، ولي إجراءات حديثة قبل أية عملية نخطط لها مستقبلا، غداً فجرا، سنأمر عميلاً لنا بتسيير أغنامه من بداية الطريق وبعدد كبير وتبقى ترعى إلى نهاية اليوم، وأي لغم مزروع سوف ينفجر.
- وأنا سآمر عناصري بتطويق المنطقة بالزي المدني.

- حسنا سيدي. سننجح.

وعبر خارطة للجبل، رسم قائد فرقة المهام الخاصة خطته وتناقشوا حولها وتمت الموافقة على الخطة وبانتظار معلومات تواجد المطلوب أمنيا في ذلك المكان (الجبل الذي يحتضن حي الصفيح).

***

غدا رأس السنة، العالم يودع العام بذكريات وإنجازات والكل يحتفل عند الدقيقة الأولى لدخول العام الجديد ليصبح ذكريات ماضي ما بين سعادة وتعاسة. حسب الزمن، كل دولة تطلق الألعاب النارية إيذانا بدخول العام الجديد وكل يُسرد إنجازاته. في المقهى ترتيبات استقبال العام الجديد، وبرنامج ثقافي أعُد سلفا للاحتفال وسيبث مباشرة عبر صفحة المقهى في الفيسبوك وأعلن عن ذلك مسبقاً. "العالم تعمق في الرفاهية وانتقل للحياة الرقمية، إنه العقل واستثماراته واستجلاب المستقبل. ونحن نستوجد الماضي لنعيش غباره ونستوقد الموت لنعيش أماله. سنبقى هكذا، فرق في التوقيت والتاريخ والمستقبل، هم كل يوم يمتطون رقماً ونحن كل يوم نمتطي إبلاً. هم يتزاحمون النجوم ويوثقون تباطؤ دوران الأرض خلال أربعين سنة ب ٢ ملم، ونحن نتزاحم على الخيام وامتطاء العبيد. سنبقى

دهرا نتابع فرحتهم عبر الإعلام، وسيبقون هم دهرا يتابعون اقتتالنا وذبح بعضنا البعض. (هواجس للعدم..)"

افتتح البث وبدأت الكاميرا تجول وكل واحد يدلي بجملة عن أمنياته في العام القادم. الجميع هنا متفائل ويتمنى ويدعو ويزهو بما يمتلك من طاقات تحرك مشاعر توديع عام وقدوم عام. الأستاذ مسعد لديه مشاركة احتجاج، فلا تفوت هكذا فرصة ولا يثير موضوع على طاولته:

- يا دكتور رؤوف، ألا تلاحظ احتفال العالم بعام جديد يعني عاماً من الإنجاز والسعادة؟ لمَ نحن كل عام والغبن يطبق بنفسه على قلوبنا؟!
- لأننا فاشلون، بربك، كيف سنلحق العالم، إنهم يسبقوننا بكل شيء، كم من ألآلف السنين نحتاج لنصنع طيارة؟
- طيارة مرة واحدة؟ حرام عليك، فعلا دكتور مجنون (يمزح...) قل كم من ألآف السنين نحتاج حتى نقتنع أننا شركاء في الوطن والدين؟! كم نحتاج من آلالف السنين لننسى طائفيتنا ومذهبيتنا ومناطقيتنا وقبيلتنا؟!
- مشكلة، أشعر بالتحسر عندما أرى الغرب يحتفل بنهاية عام علمي وثقافي، عام لم يحزن فيه أحد لأي سبب.

- إلا لسبب واحد. (قالها مسعد وهو يقضم جبينه...)
- ما هو؟!
- إذا عربي عبيط فجر نفسه في بلادهم. أو دهسهم بسيارة سرقها أو أشترى سكيناً وذبح ماراً في الطريق... نحن وراءهم أينما ذهبوا، لن نترك أحداً سعيداً في هذا الكوكب. لو نقلونا للمريخ لتساقطنا عليهم كالمطر ونهرب من مريخنا لاجئين... (يضحك مازحا...)
- نقلنا لهم عاهاتنا.
- عندما كنت في هولندا، وزرت أغلب الدول الأوربية في الإجازات، وجدتها أصبحت شرق أوسط جديداً، نقلنا كل ثقافاتنا واحتياجاتنا معنا إلى هناك، علمناهم حتى أساليب التحايل، حتى أنهم صاروا يطورون قوانينهم بشكل مستمر لمواكبة احتيالات العرب.
- مشكلة يا مسعد، مشكلة، حتى أن بعض الدول الغربية لم تكن لديها وزارة داخلية لعدم حاجتها لذلك رغم نشاطات المافيا. بسبب فساد العرب والإرهاب، اضطروا لإنشاء وزارة داخلية وإجراءات شديدة في تفتيش المسافرين. في عصر التواصل علم كل

فرد في العالم بسلبياتنا. بسبب إرهابنا، صاروا يأمروننا بخلع أحذيتنا وأحزمتنا لتفتيشها.

- وهل هناك أحد في العالم لم يشاهد مسلماً يذبح مسلماً؟! قل لي، هل هناك أحد في العالم لم يكرهنا ويكره اعتقاداتنا عندما يرون إنساناً يذبح إنساناً ليفوز بالجنة أو طفل يُمكن ويُأمر بذبح ابن بلده؟! أنا مررت بتجربة لا أنساها عندما شككت بأن من كان سيذبحني أحد طلابي الذين أفهموه أنه سيتزوج بالجنة. (بدأ يزداد خفقان قلب مسعد...)

- مأساة، يا أستاذ. كما قال أحد الفلاسفة "سامحوهم فهم لا يعلمون أنهم متعصبون وسيئون". لنخرج من هذا الموضوع الكئيب ولنركز على كلمة الآنسة ميساء...

اقترب وقت دخول العام الجديد، ثانية تليها ثانية وبدأ العام الجديد، ميساء أخذت الكلمة لتفتتح العام الجديد، وإذا بها تنحو نحواً عكس المعتاد وهي تقف على المسرح الصغير وتقول للجميع المتواجدين في المقهى أو على صفحة المقهى:

- كل عام وأنتم بخير، أود أن أتساءل، لمَ هذه الفرحة ببداية العام الجديد؟ (تتحرك على المسرح بجسدها الرشيق ولبسها الأنيق

ويجلجل صوتها الإذاعي). أرى أن الجميع سعيد ومبتهج. (مسعد يشير للدكتور رؤوف بأن ميساء تتطرق لما قاله له قبل قليل، ويشعر بتلاقح الأفكار... إلا أنه يبدأ بالانبهار تدريجيا والكلام مازال لميساء...) والجميع يحتفل ويتبادلون التهاني والتبريكات ويوزعون الحلوى، وأغبياء الغرب يرجون زجاجات البيرة وينفشوها بالهواء ويطلقون الألعاب النارية. تبا لهذا الإنسان المتناقض، الذي يحتفل بانقضاء عام من عمره وتقدمه عام في السن، كيف تحتفلون بتقدم أعماركم وتبتهجون لخسرانكم الوقت والزمن من أعماركم؟! (استغرب مسعد، وراحت عيناه تتجولان في عيون الحضور لتقع عند الأستاذ فتحي ويشير له بيده، فتحي منبهر لأدائها. ومازال الكلام لميساء...) الإنسان العصري برغم من نبوغ العقل إلا انه يحتفل بسعادة وصخب لأنه تقدم بالعمر..

***

خلال التدريب الأسبوعي الذي يجريه الصحفي محمود عبدالوهاب للحفاظ على لياقته، فقد تكون في رأسه موضوع يكتبه وينشره هذا اليوم، إنتهى من التدريب في المرحلة الأولى وذهب إلى كافتيريا النادي وطلب

كأس عصير البرتقال الطازج، وفتح برنامج الحافظة في هاتفة الذكي وبدأ يكتب المقالة لينشرها في ساعة الذروة مساءً:

الشباب مطية السفهاء

"بداية تأسيس الدولة، كانت الآمال عريضة وشهد الشعب خروجاً تدريجياً من عصر مظلم واستبشروا خيراً وكانت قيمة العملة مرتفعة. مع السنوات، كانت تظهر عقبات يستوجب وضع الحلول لها بشكل علمي دقيق ومنطقي. المصيبة أن الحلول كانت لحظية فقط وليست حلولاً جذرية وكأن الجاهل هو من يتولى مسؤولية وضع الحلول والتي دائما تعود بنتائج كارثية تنعكس على حال الجيل نفسه. وخلال أشهر، تطفو إلى السطح مصائب معقدة وسنوات حتى تصير مركبة وتراكمية تزيد غبن الشعب وحنقه وكرهه لدولته. لم تكن الحلول تتناسب مع طبيعة ونوع المشكلة بشكل فلسفي منطقي مدروس، بل إنها تسبب سحق مستقبل أجيال قادمة بسبب رعونة جيل لم يحسن التصرف والتفكير ولم يكن مؤتمناً على حياة جيل قادم ولم تكن الحلول تحترم حقوقهم بالحياة وعدم استهلاك الثروات ووضعهم أمام لعنات تلعن الجيل الذي نهب حقوقهم سواءً الثروات الطبيعة أو استنزاف المياه أو توريثهم قضايا معقدة ومركبة في الاقتصاد أو السياسة وتوريثهم صراع مجبرين على الاستمرار به ومواصلته. ما ذُكر مثل

بسيط من مجمل أمثلة يشيب لها الولدان وهي سبب أن هذا الجيل من الشباب لم يتحمل واعتقد أنه وجد فرصته للتغيير وإذا به يُستخدم كمطية للحكام والمعارضة السياسية والدينية وكلٌ وجد فرصته لتحقيق مكاسبه. مثلاً، وجدت الأحزاب فرصة لتحقيق تطلعاتها وفرض إيدولوجيتها والمستمدة من داعميها في الخارج ووجدت التيارات الإسلامية أن هذه فرصتها لعودة الخلافة. وهنا، ركبوا الموجة وتصدروا المشهد باسم هذا الجيل الحالم والذي لا يمتلك مشروعاً ليومه قبل مشروع مستقبل. ولولا تأكدت المعارضة بأن الشارع سيساندها، لما بدلت جلد الولاء لدولة ولاستمرت في المعارضة الشكلية فهي في الغالب مدعومة من الدولة لتكتمل صورة الديمقراطية المزورة."

***

الأحداث اليومية من داخل المقهى تبث مباشر ويشاهدها جمهور عريض من مختلف الدول المحيطة، تجاوز متابعو الصفحة المائة ألف في وقت قياسي بفضل مشاركة الصحفي محمود عبد الوهاب لرابط صفحة المقهى، وكتب عن المشروع وعرف به بعد زيارة للمقهى حيث نال إعجابه. هكذا نشاط سال له لعاب قناة تلفزيونية لزيارة المقهى ونقل تقارير ونال جوهره

أعجاب رواد جدد وصاروا من المواظبين على الحضور، أصبح مزدحماً والحجز بمواعيد وتم استغلال المساحة الخارجية لتوسعته في الهواء الطلق. صار له دخل مادي، وكان قرار لؤي مرضيا بأن يتقاسم الدخل العاملون بداخله حيث يعمل فيه مسعد وفتحي مساء ولؤي صباحا وتطلب الأمر توظيف آخرين. ميساء حاضرة بقوة، من استعارة للكتب إلى صحفية مقدمة للبث المباشر وحضور لزميلاتها المثقفات. من نوعية الكتب التي تستعيرها أثارت الإعجاب، ومشاركتها في الساعة الأدبية بإلقاء بديع ومواضيع تختارها بعناية، فهي مفتونة بالقراءة بهوس عميق. اليوم، وقفت بكل شموخ وكاريزما تشرح ملخص كتاب (الفلاحة النبطية لابن وحشية). ميساء تعمل على تأسيس صحيفة ثقافية الإلكترونية تصدر أسبوعيا باسم المقهى وستصبح رئيسة التحرير.

***

لا معلومات عن مجيب القاف منذ إعلان مقتله إعلاميا قبل عامين، ولم تتأكد وسائل البحث من تواجده في مكان ما إلى هذه اللحظة. العميد عمر يرجح تواجد مجيب القاف إلى جانب إبراهيم، وأن عملية إلقاء القبض أو القضاء على الذباح ستسفر عن الوصول لمجيب أيضاً. جاءت إخبارية أن

إبراهيم شوهد في سفح الجبل قبل حلول الظلام. توالت الأوامر للتعامل مع الموقف فورا. حوصر ذلك المكان وفرضت السيطرة على المدخل وبدأ الهجوم بعد التأكد من أماكن تواجدهم عبر طائرة استطلاع صغيرة ذات رؤية ليلية، تبين أنهم خمسة، وكلٌ يتخذ من منطقة متباعدة متراساً له وهناك كهف صغير لم يتبين من بداخله. بهجوم كبير وتبادل لإطلاق النار الكثيف لوقت تجاوز النصف ساعة حتى تم حصرهم بعد تراجعهم نحو الكهف. تكثفت النيران وحاول منهم من حاول الانغماس وتفجير نفسه في القوات المهاجمة وصرع قتيلا قبل أن يصل. نجحت قوات المهام الخاصة بقتلهم الواحد تلو الآخر وكانت الخسائر خمسة قتلى من المطلوبين أمنيا وجرح اثنين من قوات المهام الخاصة. تقدمت فرقة الهندسة، ففككت الأحزمة الناسفة التي ارتدوها فور بدء الاقتحام. تم تأمين المنطقة بنسبة مائة بالمائة. قُتل إبراهيم (الذباح) وانطوت صفحة حياته واضطراباته. جاء دور فحص المقتنيات وتواجد العميد عمر شخصيا لأنه أراد التعرف على القتلى وهل من بينهم مجيب القاف. فحص المقتنيات وصادر هواتف نقالة مطفأة ليتم فحص محتوياتها وتحقق من الجثث وإذا بمجيب ليس من بين القتلى. بهذه العملية، تم التعرف على محركين آخرين جاري البحث عنهم.

إبراهيم كان طفلا كباقي الأطفال، (ليس له أخوه بسبب مرض الأم وعجزها عن الحمل)، ولد من أب وأم، ورضع كما رضعوا وقبلته أمه وكذلك والده وكما يفعل الأبوان بشكل عام. كم كان يضحك ببراءة وبدون سبب وهو يكافح ليقف ويخطو الخطوة الأولى، وكم فرح والداه وملأ حياتهم بهجة وأمل. فالطفل دائما يرمز لاستمرارية الحياة والعون والنبض في القلب المشترك وهو قلب واحد لثلاثة المولود والأم والأب. فهناك قلب غير ملموس ومحسوس ويتوقف عن العمل بالثلث ويقُصر الحياة عند فقدان أحدهم فلا مخلوق طبيعي من الثلاثة يكون سعيداً بفقدان أحدهم. إبراهيم لم يكن مختلفاً عن غيره في طفولته. فقد كان يحب السكريات من الحلويات وكذلك الألعاب وتتسخ ملابسه دائما عند ملامسته التراب، كان كغيره يمرض صغيرا ويتقيأ ما في بطنه ويصف له الطبيب أو الصيدلي الدواء. كغيره أخذ اللقاحات المطلوبة وبقلب صافي طاهر يكبر ويكتسب سلوكيات كغيره منها الإيجابية ومنها السلبية حتى يظهر الشيطان ويمتلك زمام التحكم وينحو بالفرد نحو ما هو معلوم للجميع. وبعدها يكون هناك إبراهيم حتى تتضخم في العقول تساؤلات عمن يخفي وجهه خلف قناع ويمارس الموت في حق من يخالفه أو من جاءته أوامر بذبحه هل عاش كما عاش غيره وهل ابتسم يوما وكانت له أم

ترضعه مثلنا، فلِمَ يذبحنا؟! تبقى الإجابة لغزاً يعلمه الشيطان نفسه وأشواكه في طريق النوايا الحسنة وتحويله لدرب نحو الهلاك العام فمن يقنع الشيطان أن يتوقف وهل للشيطان شيطان يوشوش في أذنيه؟!

***

منذ أن أصبح مسعد مديرا للمدرسة، قد جرب طرقاً عدة للتحكم في الطلاب ومحاولة السمو بهم علميا وثقافيا. باءت المحاولات بالفشل لأنه أراد أن يكون جميع الطلاب في مستوى متفوق. راجع نفسه وأعاد ترتيب خارطة عمله. سمح للطلاب جميعا بالمغادرة مبكرا ودعا لاجتماع مع جميع المدرسين. بدأ يشرح لهم أسباب فشلهم من وجهة نظره وسمع لمن له مداخلة بهذه النقطة. يمسك بكتلة ورق جهز فيه خطة سبق ودرسها مع الدكتور رؤوف الأخصائي في الطب النفسي، بدأ بالورقة الأولى وأمر كل أستاذ أن يكتب اسم أذكى طلابه في ورقة والمواد الأشد ذكاء فيها. تناقشوا وخلصوا إلى ثمانية عشر طالبا هم الأذكى في جميع المستويات الدراسية. طلب تقييم طلاب يميلون لمواد محددة ويتقبلونها كمادة مفضلة. انتهوا إلى اثنين وثلاثون طالباً.

"هذا هو مشروعنا القادم، نخبة هم ثمانية عشر طالبا، ومتوسطو الذكاء ذوو ميول لمادة محددة إثنان وثلاثون طالبا من أصل حوالي ست مائة طالب التحقوا بالمدرسة تدريجيا. من هنا، نبدأ بمشروع المحيط الفاضل. النسبة قليلة جدا. لكن للأسف، أغلب الطلاب يعانون من الشرود وقت الحصص وكأنهم يهربون من واقع إلى عالم الخيال ليعيشوا مبتغيات افتقدوها في الواقع. وهذا بسبب الحرب فالدكتور رؤوف سبق وشرح لي هذا الجانب وقال إنهم يعيشون صدمة وسيساعدنا في محاولة إخراج الطلاب من ازماتهم النفسية. الأذكياء محط اهتمام بالغ وفق خارطة علمية، والبقية نخضعهم للمنافسة وربما تشتد الغيرة لديهم. الأهم طالب مبدع خير لنا من ألف طالب متخاذل وفاشل" هكذا قال المدير مسعد الذي أكسبته سنوات عمله في أوروبا خبرة وتجارب جديدة بالاهتمام.

الأستاذ فتحي يتحدث:

- لدي نقطة مهمة جدا. طلابنا لا يعلمون ماهي الفائدة من المواد التي يدرسون يوميا، لا أحد يعلم أهمية الرياضيات بشكل دقيق، أو الفيزياء. والأمر ينطبق على باقي المواد. أقترح أن يخصص كل أستاذ خمس دقائق في مادته يشرح للطالب بشكل مبسط أهمية المادة في الحياة مع الأمثلة على ذلك لتتفتح أفق في عقل الطالب حتى

يحب المادة التي تناسبه. مثلا، فهم الفوائد العلمية للرياضيات، يعتقد الكثير أنها محصورة باستخدامها في العمليات التجارية فقط. الطلاب لا يستوعبون المواد من دون فهم الفوائد الحياتية لها. لنشرح لطالبنا أن بدون الجبر والتكامل والتفاضل لن يكون هناك سيارات وطائرات وأنترنت وفيسبوك وأنها أساسية للصناعات الذكية.

- طرح ممتاز أستاذ فتحي. من اليوم صار لزاما على كل أستاذ تنوير طلابه بفائدة العلوم وتدخل كسؤال في الامتحانات. من له اقتراح آخر؟

تواصل النقاش وخرجوا بمجمل قرارات، منها استدعاء أولياء أمور الذين أسموهم طلاب النخبة. واتفقوا على إنشاء مجموعة في الوتساب تضم الثمانية عشر طالبا وأساتذتهم. أيضاً مجموعة أخرى للاثنين وثلاثين طالبا مع أساتذتهم وبإشراف المدير. الغرض هو تواصل مباشر على مدار اليوم لطرح الأسئلة ويرد عليها الأساتذة وهي وسيلة جيدة لمتابعة النخبة بشكل يومي خارج المدرسة. مما يعزز تبادل المعلومات بين الطلاب وتزويدهم بما يحسن من قدراتهم العلمية. اتفقوا على نشر معلومات ثقافية يوميا في المجموعات لإنعاش العقول وتوسيع أفق إدراكها.

***

الساعة التاسعة والربع مساءً يتصفح الصحفي محمود عبدالوهاب صفحات الفيسبوك، فيجد فيديو يسخر منه كشخص، هذا الفيديو هو مقتطف من برنامج تبثه قناة فضائية لمستثمر محلي. أثار غضبه مضمون الفيديو ومن كمية السخرية التي قدمها مقدم برنامج التوك شو بالتزامن مع هجوم من محاور عدة قام بها نجوم عرض البث المباشر في الفيسبوك. مما يدل على التنسيق المسبق في ما بينهم. أشعل سيجارته وفكر لثوان ثم شرع في الكتابة:

"القنوات المحلية ومن يمولها وعملها جذب المتابعين واستعانتها بسوقي البث المباشر عبر الفيسبوك ليقدموا برامج تنقل السفالة من المحدودية إلى التعميم العام والدخول دون إذن إلى المنازل. القنوات المحلية ارتكاز فشل واثبتت فعاليتها في البرامج المساعدة على تدمير البلد والمجتمع معاً. فمن لديه قرشان وله ظهر يستند إليه، يفتح قناة وما أكثر من يسمون أنفسهم صحفيين لتنشيط حصص أقل ما يُقال عنها بلا محتوى. من يمنح هؤلاء تراخيص قنوات، هو من ساعد ويساعد على تفخيخ أخلاق الناس. نحن نريد إعلاماً نظيفاً ولا نريد تلويثاً سمعياً وبصرياً. من ضمن سلبيات هذه

القنوات التهريج، واشتهار برامج التوك شو والتي لا تناقش ولا تعالج قضايا عامة، بل تناقش جانب الخصم (الضحية) لتتحول لأداة سخيفة تعمق الشقاق وتقدم عفناً وفناً مبتذلاً رخيصاً مجتزأاً في الغالب من السياق الأصلي. لا أدري كيف يُسمح لمهرج في برنامج يجتزئ من الفيديو كلمات ويركبها على كلمات بشكل يخدم البرنامج وتهين الضحية وتنسب له زيفاً وتقوله مالم يقصد، وبل تنقل للمشاهد غير الذكي صورة بأن الضحية فعلاً قال وقصد. والأمر لا يعدو كونه فبركة لكي يضحك المشاهد؟! على وزارة الإعلام التدخل والحفاظ على الإعلام الوطني من الانهيار والسقوط الأخلاقي."

***

قالوا قديما "الصمت على الفساد فساد"، إلا أن المقولات تتعقد وتتركب مع الزمن حين تتكاثر أنواع الفساد ويتقدم خطوات بشكل متسارع حيث يصعب تفكيكه بشكل علمي. للفساد رجالاته وله مناصرون كثر وجماهير عريضة بحجمه، فكلما زاد في بلد ما زادت جماهيره وحراسه المدافعين عنه. في الحقيقة الفساد ليس وباء لنكافحه، هو عدوان نحاربه، لكن القطعات

الحربية لخوض هذه المعركة متصدئة ومهترئة وتمسك زنادها كيانات فاسدة. الفساد ليس مالياً فحسب، فله أوجه عدة والجميع يخوضه ويصارع من أجله، ابتداءً من فساد الوقت والانتهازية مروراً بالفساد السياسي والإداري وانتهاءً بمناصرة المجرم في الحرب بأي وسيلة ولو بكلمة. فهذا فساد أو انتخاب الفاسد (كما قال جورج أورويل "الشعب الذي ينتخب الفاسدين والانتهازيين والمحتالين والناهبين والخونة، لا يعتبر ضحية، بل شريكا في الجريمة")، وأقلها فساداً كسر إشارة المرور قبل الحرب، (فلا إشارة مرور بقيت لا أثناء الحرب ولا بعد الحرب) أو رمي أعقاب السجائر في الشارع. أهم اسلحة الحرب ضد عدوان الفساد على المجتمع هو التحلي بالأخلاق وتطويره. في الحرب، سقط ما تبقى من القيم واضمحلت الأخلاق، ومن كان يتوقع، حينها، نمو غول بشع يتحكم بخيوط اللعبة (المفسدين)، نعم هي لعبة قذرة ووقحة فعلاً نتجت عن قناعات سرطانية بأن المفسدين وحدهم من سينقذون البلد والشعب معاً. فبدلا من المحاسبات والمحاكمات والنيل منهم، صاروا رقماً صعبا وجميع الأطراف

تتسابق عليهم، وربحان ورقة من ربح طرف. مثلاً، المسلحون يستمدون شرعيتهم من معارضتهم للفساد في المقام الأول قبل أن يتضخم لدى الجماعات المتشددة دينيا ليضحوا في وضح النهار إلى الدفاع عن المذهب الديني وشخصيات تاريخية وتتبدد مواويل الفساد والظلم والفقر، فقد مارسوا الفساد وغضوا النظر عنه. فللمفسدين قدرات على الحفاظ على مصالحهم في إطار الجماعة. أما الدولة، فقد أطلقت يدها للمفسدين لمضاعفة فسادهم وبلا حدود وقد تراءى لصناع القرار بأن المفسدين أكثر المخلصين للبلد عند الحرب وهم من يقاتلون حتى النهاية دفاعاً عن مصالحهم وفيهم درجة شجاعة عالية وقدرات على إدارة أدواتهم وتجديدها وتطويرها ومن السهل التعامل معهم. ورأت الدولة أن مكافحة الفساد عند الحرب ضرب من الجنون وانتحار وخسران أهم عمود ترتكز عليه الدولة. فالنزهاء من السهل التلاعب بهم وتجييرهم لصالح قوى متنوعة. ففيهم من التقلب والتذبذب ما يكفي للسيطرة عليهم عبر قناة تلفزيونية واحدة وأذكاهم يكون متهوراً للموت في سبيل الدولة للحفاظ على البلد من الانزلاق

باسم الوطن. أطلقت يد المفسدين ومنحوا حرية مطلقة وتضاعفوا وتضخموا إلى حد اليوم يصعب مجابهتهم بشيء لأنهم يجابهون أي مساءلة بأنهم وطنيون مناضلون مدافعون عن البلد وخاضوا سنوات من الحرب بشجاعة بل أمسوا لصوصاً وأصبحوا من أصحاب أوسمة النضال الرفيعة، وكما قال نجيب محفوظ "إن الحرب ترفع الكثير من السفلة!" وإذا بشكل البلد والشعب معاً يشبهان مخلفات سوق شعبي في آخر النهار.. في المحصلة نتيجة مأساوية تتمثل بمجتمع فاسد يصبح فيه المواطن الشريف ضحية للفساد أما أن يتأقلم معه أو يجبر على الانغماس فيه، أو يهاجر بأي طريقة..

***

المفهوم المزروع مؤخرا في عقول الناس عن الدكتاتورية وحجب الحريات أنها جرائم قريبة من غرفة النوم، مع أن تلك الشعارات لا تعني حقيقة المواطن لا من قريب أو من بعيد وليس هو المستهدف بها بل إنها موجهة لمجموعة من المعارضين والناشطين السياسيين على خلافات سياسية وتوجهات وولاءات نحو منابع فكرية وهم رقم محدود ونتيجة ذلك

فالوهم أن شعباً كاملاً مطارد يتم سجنه وتعذيبه وصعقه بالكهرباء. كل أفراد الشعب تقريبا في السجون! ذلك إيهام لهم كالإيهام بالغرق. والحقيقة أن مجتمعنا يشبه كل مجتمعات الأرض من ناحية الغريزة البشرية. فلذا، ترى الأمريكيين يفصلون السياسة بين الحكم والساسة وبين الشعوب، حيث أن على مريد ممارسة السياسة الالتحاق بأحد الحزبين وليس كما في دول التخلف والتي تطبق الديمقراطية عكس معناها ومضمونها وقواعدها المنطقية وعكس ما يطبقها مبتكرها، وجعلوا شعوبهم معزولة عن سياسة الساسة، فقط الانتخابات والتي في نهاية المطاف يكون قرار الفوز قادماً من الولايات الناجحة والغنية ولها قوة الصوت عكس الولايات الفاشلة اقتصاديا والفوز لا يكون بالصوت الشعبي ويتزامن ذلك مع استقلالية القضاء العام واستقلالية قضاء الولايات واستقلالية مكتب التحقيقات. فالجميع يخضع لتحقيق مستقل ويقف أمام قاض مستقل. لذا العصبية السياسية معدومة في تلك المجتمعات، وكل سياسي في مجال مهنته العملية التي منها مصدر عيشه وعليه ممارسة الحرية الكلية من خلال تخصصه ليطور مهنته. ومن هنا، جاء التنافس على الإبداع وتحولوا إلى مجتمعات صناعية كل يوم تبهر العالم الثالث باختراع ينقذ البشرية... بدأ الاقتراع لانتخاب رئيس أمريكي جديد، الجميع يتابع

مؤشرات الاقتراع، أعصاب البشر في كل بقاع الكرة الأرضية مشدودة وخاصة أعصاب العرب، منهم من يرى مرشحه منقذاً لهم من ورطاتهم المتكررة ومنافسه سيزيد من معاناتهم. ومنهم من يرى مرشحه منتشلهم من حفرة جهنم.

- فعلا العالم غرفة وليست قرية، فذلك اعتقاد قديم. اليوم تواجهت المعلومات كأن كل فرد أمامه آلاف الأعين في شتى بقاع العالم والفضاء، حتى رائد الفضاء، نشاهده مباشرة عبر البث المباشر وهو يتمشى خارج محطته أو يعمل ويطفو، نتابع أدق تفاصيل يومياته. إذا، فلا غرابة أن البشر يعيشون في غرفة واحدة وكأننا جميعا نُشرف على صناديق الاقتراع في الانتخابات الأمريكية. (قالها لؤي لفتحي وهما يتابعان معدلات التصويت في شاشة العرض على جدار المقهى).

قال فتحي مضيفا:

- منذ الثورة العلمية تقريبا ذات عمر ٧٠ سنة وصل بها البشر إلى الخوارق والمعجزات الناتجة عن تراكم أفكار ونظريات وتحليلات علمية وحرية التفكير المطلق. وكانت النتيجة مصيراً بشرياً واحداً ودحض ادعاءات بالزوال لأسباب غامضة، بل صار البشر في

لقاءات مستمرة على مدار الساعة من خلف شاشة بتفاصيل مملة أحياناً.

- إنعجنت الثقافات وتداخلت في بعضها البعض وكونت ثقافة موحدة ذات تواصل أقرب إلى التلامس، واهتم كل إنسان بشؤون إنسان آخر يختلف عنه لغويا وعقائديا ودينيا وعقليا، ومن أصغر حدث إلى أكبر حدث يشارك فيه البشر. فعقولهم مشدودة نحو التوحد البشري الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ.
- ما عدا عزلة العرب وفشلهم في التقارب مع أنفسهم ومع باقي ثقافات الكون لأسباب معروفة. ودليل تقارب وتلاحم واندماج الثقافات هي أوروبا باندماجها وتعايشها بعد حروب مرعبة لأنها أدركت أن المستقبل للعقل والفرد المنتج أهم من أي حرب.

قطع كلامهما مسعد وهو يسحب الكرسي ليجلس: "أرى أن الإعلام العربي يشجع مرشحه الأمريكي والذي يرتاح له نفسيا وبغباء يعتقدون أنهم مؤثرون." (هكذا قال مسعد مفتحا الجلسة)

قال لؤي مضيفاً:

- إعلامهم لا يصل للقارة الأمريكية. فتدفق القنوات يتم عبر كابلات واشتراكات والسلطات الأمريكية توافق على تدفق قنوات

لا تضر بمجتمعها ولا يسمحون لهذا العبث والتلويث أن يدخل مسامع مواطنيهم في الأيام العادية، فما بالك فترة الانتخابات الأميركية التي تحدد مصير دول، بل مصير العالم.

قال فتحي:

- نحن مهتمون بالانتخابات الأمريكية أكثر من قضايانا المصيرية.

قال مسعد:

- طبعاً، نحن مهتمون لأنها سيدة العالم بلا منازع ورئيسة مجلس إدارة العالم وهي الحاكم، وهذا سبب ارتباط البشر بهذه الانتخابات. إنه حدث انتخاب رئيس العالم وليس رئيس أمريكا فقط. ويفترض أن يشارك جميع البشر في هذه الانتخابات كون الرئيس الأمريكي هو رئيس للكرة الأرضية.

قال لؤي مؤيداً:

- فعلا، من حق كل إنسان في هذا الكوكب أن يشارك في انتخاب الرئيس الأمريكي.

قال فتحي معترضاً:

- الأمر معقد. فهذا مطلب يستحيل تطبيقه مع مليارات البشر.

مسعد يطرح اقتراحه:

- إما أن تتوقف أمريكا عن حكم العالم، أو أنها تسمح للبشر جميعا في انتخاب رئيس العالم ولو عبر برلمانات الشعوب التي تمثل شعوبها. أين المشكلة إن شارك عشرة ألف برلماني يمثلون شعوبهم في انتخاب رئيس أمريكا والذي هو فعليا رئيس العالم؟! من حقنا أن ننتخب رئيس عالمنا.

طرح لؤي تساءل:

- وهل سيسمح الكونجرس أو المشرع الأمريكي بذلك؟! هذا محض خيال مهيض الجناح.

رد مسعد:

- مادامت أمريكا لها فصل القول في السلم أو الحرب في دول العالم ما عدا بضع دول متمردة، فلِمَ لا تسمح؟! إنها متحكمة في كل شيء من التكنلوجيا إلى الذكاء الصناعي والعسكري والفضاء والأبحاث والاقتصاديات. إنها متداخلة مع كل قضايا دول العالم تقريباً. أمريكا تفرض حظراً اقتصادياً على دول عظمى وتتأثر تلك الدول من نتائج الحظر.

قال فتحي:

- صحيح، أي انهيار مالي أمريكي هو انهيار لجميع دول العالم. وتجد أن أسواق المال والدول تعمل ليلاً نهاراً لتفادي أي انهيار مالي أمريكي. وهي بذلك تحمي نفسها لأن المصير مرتبط ومتداخل.

أضاف لؤي:

- ربطوا اقتصادهم ومصيرهم المالي بدول العالم من خلال ربط الدولار باقتصاد جميع دول العالم، وخلقوا أسواق مال تحرص عليهم أكثر من أنفسهم. هذا هو وجه أمريكا المختلف خارج حدود الولايات الأمريكية. هي الدولة الوحيدة في هذا العالم وفي التاريخ التي لديها اقتصاد عكسي، فالتضخم في أمريكا ينتج من الزيادة المالية في الخزينة عكس الدول، فهي ليست بحاجة للاحتفاظ بعملة الدولار لأنه يُكسدها، بل تجدها تتخلص من المال العائد وتزيد من ميزانيات التسليح والدعم لدول الحليفة لها وإذا شعرت بالتضخم الكبير وورود مليارات إلى خزينتها والتي تحتاج لسنوات لصرفها، فتجدها تسارع لحملة عسكرية وتحتل بلداً لصرف الفائض أو لشراء الذهب. المهم تصرف ما لديها لأنها تطبع يوميا عملة الدولار. فما الحاجة لها ببقائه في خزينتها؟!

عقب فتحي مسرعاً وهو يشير بسبابته نحو لؤي:

- أتدري أن من ضمن أسباب احتلال العراق هو أن العراق قرر بيع النفط بعملة اليورو ونفذ بإصرار حتى بدأ التضخم في الخزانة الأمريكية وتكدست المليارات وهذا يشكل خطراً اقتصادياً على أمريكا، وهذا يفسر خروجها في حملة عسكرية لصرف آلاف المليارات تكدست في خزانتها لتنتعش من جديد عند تصفير الخزانة. ونحن العرب بغباء منتظرين إفلاس أمريكا نتيجة لاحتلال الدول لأنها تخسر المال...

عقب لؤي:

- أسباب احتلال العراق كثيرة ومنها الغامضة، والدليل أن ملف احتلال العراق لن يفتح حتى بعد مرور عقود من الزمن. فهل كان سبب الاحتلال هو السيطرة على عنصر التغيير الكامل في أسعار الدولار والنفط؟! الإجابة لدى الباحثين وفي الوثائق التي ستكشف مستقبلا. المعلوم بأن عنصر التغيير في أسعار الدولار بيد أمريكا نفسها. مثلا، إذا ارتفع سعر الدولار فإن سعر النفط وكذلك الذهب ينخفض. وكنتيجة لذلك، يمكن لأمريكا الحصول على الذهب أو النفط بكميات أقل من الدولارات. في حال انخفاض سعر الدولار، فإن أسعار النفط والذهب ترتفع

وكنتيجة لذلك، يمكن لأمريكا بيع كميات أقل من مخزون الذهب أو النفط وتسترد كمية أكبر من الدولارات. أما عنصر التغيير في اسعار النفط، إذا انخفض سعر النفط فإن سعر الذهب ينخفض ويزيد سعر الدولار. بهذا، تخلق إمكانية استعادة أكبر كمية من الذهب بكمية أقل من الدولارات. وإذا ارتفع سعر النفط، فبذلك يرتفع سعر الذهب تلقائياً وتنخفض قيمة الدولار. وهذا يخلق أيضاً إمكانية تمكن أمريكا من استعادة أكبر كمية من الدولارات بكمية أقل من الذهب....

فتح مسعد ذراعيه وقال وهو يضحك:

- إن ارتفع سعر النفط، فأمريكا المستفيدة. وإن انخفض، فهي المستفيدة. وإن ارتفع سعر الدولار، فأمريكا المستفيدة. وإن فقد قيمته، فهي المستفيدة. هذه أحجية. بمعنى لا فائدة من عدائهم، منتصرون في كل الأحوال. الدول التي تعلن العداء لأمريكا بأدوات قديمة صدئة تزيد من قوة الاقتصاد الأمريكي! فقط لعب على عقول شعوبهم بأن لهم عدواً يتربص بهم وبأنهم في مواجهات مستمرة مع العدو الأمريكي بالتزامن مع انهيار اقتصادهم وعملتهم مقابل الدولار. وهذا لتغطية فشلهم. لو كانوا صادقين لابتكروا طرقاً ووسائل منطقية وعلمية

مدروسة لمواجهة أمريكا وبأدوات عصرية ورقمية تؤثر على الاقتصاد الأمريكي وتحسن من مستويات المعيشة والاقتصاد والاستقرار الوطني. فالصين مثال حاضر. أما البقية، فهم يكذبون كما يتنفسون ومن مصلحتهم البحث عن شماعة ليعلقوا عليها فشلهم وتوجيه المكنة الشعبية نحو عدو وإن كان الوصول له مستحيل تماماً بدلاً من توجيه الطاقة الشعبية نحو النمو الداخلي.

قال لؤي:

- أدوات التحكم بالعالم بيد أمريكا ومنها الدول التي تدعي عداءها لأمريكا. الأنترنت بيدهم وسائل الاتصالات والأنظمة الرقمية والاقتصاد والقوة العسكرية. الصراحة موجعة يا صديقي ومشكلة دول العالم الثالث وشعوبها الفزع من الصراحة والخوف من المنطق والهروب من الواقع والانغماس في الوهم. وهنا، أقصد دول أمريكا اللاتينية وأغلب الدول الإسلامية والدول العربية قاطبة. الفلسفة المالية الأمريكية مبنية على نظريات سيطرة وتحكم وتطوير ونمو.

أسند مسعد ظهره للكرسي وقال بهدوء:

- ذكاؤهم وابتكارهم لهذه الطرق يبقي أمريكا متميزة لقرون قادمة. مرحبا بالعقل. فمطلبنا كشعوب مسحوقة من أمريكا فقط العدالة

والرأفة بنا. فكما تعامل شعبها تعامل باقي شعوب العالم مادام هي رئيسة العالم.

***

الطبقة الوسطى هي شوكة الميزان في المجتمع الاقتصادي والأمني والعلمي، وإزاحتها من خط الدفاع الأول في عمق المجتمع تؤدي إلى تهاوي سريع للبنى العقلية والمعرفية والتحتية منها الخاص والعام. كلما توسعت هذه الطبقة، كلما تعلم أبناؤها، لأنها تناضل من أجل المحافظة على مستواها أو الصعود نحو الأعلى تدريجيا. هي التي تحافظ على المهن وتعمل على صقلها، ولا تنساق للفتن لأن لها مصالحها الواسعة في كل شبر من الوطن. قديما، تلاشى منها جزء كبير فكانت الفوضى لأن الأدوات المتصارعة ليس لها شيء تخاف عليه. فمصروف يومي كفيل بتحويله الطبقة الوسطى عند التلاشي إلى الآت قتل. ما تبقى من هذه الطبقة التي استطاعت بكفاح منقطع النظير الحفاظ على جزء يمكنها من الوقوف ولو بعد مشقة سوى التجار الصغار أو المهنيين أو العاملين ذوي الدخل المكتفي. هؤلاء تحت مجهر التآمر للسيطرة على أعمالهم وبمساعدة التكنلوجيا وتوسع علوم الإدارة والنفوذ ليصيروا عبيداً على الطريقة

العصرية. الهدف الأكبر لقادة المال الذين يسحبون أرباحهم للخارج وتبقى آلة لمص الشعوب اقتصادياَ، أن تكون هناك طبقتان، الأولى أشخاص معدودون يديرون شؤون كل نفس تدب في الأرض. والطبقة الأخرى مسحوقة تستجدي عطف الكبار بعمل كعبد بمسمى آخر أن يعمل لصالحه طوال العمر مقابل لقمة العيش أو تموت هناك حيث لا شيء مجاني لا تعليم ولا صحة ولا حتى بنى تحتية متواضعة متبقية. هذا هو المبتغى المنشود في ملفات جاسر نبيل.

برنامج بث مباشر صنع حصرا لجاسر نبيل في الآونة الأخيرة خاص بالاجتماعات مع كبار موظفيه، التكنلوجيا أمنت حياة جاسر حيث لم يعد يحضر اجتماعات تحسبا لأي محاولة للنيل منه. من مكان إقامته، يطل عبر شاشة في غرفة الاجتماعات. الاجتماع اليوم ليقف أمام المشاريع الاستحواذية الجديدة التي سبق وناقشها مع صبور شفهيا. افتتح الاجتماع مع رئيس قسم الدراسات الاقتصادية حيث وضح:

- سيدي، مشروع شركة النقل داخل وخارج المدن سيكون ناجحاً وسيخفف أعباء كبيرة على المواطنين وسيقل ثمن تذكرة التنقل بنسبة ١٥ بالمائة ما بين المدن وسيكون أكثر تنظيما واحتراماً للأوقات وستضاف إليها الطرود المستعجلة ما بين المدن.

سأله جاسر:

- الجدوى الاقتصادية جاهزة؟

أمسك رئيس قسم الدراسات بملف ورفعه وهو يقول:

- نعم سيدي.

هذا المشروع الجديد الذي ظاهره مكسب واستثمار وتوفير ١٥ بالمائة من تكلفة السفر بين المدن وباطنه بطالة كبرى لسائقين أصحاب الدخل المحدود وانحسار في أداء البريد الحكومي لأنها شركة نقل وطرود مستعجلة.

الكلام مازال لجاسر نبيل:

- إذا، لنعلن عن حاجاتنا لسائقين، والأولوية لأصحاب مهنة النقل العشوائي لأن لديهم خبرات في القيادة، مع تأهيل إضافي ونكون قد ضمنا لهم رواتب شهرية بحيث نتجنب احتجاجات الصحف المعادية والتي تدعي وطنيتها وحرصها على العامة واليد العاملة.

رد المختص بذلك "حسنا".

تابع جاسر:

- شركة التوزيع، هل انتهيتم من الجدوى الاقتصادية؟

هذا المشروع هو توزيع المواد الغذائية الصناعية إلى البقالات ومحلات المواد الغذائية على مستوى البلد.

رد رئيس مكتب الدراسات:

- نعم سيدي، ولكن هناك ما يحتاج لتفسير. مثلا، لدينا عشرات آلاف المحلات التجارية في المدن والأرياف والطرقات، نحن نحتاج إلى خارطة مواقع. وهذا ليس متوفراً بسبب عشوائية وزارة التجارة ومكاتبها في المدن، المجهود مضاعف.

قال صبور:

- مؤسسة الطيف بدأت من ثلاثة سنوات التوزيع ولديها خارطة نقاط البيع، مالك المؤسسة كان موزعا لأكثر من عشرين عاما ولديه خبرة ومعرفة كونه اشتغل في الميدان.

قال جاسر:

- إذا، يجب أن تحصل على خارطة نقاط التوزيع. وإذا قبل بيع المؤسسة، سنشتريها ونضمها لمجموعاتنا.

وضع صبور فكرته:

- حسنا سيدي. نستطيع أيضاً أن نضع في شاحنات التوزيع جهاز الجي بي اس لمتابعة وتعقب السائقين والإشراف عليهم من غرفة متابعة إلكترونية.

أمر جاسر رئيس مكتب الدراسات باستكمال دراسة الجدوى لشركة التوزيع حسب المعطيات الجديدة. جميع الموزعين الفرديين المتهنين بالتوزيع سيصبحون بلا عمل عما قريب وسيجدون أنفسهم مجبرين على تقديم خدماتهم وتجاربهم ومعرفتهم لشركة جاسر مقابل راتب شهري حسب اقتصاد البلد يعتبر بسيطاً جدا وهذا من بواطن الأمور. لكن المشاريع لم تتوقف عند هذا الحد خاصة بعد التفاهمات السياسية وتقاسم السلطة وعودة الهدوء تدريجيا. فكان لابد التفكير بالإدارة المالية العامة حيث وضع مشروع مواز للبريد والتوفير الحكومي وفيه خدمات التوفير البسيط والمتوسط والحوالات الداخلية مع تقديم امتيازات ومنها سهولة سحب العميل لأمواله في أي وقت عكس البريد الحكومي الذي يعتبر عملية شحذ للحقوق المالية المدخرة لديه، وأيضاً مسابقات سنوية. فسيارة جائزة كفيلة بسيلان لعاب أغلب الشعب المسحوق الذي ينتظر فرصة تُخلق من العدم. جاسر مهتم بهذا المشروع وقد بدأ العمل عليه ميدانيا وطرح السؤال على فريق عمله:

- هل تم تحديد تاريخ افتتاح الشركة المالية؟

أجاب مدير المشروع:

- في يوم عشرة من الشهر القادم. ونحتاج لموافقتكم على ميزة نقدمها تجعلنا في الصدارة في التحويلات المالية. وهي التعاقد مع وزارة المالية والبنك المركزي لضخ الرواتب الشهرية عبر شركتنا لنخفف على الأقل من التزاحم عند تسليم الرواتب في القطاعات الحكومية وأيضاً إمكانية سحب الموظف مبلغ ١٥ الى ٢٠ بالمائة من راتبه مقدما قبل نهاية الشهر وتُخصم من الراتب عند ضخها لحسابنا الكترونيا. هذا سيجعل الجهات المعنية الحكومية تقر بدون شروط على تولينا صرف رواتب موظفي الدولة وأيضاً نساعد الموظف عند حاجته وبدون أرباح وسنسيطر ماليا ونكتفي بالمدخرات لا نقدم عليها أرباحاً ونرفع رسوم التحويل المالي بين المدن ونخصم مبلغاً بسيطاً عن السحب كتكاليف.

- ممم... (هزَّ رأسه مستحسننا...) أوافق على هذا.

***

اليوم البرنامج الأسبوعي (تحليل الحدث) والذي يُذاع من قناة فضائية دولية، موضوع البرنامج عن الإرهاب، الصحفي محمود عبدالوهاب يتابع البرنامج من بيته ويكون نظرته حول الموضوع وما هي الحلول من وجهة نظره للقضاء على الإرهاب، إنتهى البرنامج، ولج عالم الفيسبوك وراح يكتب منشوره بعنوان:

"كيف نقضي على فعالية الحروب والإرهاب في أيام"

"المتابع للأخبار هو المغذي للحرب، والمتابع لخبر الإرهاب هو المغذي والداعم الرئيس للإرهاب. لكل حرب سبب وهدف، وكلاهما يسقط حال توقف المتابع للأخبار عن المتابعة. فما الفائدة من الخبر إن لم يصنع زوبعة في أذن السامع وعيني المشاهد؟! ولو أن نسبة المتابعين للنشرات صفر، لمات الخبر ودفن الحدث في أرضه ولما تحقق الهدف والقصد من الحدث لأن الأخبار تغذي الأحداث لأنها تعني المتابع المقصود بالحدث في المقام الأول والمتعاطف في المقام الثاني. أما العمليات الإرهابية، فالقصد منها الوصول، فمجرد خبر مقتل عدد من الأشخاص بعملية إرهابية وإذاعته يصبح الهدف من العملية أنجز بنجاح وهو سماع العالم به لأن وجود الإرهاب مرتبط بانتشاره. مثلا، حادث سيارة يقتل عشرة أشخاص، ليس بخبر عالمي وبل ليس محلي عال الأهمية وبالمقارنة مع

انتحاري يقتل نصف العدد خمسة أشخاص يصبح خبراً يهتم به الجميع. ما ينُجحه الانتشار. ولا يمكن للإرهاب أن يكون إرهاباً مالم يتم نشر أخباره، فلو توقف العالم عن نقل أحداث وتحليلات العمليات الإرهابية وتوقف الناس عن المتابعة، فهذا يفقد فعالية الإرهاب ويصبح غير فعال ويموت الخبر ويتحلل الإرهاب تدريجيا. فالإرهاب يعلم أن العمليات التي ينفذها لن تقضي على العالم ويعلم أن القصد هو رعب الناس أن الإرهاب موجود وقائم. فلو نفترض أن العالم توقف عن نشر أخبار الإرهاب وتوقفنا عن المتابعة، فما هي النتيجة؟! حتماً سيكون الإرهابي نفسه مجرما عادياً ومطارداً ولا ينال الشهرة العالمية والأهمية الإعلامية. وإذا بالعملية الإرهابية لا تختلف عن أي جريمة. فالفرق بين الجريمة والإرهاب هو التدفق الإعلامي الذي يعرف المشاهد الغاية من القتل أهو لسبب ذاتي أو من أجل غاية دينية..."

***

طاولة بعيدة كأنها في آخر الدهر، معزولة في زاوية. انطواء هيكلها ككتاب مركون في دهاليز الغبار. تحمل في طياتها حروفاً تنطق سرا كلما احتضنها قارئ. لم يكن ذلك قديما نمط حياة فتحي. منذ صداقته الأولى لمسعد

وخصامه معه والعودة إلى نفس المنهل، تشابها بالمزاج إلى حد بعيد. ينفصل حسيا في زاوية يروي عطشه المعرفي. منهمك، جسدا حاضرا وما بداخله من وعي يراقب حركة قلم الكاتب قبل سنين مستحضرا شعوره وطريقة تفكيره وحواراته. يستعيد ذلك الوعي وينقله بثانية من عالم قديم إلى اللحظة. وضع لؤي كأسين من عصير الليمون بالنعناع على الطاولة، واحد له والآخر لفتحي. "لست هنا يا فتحي" يرد بهدوء "بلا، الآن هنا" وكأنه لم يستحسن التوقف ووضع الكتاب جانبا. ارتشف العصير بتلذذ لطيف ورائحة النعناع والليمون يكونان بيئة خضراء. "أراك يا فتحي منهمكاً في قراءة الأدب المترجم".

- آمم، بلا، إنه مختلف، له مذاق خاص وتشعر بطرح وسلاسة وتحكم بعقل القارئ لتوجيهه إلى عوالم لا تتوقعها قط، ثراء الأحداث وغدق بمعلومات حقيقية.
- صدقت يا فتحي. بل إنك تقف أمام تأليف مختلف يكاد ينطق لما فيه من حياة.
- لا يوجد أسهاب وإسراف مفرط في الوصف حتى الملل، لم أعد أستحسن ذلك الوصف الذي يلوك فيه الكاتب بنصف ورقة ليقول لي جملة مفيدة واحدة.

- هناك من يرى أن الإبداع هو فن وصف لأشياء وقدرة الكاتب على وصفها. وأنا ممن يُعجب بهذه المدرسة وأمارسها في كتاباتي.

رد عليه فتحي واصفاً طرحه:

- عقل الإنسان الحديث ليس بحاجة إلى وصف الأشياء المتعلقة بحدث ما كما يراها من خلال العينين أو يقرأها أو شاهدها عبر وسيلة تواصل. إن للعقل مُخرجه المبدع وفريق تصويره الرائع الخاص به حصراً، فلا تلوثوا تصوراته بتصوراتكم الشخصية. واعطوا عقل القارئ بعضا من الحرية ليتصور ويحول الكلمات إلى صورة متحركة في عقله بالديكور الذي يحبه ويراه مناسبا ولا تجبروه على التصور وفق تذوقاتكم.
- أحترم رؤيتك، ولكل قارئ رؤيته، وهناك قراء يستهويهم الوصف الجنسي كنوع من الأدب النفسي والشعور بما تشعر به الشخصية من حركة فيزيولوجية داخلية.
- الأغلبية الساحقة من المؤلفات العربية تناقش وتستهلك نفسها في وصف الجنس، وكأننا مازلنا في عصر بداية التلفزة. يا صديقي لؤي، قديما، كان مشاهدة ووصف المرأة عبر نص أدبي لأنه الوسيلة للتعبير عن شعور مكبوت لدى القارئ ووسيلة شهرة للكاتب.

كما كانت مشاكل المجتمع تعطل مضمون الحب، وانعدام وسائل للتواصل بين العشاق. اليوم، مازال المؤلفون يمشون بنفس الخط القديم ويتنافسون بأجمل وصف جنسي كاختراق للممنوع (تابُو). مع أن مهنة الأدب هي ثورة تفكير تناقش وتعالج مجتمع بكل محتوياته.

عبر لؤي عن شعوره في هذه الجزئية وهو يضع هاتفه أمامه:

- بصراحة، أنا صرت أشعر بالملل من الوصف الجنسي في الكتب.
- إمكانية الحصول على المادة الإباحية صارت متوفرة عبر شبكة الأنترنت. فيجب أن يتجرد الأدب من الإباحية الوصفية، فهي لا تليق به. هذا أحد الأسباب التي تجعلنا نتوجه لقراءة الأدب المترجم الحديث والذي لا يقحم الجنس في غير موقف. هناك كتب قرأتها أكثر من مرة لأني لم أجد ما يساويها من حيث المحتوى المعرفي والثقافي والكم الهائل من المعلومات غير المضللة. أو أعود لقراءة مؤلفات عربية قديمة لكتاب عرب هم بعدد الأصابع.

طرح لؤي رأيه:

- انحسار مستوى مطالعة الكتب من قبل المجتمعات العربية له ارتباط نسبي بما يعرض من الكتب التي لا تناسب لا زمان ولا

تفكير المقبل على القراءة. فعلا، وجبت العصرنة والمواكبة. هناك مؤلفون عرب يزورون المعلومة باسم الحرية الفكرية. الأمر يحتاج لثورة عصرنة بضمير حي يقوم بها المؤلفون بمسؤولية محضة..

يتساءل فتحي ويركز في عيني لؤي:

- هناك سؤال يختلج في صدري، لماذا لا يوجد لدى العرب مؤلفون أمثال دان براون وسوسمان وجورج أورويل وفيودور دوستويفسكي؟!

قضم لؤي جبينه وراح يطرح إجابة يراها هي السبب:

- في أيام اللجوء وأنا في أوروبا، لاحظت مجتمعين، مجتمع عربي لاجئ هارب من واقعه واصطحب معه واقعه ونفوره من الكتاب. ومجتمع أوروبي، يركض وراء الكتب لمزيد من التنمية الفكرية. في كراسي الحدائق الأوربية، يقرأ ليكتسب تجارب وضعها المؤلفون وكي لا يخوضها ويتعلم منها فهو يقرأها مسبقا، ويجلس بعيدا العربي أمامه على كرسي مقابل يأكل ويرمي المخلفات أو يتصفح أجساد النساء أو يسرح بخياله نحو اللا شيء.

- أهناك جينات تتحكم بالمجتمعات؟!

- يا فتحي، الغربي يواظب على الكتب لأنها جميعا ترقى لمستوى التنمية العقلية، ويدرك أن الكتب التي بمتناوله ببضعة يوروهات فيه تعب وسهر وعرق وأسفار وتجارب وقهوة ودخان سجائر المؤلف لسنوات اشتراها القارئ بقليل من اليوروهات.
- أدركوا قيمة المجهود وقدروه وقدسوه.
- ليس ذلك فحسب. المؤلفون الذين ذكرتهم، تناولوا المواضيع بحرية واستقلالية ولم يسعوا إلى توجيه القارئ نحو حزب أو طائفة بعينها، بل تجردوا من الانتماءات وتنافسوا على المناقشة كلٌ بطريقته وليس بطريقة من سبقه. وأيضاً، هناك مواضيع لا يمكن للعربي الخوض فيها لحرمتها ونبذها وخوفاً من تكفير الكاتب. حتى لو تناول الكاتب الموضوع من زاوية بعيدة، حتى لو كانت شخصية إضافية كنقل لحدث ولا يعبر ذلك عن إيمانيات الكاتب. بوضوح أكثر، الأوروبيون لا يمارسون الاستمناء الفكري سواءً كُتاباً أو قراءً.
- صحيح يا لؤي. الشخصيات وإن كانت خيالية فأفكارها اتهامية للكاتب إنها تعبر عن رأيه وإنه هو المسؤول عنها. بل إنه يُقول الكاتب مالم يقل ويؤول ما لا يقصد.

- أصبت، ليس لدينا استعداد بعد لنناقش المحتوى ونضع له حلولاً في الواقع، بل نذهب فورا لتخطئته وتكفير الكاتب وكأنها وسيلة للشهرة والسلطة المطلقة في التحكم بالرقاب. لو تناول كاتب موضوعاً دينياً على أنه فعلا حاصل ومدرك، لن تجد الحلول للطرح، ستجد سكيناً حادة تبحث عن رقبة الكاتب. لو تطرق الكاتب لشخصية مقدسة لدى طرف ما أكانت سياسية أو دينية، لنال من أنصاره مالا يُحمد عقباه من تعنيف لفظي أو تكفير أو عنف جسدي. مازلنا نعبد الأشخاص.

قال فتحي وهو يقلب الكتاب بين يديه:

- لذا، المؤلفون العرب يتوخون الحذر ويلوكون موضوع الجنس والأدب الإباحي لأنه يرقى لمستوى جميع الشرائح العربية ولا يعترض عليه أحد لأنه يلبي رغبات الجميع...
- لا تنس يا فتحي أن مسعد كانوا سيذبحونه عام ٢٠١١ بسبب أوراق وجرائد. أأكد لك، أن الكاتب يجد نفسه متهماً أمام السلطات وكافراً أمام المتشددين، ومنحلاً أمام القبليين. وعميلاً أمام الجاهل.

أضاف فتحي:

- وأيضاً، إشكالية سرقة المجهود الفكري للكاتب ودائما دون إذن.

عقب مسعد:

- وسرقة كتاب كامل فقط تغيير الغلاف أكان الكاتب حياً أو ميتاً بكل بساطة وجراءة. في الغرب، تعتبر جريمة فيدرالية بمجرد سرقة أسطر فقط عقوبتها السجن والتعويض. يا صديقي، في بلادنا لا يصل العقل إلى مستوى سطح الحذاء. سنبقى في القاع..

***

ملف مجيب القاف تربع على أعلى الملفات التي تولاها العميد عمر، لم يصلوا إلى معلومة واحدة تحدد مكانه. اختفاء تام يطرح الكثير من علامات الاستفهام. في اجتماع للعميد وأبرز مساعديه، ناقشوا هذا الملف باستفاضة. ذلك الغموض جعل العميد يقف أمام تحد بعد وصول الجميع إلى معلومة مفادها لا معلومة عن مجيب. وقف العميد ودحرج كرسيه إلى الخلف. تقدم خطوة من أحد مساعديه وطلب سيجارة. هو توقف عن التدخين منذ أربعة أشهر، تناولها ووضعها بين شفتيه لتأخذ زاوية من فمه وأشعلها وخطا خطوات ثم توقف ومن خلفه الضباط يطالعون تصرفه الغريب لهذا اليوم. دقيقة صمت

وتجاوزتها الثواني لينطق العميد وهو متعمق في تفكير شديد: "إليّ حالا بخبير فوتوشوب". سأله العقيد خالد، أتقصد يونس؟! رد عليه: "يونس ليس متمكناً هو خبير برمجيات، أريد محترف فوتوشوب."

رمى السيجارة على الأرض واستدار وقد تغير شكل وجهه بابتسامه مختلفة، تقدم خطوات وهو يقول "وجدت مجيب، سأدلكم على آخر مكان تواجد فيه". كلٌ منهم يفتش في ذاكرته عن معلومة ربما فاتته وتنبه لها العميد. أشعل العميد آلة العرض باتجاه الحائط، بانتظار خبير الفوتوشوب وهو خبير جنائي بالأصل ومتخصص برسم صور المطلوبين إلكترونيا. جاء الخبير، أمره العميد بأن يعد صورة لمجيب القاف حليق اللحية حالا. بدأ عمله وأزال لحية مجيب، العميد يقف خلف الخبير وهو منحن ويشير بيده نحو شاشة الحاسوب ويقول:

- أريد أن تكبر العمر بشكل الصورة.

سأله الخبير:

- بمعنى سيدي؟!
- هذه الصورة قبل ثلاث سنوات، تخيل أنه اليوم، كيف سيكون شكله؟ ماهي المتغيرات التي ستبدو على وجهه؟

تغيير وتعديل الصورة يظهر مباشرة على الحائط بواسطة أشعة آلة العرض، بشكل كبير يوضح المعالجات عليها. دقائق والصورة جاهزة من تعديلات تبدو بسيطة في شكل الصور. أمر العميد بإضافتها إلى برنامج البحث عن الصور المشابهة في الأنترنت عبر المتصفح جوجل. دقائق والصور المشابهة جميعا على شاشة العرض. وجدوا صورا، بدأ الفحص والبحث وإذا بهم يجدون صورة مجيب القاف وهو في قارب مع مجموعة لاجئين في عرض البحر. هنا، صار إلقاء القبض عليه أشبه بالمستحيل. أمر العميد خبير الفوتوشوب بالانصراف لعمله، وعاد لأخذ مكانه وقال للمجتمعين:

- أريد مجيب القاف، إنه سبب تضليل وسبب الكثير من المتاعب، نتاج جرائمه تمثلت بإبراهيم وغيره. عندما أعلن فصيل مسلح عن مقتله على يد أفراد الجيش وحرق جثته وتم الترويج لهذا إعلاميا. حينها، كانت المعلومات سيلاً لا وقت لتحليلها كاملة ووقفت أمام الأمر مصدقا له جزئيا وقلت ربما انفعل بعض زملائنا نتاجا للجرائم المرتكبة وقتل زملاء لهم بطرق بشعة وهم أسرى، وكانت ردة فعل بقتله وحرقه. اليوم، يفتح الملف. إنها قضية إعلامية لتشويه الجيش أمام الشعب من مجمل آلاف الأخبار المزورة.

ومجيب جزء من هذه المفبركات، ما وصلني عنه يجعلني أتحمس للاهتمام بهذا الملف. تحدث إليّ زميل أنهم استدعوه وحققوا معه قبل السنوات الحمراء وتم إخلاء سبيله بشرط تزويد الجهاز بمعلومات والعمل معهم. تعامل معهم في بادئ الأمر، وعند بداية السنوات الحمراء، توقف وعاد للصفوف الأخرى، واختفى ملف التحقيق معه عند اقتحام المبنى بداية الأحداث. وبعد الاقتحام بأيام، اغتيل الضابط المكلف بهذا الملف. لذا، أريده وأفكر بعقد صفقة مع الدولة التي طلب فيه اللجوء ليرفضوا طلبه. وحينها، سيرحل. طبيعة الصفقة معلومات. أحياناً، نضطر للتخلي عن كنز بمقابل منجم معلومات. هل لدى أحد ما يقوله بهذه الصفقة؟

***

اقل مشاركات البث المباشر في المقهى هي للأستاذ فتحي، فهو من النوع الذي لا يحبذ الظهور الإعلامي عبر شبكة التواصل، مكتفيا بإدارة المقهى في الوقت المحدد له وبالمشاركة الكتابية. صاغ قوانين وضوابط عامة في المقهى، لا تقدم سوى المشروبات الساخنة والعصائر والسندويتشات. ممنوع الترويج السياسي لجهة ما، فقط واقع من نظرة محايدة أو قناعات لا

ينبغي محاولة الاستقطاب والتأثير على الآخرين. ممنوع التجاذبات والكراهية، بطائق اشتراك كُتب خلفها الضوابط العامة... منشور عبر صفحة المقهى في الفيسبوك لتطوير مكتبة المقهى ورفدها بالكتب القديمة النادرة والجديدة التي تُصدر في دول ولا تصل للدول الأخرى إلا إذا خدمت الظروف الناشر ليتواجد في معرض الكتاب، والدول التي تعرضت لصراعات داخلية لم تقم فيها معارض للكتاب وإن أقيمت يبقى ثمن الكتاب لا يتحمله حتى الزائر متوسط الدخل كون إيجار المعرض لدور النشر باهظ الثمن وجمارك الكتب وباقي الرسوم المالية تتحول كزيادة إضافية في سعر الكتاب. تتصرف وزارات الثقافة بأنانية وهي تفرض رسوماً لا يمكن أن تكون لغير معارض المجوهرات وليس الكتب والتي بقراراتها الجاهلة لا علاقة لها أصلا بالثقافة. فهي تعمق الشروخ وتوسع الهوة بين القارئ والكتاب الورقي لتكون الوسيلة المثلى هي القرصنة حيث يلجأ إليها القارئ ليقتني كتاباً بالأصل يستحيل عليه دفع ثمنه كنتاج جماعات تحكم وزارات الثقافات لا علاقة لهم بشيء اسمه ثقافة. المهتمون بالمقهى في العالم الافتراضي تفاعلوا مع المنشور لرفد مكتبة المقهى بالكتب من شتى أقطار المنطقة وتوالت وصول الطرود فيها كتب منهم من أرسل كتاباً ومنهم من أرسل أكثر والذين أرسلوا طروداً فيها

أكثر من خمسة كتب. وهو عمل تطوعي فقد حجزت الجمارك الطرود ودخل مدراء المقهى في دوامة تشبه معصر السمسم حيث تعصب عيني الجمل ويدور حول المعصرة. وبعد أشهر، تفتح عيناه وهو مازال في نفس الحلقة. كتب تم مصادرتها ومنع دخولها من الجمارك (لأسباب عفا عنها الزمن وهي نفسها متوفرة إلكترونيا) وأخرى بعد معاملة طويلة ومرهقة دفعوا فاتورة الجمارك المالية وأخرجوا الطرود. شكروا المرسلين عبر البث المباشر ونقلوا صورة للمكتبة وكيف أصبحت بعد توسعتها.

الجديد في مقهى الدب الصغير الثقافي، مبادرة لميساء، من يقرأ كتاباً من الرواد وأراد المشاركة يلخصه في أهم ما ورد فيه ويشرحه للحضور وللجمهور عبر البث المباشر، حيث نجحت تجربة سابقة لها من هذا المنبر وتأكدت من نجاحها عندما نشرت الفكرة في الصفحة الإلكترونية، نالت إعجاب واستحسان الكثير. ثاني ملخص كتاب تقدمه ميساء. اعتلت المسرح بوقفة الواثقة المتحدية كأنها سيف دمشقي، الأستاذ فتحي مسؤول التصوير لهذا اليوم. بدأت ميساء بخطو خطوة باتجاه شمال المسرح لتحدث الجمهور وكذلك فعلت نحو الجهة الأخرى. لفتت الأنظار بقدراتها العالية على الشرح والوصف والتعمق في الفكرة وسردها، مخارج حروفها مذهلة، جرأتها كأنثى تتحدى النظرة العامة لهذا الجنس، فرضت على العيون

إعجاباً من منطلق إبداع واستطاعت فصل الإعجاب الروحي عن الإبداع في عيون الآخرين بقدرات سيطرة وثقة. إلى هنا، هي تتحدث عن أهمية المشروع الذي سيساعد المتابعين على التعرف عن مدى توجهاتهم الفكرية وما يرغبون بالاطلاع عليه وتعريفهم بأمهات الكتب. بدأت بكتاب اليوم، قالت: "كتابي لهذا اليوم هو الإلياذة هوميروس" وراحت تشرح المضمون وتعرف الكتاب والكاتب. هنا، تحول الأستاذ فتحي إلى مذهول بها. "أي فكر تمتلك ميساء؟ إنها فتاة متميزة."

***

في يوم إجازة، استدعي إلى المدرسة أولياء أمور طلاب النخبة. طرح عليهم المدير والأساتذة فكرة مشروعهم، وطلبوا التعاون، واتفقوا على إنشاء مجموعة خاصة بأولياء أمور طلاب النخبة والأساتذة لإبلاغهم عن أي تقصير أو شرود أو تذمر أبنائهم من الأساتذة وكذلك إبلاغ أولياء الأمور بأي ملاحظة تخص أي طالب تطرأ عليه تغيرات سلبية. الجديد في الموضوع من اقتراح أستاذ الفيزياء. اقترح أن يظهر طلاب النخبة بزي موحد مختلف عن باقي الطلاب لعل ذلك يعزز روح المنافسة، أو زرع سمات في عقول النخبة أنهم ذوو أهمية لينموا مع الاهتمام وتكون ثقتهم

بأنفسهم عالية للنجاح والتفوق والإبداع. استحسن الجميع الفكرة وراح البعض يقترح الزي الجديد للنخبة ولونه. انتهوا إلى بدلة رسمية زرقاء وقميص أبيض ورَبْطَة عُنُق شبابية وحقيبة يد مميزة، هذا في ما يخص الثمانية عشر طالبا. أما متوسطو الذكاء ولهم ميول لمواد معينة حيث سيتم تنمية مهاراتهم في المواد التي يعشقونها، فقد اختاروا لهم بدلة رسمية ذات لون الأسود وقميص أبيض. تكفل ولي أمر أحد الطلاب بتكاليف الخياطة للقيام بالمهمة ليبدأ التنفيذ من الأسبوع القادم. ذكرهم المدير برفضه للعنف أيا كان اللفظي أو الجسدي، وطلب من أولياء الأمور أن يشكوا أخطاء أبنائهم للأساتذة، وكذلك الأساتذة يفعلون ويتناقشون ماهي الحلول الممكنة للتعامل مع الطالب. وأيضاً إبعادهم عن نشرات الأخبار المرئية لأنها مصدر الصور المباشرة للعنف والتحريض والكراهية. وهذه من ضمن نصائح الدكتور رؤوف.

***

المنشور الأخير للصحفي محمود عبدالوهاب لم يتفاعل معه الكثير وتبين له من خارطة البيانات أن التفاعل قل مؤخراً. لذا، قرر أن يكتب منشوراً نارياً يلفت الانتباه ويثير ضجة تعليقات حول الموضوع. أعد لنفسه شاياً

أخضر بالنعناع وجلس في مكتبه على ضوء خافت منبعث من مصباح مكتبه، الساعة تُشير لاقترابها من الثامنة والنصف مساءً، فتح برنامج الورد في كمبيوتره المحمول وراح يدون:

فقط نحن المسلمون من يفعلها،

من يفهم هذه السطور عكس واقعها، فليتوقف عن القراءة وليدس رأسه تحت إبطه.. أبشع أنواع العيب هو التستر الديني وممارسة الرذائل والتفاهات تحت شعار ديني والأحقر من ذلك جمهور يدافع عن ذلك تحت شعار الفضيلة والتغني بالأخلاق غير الموجودة أصلاً. أغلب العلماء المهمين هم من اليهود، ومنهم المسيحيون (ليس النصارى) ومنهم البوذيون والهندوس واللادينيون. اكتشف اللقاحات كوكبة من علماء غير المسلمين حتى أن نُبل العالم باستور وصل إلى درجة تجربة التطعيم على نفسه. وجل هؤلاء العلماء وهبوا اختراعاتهم للبشرية مجاناً دون تمييز ديني أو عدم أهلية أبناء دين للحصول عليه ودون حقوق ملكية لتصير حقوقاً إنسانية وعاشوا حياتهم فقراء. والعكس لو كان المخترع مسلماً للأسف وذلك لتوارث مفهوم خاطئ أو سماعه من شيوخ التعصب والتشدد رغم

كثرة حديث المسلم عن السماحة والإيثار ولا تطبق على الواقع (ذكرت المسلم وليس الإسلام وهناك فرق بينهما).

العلماء وهبوا اللقاحات مجاناً للبشرية ومنظمات الصحة واللقاحات العالمية توصل اللقاحات إلى كل شبر في الكرة الأرضية مجاناً حتى لمناطق النزاعات المسلحة والمجاعات حتى أن توفر اللقاحات له أولوية عن الطعام. وأغلب العاملين في المنظمات متطوعون من غير المسلمين. لو كان مكتشف لقاح شلل الأطفال دولة عربية مثلاً، وفي لحظة غضب لُمنعت اللقاحات عن الدول المجاورة وابتزت باقي الدول. أما لو كان الاكتشاف سنياً لحُرم على الشيعة. ولو كان الاكتشاف شيعياً لحُرم على السنة. ولو كان حنبلياً لحُرم على الشافعية والعكس أيضاً (ومجازر الشافعية والحنبلية حاضرة في ذاكرة التاريخ ودليل على تكفير بعضهما).

تبقى المشكلة أزمة أخلاق وتدليس والادعاء بامتلاك مخزون أخلاقي ليس موجوداً أصلاً ومثلاً على ذلك الجميع يتحدث عن الأخلاق الإسلامية وهي لا تُطبق واقعياً نهائياً. ندعي الإنسانية وحب بعضنا البعض بالدين ونحن الكذب والنفاق. والدليل على ذلك، لم نسمع منظمة عربية ترتب لرحلة طبية لتزويد مستشفيات بلادنا بالقطن الطبي فقط. لم نسمع بحزب عربي طالب بالتبرع لتسيير قافلة دواء ولا حتى إيراني! لم نسمع دولة عربية

أو اسلامية تبرعت فقط بألف دولار لأطباء بلا حدود لإيصال معقم طبي لبلادنا. لم نسمع بعربي احتج على التضييق ومنع الرحلات الإنسانية لأطباء بلا حدود. ولكننا سمعنا بضجة دولية بأن المسلم منع غير المسلم من توصيل اللقاحات ومارست المنظمات العالمية قوتها وأجبرت المسلم غصبا عنه بالسماح لطائرة لقاحات تحط في مطارات بلادنا المضطربة أمنياً. سلام الله على المنظمات الإنسانية الدولية غير المسلمة. أما المسلمون، فلله الأمر من قبل ومن بعد والأيام دول والذاكرة القصيرة هي فقط في رأس البعير...

ملاحظة:

* المقال انتقاد لسلوكيات المسلم في التعصب فقط وليس انتقاد للدين. ومن يفهم عكس ذلك انصحه بحمل الأسفار (كالحمار يحمل أسفارا).

* النصرانية: انقرضت وهم شيعة المسيح ويقال إنهم لا يؤمنون بالقيامة والتجسيد وهم من أنكر أن المسيح "ابن الله" أو بالمفهوم العام لأغلب المسيحيين، "تبناه الله". هم من قالوا إن المسيح فقط نبي برسالة وهربوا من البطش والقتل إلى الحجاز وامتدحهم الإسلام ومنهم من أسلم. وفي منابرنا إلى اليوم، ندعو عليهم (اللهم عليك بالنصارى ومن ناصرهم، واللهم أحصهم عددا ولا تبقي منهم أحدا واجعلهم غنيمة للإسلام

والمسلمين....) ومازال المسلمون مُصرين على أن النصرانية هي المسيحية. وهؤلاء أصلاً لا وجود لهم وكانوا موجودين حتى القرون الثمانية الأولي من الهجرة واختفوا ولا يظهر لهم اثر حالياً إلا في بعض البلاد العربية بأعداد قليلة. الجهل في منابرنا وصل لحد عدم القدرة على التفريق بين النصراني والناصري والمسيحي. بمعنى أننا، منذ قرون، ندعو الله على طائفة منقرضة من زمان. والحقيقة فقد دخل الإسلام أغلبهم في زمن الرسالة..

***

(الهاتف لا يستجيب...) بغضب ينزع الأستاذ مسعد بطارية الهاتف ويعيد تشغيله. نفس المشكلة. يبحث عن رقم هاتف زميله فتحي فلا يجده. مع سهولة الحياة والأجهزة الذكية لم يعد أحد يحفظ الأرقام في ذاكرته أو يسجلها في مذكرة الهاتف الورقية. كل المعلومات مسجلة في الهواتف والذاكرات. يضطر مسعد للذهاب إلى متجر صيانة ليعيد تحميل النظام ويخسر جميع المعلومات، ومن خلال برنامج استعاد له المبرمج أرقام الهواتف. تخلف عن موعد مسبق مع فتحي لتناول وجبة الغداء معاً في مطعم شعبي ومن ثم يذهبان إلى المقهى. وأخيراً هاتف فتحي. تلاقيا أمام

المطعم الشعبي. مازال مسعد غاضبا. بادر زميله باعتذار ولعن جميع من يعرف من البشر. ضحك فتحي لذلك وتساءل "لِمَ كل هذا التشنج؟" أجاب أن هاتفه تعطلت فيه البرامج وخسر الوقت في إعادته إلى وضعه الطبيعي. قال له زميله إن هذا يحدث دائماً.

- لا، ليس دائما، مئات الرسائل عبر الوتساب والفيبر والمجموعات والماسنجر تحمل نفس مضمون يوم الجمعة من أدعية وكلام طويل تبدأ وكل رسالة تزيد عن صفحتين. والجميع يرسل نفس الرسالة. وما يذهب عقلي أن كل واحد يرسل نفس الرسائل لكل أصدقائه في كل برنامج وهم أنفسهم الأصدقاء ونفس المرسلات.
- لديك شعبية يا أستاذ. (قالها فتحي وهو يشير بيده لدخول المطعم).
- هذا مجتمع عبيط. بربك أبقى طوال اليوم أفتح رسائل أدعية الجمعة وقبلها أدعية ليلة الجمعة وكل صباح أدعية وإشراقة الصباح ورسالة القسم بأن تبعثها لمائة صديق لتحصل عن كل صديق حسنة. وذلك، يرسلك ولك حسنات للمليون وإلا اللهم اخسف بمن يتجاهل الرسالة والتي تتكون من ألف حرف؟! هل

هذا منطقي أن يضيفوني لمجموعات غوغائية عديمة الفائدة وافتح الوتساب وهناك ألف رسالة في المجموعة الواحدة!

- رسائل مطولة والعنوان استحلفك بالله أن ترسلها لعشرة أشخاص وإن لم تفعل فإن الشيطان منعك.

قال مسعد مؤكدا:

- بالضبط... هنا مازال العقل يدور حول نفس النقطة وكل وسيلة تستخدم عكس ما أراد مخترعها. بربك، كيف عرفوا أن الشيطان منعك؟

- قد يكون الشيطان إبن عمه وأنا لا أعلم؟

- أو قد يكون هو الشيطان نفسه؟! يا صديقي، رسائل يوم واحد تكفي لسنة كاملة. ومستمرون بالرسائل عديمة الفائدة بكمها المهول. عالم بلا عمل.

طلبا الطعام والحديث مستمر:

- إنها مشكلة إضاعة الوقت والاستخدام السلبي للتكنلوجيا. (هكذا قال فتحي).

- الشعوب تستفيد من هذه التقنيات وتتبادل أفكاراً بناءة، وفي بلادنا مازالت الوقاحة مستمرة، الجميع يتبادل مصطلحات عنصرية نابية والسباب في المجموعات. إني أخجل وأنا أقرأ الرسائل..

***

بعد مفاوضات شاقة، توصل المفاوض عن المخابرات مع نظيره في أوروبا إلى صفقة، وسيتم تسليمهم معلومات عن شخص محجوز منذ السنوات الحمراء، وتحفظت عليه المخابرات منذ ذلك الحين، مقابل رفض طلب لجواء مجيب القاف وترحيله. تمت العملية بنجاح، وتم زج نجيب القاف في الطائرة وتسلم الطيار استمارة الترحيل، حيث يسلم الطيار وثيقة الترحيل واثبات الشخصية في مطار بلد الوصول للسلطات الأمنية ويستلم وصل الاستلام، وهذا إجراء متعارف عليه عند الترحيل.

تسلمت سلطات المطار وثائق الترحيل قبل فتح باب الطائرة لنزول المسافرين. بعدها، رفع سلم النزول ونزل مجيب مع الواصلين، وعند أسفل السلم طُلب منه التوجه إلى سيارة سوداء اللون من نوع تويوتا مصفحة، حاول الاستيضاح، تم الزج به وغادرت السيارة بسرعة.

وقبل الوصول إلى بوابة الخروج، انطلقت أربع سيارات مشابهة كانت منتظرة لتكون قافلة، خرجت من البوابة الخلفية للمطار إلى الغياهب الظلماء للتحقيق الدقيق معه. ومن هناك يبدأ المجهول غير المعلوم لأحد بالنسبة لمجيب القاف.

***

لميساء يوم مخصص للتبضع أسبوعيا، تنهي عملها وتكمل يومها في السوق وحضورها للمقهى وقت قصير قبل افتتاح الساعة الأدبية مساءً. اليوم، برفقة صديقتها(عبلة)، وقت من التجول في السوق وحمل المشتريات، وعبرت عن وجهة نظرها بأن المولات (الأسواق الكبرى) توفر كل شيء وبعربة لحمل المشتريات وتختصر الوقت:

- أنا ضد الشراء من المولات يا صديقتي، نشتري من الأغنياء سليلي الإقطاع ونعزف عن الشراء من فقراء البلد؟ إنهم يعانون، ويجب أن نعينهم ونشتري منهم. (هكذا ردت ميساء على وجهة نظر صديقتها)
- لكن، هناك تخفيضات في المولات.

- لأنهم يتعاملون مع الصانع المصدر الأول للمنتجات ولا يقدمون عرضاً إلا إذا كان المنتج مُقبلاً على الانتهاء أو كساد الكمية وتعويض الثمن بزيادة سعر منتج آخر. أما البائع البسيط، فهو يشتري من تاجر جملة، وتاجر الجملة يشتري من المستورد. لذا، المول يبرمج التخفيضات للقضاء على التاجر البسيط ومازالت نسبة الربح لديه عالية. أما الخضار والفواكه، ففي السوق أرخص.
- لكن المول يوفر كل شيء وما لا يخطر على البال.
- من هنا، استولوا على جيوب المستهلكين.
- وماذا عن توفير الوقت والجهد يا ميساء؟
- بالأخير، الجهد الذي أبذله في السوق هو يعين أسراً على العيش ويحافظ على مستوى اقتصاد الأسرة الذي هو اساس استقرار اقتصاد الدولة.
- هذه المولات تُشعر المتسوق بالراحة النفسية، وأيضاً هناك مسابقات ولقاء جماهيري يشعر الفرد بالراحة وإن كان متعباً مالياً.
- هذه هي دعاية التسويق. وبالأخير، اقتصاد بلد مرهون بمجموعة من المستثمرين فقط. وباقي الشعب بلا مدخول يومي.

ردت صديقتها معترضة:

- هذا المنطق، لن تجدي شريحة مؤثرة تتعامل معه. تكفي الصور الدعائية في الشوارع للتحكم في عقول الناس. أنا أحب التسوق من المول.
- المنطق والفرد لا يلتقيان. وإن وجدتِ صورة أمامك، لا تجعليها تمنطق نفسها في عقلك بل منطقيها أنتِ ولا تقبليها إلا بعد إخضاعها لقانون منطقية الشيء.
- ها أنتِ تتفلسفين يا ميساء.
- تخصص التسويق يكشف أساليب لا حصر لها في هذا المجال.

***

اليوم الأول لحضور طلاب النخبة بزيهم الجديد. أمرهم المدير أن يقفوا في طابور مجاور لطابور الطلاب الآخرين. أعلن لجميع الطلاب أنه اختار المهتمين وكثيري القراءة ليكونوا نخبة المدرسة وينافس بهم المدارس الأخرى ويتم تأهيلهم في شتى العلوم ليكونوا مصدر إبداع، ونوه بمن يريد الانضمام إلى النخبة عليه الاجتهاد والقراءة والمشاركة العلمية وأنه لا يوجد غبي. فالجميع لهم عقول ولكن لكل إنسان ميول واهتماماته، وطلب من له موهبة أو يرى أنه جيد في أي شيء التواصل

مع الإدارة. وذكرهم أنه سبق وأنشأ صفحة في الفيس بوك للتواصل مع المدرسين وكانوا ينشرون مواعيد علمية وتذكير لدروس المدرسة، ولكن ما من أحد كان يتابع أو يعلق على المنشورات... في ساحة الطابور، يمشط المدير بعينيه ويدون كل ملاحظة يراها، دون أن طلاب النخبة يمشون بانتصاب القامة دون أن يرشدهم أحد لذلك، وأنهم لم يصنعوا الفوضى وكانوا أكثر هدوءاً. دون أن لبسهم الرسمي ربما لعب دور بمنح ثقة لشخصية. في المقابل، لاحظ في سلوكيات الطلاب المهملين، أن نظراتهم كان فيها ذهول وتبدو أنها بوادر الحسد أو الغيرة. دون سكوت أغلبهم وبقاءهم في حيرة على عكس ضوضاء أصواتهم في الأيام السابقة. لاحظ أن من الطلاب من هرش رأسه ومن مسح جبهته والكثير من الحركات الغريبة لدى بعضهم والتي تدل على حوارات بداخل أنفسهم.

***

استكمالاً لقرار الصحفي محمود عبدالوهاب بأن ينشط التفاعلات في صفحته على الفيسبوك عبر سلسلة مقالات جدلية تعيده لمصف صدارة

الاهتمامات الإعلامية. تناول وجبة عشاء خفيفة وألحقها بفاكهة التفاح، ثم كتب مقالته:

أكل لحوم البشر

"الكانيباليزم هو أن يأكل الكائن كائنا من نفس جنسه. وكأشخاص عاديين، فنحن كانيباليزميون ذاتياً حين نقضم أظافرنا ونبتلعها أحياناَ أو نأكل الزوائد الجلدية عند الأظافر، أو حين نعض على شفاهنا أو نقشرها بأسناننا ونبتلع القشور، وتكثر طرق الكانيباليزم الذاتي. قديماً في الجاهلية، العرب تأكل لحم أبناء جنسها والتي هي حتماً مستمرة لليوم ولكن بشكل مختلف وبنفس المضمون ومركباته. رغم الصدمة، لكن الحقيقة تُقال بعيداً عن التزوير، فأكل لحوم البشر كان موجوداً في تاريخ العرب مثلهم مثل باقي الأمم لكن المصيبة تنزيه العرب لأنفسهم من أي عمل غير إنساني، وبل استمرت الأعمال الخادشة للإنسانية إلى اليوم مع تزوير العنوان للإيجابية والمضمون سلبي تماماً. ومثلاً على ذلك، السبي الذي حصل في الحرب الأخيرة في بلادنا، موضوع خادش للحياء الإنساني وذو مضمون مقرف، لكن العنوان بفتوى أو ادعاء ديني زائف جعل هذا السلوك مقبولا لدى كل مريض ومعاق العقل.

المجاعة والجفاف ضرب أراضي خصبة في هذا العالم ومن المؤكد أنه أصاب الصحراء العربية رغم تصحرها وزاد الجوع جوعاً وهذا ضاعف غريزة الهجوم على المضارب المجاورة بقصد النهب والسلب لتستمر حياة المنتصر. وعند نهاية الحرب، من المؤكد أن هناك قتلى للطرفين ولا يتم دفنهم، فقد خسروهم مرة فلا يخسرونهم مرة أخرى بدفنهم، بل يستفيدون منهم بإشباع بطونهم من خلال شوي لحوم قتلاهم ونيل وجبة في آخر النهار. كثير ممن سيقرأ هذه المقالة سينكر ويهاجم هذه الحقيقة ومنهم من سيطلب الأدلة والتي هي كثيرة جدا وسبق للجاحظ وذكرها. وأسوة بالتوثيق العربي المعروف عبر القصائد، فقد شهد الشعراء ونظموا الشعر في توثيق هذا الأمر. ولا نذهب بعيداً فهند أكلت كبد حمزة بن عبد المطلب ومن يدري لو كان الوقت لصالحها أكثر لشوت الجسد. وهنا يمكننا القول أن أكل لحوم البشر عربيا يكون إما لمجاعة أو للانتقام من الخصم.

وبما أن العرب فاشلون جدا وبحجم فسادهم في علم الأنثروبولوجيا وفي التنقيب والبحث عن الماضي من منطلق علمي وشاطرون فقط في البحث عن سلوك توطن الخلافات الدموية وتساعد على استمرار الحروب الأهلية، فلن نثبت شيئاً علميا وتبقى كل الأدلة منقولة أو مدونة بعد الحدث بقرون كالعادة. وعلى الرغم أن التاريخ سجل عدة وقائع عربية

لأكل لحوم البشر، بل وصل الأمر إلى بيعها في محلات القصابة نتيجة معروفة للمجاعة الشديدة والتي تجرد الإنسان من القيم وتجعل من السهولة ذبح إنسان لأكله أو أكل لحم الميت بعد موته والشدة المستنصرية مثال حاضر على ذلك. وهناك قصة ذكرها العهد القديم في الإصحاح السادس من سِفر الملوك الثاني: "وكان جوعٌ شديد في السامرة. فقالت: إن هذه المرأة قد قالت لي: هاتي ابنك فنأكله اليوم، ثم نأكل ابني غدًا، فسلقنا ابني وأكلناه، ثم قلت لها في اليوم الآخر: هاتي ابنك فنأكله فخبأت ابنها." أما في الإسلام، فقد سبق لبعض علماء المسلمين وأفتوا ومازالت الفتوى قائمة إلى اليوم "يجوز أكل لحم الإنسان الميّت في حال الضرورة" بل أن بعض المذاهب أجازت أن يأكل المضطر لحم إنسان ميت بشروط منها ألا يجد غيره، كما أجازت للإنسان أن يقتطع جزء نفسه كلحم من فخذه ليأكله. وهناك مذاهب لا تبيح قتل إنسان لأكله بل تبيح أكل الميت عند الضرورة. وليكتمل الوضوح، هناك من لم يجز أو حرم هذا الفعل من داخل المذاهب نفسها، بل أن الخلاف تمثل في لحم غير معصوم الدمّ. وإن كان لابد من دليل فوري، إفتحوا نشرة الأخبار في الحال وسترون العرب على حقيقتهم في هذا القرن والذي هو امتداد لأزمنة قطع الرؤوس وشرب الأنخاب في الجماجم.

***

تخطيط وتنفيذ عملية بالغة التعقيد، العميد عمر يأخذ معه العقيد خالد والمقدم قمر الدين والخبير في علم البرمجيات يونس بكافة معداته الضرورية. وجهتهم القرية الريفية (قرية التواليب)، وهناك نزلوا ضيوفاً عند أحمد تامر، ذلك الفقير صاحب الدور الوطني. في غرفة الاستقبال الصغيرة، جلسوا وظل أحمد واقفا يرحب بهم وينادي زوجته بديعة بأن تعد وجبة العشاء، الضوء يحتضر والليل يتوالد قطعا متناثرة. طلبوا من أحمد أن يذهب لمآربه ويتركهم لعملهم. حلقة صغيرة على بساط قديم مفروش عليه بعض المريحات من الأفرشة جهزتها بديعة تحسبا للضيوف. يحتضن يونس حاسوبه النقال وينهمك في عمله وينفصل عن المحيط. العميد يخاطب مساعديه:

- في هذه العملية، إما أن ننقذ وطناً ونعود أحياء، أو ننقذ وطناً ونموت، أو نموت ويموت الوطن. علينا التركيز، أريد أن أحدد مكان إقامته وتعقب تحركاته.

(يمد ورقة فيها رقم الهاتف) تناولها العقيد خالد وتصفحها، ثم قال باستغراب:

- نحن نتجاوز الحدود سيدي.
- وما وراء الحدود، لن يفلت منا، يجب أن ننهي الارتهان.

(نادى يونس، ومازال منهمكاً عيناه موزعتان حول شاشة الحاسوب. أمره ببيانات رقم هاتف، يمد يونس يده لتناول الورقة من العقيد خالد وما زالت عيانه تتابع شاشة الحاسوب).

تواصل الاجتماع السري حتى وقت متأخر، أحمد تامر في الغرفة الأخرى منتظر أن يسمع صوت مناديه ليقدم العشاء. شعروا بالجوع، نادى المقدم قمر الدين مالك الدار. قدم لهم وجبة العشاء، يونس يأكل بيد ويعمل على الحاسوب بيد. قال العميد لأحمد تامر، القرية أكثر هدوء بعد نهاية العدل الفاسد؟ "رحمه الله يا سيدي، أخطأ باحتضان المسلحين والانضمام إليهم، ونهايته من صنع يده" طالت نظرات العميد نحو عيني أحمد وهو يفكر ثم سأله:

- كيف مستوى ابنك الدراسي؟
- مقبول يا سيدي، هو ذكي وينقصه الانضباط.
- الانضباط، حسنا، حسنا...

سيدي، سيدي، هناك أمر مهم (هكذا قال يونس). ترك العميد ما بيده من طعام، ونهض ليستقر بجانب يونس يتصفح شاشة الحاسوب. جحضت

عيناه تركيزا، قرأ الشيك أكثر من مرة، مبلغ كبير جدا. سأله العميد "كيف حصلت عليه؟". أجاب: "اخترقت هاتف الهدف وتصفحت رسائل بعثها عبر برنامج سوما". أمره "أرسل لي رقم الهاتف الخاص بالمستلم".

كتب له رقم الهاتف ودسه العميد في جيبه. وها هو مستعجل ليذهب إلى مكتبه في المدينة. ارتدى معطفه، وهو يصدر أوامره الشفهية: خالد اتبعني، يونس أكمل عملك، كم تحتاج من الوقت؟

أجاب:

- العمل طويل جدا وربما أنتهي عند الصباح.
- إذا، لتبق هنا في ضيافة أحمد تامر، ولا تتحرك حتى تبلغني. هل لك طلبات؟
- نعم سيدي، شحن احتياطي لرصيد الأنترنت، وعلبة سجائر ليت.
- ومن أين لي سجائر في هذا الوقت؟ (توجه العميد نحو مالك الدار...) أحمد تصرف إن استطعت.
- تحت أمرك سيدي.
- أحمد، (يحدق العميد في عينيه جيدا) أتريد أن أدرس ابنك بها أراه مناسبا؟

- نعم سيدي، أوه... سيدي (ارتبك وتلعثم وشعر بموجة كبرياء تجتاح رأسه...) ويكون مثلكم؟ (تساؤل يتخلله حب في المراتب العليا).

أجابه بنعم، ينسحب أحمد دون إذن، يتطاير أصوات (بديعة، بديعة...) تندفع هي له، تسأل ما خطبه، يخبرها أن بنه سيصبح ضابطا وسيقول له الناس (سيدي). اندفعت بدورها نحو العميد تعبر عن مدى سعادتها وكم تمنت ذلك. أحمد يخرج ليجلب ابنه إلى أمام العميد. "إن سُألتم أين ابنكم، أجيبوا إنه عند أحد أقاربه." هكذا قال العميد للأبوين ثم استدار نحو المقدم قمر الدين وأصدر أوامره "أحسن صناعته، أريده كما نريد، أوله اهتماماً خاص وابلغ زملاءنا بذلك".

- أمرك سيدي. (رد المقدم قمر الدين وهو يمسك بابن أحمد تامر).

***

على غير العادة، سيعتلي الأستاذ فتحي منصة المقهى ليطرح موضوعاً للنقاش ويشرح وجهة نظره. بصوت منخفض، قال لميساء "ليس إلقاء حتى أظهر على المباشر، مجرد موضوع أطرحه للنقاش وأترجل".

- آه يا أستاذ فتحي، يخال لي أنك لا تقوى على الظهور المباشر، أمصاب بفوبيا الظهور؟ (هكذا قالت له ميساء).
- سيدتي، لست مؤهلاً للتحكم بقدراتي أمام الكاميرا، يجب أن يترك الإنسان العالم ويبقى محصورا بنقطة تصب في عينيه من عدسة الكاميرا.

ابتسامة تعجب ليس لموضوع الكاميرا:

- أقلت سيدتي؟ الجميع ينادينى باسمي أو أستاذة، بجلتني كثيراً في مجتمع شرقي.

بادلها الابتسامة، ويخلجه شعور:

- أزعجتك بذلك؟
- بل أسعدتني، وستضاعف سعادتي قبولك نقل موضوعك على المباشر.

(قال العالم فريدريك نيتشه "المرأة فخ نصبته الطبيعة". لذا، لا مناص لك إياها الأستاذ، وهل تجرؤ على رفض طلب أنثى لها سحرها الخاص في ليونة الوجود، لا تخيب أمل أنثى تراك قدوما في موكب الذاهبين) هكذا تحدثت العيون المحدقة. ارتقى الأستاذ فتحي المنصة، جالت شياطين في مضيق صدره، حينها يرى منهم أمامه كأنهم طلابه في الفصل لينفصل عن واقع

رهاب الكاميرا وينطق كلماته: "سلام لكم جميعا أيها السادة والسيدات، موضوعي اليوم هو (اللغة العربية وعدم تطورها) لم تتطور لتواكب سهولة العصر، مع أن تطويرها يحتاج لجرأة فقط وعدم الاعتقاد أن تطوير اللغة لا يجوز لأن قواعدها راسخة في القرآن الكريم، بل يجب أن تتطور كعامل منفصل عن القرآن الكريم بحيث تبقى اللغة الأم مرجعاً كأعجاز لغوي. جميع اللغات تتطور بواسطة فلاسفة اللغة لتسهل تعلمها وانتشارها، لأن اللغة هي اليد الناعمة لأي قومية بين الشعوب المختلفة. مازالت اللغة العربية تعاني من تعقيدات كبرى لا تتوافق مع استيعاب العقول في زمن الرقميات والتفكير في أعماق النظريات، وليس في بداياتها. لم يجرؤ نحوي على وضع قانون أو نظرية جديدة تناسب الصوتيات التي لا بد وأنها تطورت مع الزمن أو التخفيف من أعباء لغوية أو إملائية يمكن الاستغناء عنها، بحيث يسهل على المتعلم تلقيها. لم يؤلف نحوي واحد على مدار قرون كتاباً في النحو مطوراً، وسهل التقبل على أبناء اللغة ولا على المتمدرسين من باقي العوالم، جميعهم يلوكون القواعد نفسها، والأمثلة نفسها، والإعراب الذي يبدو أكثر تعقيد من جيل لجيل حيث فقدت الأجيال قدرات كان يمكن الاستفادة منها. ومن هنا، نجد شُح الإبداع الأدبي، لأن من له في رأسه كنز معرفي لا يقدر أن يعبر عنه في الورق

لصعوبة الطرح اللغوي. وأيضاً، القارئ الذي تعصره فكرة، صار يعاني من استيعاب نصوص عربية يجدها غير مفهومة في جزئياتها. مما جعل ذلك القارئ يعزف عن الكتب لصعوبة الفهم الكامل، وكأن المؤلفين في حلبة مبارزة لغوية، كلٌ يظهر موهبته المعقدة التي تخاطب أمثاله، وليس بساطة العقول الوسطى من مصطلحات غابرة وغير مستخدمة اليوم. ولزاما على القارئ العودة إلى لسان العرب في زمن الألواح الإلكترونية (الآي باد). منذ سنوات والكونجرس الأمريكي يتابع أداء خبراء اللغة الإنجليزية لوضع نظريات نطق الحروف الساكنة لتصير أسهل لدى المتعلم. بالإضافة إلى ذلك، كل عام تصدر جامعة كامبردج واكسفورد وغيرهما كتب قواعد اللغة الإنجليزية أبسط من العام الذي مضى، حيث تعدل أي نقطة قد يشكو منها متعلم أنها صعبة الفهم، وذلك بعد إخضاعها للبحث والتدقيق. أنا لا أزدري اللغة، بل أنقل وجهات نظر المتعلمين غير العرب وأيضاً العرب الذين يرونها صعبة. ونتاجا لما يرونه، ابتدعوا اللهجة الدارجة بسبب القصور وصعوبة الأداء، وكل يوم تضاف كلمة جديدة للدارجات أكثر من الأم.." أنهى طرح موضوعه وفتح باب للنقاش. وكالعادة، تبقى المواضيع الجدلية عليها الجميع منقسم ما بين مؤيد بتطرف ورافض بتطرف. ويعتبر ذلك خطأً أحمر. كذلك التعليقات الافتراضية على

البث المباشر نالت جدلاً كبيراً حتى صعب على ميساء متابعة التعليقات لكثرتها، ولكن هناك ما يدل من حجم المعلقين أن الكثير يرى أهمية انطلاق الأبحاث في مجال فلسفة اللغة العربية وعصرنتها.

***

يقول ألبرت أينشتاين "التعليم هو ليس تعلّم الحقائق، إنما هو تدريب العقل على التفكير". هذا ما يطمح إليه مدير المدرسة الأستاذ مسعد مع زملائه المتحمسين. فما بين وقت وآخر، يتبادل الأساتذة وطلاب النخبة المعلومات المنهجية والثقافية خلال الأوقات المنزلية، التقييم مستمر. هناك شيء طرأ بدا غير متوقع لدى المدير وفريقه عن كم الطلاب الذي جاءوا للإدارة بمطالب مختلفة. منهم من أظهر موهبة وبحاجة إلى تنمية. ومنهم من ادعى أن لديه موهبة وهو متوهم على الأقل في ما ادعى. ومنهم من جاء وقال إنه يريد أن يكون نخبة. هؤلاء **كانوا واحداً وعشرين** طالبا، فتح ذلك مجالاً لمحاولات الأخذ بأيديهم وتنظيف عقولهم من شوائب المحيط والمشاكل العائلية والتواصل اجتماعية. أبلغوهم أنهم تحت الاختبار وتم إضافتهم إلى مجموعة وتساب خاصة بهم. أكثر ما شدد عليه المدير إن أرادوا التفوق، أول ما عليهم فعله، هو عدم استخدام أي وسيلة اجتماعية

باستثناء مجموعة التواصل مع الأساتذة وأن يكون جل وقتهم للقراءة وطرح الأسئلة. يدرك المدير ومن حوله أن القليل من هؤلاء يمكن أن يتفوق. أما البقية، فقد ينطوي تصرفهم تحت رداء الغيرة والدافع المؤقت ثم سرعان ما يعودون لما كانوا عليه.

***

كل يوم نشاهد الموتى، ننظر إلى وجوههم، نحدق في أعينهم المغمضة والنصف مغمضة وجلدهم المصفر وكأننا نلمس صلابة أجسادهم المعطلة، لا يتوقون إلينا، إنهم مجرد صور للموتى تنشر كل دقيقة نعرفهم أو لا نعرفهم، ولا نشعر ببرودة أجسادهم البعيدة بل نشعر ببرودة عيوننا القريبة وهي تتصفح كل مليمتر من وجه الميت ولا تشعر بشيء من الترفع لأن ميتا صار مشهوراً بموته؟! نضغط على إعجاب، نعم نُعجب بموتهم دون أن نشعر. ونضغط مشاركة ونشارك في موتهم، إنه جنون يحوم حول الأذهان منتشيا بالجثث والقبور، نمعن جيدا وكأننا نتلذذ وصورة ميت تلعن وجودنا، نركز على جراح المقتول علنا، نعرف كيف غادرت الروح ومازلنا أحياء؟ أحياء في جسد موتى من شعور، ويلاه،،، ماذا دهى تركيبة الفكر في دهاليز العقول؟! كنا في الماضي نسمع، مات فلان. وقتل

العشرات. دون أن نرى جثة فلاناً الذي نعرفه، ولا جثث العشرات الذين لا نعرفهم. تطور الإنسان إلى الانحطاط، وراح يستقبل كل ساعة صورة ميت يعرفه أو لا يعرفه وكل قتيل أو جريح أو مريض، إنه الجنون يتجلى بأبشع صفاته الحيوانية. مريض أنت، زائر يطمئن على صحتك، يختلس صورتك بإرادتك أو دون. يراها العالم وأنت ضعيف، لا أحب أن يراني العالم بعجزي وأنا لا أعلم، وأنا لا أتنفس، لا أتحرك، لا أقول لهم ها أنا هنا معكم، ليست حفلة عيد ميلاد، إنه موت، وقبر ودود يأكلني أنا ولست أنت أيها الحي. أدمنا صور الموتى، وهل يعلمون ذلك؟! كنا نتباهى أمام أنفسنا أن لنا أسراراً لا يعرفها أحد سوى قلوب حامليها. كنت أخبئ أسراري الثمينة في قلبي، لا أحد يعلم أن فيه كنزاً من أسرار وهي تخصني وتخص القريب مني. اليوم، لا سر، كل كلمة تخصني يعلمها العالم ممن يريد الولوج للشبكة العنكبوتية. لم يعد قلبي مخبأ للأسرار، إنه الآن مجرد عبور لدم فقط، فلا كلمات ولا جمل تعبر طرقاته، ولا مواعيد، ولا أسفار في قوائم انتظاراته، حتى جسدي الذي هو ملك لي وحدي ففي حال ضعفه تدور صورته على مدار الساعة ليراه العالم عبر الفيسبوك وهو جريح أو مريض أو ميت. لم تعد لك حرية الموت كما الماضي. فصورك وأنت ميت يراها الملايين دون موافقتك. كل من حولك وأنت جريح تنزف مشغولون

بالتقاط أحسن صورة لجروحك لنشرها ونيل الإعجابات وليس إنقاذك، فلا حرمة لطفل أو أنثى أو رجل جريح. هذا العالم بلا قيم وبحاجة إلى إنسانية بمحتويات جديدة تقوم في الأساس بالشعور بشعورك وأنت تتألم. (ذلك مكتوب في ورقة دونه مسعد لألقائه على المباشر، موضوعه الهجومي لهذا اليوم، الورقة انتهى من قرأتها الدكتور رؤوف، هز رأسه وهو يعلق ناظريه في عيني مسعد والورقة تهتز بيده...):

- حقيقةً أصبحت وسائل التواصل الاجتماعية عبارة عن خيم عزاء. أتفق معك يا أستاذ مسعد ومن حقك ألا ترى القتلى والموتى والمرضى تقتحم خصوصياتك وتظهر أمام عينيك في حسابك الالكتروني. حق لا يمكن أن تناله إطلاقاً.

أسند مسعد ظهره على الكرسي وتنهد:

- عشوائية وغياب الضمير والقواعد والرقابة الذاتية والأخلاقية للفرد تجعله يسارع لنشر مالا يخصه سواءً صور الآخرين في حالة الوهن باسم ادعوا له أو نشر كلام لا يخصه، فمثلاً لا شيء بقي لم يتفلسف به الفرد عن جهل، كل فرد صار سياسيا ويعلم ما يدور في أروقة السياسة، وطبيبا ويناصح، ومستشارا، وعالم أديان، حتى أن الإنسان يسأل عن مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، ويجيب

عليها برغم من سؤاله أن لا يعلمها إلا الله؟! إنه الفرد العربي الذي يعلم كل شيء ولا يعلم شيئاً عن أنه ليس كل شيء ولا يساوي شيئاً. هذا لم يكن موجوداً قبل الحرية الافتراضية والتي صارت تقود الواقع وتؤثر عليه سلبا. هكذا نفهم التكنلوجيا والتواصل الافتراضي.

- هناك سلوكيات جماعية وأخرى فردية. السلوكية الجماعية تحتل شريحة كبيرة من المجتمع فيها تفاصيل دقيقة للسلبية. تبدأ من الأسواق والمقهى العبثية إلى الشوارع والأزقة من مفردات وأراء لا تصلح إلا أن تكون لهم دون غيرهم في قالب يومي لا يتخطى مستوى آذانهم. السلوكيات الفردية منها السلبي ومنها الإيجابي. الأول يبقى خاصاً يتجول في الصدور، والآخر عام يعنى به الجميع ويصدر من الرموز المثقفة وينطلق من المدارس والجامعات والمكاتب والمنتديات والإعلام. ذلك معني بتوجيه المجتمع وله منابره عبر الأثير والمنابر والصوت المسموع. أما أن يأتي زمن ويصير أصحاب السلوكيات العامة السوقية الشعبوية هم رواد الكلمة، ويسوقون لأنفسهم، وينجذبون لبعضهم من جمهور فوضوي ليتحكموا بالخطاب الجماهيري الموجة ويسيروا أصحاب

السلوك الفردي من مثقفين وكتاب وعلماء، فهذا منبع الفوضى العقلية. إن انتقال السلوك السوقي من مكانه إلى فضاء مؤثر وفعال لنشر سوقيتهم وتفاهتهم، فهذا لا يبشر بنمو أو انحسار مستوى الانحطاط الفكري وينم عن مكبوتات تُفرغ افتراضيا.

- يا دكتور، الأمر بالنسبة لي معضلة أخلاقية اجتماعية رغم اتفاقي معك على المكبوتات. مثلا، لا أحد يجرؤ ويسب الآخر واقعيا وجها لوجه لأنها ستنشب معركة حامية إذا لم يكن أحد الطرفين متسماً بهدوء الطباع، لكن نفس الشخص يسب الآخر افتراضيا في وسيلته الاجتماعية ويراها حرية رأي. وهكذا يفهم الحرية رغم أنه نشر سب في صفحته أو دخل أحد لصفحتك ليسبك فهو اقتحم خصوصيتك وكأنه فتح باب منزلك ليتهجم عليك. بمعنى، واقعيا تنشب معارك بسبب كلمة ولا أحد يجرؤ ويواجه، لكن افتراضيا وبالتواري والتلصص والاختباء كل شخص يعتدي لفظيا على الآخر.

- يا مسعد، هذا موضوع يجب أن يكون محل أبحاث ومادة خصبة لأساتذة علم الاجتماع لأنه يدرس ظواهر اجتماعية وهو طويل جدا. كم مرة ناقشنا مع بعض هذا الموضوع أو ما يشابهه وصار

هاجسا لنا ولم نصل لحل ولا لتصور لشكل السنوات القادمة في ظل انقسام الحياة إلى حياتين الأولى واقعية والثانية افتراضية..

***

حدث في ألمانيا، أنتشر الخبر في الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، وصل الخبر إلى الصحفي محمود عبد الوهاب، تكونت لديه رؤية حول مقالة هجومية حيث أن الاحتقان موجود من هذا الموضوع بسبب المعاملات العربية السيئة للغاية للاجئين سواءً من الحكومات أو من الشعوب. كتب المقال في صباح هذا اليوم، والآن ساعة الذروة للنشر والرد على المعلقين على المقال.

<u>الأخلاق والإنسانية لا يمكن تصنعها،،،</u>

قال الشاعر محمود درويش: "لم يستطع أحد أن يهزمنا، ولكننا هزمنا أنفسنا بأيدينا. إن لم نجد مَنْ يهزمنا ثانية، هزمنا أنفسنا بأيدينا لئلا ننسى!" بكل مرارة نتأسف لمعاملة العرب والمسلمين لبعضهم البعض وكأن الجرب والسل يتوسط كل اثنين. نأسف ونخجل من تاريخ سيُكتب بأن العرب فتكوا وأهانوا في مطاراتهم ومنافذهم البرية كل هارب من لظى الحرب. سنخجل من التاريخ. والهارب من الحرب يتعرض لنصب في شارع عربي

أو يضاعف سائق سيارة الأجرة الثمن. لو تحدثنا عن معاملات العرب والمسلمين الهاربين من جحيم الحروب، لما توقفنا عند الآلف الصفحات من مآسي واستغلال مالي وجنسي (ومنه زواج الأطفال حسب وثائقيات وتقارير عرضتها قنوات العالم) وتجارة الأعضاء. الدول العربية عبارة عن نسخ من وثيقة مزورة وجميعها تشبه بعضها البعض. وإذا تعاملت مع عربي، فأنت تعاملت مع العرب جميعاً. هكذا تعاملنا مع بعض ونحن خير أمة أخرجت للناس، فماذا لو كنا أوسخ أمة أخرجت للناس فكيف كانت ستكون بشاعاتنا؟!

في كندا، المهاجر أو اللاجئ له حق المواطنة ووصل مهاجر إلى منصب وزير المهاجرين. وفي الدولة العربية، المقيم فيها منذ الولادة حتى سن السبعين لم يمنح وثيقة إقامة دائمة ويتم ترحيله. فما بالنا ببشاعة معاملة اللاجئ في الشوارع العربية؟! للأسف أثبتنا نحن الشعوب أننا نسخ أكثر تزويرا عن رواد الاستغلال والفساد من حكام وعصابات. أين الخلل؟! قطعا، لا تعميم، ولكن نسبة الفساد الأخلاقي والقيمي عالية جدا حتى أنها تكاد أن تكون الطاغية. في التالي، مقال لخبر يوضح الفرق بين شعوب ذات قيمة انسانية وبين شعوب تتفسخ وتعدو نحو العدم بجنون مطلق،،،،

<u>(الطيارون الألمان رفضوا الإقلاع بأكثر من ٢٠٠ رحلة لترحيل اللاجئين)</u>

أفادت صحيفة "اندبندنت" البريطانية أن الطيارين في عدد من الشركات الجوية الألمانية يرفضون القيام بالرحلات المخصصة لطرد اللاجئين الذين لم يحصلوا على حق اللجوء في ألمانيا.

وكتبت الصحيفة، اليوم الثلاثاء، أنه تم إلغاء ٢٢٢ رحلة على الأقل في الفترة ما بين يناير/ كانون الثاني وسبتمبر/ أيلول من العام الجاري لهذا السبب بالذات. وتتصدر قائمة الشركات الأكثر رفضا للقيام بهذه الرحلات شركات "Lufthansa" وفرعها."Eurowings"

المصدر: إنترفاكس

أولغا رودكوفسكايا

***

"سيدي العميد، وصلنا الآن خبر اغتيال رجل مرور وهو يزاول عمله". هذا ما وصل لمسامع العميد للتو وهو في مكتبه، رفع حاجبيه ووجه سؤالاً لمساعده المقدم قمر الدين "هل من معلومات عن القاتل؟" هز مساعده رأسه يمنة ويسره وهو يجيب "لا سيدي، مصدر الرصاصة مجهول". وقف العميد واستدار نحو لوحة السبورة المثبتة على الحائط خلفه وسأل: "رصاصة واحدة فقط؟" أجابه بنعم وأنها اخترقت جبهته وتبدو وكأنها

قادمة من قناص ولم يسمع أحد صوت العيار الناري وشوهد فقط بعد ترنحه مضرجا بالدماء والعيار لبندقية آلية بي كي سي ومن مسافة تصل خمسين مترا. من تجارب سابقة، تبدو هذه العملية مختلفة من حيث نوعية العيار والمسافة وكاتم الصوت. عاد العميد وأخذ مكانه على كرسيه وسأل:

- بندقية آلية بي كي سي وكاتمة للصوت ومن مسافة خمسين متراً واختفى القاتل في شارع مزدحم ولم يلمحه أحد أثناء وبعد الجريمة؟!
- نعم سيدي.
- تابع تحقيقات الأمن الجنائي، وحلل بيانات شرائح الهواتف التي تواجدت في محيط الجريمة.
- أمرك سيدي.
- رغم التفاهمات بين الساسة لتنحو الأوضاع نحو الهدوء والتصالح وإنهاء المظاهر المسلحة وإيقاف العمليات بكافة أشكالها سنوات حرب طويلة، إلا أن الأمن لن يعود كسابق عهده نحو الاستقرار الكلي بسهولة وستستمر أشكال الجرائم المتنوعة.

- مخلفات الحرب تبقى مستمرة لفترة طويلة فالأطراف غير الراضية عن الاتفاقات التي لم تحصل فيها على أي دور قادم سوف تستمر في الجرائم.
- وغالبا هي نفسها لتقول نحن هنا ومازال لدينا أوراق ضغط والثمن دائما يدفعه البريء (يتنهد العميد ويتابع...) ضحية له زوجة وأطفال يبكونه وقاتل منتشي الآن. هكذا هو شعور ما وراء عملية القتل.
- سنلقي القبض على القاتل سيدي.
- هذا ما يجب وبأسرع وقت ممكن.

***

"كل دعاية الحروب، كل الصراخ، الأكاذيب والكراهية، تأتينا على الدوام من أناس لا يقاتلون!" قالها الروائي الانجليزي جورج أورويل. وهذا معلوم للجميع. فمئات الآلاف من الحسابات والأسماء الوهمية في مواقع التواصل الاجتماعي من هواة وناشطين سياسيين وكلاب إلكترونية (مبتكرو المنشورات التضليلية) وذباب إلكتروني (المتفاعلون مع منشورات الكلاب الإلكترونية) والتي تحرك الرأي العام من خلف شاشات

الكترونية. والأغبياء هم من صدقهم وحمل السلاح وجعل من هذه الوسائل مصدر معلومة وهو في الحقيقة مصدر خداع. ما يسمى بالنشاط السياسي والإعلامي على الانترنت صار مهنة مربحة جداً سواءً بنشر المقاطع عبر اليوتيوب أو تقاضي مال مقابل تأجير الحساب ليكون تحت خدمة طرف معين وهذا يعتمد على عدد المتابعين للقناة على اليوتيوب أو الصفحة الإلكترونية أو الحساب على تويتر. لذا، الناشط في تطوير قدراته نحو الانحطاط والتحريض والكلام السفيه لأنه ينال مشاهدات أكثر ويزيد عدد متابعيه ويساعد ذلك على انتشار منشوراته بشكل مضاعف لأن في كل منشور جماهير طرف يمدحه بسبب أن الكلام يجاري هواه، وطرف يسبه لأن الكلام ضده. وفي كلا الحالتين، تكثر التعليقات واصدقاء كل كاتب تعليق، أو عامل اعجاب يشاهدون المنشور. هذه الوسيلة الرخيصة في التربح تجعل الناشط السياسي والإعلامي يفبرك ويزيد من اشتعال النيران لأن كلما اشتعلت النيران كلما زاد دخله المالي. وهذا النوع من البشر لا يعيشون إلا في ظل حرب طاحنة. فالحرب تخلق الانتهازيين واللصوص.

اليوم، قناة التفاعل الإخبارية، لديها برنامج يناقش الحالة السياسية ما بعد الحرب. تواصل مسؤول العلاقات العامة في مكتب القناة مع الصحفي

محمود عبد الوهاب ليكون ضيف البرنامج وكذلك ضيفين أخرين واحد يدافع عن الدولة وآخر يدافع عن وجهة نظر المعارضة. البرنامج يُبث عند الساعة الثامنة والنصف مساءً. اليوم، سيبث البرنامج مباشرة، فعند دخول مكتب القناة، استقبلهم مدير المكتب ورحب بهم، تناولوا الشاي وقدم لهم شيكات ثمن الظهور على الهواء. ولكل واحد ثمن، فالصحفي محمود عبدالوهاب أجره عالي في الدقيقة مقارنة بالآخرين، حيث يتقاضى ثلاث مائة دولار في الدقيقة. أما الآخران، فكل واحد يتقاضى خمسين دولاراً في الدقيقة. وقبل الظهور على الهواء راح معد البرنامج يراجع مع الضيوف ما سيقولونه وسلم لهم أوراقاً فيها المواضيع التي سيتحدثون عنها. فالمدافع عن المعارضة عليه مهمة التشكيك بالسلام القائم وطرح مخاوف عودة الأمور للعسكرة واشتعال النيران من جديد كون الدولة ليست جدية وأيضاً تناول موضوع أن الدولة هي السبب في الحرب والتذكير ببعض المثيرات لحفيظة شريحة من المشاهدين معتمداً على البلاغة الاستفهامية. أما من سيتولى الدفاع عن الدولة فهو سيبرز جانب نجاح الدولة في قمع الإرهاب واستعادة الوطن من براثن الفوضة وأن الجيش البطل جاهز لأي مغامرة يفكر بها المسلحون الإرهابيون والتذكير بأن السبب هم المسلحون الذين حملوا السلاح منذ اليوم الأول حيث أنهم عسكروا المطالب الشرعية

والتي تفهمتها الحكومة يومها ولكن العملاء تلقوا أوامر بإحراق البلد ونشر الفوضى وأيضاً التذكير ببعض المثيرات لحفيظة شريحة من المشاهدين. أما الصحفي محمود عبد الوهاب، فقد قال له معد البرنامج: "أنت استاذ مخضرم في الصحافة، وتعرف ما عليك قوله، فكن ميزان التوازن واستشرف نتائج الاتفاقات في المستقبل. فلا تجعلها إيجابية ولا سلبية".

بعد انتهاء البرنامج، تصافح الضيوف الثلاثة وتبادلوا المجاملات وخرجوا رفقة بعض وكلٌ في جيبه شيكه. وهناك على منصة التواصل الاجتماعي في صفحة القناة، جدل عقيم وتهم وسباب متبادل بين المتابعين سواءً من قبل شريحة الموالين للدولة أو شريحة الموالين للمعارضة عبر التعليقات ونشر صور لقتلى الخصم ومكتوب عليها (تم الدعس). مما يدل على الاستمناء الفكري والانحطاط الأخلاقي في هذه اللحظة لدى كل من يشارك في النقاش الرخيص، فعامة الشعب لا يعرفون ما يجري ولا يعرفون حتى أنهم لا يعرفون كما قال الفيلسوف ناعوم تشومسكي.. ما حدث اليوم نموذج لوسائل إعلام كثيرة وربما يُعتبر الأصغر طيلة أعوام الحرب فمن يدري؟ ماذا يمكن تسمية ذلك، كذب، نصب، خداع، اشتراك في الفتن

والقتل، تغذية آلة الموت؟! أم أن هذا يدخل في دائرة المصالح والانتهازية العريضة؟!

الانتهازية ظاهرة منتشرة في المجتمع العريض بنسب متفاوتة حسب المكانة والقدرة على اغتنام الفرص من خلال اتخاذ مواقف سياسية أو فكرية لا يؤمن بها لغاية يسعى خلفها لتحقيق أو حماية مصالح شخصية أو تغير مواقفه وآرائه حسب المتغيرات الظرفية أملا في الحصول على مصلحة خاصة أو المحافظة عليها دون إيمانه بالأفكار أو المواقف التي اتخذها. سلوك درب الانتهازية يعني بوضوح التخلي عن القيم الحقة والتضحية بالأهداف النبيلة والاستراتيجية مقابل تحقيق هدف شخصي مرحلي ومؤقت. كما اختفت المكاتب وبرزت اللوكندات، فقد اختفى المثقف الثوري وبرز المثقف الانتهازي بأبشع الصور إلى حد استخلاق العوامل التي تؤدي إلى الانتهازية. الساسة في حاجة دائمة للمثقف الذي يمهد الطريق بحرفية ليعبر من خلالها السياسي إلى قلوب وعقول الجماهير المكلومة والجائعة عبر تمرير قناعات تجعل من الشيطان ملاكاً. فالمثقف الانتهازي (كما كتب د. سمير إسماعيل في هذا الموضوع) لديه قدرات شيطانية عالية المستوى في تغيير اللغة ومفاهيمها وتحريف المعاني والتلاعب بالمصطلحات وهو يخاطب الجماهير معتمداً على الثقافة المعرفية الاعتيادية.

فهو يتمتع بذكاء عال ومرونة وبراغماتية بلا مبدأ يتقمص الأدوار بمهارة مكرساً قلمه لمنافعه الشخصية (أو منافع من يدفع أكثر)، وهو أبرع من يزيف الحقائق بشكل خطير ويخادع ويمارس التضليل الإعلامي والثقافي والسياسي. يزور ويزيف الواقع مقابل مصلحة شخصية ذاتية ويضحي بمصالح الأمة والوطن من خلال استخدام الواقعية والمثالية. الانتهازي يستغل الإنسانية وكرامة المواطن المسحوق وهو عدو الحقيقة والمغذي لاستمرارية الشر ليستمر بعمله فهو مجرد من أي مبدأ أو عقيدة أو مذهب معين ولا يمانع من الانقلاب على ادعاءاته والخروج عن الجماعة أو الحزب الذي يدعي الانتماء إليه. وذلك حسب الطقس السياسي والمالي معاً، هو ممن وصفهم لينين بصيغة الجمع بــــــ "المثقفون هم الأقدر على الخيانة، لأنهم الأقدر على تبريرها". ذلك كان الانتهازي المثقف، ولكن الانتهازية لا تتوقف عنده فحسب بل إنها متلازمة لكل المهن في المجتمع تقريباً بل دخلت في إطار البهلوانية والذكاء ووصل القبح الأكبر لامتداح الفرد الانتهازي من قبل المحيطين وكل من يعرفه ووصفه بـــ (رجل، أحمر عين، ذكي، يوجد رزقه من العدم) أو أخذت من الواقع عنوان عريض (الحياة فرص). هنا، الانتهازية صارت فناً والجميع يتفنن كلٌّ حسب قدراته ومهاراته في هذا الجانب وبل أن كل من يسمونه حاذقاً (انتهازي) يعمل

على خلق انتهازية تناسب مستواه لينام وضميره مرتاح. الأعمق في هذا الجانب الخطير، ما هي سبل القضاء على هكذا آفة إلى جانب آفات اجتماعية كثيرة؟! وهل تعتبر الانتهازية أحد مُنتجات جريمة النصب والاحتيال. وبالتالي، تقف مُجرمة أمام القانون أم أن المشرع مازال عاجزاً أمام تطور أسلوب الانتهازية وتمكين الأدوات الرخيصة من سحق القيم والأخلاق، وعاجزاً أمام تعدد معاني المفردات والتوائها وتطويعها حسب ذكاء الانتهازي؟!

***

ميساء، ليست ملفتة بمفاتنها الطبيعية وليس هذا في بالها بالأصل ولم تر لنفسها من مستوى معيار الجمال التقليدي بل إنها متيقنة أنها أنثى وهذا يكفي فلا تعني لها المرآة كثيرا سوى عاكس صورة عند تسريح شعرها. تختلف هي عن قريناتها وثقتها العالية بنفسها وأيضاً بأنوثتها جعلتها قوية الشخصية وجذابة عند الكلام لتدخل القلوب دون استئذان. منهمكة هي في نشاطها الثقافي وطرح الأسئلة والاجابات مع رواد من أهل الثقافة وحول طاولة في الجانب الأيمن يجلس مسعد وفتحي يتحدثان عن ميساء،

فتحي يرنو للموضوع من زاوية إعجاب بالشخصية ومسعد من ناحية المقارنة. والكلام لفتحي:

- متى يعي الرجل أن المرأة هي قلب وعقل وصوت وحب فحسب، متى يعي أن المرأة روح بعيدا عن معيار الجمال؟!
- أحد أثرياء العالم ومؤسس أهم وسيلة تواصل اجتماعية لم يتزوج من ملكة جمال، بل بحث عن سيدة لها كما تفضلت قلب وعقل وصوت وحب. بعض الرجال لا يفرقون بين المرأة كأنثى وبين المرأة كتملك وعبودية هكذا ورثوا نظراتهم للمرأة من آبائهم وآبائهم ورثوها. الأمر مجرد عادات وتقاليد مكتسبة بالتوارث وساد الاعتقاد أن الله خلق المرأة لمتعة الرجل. والحقيقة أن الله عادل وبقولهم هذا يزدرون ويصفون الله بعكس العدل في الخلق.
- بربك، هل هناك أحسن من ميساء يا صديقي؟!
- خلق الله المرأة جميلة ولكنه لم يخلق امرأة قبيحة إطلاقا، فالعيون القبيحة هي التي ترى في المرأة قبحا. ميساء فريدة بكل شيء، أنظر إليها كيف تتعامل مع الآخرين وكأنها أخت وأم وصديقة. الجميع يقدرها كثيرا.

- صدقت، فالفرق كبير بين أنثى مغرورة بجمالها وأنثى تصقل عقلها. أنظر إليها (يشير إليها من بعيد وهي تتحرك...) لديها حضور سلطوي.

قال مسعد مادحا نفسه:

- عرفت عقلها النير من أول يوم. وحسنا صنعتُ عندما وافقت تلقائيا بأن تكون من رواد المقهى. إنها إضافة مهمة وزادت المقهى أهمية.
- هل كنت ممن يؤمنون بذكورية كل شيء حتى غيرت ميساء نظرتك؟!
- حقيقة، أنا ضد ذكورية تفاصيل الحياة، فالمرأة قلب الحياة في شتى المجالات، لكن ميساء فعلا إضافة للمقهى ونقلت صورة المرأة المثقفة والخلوقة والتي جعلت الجميع منبهرا فهي سفيرة النساء قادمة من عائلة أصيلة ليست متعصبة لموروث همجي يعتبر المرأة مجرد آلة استمتاع.

***

بداخل مكتب عازل للصوت، يتصفح العميد ملفاً فيه معلومات جمعها يونس من هاتف الهدف، وبالجهة الأخرى، يدخل العقيد خالد ويقول للعميد:

- هو يا سيدي وللأسف.
- امم، الأدلة كاملة؟
- نعم...
- المعلومات التي نسخها يونس من هاتف الهدف تكشف خيوط مذلة.
- خذ مكاني وسأطلب مساندة معنوية.

يخرج من مكتبه نحو عنوان للقاء شخصية بموعد طلبه صباح هذا اليوم. في مكتب أركان حرب بداخل مبنى القيادة العامة. رحب به. وكرجل سري، اقترح على أركان الحرب بالمشي في الحديقة الخارجية، وافق وهو يبتسم ويقول "هذا هو العميد عمر لم يتغير".

في الحديقة يمشون بخطى متباطئة والعميد يقول كل ما لديه، رد عيه أركان حرب:

- هذا الرجل معروف، ولكن تماديه لهذا المستوى وتعريض الدولة لانهيارات قادمة لا يمكن أن نتساهل معهُ؟

- الأدلة يا سيدي موثقة، الشيك بمبلغ مائة مليون دولار، حساب سري في سويسرا، دفعة واحدة مائة مليون دولار تدخل في حسابه!
- المشكلة تقلده منصباً مهماً، وله طاعة أعضاء الحزب وهو المقرر العام لنظرات الدولة، حتى في سنوات الحرب، كان وسيط صفقات السلاح والذخائر.
- أجزم أنه من أسباب الحرب.
- نعم، هو كذلك.
- حصلت على وثيقة تثبت تورطه بصفقات أسلحة للمعارضة مع أطراف أخرى.
- للأسف، نحن مستاؤون جدا.
- أطلب الإذن منكم للتعامل معه.
- الأمر سيتسبب بضجة على نطاق واسع.
- تحمل الضجة أسهل من نتائج جرائم هذا الإنسان.

هز أركان حرب رأسه وفهم العميد المقصود وما يجب عليه فعله.

***

موضوع ميساء اليوم على المباشر بعنوان (الثقافة ما بين أهدافها المرجوة وبين عجلتها الصدئة) شرعت في الحديث: "الثقافة هي استقلالية الرأي وهدف فكري لإضاءة الأنفاق الدامسة

ولا يمكن لمثقف أن يكون ذا انتماء عصبي. والمتعصب ليس بمثقف. فهو مدلس أفاك يزور مجهود أمم ويلوث العقول ويدنس أنهاراً من الحبر. للمثقف نكهة انفتاح ومسؤولية نهضة. لأنه مطلع على متنوعات العلوم الإنسانية ويعلم ويفهم عكس غيره. المثقف الحقيقي يفكر فقط ولا يمدح أحد ولا يذم أحد...." مستمرة في موضوعها، وفي إحدى الطاولات يجلس فتحي وهو يدخن بنهم شديد، اقترب مسعد منه وتناول علبة سجائر فتحي وسحب واحدة وقبل أن يشعلها جلس مقابله وهو يقول بالتزامن مع قرع القداحة:

- موضوع ميساء اليوم مهم جدا، ولا طاقة لي اليوم بالتعقيب عليه فأنا أشعر بالإرهاق، لكني سأكتب عنه وننشره في الغد. (فتحي شارد مع خيوط دخان سيجارته التي أوشكت على النفاد. تابع مسعد كلامه...) الثقافة يا صديقي تعرضت لحملات قبيحة تهدف إلى هدم كل من يفكر بأن يكون مثقفاً، فما زالت المحظورات منذ الستينيات إلى اليوم وهي كما هي سواءً ما هو ممنوع من التداول في

المكاتب وقائمة المحظورات في المنافذ البرية والمطارات وحجزهم لكتبنا هو خير دليل. (لاحظ أن فتحي شارد، حرك مسعد راحة يده اليمنى من أمام عيني فتحي ليخرجه من حالة الغياب وسأله...) أين ذهب عقلك يا صديقي؟

أجاب بأنه فقط مركز في القاء ميساء، فكرر مسعد ما قاله باختصار، وجاء رأي فتحي كالتالي:

- واقعياً، ليس من مصلحة أحد انتشار الثقافة لا الدولة ولا المعارضة ولا الشعب، لأن الجميع سيسقط حتماً. ولهذاـ الجميع يحارب المثقف بطرق عدة فلا حقوق محفوظة ولا قوانين حماية ولا دعم ولا حتى تشجيع بل إن الدولة تطلق علينا كلابها أشباه المثقفين واللا مثقفين والذين يسرقون إبداعات ومجهودات المساكين المبدعين وينسبونها لأنفسهم...

قاطعه مسعد بتنهيدة كادت تمزق ما بداخله:

- آه والوجع يا رفيقي... كل شيء ضد المثقف والمؤلف والمفكر. الجميع يفترس حملة الأقلام دون رحمة. فإلى جانب الاضطهاد والاعتقال والتكفير والفقر، نتعرض لسرقة أفكارنا ونسبتها لغيرنا وسرقة كتبنا بطبع نسخ مزورة أو قرصنة إلكترونية. والجميع

يشترك في هذه الجرائم التي حتماً سيندمون يوماً ما ويعضون أصابع الندم حتى نزيف آخر قطرة دم. لم نسلم حتى من دور النشر والتلاعب سواءً مالياً أو بالاشتراك في قتل المبدع.

- دور النشر بالأخير بحاجة لدخل مادي. فهي ليست جمعيات خيرية، ففيها موظفون ومصرفات مالية وإيجارات وضرائب وكما يقول المثل "كم الديك، وكم مرقه".

- أعرف ذلك يا صديقي، فمازلت مستغرباً كيف لا تُعفى تجارة الكتاب من الضرائب في الوقت التي يجب أن يُدعم فيه الكتاب مالياً. لكنني أعتب على دور نشر تقرر مصير كاتب ومبدع برفض عمله بحجة أنه لا يصلح للنشر رغم أن التقييم الذي حصل عليه الناشر رأي سطحي لشخص غير ضليع في هذا الجانب ولم يرفق حتى تقرير مع الرفض لدراسة نقدية للأسباب بشكل علمي. وأغلب دور النشر لا تقرأ العمل المقدم لها بل تقرأ الملخص نصف صفحة. ومن خلاله، يأتي القرار. هذه فوضى كبرى وهي آخر مسمار في نعش الثقافة والكتاب معا.

- يجب أن تُسن قوانين تنظم صناعة الكتاب فلوزارة الثقافة دور في ذلك وإلا فليغلقوا هذه الوزارة التي لا دور لها في حياتنا. ولو

كانت موجودة أصلاً لما كان الجهل شعار وطن. أما أننا نلقي كامل المسؤولية على عاتق الناشر، فهذا تبرير لمن يتحمل مسؤولية أكبر.

- صدقت يا فتحي، فالناشر بالأخير مجرد تاجر كتاب ويفترض أن نحتكم إلى قوانين تنظيمية ولا نحتكم إلى تاجر يقرر مصير كتاب.
- هناك ناشرون كبار ومثقفون وحرفيون.
- نعم، لكن قدراتهم محدودة ووجودهم في بعض الدول العربية. أما في بلادنا، فأغلب دور النشر أعلنت إفلاسها وبقي من تمكن من الصمود وأيضاً الجيل الجديد من الناشرين الذين يطبعون على حساب المؤلف ويتعرض المسكين لعملية تدميرية تقضي عليه. فالناشر لم يخسر شيئاً بل استلم من المؤلف مقدماً والنتيجة عند غياب الضمير، يقوم الناشر بتخزين الكتب في المخازن والفشل محسوب للمؤلف حصراً.
- تصور يا مسعد، ليس هذا ما يقلقني بشكل أساسي، بل أن الملاحظ بأن كل من هب ودب من أشباه المؤلفين واللصوص الذين يرغبون في إضافة ميزة لسيرتهم الذاتية ممن يمتلكون المال، يستعينون بهذا النوع من دور النشر لنشر مؤلفاتهم غير القيمة والتي تعمل على سحق صناعة الكتاب وتشارك في هدم الأدب.

- إذا، علينا التوجه نحو النشر الإلكتروني، مجاني ولا يوجع القلب. كتابي الذي فيه مقالات كتبتها قبل الحرب سوف أنشره إلكترونيا ويحصل عليه القارئ مجانا خير من أن ينال من جيبي لص.

***

عند الظهيرة وفي ذروة العمل والازدحام المروري في أهم شوارع العاصمة (شارع الاستقلال) يسقط رجل مرور قتيلا بعد إصابته بطلق ناري في رأسه، لم يدرك أحد ما حدث سوى البعض لمح رجل المرور في لحظة ارتطامه بالأرض وركض من شاهده وتبعهم آخرون ظناً منهم أن شرطي المرور أصيب بحالة الإغماء. وخلال ثوان، كان جدول الدم يشق طريقه باللون الأحمر ليظهر لمن اقترب أنها عملية قتل ليركض الجميع كلٌّ في اتجاه مع التلفت يمنة ويسرة نحو الأعلى لعلهم يعلمون مصدر الرصاصة ليتمكنوا من الهروب عكس المصدر مع الإدراك أنه من كاتم الصوت (سنوات الحرب ثقفت الناس عسكرياً). تكرار العملية بنفس الطريق أدى إلى تكليف العميد عمر من قبل رئاسة الجهاز لتولي الملف. يطالع العميد تقارير الأمن الجنائي ويطابق الجريمة الأولى والثانية ويدرس التشابه بينهما ولا شيء مختلف سوى الشارع فقط، شرطي مرور مستهدف لمرتين وطريقة

الاغتيال متشابهة، نوعية العيار الناري، المسافة زاوية تصل إلى نسبة تسعين بالمائة تطابقاً. يضع على طاولته بيانات شرائح الهواتف التي كانت تحيط بمسرح الجريمة الأولى ومنتظر لبيانات الشرائح المحيطة بالجريمة الثانية والتي تزامن وجودها ورصدتها شبكة الاتصالات قريبة من مكان الحدث بنفس الوقت. دخل المقدم قمر الدين وقدم للعميد بيانات الهواتف وراح يقارن بينها وبين بيانات العملية الأولى لعله يرصد شريحة متشابهة، لم يجد تشابهاً، فتساءل:

- نتائج تعقب الهواتف التي كانت قريبة من مسرح الجريمة الأولى تقول إن شريحة هاتف واحدة أتلفت على بعد تسعة كيلو متراً من مسرح الجريمة، والرقم باسم مسلح قتل على يد رجال الأمن قبل شهرين.
- نعم سيدي، ونتائج التعقب المتعلقة بالجريمة الثانية تم التحقق منها ومتابعة أصحابها وتبين أن لا علاقة لهم بالجريمة.
- نحن أمام مجرم مدرب جيدا. قطعا، لم يتمركز في بناية. ومن هندسة الزوايا، يتبين لنا أنه أطلق النار من سيارة ولا يمكن أن يكون مترجلاً والبندقية الآلية مزودة بكاتم صوت وهي من نوع بي كي

سي قديم حيث تم تزويدها بالكاتم وزاد وزنها وحجمها. سيكرر الجريمة بالتسلسل.

- لم نجد العيارات الفارغة لكلا الجريمتين سيدي.
- هذا دليل آخر على أنه نفذ الجريمة من سيارة وسقط العيار الفارغ بالداخل حيث أن أكثر من نصف البندقية كانت بداخل السيارة.
- لا أعتقد أنه لوحده المنفذ.
- قطعاً ليس لوحده. ومن الجريمتين أعتقد أنه سيكررها بنفس الأسلوب والهدف هو شرطي مرور. جهز خطة للتعامل مع جريمة قادمة محتملة.
- حسنا سيدي...
- لنأخذ في الحسبان تكرارها والضحية شرطي مرور...

قال المقدم قمر الدين متحسرا:

- رباه ما هذا الاجرام؟! شرطي المرور يعتبر مدنياً فهو ليس مقاتلاً، فقط ينظم حركة مرور السيارات.
- هكذا هم المجرمون، القصد استمرار الفوضى وإقلاق الأمن والسكينة العامة ومواصلة إرعاب المواطنين ومنتسبي الدولة سواءً بالاغتيالات أو بالسيارات المفخخة أو بالعبوات الناسفة.

- لا يفكرون سوى في القتل ولا شعور لهم، يؤمنون أن الشرطي مستورد من عالم آخر وليس ابن البلد يسهر من أجل أمنهم وأمن أطفالهم.
- جماعات تتغذى على الفوضى وتتكاثر. والأمر متساو أقُتل المسلح أم قتل. فكلاهما لهما عوائل تبكيهم وزوجات تترمل وأطفال تُيتم. ومع ذلك، المجرم يُقدم على ارتكاب جريمته والكارثة بأوامر من أسيادهم مقابل مبلغ مالي أو تعبئة عقائدية أو ثورية مزيفة.

***

مسعد صار نجماً ملفتاً لنظر المتابعين لصفحة الإلكترونية، لبسه خلق منه إنساناً زائراً من ستينيات القرن الماضي إلى القرن الواحد والعشرين. زاد من نجوميته طريقة طرحه للمواضيع وانتقاداته الملفتة للنظر. موضوعه المباشر الأخير حاز رواجا عبر اليوتيوب، ووصلت نسبة المشاهدة إلى النصف مليون مشاهد وهي للمزيد، لم يفسروا هذا الرواج إلا بسبب لبسه وهندامه الكلاسيكي. لكن ذلك لم يحدث مع المواضيع السابقة. لكن الموضوع كان فيه شيء من الكوميديا التهكمية. يومها، اعتلى مسعد المسرح ليمارس مهنة التاريخ التي هي تخصصه. موضوعه الحرب الصليبية. قال ما عنده من

شرح. وفي الأخير، تطرق إلى ما جاء في كتاب للدكتور فيليبتايلور: "الحملة الصليبية الأولى، دعا إليها البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥ وكانت حرباً مقدسة أفتى بها البابا باسم المسيح، وهذا برر عنفاً مشروعاً. تم إثارة ذكريات غابرة بهدف إلهاب مشاعر الناس، مثل احتراق كنيسة القبر قبل ذلك بنحو تسعين سنة. يقول أوربان، إن المسلمين العرب قد ختنوا النصارى. فإما ينثرون دم المختون على مذابح الكنائس وإما يصبونه في حوض أجران المعمودية. ولقد شقوا بطون من شاءوا أن يعذبوهم حتى يموتوا أبشع ميتة، وهم يمزقون أبدانهم ويقطعون أعضاءهم الحيوية، بعد أن يوثقوهم في الأعمدة أو يسحلوهم على الأرض، ويسوطوهم بالسياط، قبل أن يقتلوهم وهم مطروحون على الأرض وقد برزت أحشاؤهم. وقد أوثقوا البعض إلى الأعمدة وصوبوا عليهم السهام وأمروا آخرين بأن يمدوا أعناقهم عارية لكي يضربوها بالسيوف لكي يروا إن كان يمكن الإطاحة برؤوسهم بضربة سيف واحدة. ثم ماذا أقول عن انتهاك النساء المفزع الذي يبدو الكلام عليه أكثر شرا من السكوت عنه؟ تخيلوا يا أصدقائي، كيف ينتقم الإنسان ويعنف ويزلزل الأرض انتقاما لعضو ذكري تم ختنه، إنه مقدس لدى المسيحيين ليخرجوا في حرب أحرقت الأخضر واليابس وانتقموا بالذبح والتقطيع وشوي لحم الجثث وتناولها

كما حدث عندما وصلوا لمعرة النعمان في سوريا. ولا يقتصر الأمر على المسيحيين فحسب، بل كان تساؤل الإنسان الأول البدائي من أين جاء الإنسان، ولم يفسر طريقة وجوده سوى خروجه بداية سائلاً، وراحوا يعتقدون أنه مقدس وعبدوه لفتره زمنية، وكانوا إذا غضبوا من أحد تمنوا له زوال عضوه، وإذا سعدوا من أحد رسموا له العضو. والأمر ليس بعيداً عن العرب الذين صالوا بالصحراء وجالوا من أجل العضو وسبوا وخطفوا، ووصفوا أوصاف دقيقة للحور العين. وإلى الآن، يسري في دم العربي هاجس العضو والتغذية المحفزة. لو قدر للعرب خوض حروب في بلاد الغرب لذهبوا جميعا ليس لقضية سوى لهدف واحد وهو إرضاء العضو. هذه قضية لها الأولوية. مثلاً، إن أعظم ما اخترعه الغرب هي حبة الفياجرا، تلك الزرقاء التي وصل ثمن الحبة منها في بلادنا إلى أربعة عشر دولاراً في بداية ظهور هذه المعجزة التي غيرت حياة الكثير من الزعماء والأثرياء والمسؤولين. وحينها، كان ثمن برميل النفط بثلاثة عشر دولاراً. لذا، لا نعجب لأسباب الحرب الصليبية التي حفزت وجندت للانتقام من العرب الذين ختنوا مسيحيي الشرق. فذلك كان مؤلماً لأي مسيحي وهو يتخيل أخاه المسيحي المشرقي بلا عضو وكما قيل لهم، لشحذ هممهم الحربية وتحفيزهم على الانتقام، بأن العرب يختنون إخوانكم ويستمتعون

بسيلان الدم من أعضائهم المختونة، وحصلت المعارك وسفكت الدماء. وفي الأخير، أذكر أن العرب إلى اليوم يفجرون أنفسهم من أجل رغبات العضو الذكري للوصول لأهداب حورية وليس للقاء الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء والأنبياء والصالحين."

اليوم، يناقش رواد المقهى هذا الموضوع الذي نجح في الانتشار، وتوصلوا إلى أن النجاح ليس للعنوان، ولكن تطرق مسعد بشكل واضح لأسباب الحروب والتي كانت مصدر تعجب المتابعين وتناقلهم للفيديو. يقول لؤي إنه شاهد الفيديو يتم تناقله عبر الوتساب. يقول الدكتور رؤوف إن ذلك هوس واضح وإن الحرمان عامل مؤثر في التساؤل وكل ممنوع مرغوب فيه. يضيف فتحي وجهة نظره أن طرح مسعد للسبب بصراحة حيث أن ذلك لا يُذكر جعل المتابعين في حالة استغراب، هل فعلا كان ذلك أحد أسباب الحملة الصليبية؟! يعقب مسعد عليهم بانفعال: "لا يمكن أن يتقدم المجتمع الذي عقله في عضوه وليس في رأسه الأوربيون نقلوا عقولهم من أعضائهم التناسلية، بداية القرن التاسع عشر، إلى رؤوسهم. والنتيجة عالم رقمي ورحلات للفضاء وزيارات للكواكب. ومادام عقل العربي في عضوه التناسلي، لا تتوقعوا خيرا." (يضحك الجميع ومنهم من احمر وجهه خجلا)

❊❊❊

قهوة الصباح لها ذوق مختلف خاصة على صوت فيروز، هكذا بدأ الصحفي محمود عبد الوهاب يومه في بلكونة منزله. للتو، ظهر فيديو في صفحته نتيجة مشاركة صديق له هذا الفيديو، تابع مضمونه والذي لا يزيد عن ثلاث دقائق، ضحك لمضمونه وقرر كتابة مقالة عن ذلك. أشعل سيجارته وراح يكتب:

"دائما نتناول دواء خطأ"

قال المفكر الليبي الصادق الهيوم "الشعوب التي تفشل في تشخيص أمراضها بشجاعة تموت نتيجة تناول الدواء الخطأ". نحن لا نستطيع مواجهة أنفسنا لأننا ببساطة نخشى الحقيقة ونعيش حالة السكرة والوهم الكاذب. خضنا حرباً شرسة لم يسبق لها مثيل واسُتنزف الشعب تماماً. أما الأطراف المتحاربة فظلت صامدة حتى آخر حبة تراب في هذا الوطن، لكننا إلى اليوم لم نفكر بالأسباب ولم نُقدم بشجاعة على كسر حاجز التابوهات، فقط شجاعاتنا في القتل والموت. التابوهات يا سادة كثيرة في عالمنا التعس، فالتابو الأب عندنا هو الحرية، ويندرج تحته كل التابوهات الأخرى، وتحرص السلطة السياسية والدينية معاً على ترسيخ ذلك تحت مسمى الحلال والحرام والمكروه وغير المستحب والعيب.. التابو الأعظم

عند العرب هو احترام الأعراق والتخلي عن العصبية والعيش في إطار وطن واحد. شعوبنا التي مازالت تؤمن بأن آخر العلاج الكي وليس العلم هي نفسها التي تؤمن بأن الدعاء دون عمل وتفكير هو الذي سيحل مشاكل البلد المالية ويقضي على التخلف والجهل، هي نفسها التي لا تؤمن بالتعايش المتنوع وتؤمن بتصفية الخصم حتى آخر ذرة. هي نفسها التي تقدس للآن لصوصاً اغتصبوا مهنة رجال الدين رغم شذوذ أفكارهم المطروحة علناً كتحليل الزواج من جنية وتحريمه من جني وتحليل أكل لحم الجن ومئات الخرافات يتقيأ العقل لمجرد سماعها. هي نفسها التي تتفاعل مع فتاوى تجار احتكروا الدين لهم وحولوه إلى دم فحسب. الرحمة على روح الشاعر أحمد فؤاد نجم فقد قال فيهم "رجال الدين ليسوا نصابين لكن النصابين أصبحوا رجال دين". لهذا، يجب أن ننحو نحو تحطيم التابوهات وتعطيل فتاوى التكفير والسبي والقتل لنقطع الطريق على هؤلاء المتربحين مادام الشعب لا يستطيع تجاهل هرطقاتهم التي دائماً تؤدي إلى المهالك والدمار الشامل.



- سيدي الدكتور، هناك من يطلب لقاءك، يقول إنك على علم بقدومه. (هكذا بادر السكرتير)
- أذن له بالدخول...

قال له كلمات سرا في أذنيه بعد إن انحنى وغطى على فمه وهو يخبره. هز الدكتور رأسه وهو يقول "حسنا." ظل الدكتور يحدق في الساعة حتى تجاوزت الرابعة عصرا لينطلق بموكب حراسه، سيارته من نوع بي أم دبليو وفيها السائق، تتبعه سيارتان من نوع تويوتا رباعية الدفع طراز هذا العام مليئة بالحراسة. وقت مضى والموكب يقطع الشوارع حتى دخل في الخط السريع، بسرعة ١٠٠ كيلو متر في الساعة يتخطى نصف الخط السريع. من خلف الموكب، تقترب سيارة تويوتا غير محسنة كهربائيا وموديل ليس بحديث. اقتربت أكثر. وعلى بعد مسافة تسمح بالعملية النوعية، أخرج يده من النافذة وأطلق من مسدس ذبذبات أشعة كهرومغناطيسية، أحرقت تلك الأشعة فورا الألواح الإلكترونية للسيارة كونها موديلاً حديثاً معقدة كهربائياً وأيضا أحرقت ألواح الهواتف النقالة. ما أدى فورا لتنحي السائق جانبا لمجرد شعوره بالعطل في تحرك السيارة، صاروا معزولين عن بقية الموكب وأيضاً توقفت هواتفهم ولا يستطيعون الإبلاغ بأنهم في ورطة. تابعت السيارة التويوتا سيرها خلف السيارة الثانية. وبنفس الطريقة

صوب إليها أشعة كهرومغناطيسية من مسدس خاص لهذا الغرض وهو يقترب منها ليضعف أداءها تدريجيا لتتوقف في نهاية المطاف. سيارتا المرافقة صارتا كل واحدة واقفة في مكان على الخط السريع وكل واحدة تبعد مسافة تصل للخمسة كيلو عن الأخرى. السيارة الأخيرة، وهي الهدف الأهم، تواصل سيرها دون إدراك أن المرافقة قد تم عزلها، سيارة التويوتا تزيد من تدفق البنزين وتزداد سرعتها، اقتربت من سيارة الهدف من نوع بي أم دبليو تسير بسرعة ١٠٠ كيلو متر في الساعة. يخرج يده من النافذة ويصوب المسدس الكهرومغناطيسي نحو الهدف. فورا، تحترق الألواح الكهربائية وتتوقف السيارة تدريجيا لتعترضها التويوتا. وبلمح البصر، يترجل ويطلق رصاصة استقرت في رأس السائق ليترنح رأسه على كتفه وجسده على زاوية المقعد. المسدس مصوب نحو المقعد الخلفي، يفتح الباب. يذهل الدكتور، صدمة أفقدته قدراته على أي مناورة قد يفكر بها، لم يتوقع هذا الكمين، كلمات فقط سمعها "لتأت معنا بهدوء" لم يستجب فجسده متراخ على المقعد، مد يده ليمسك الدكتور من تلاليغه ويجذبه بعنف ليسحبه إلى خارج السيارة. بالكاد، يقف على قدميه "لماذا هذا الأسلوب؟! ستندم" رد عليه بعنف "أنت من سيندم" ويدفعه إلى المقعد

الخلفي لسيارة التويوتا، ويأخذ مكانه إلى جانب الدكتور. وما إن اغلق الباب حتى كانت السيارة تسابق الريح نحو مكان مجهول.

في عنبر الدواجن في منطقة معزولة، استقر جسد (الدكتور ناصر) قصرا معلقاً من يديه ومر عليه ليلاً أسود حتى أصبح جاهزا لقول كل شيء هذا الصباح. تقدم منه خطوات العميد عمر، وحدق كلٌ في عيني الآخر وتبادلا رسائل معبرة، بصوت هادئ قال العميد: "وقعت أخيراً يا دكتور" (الدكتور ناصر الحمراوي، من منظري الحزب الحاكم، له علاقات عنكبوتية، هو من كان ينتقي الوزراء ويقدمهم للموافقة عليهم، هو من مهد لدخول شركات الاستثمار بشروط مجحفة مقابل إشتراكه في نهب باطن الأرض. لم يكن يتوقع أن يصل إلى هنا، ولم تكن لديه أي مؤشر على خطر يتعقبه).

- أأنت عمر؟
- العميد عمر، أنت الآن في تحقيق.
- خارج إطار القانون. أليس كذلك؟! هذا انتهاك للقانون ستحاسب عليه.
- آخر من يحق له أن يتشدق بالقانون هو أنت. بسببك وصل البلد إلى هذا المستوى. قل كل شيء.

صمت العميد قليلا ثم صرخ:

- ناصر..
- سأقول، عدني بتنفيذ طلبي.
- حسب نوعية الطلب. فأنت الآن تحت التحقيق وتعلم جيدا ما هي الخطوات التالية إن لم تقول ما عندك..
- ألا تؤذي أولادي.
- ومن قال لك إني من هذا النوع الدنيء، سأحسن صناعة أولادك سواءً طلبت مني أو لا..

مزيداً من الوقت حتى راح يسرد معلومات، والعميد يسجل. اعترف بأسماء. حتى تطرق للقاء بنائب رئيس جهاز الاستخبارات السابق الذي رفض عرضا ماليا للتعاون مع المعارضة. هنا، استوقف ذلك العميد ليسأل عن كل شاردة وواردة.

والكلام لناصر:

- عندما قابلته، عرضت عليه ما وصلني من طلب، رفض بشدة، سألته عن الحمام، وهناك تناولت حبة مقاومة للسموم وطليت راحة يدي بسم تسلمته، وعدت للجلوس معه، أستأذنته بالمغادرة

وسلمت عليه. تسلل السم عبر مسامات جلده وفتك به دون أن يشعر ليموت فجأة.

- هل هذه أول عملية للتخلص من الخصوم بهذا النوع من السم؟
- لا، نفذنا عن طريق آخرين، ولكنها العملية الأولى لي كون نائب رئيس الاستخبارات صعب الوصول إليه في فترة عصيبة جداً، وما كنت لأنفذها لولا أن سائق سيارتي قد نفذها من قبل كتجربة واطمئنيت للموضوع.
- من مصدر ذلك السم وترياقه؟
- لا أعرف، وصلني عن طريق القائد العسكري للمعارضة آنذاك (سليم عبد الحق) وأنت تعلم أنه قتل بعملية عسكرية.
- أتدري ما هو مصيرك؟
- الموت بعد قليل يا سيادة العميد، أعرفك جيدا.
- ماذا تعرف عني؟ أكثر من ضابط سري.
- فقط أعرف تهورك ولم أسع لمعرفة اسمك الحقيقي وكنت أستطيع. وكم ناقشنا القضاء عليك، وكنت أنا من يعطل ذلك.
- أوف، ولِمَ لم تفعلها؟ أنت أقل من أن تستطيع الوصول إليّ. أنت مجرد خائن مرتزق.

- لا، أنا لست خائناً. (ينفعل...) لست خائناً يا سيادة العميد، ما فعلته كنت أراه الصح، خدمت البلد وشاركت في بنائها طوبة طوبة.
- ودمرتها طوبة طوبة.
- متغيرات سياسية واستراتيجية ونحتكم لقواعد جيوسياسية.
- أهلكت البلد وأفقرت الشعب وتتحدث عن القواعد الجيوسياسية؟!
- لا يوجد في هذا العالم بلد فقير، يوجد شعب فاشل، عاجز عن إدارة شؤونه ينتخب اللصوص ويناضل من أجلهم. الشعب ينتقي وينتخب أسوأ من فيه ويوليه مسؤوليته. أنا مجبر على التحكم بمجريات الأمور كي لا تنزلق. فهذا هو مستوى الشعب. كلما تقدم الشعب خطوة في العلم والمعرفة والنظام كلما أجبر الحكومة والدولة على التقدم خطوتين، فلا يتساوى عقل الحاكم والمحكوم وإلا لم استمرت الدولة قائمة. وبشكل عام، يجب أن يبقى الحاكم أذكى من المحكوم بدرجة.
- هذا الشعب الجاهل الذي تسخر منه هو الذي جهلته أنت ومن أمثالك، هو الشعب الذي لم تطوروا له منظومة التعليم، لم تقدموا

له الخدمات الصحية. هذا الشعب الذي يموت أنت سبب موته. فلو ضاعفتم المدارس، لما حدث ما حدث. لو لم تنهبوا ثرواته، لما خرج ينشد الموت من أجل مستقبل أفضل.

- عن أي شعب تتحدث يا سيادة العميد؟! قل لي بربك، هل تتحدث عن شعب في غمضة عين قد يغدو بأكمله عميلا ومندساً وخائناً ويدمر البلد ويسحق نفسه بمجرد أن تطلب منه ذلك قناة فضائية؟! هل تتحدث عن شعب كلٌ يسرق من بجواره ويغش ويفسد. وعند سقوط سلطة الدولة، يغدو ذباحاً لبعضه البعض؟! هل تتحدث عن شعب ينتخب شيخ القبيلة الجاهل الفاسد ليمثله في مجلس الشعب ولا ينتخب المنافس البرفسور في الجامعة؟! نحن لم نأت من بلد آخر، نحن خرجنا من هذا الشعب. خدمنا الوطن والشعب معاً ولا يمكن لأحد أن ينكر إنجازاتنا.
- أنتم السبب، أنتم والمندسون الذين زرعتموهم بين الجماهير. أنتم من خلق معارضة بليدة. الشعب عقد عليكم الأمل وأنتم خنتم الأمانة، وانتظر منكم قيادته نحو التعليم والتثقيف وبناء كيان توجيهي نزيه وشريف ومخلص يوجهه ويحسن بناء العقول. هل يرفض الشعب التحاق ابنائه بالمدارس؟! هل يرفض الشعب

الذهاب إلى المستشفيات المجانية؟! أليس شكاوى الناس من نقص المرافق الخدمية وشق الطرقات وتعبيدها؟! ماذا فعلتم لحل مشاكل المياه وجفاف الآبار الجوفية والحلول التي تحول دون عطش الجيل القادم؟! هل يا دكتور ناصر سيغضب الشعب ما إذا قررتم بناء سد للمياه؟! هل سيزعل الشعب إذا وسعتم الجامعات وأجريتم التعيينات الأكاديمية حسب الكفاءات وليست الوساطات؟! يا مفتري، كانت حلولك لوقف تهريب النفط إلى خارج البلد برفع سعره على الشعب وليس بمحاسبة المهرب. أنت من أوعز لنواب مجلس الشعب باسم الحزب الحاكم لرفض سن قانون عقوبات الأدوية المهربة. أنت من باع ممتلكات الدولة بسعر بخس لعميل تجاري وأنت مالك شركة تعبيد الطرق الفاشلة التي كرهت المواطن بالوطن من كثر الحفر في الكيلو المتر الواحد. أنت وأمثالك الفاشلون وليس الشعب الجائع.

ناصر الحمراوي حاصل على دكتوراه في العلوم السياسية، ويفهم السياسة من منظوره والتوازنات وتجاذب خيوط المتغيرات حسب تحليلاته، له لباقة وبديهية وذكاء في كتابة النصوص القانونية وإيجادها في أي تعديل كأنه فقيه

قانوني لمطالعته لكتب القانون وأيضاً مهارته في تحدث الإنجليزية والفرنسية.

- ناصر، رقم حسابك في سويسرا موجود لدي، وبيانات الشركة المالية في بنها، ستوقع على شيكات، وعلى عقود بتواريخ قديمة لتعود الأملاك للدولة، وستوقع على ذلك في السجل القضائي. وحينها، لرجال القانون طرقهم لاستعادة الأموال إما عن طريق الدولة أو عن طريق الورثة أبنائك.

قدم له جميع الأوراق للتوقيع والبصم عليها والشيكات، (سبق وأن أرسل العميد من استقدمها مع وثائق ملكية الأموال) ووقع على الشيكات وسجل المحكمة. (السجل تم أخذه من المحكمة عن طريق رئيسها الذي هو متعاون معهم ليتم تسجيل البيانات بتاريخ قديم تحت تعميد القضاء).

انقضى وقت المهمة لتنتهي برصاصات في رأس الدكتور ناصر الحمراوي. أعلن عن وفاته عبر الإعلام نتيجة ضعف في عضلة القلب، رتب لذلك الجهاز السري، ودفن بعد وفاته بساعات قليلة.



أشهراً وبدأت نتائج مشروع مدير المدرسة مسعد تؤتي أكلها بنسب متفاوتة. ولكن تبقى أكبر فائدة تنبيه الطالب وولي أمره بأن له مستقبلاً ما ويجب الاهتمام به. طلاب النخبة الدرجة الأولى نمو قدراتهم يتسارع وزد عليها إلماماً ثقافياً ونصائح وتصوراً للمستقبل. الطلاب متوسطو الذكاء، تحسن أداؤهم وصاروا يميلون أكثر نحو مواد معينة حسب شغف الطالب. وهذا يبشر بتحديد مواهبهم بشكل دقيق، هناك أربعة طلاب اكتشفوا أن ميلهم كان مؤقتاً ومالوا شغفا لمواد أخرى بشكل أعمق. الطلاب الذين أرادوا الالتحاق بركب النخبة، منهم من ترك المجموعة وعاد لما كان عليه وصعب التحكم به. والآخرون يحاولون ويجتهدون. وما زاد فريق التدريس عزيمة كثرة طرح الأسئلة وغزارتها. وهذا يدل على نشاط العقل والتفكير. مما يسهل الولوج إلى المستوى الثاني من النخبة.

طلاب المواهب، كان أغلبهم في الرسم، حيث تغيب عنهم فكرة أن الموهبة لها فروع كثيرة. لذا، كان لزاما على هيئة التدريس شرح مفهوم (موهبة) للطلاب بمعناها الدقيق وتفرعاتها. بدأوا معهم بالتدريج من طلب محاولة كتابة قصائد شعرية، غربلوا من له قدره على نظم الشعر دون أن يعلم مسبقا. المرة الأخرى، طلبوا من كل طالب أن يكتب قصة قصيرة، وكان لهم ممن يجيد الكتابة وهو لم يعلم بها ولم تكن تخطر بباله من قبل.

ابتسامة انتصار ينتزعها مسعد في وجه فتحي. فتحي يضرب على يده فرحا ويقول:

- كم المواهب المكتشفة سيكون لها أثر مستقبلا.
- لم أكن أتوقع أن هناك طاقات مدفونة بهذا الشكل.
- لِمَ لم ننجح قديما يا صديقي؟
- لم تسنح لنا الفرصة يا فتحي. ولم تكن هناك جرأة، أو نية. ولولا أني مسؤول عن المدرسة، لما خطونا هذه الخطوات المهمة. (جزم المدير مسعد...) أراهن على نتيجة باهرة. فكم من موهوب بالشعر والقصة والمواد العلمية؟! يكفي أن يعلم الطالب أنه موهوب حينها سيطور موهبته. يكفي أن يعلم ولي أمر الطالب أن ابنه موهوب لصقلها.
- أتدري أن المدرس كان سبب دمار أمة أو تفوقها. كم من الموهوبين غادروا الحياة ولم يكتشفوا أنهم موهوبون؟ (تابع فتحي متباهياً...) لم أصدق وأنا أرى عبد الجبار ذلك الطالب وهو يدور بكرة القدم وكأنه آلة. رغم أني لست من عشاق كرة القدم.
- أقسم إنه معجزة، أذهلني. سأكتب رسالة إلى الاتحاد الوطني لكرة القدم أشرح فيها موهبته.

- لو كتبت لوزارة الثقافة عن موهوبي نظم الشعر والقصة، هل من فائدة؟ (وكأنه يسخر)
- بتاريخي لو كتبت لهم مجلدات، أفشل وزارات الوطن منذ بداية التاريخ، لم نر لها دوراً سوى ميزانية سنوية ووزير غالبا لا نعرف اسمه ولا شكله. يا رجل، إن مسؤولية البحث عن المواهب الثقافية على عاتق وزارة الثقافة بالتعاون مع التعليم.
- لو أن كل مدرس أدى واجبه بجرأة وابتكار وتفان، لكان لنا جيل فيه سيل من المبدعين.
- كان على حق فيلسوف التنوير (تومس بين) حين قال "مدرس واحد جيد أكثر فائدة من مائة كاهن" وأنا أزيد لمقولته "وأكثر فائدة من ألف سياسي فاشل".

***

رغم هدوء المقهى وعالمه الثقافي إلا أن الهواتف الذكية أثرت على الرواد بشكل أو بآخر، ففوبيا الرسائل والإشارات تجعل كل إنسان لديه هاتف ذكي يتناوله ما بين الدقائق ليتصفح إذا ما هنالك رسالة جديدة. ومهما كان عاشق الكتاب منهمكا في القراءة إلا إنه يتناول الهاتف تلقائيا وعلى الأقل

يتصفح الشاشة ويعود لسطور الكتاب. أدرك فتحي ذلك بأنه أحد هؤلاء التلقائيين، وضع هاتفه بعد تصفحه وقال للدكتور رؤوف والذي كان بدوره منفصلاً عن المقهى ومنهمكاً بالتعليقات على منشوره في الفيسبوك:

- صرت مدمناً على الهاتف، أجد نفسي في الإنترنت بدون مبرر.

أغلق رؤوف شاشة هاتفة وقال:

- إدمان وهوس وجنون بلا فائدة، رعى الله أيام زمان، كان الوقت طويل جدا. الآن، ينتهي اليوم وأنا في الخيال ولست في الواقع.
- نحن أوفر حظا حيث أننا ننشط مقهى أدبياً، غيرنا مشتت بين مواقع الإنترنت يوما بعد يوم وعام بعد عاماً.
- والمشكلة أننا نضيع بين سيل من المستخدمين العشوائيين لمواقع التواصل ونتزاحم معهم على لا شيء وهم الأكثرية وبأسماء مستعارة. لو الأمر بيدي، لصنعت أنترنت للعشوائيين وآخر للمنظمين.
- صحيح يا دكتور، مواقع التواصل يحكمها العشوائيون والمجهولون بأسماء مستعارة. وهذه كارثة كبرى ولا حل لها.
- لا أخطر على الحاضر والمستقبل من الحقائق المروعة والمتمثلة بوسيلة تواصل بين العشوائيين والعبثيين والمجهولين في ما بينهم.

حيث أن الأغبياء والجهلة شريحة كبرى ولكل واحد وسيلته لإيصال رسالة سلبية ويفترض عمل احترازي لتحجيم نشاطاتهم الافتراضية السلبية. فهم يقودون الآن المجتمع ويتحكمون حتى بمجرى الأحداث إعلاميا.

عقب الدكتور رؤوف:

- في الوقت الذي يفترض أن يتصدر المشهد القياديون نحو الازدهار من فنانين وكتاب وشعراء وأطباء ومهندسين وصناعيين، نجد أن تصدر المشهد فقط للسفهاء العبثيين ولهم جمهور مرعب من حيث العدد يتجاوز أحياناً جمهور قناة تلفزيونية بكل إمكانياتها. هنا، سقطت النخبة وجاء دور العشوائية لتزيد العلة ألفاَ وألفاً.
- أن تكون لهم وسائل تواصل وكلمة سلبية مسموعة وتؤثر بسلبياتها على المحيط فهذا أمر مرعب ولا يبشر لا بالتطور ولا بتجنب عبثية الصراعات المتنوعة. في الوقت الذي تبقى فيه النخبة حائرة في انتظار قارئ واحد أو إعجاب واحد، تكون للعبثي آلالف التعليقات والإعجابات والمشاركات في الساعة الأولى لنشر التفاهة ومئات الألوف من المتابعين؟؟؟

- يا فتحي، هذا هو التعمق في الفوضى، إنه أمر معقد الحل. القيادة الفكرية صارت بيد من يفترض أن يكونوا على رأس عملهم في قيادة الحافلات والحرف اليدوية البسيطة والمتوسطة ممن لا يجيدون تركيب جملة مفيدة. ولكلٍ منهم له رأي عكسي لا ينطبق على المنطق ولا الواقع وصارت هناك مئات الآلاف من الآراء وكلٌ يدافع بشراسة عن رأيه العبثي. ظاهرة لن تتوقف حتى الفناء وفقدان الذاكرة والعبور نحو العدم. إنه الهلاك غير المعلوم، وكلٌ يقدم ما تبقى من عقول للموت البشع على مقاصل الغوغائيين. فتذخير مسدس المعتوه لا يمكن أن تكون نتيجته وردة مثلا؟ وإعطاء الحرية المطلقة بلا أدنى رقيب لغاو إجرام، حتما النتيجة جرائم بشعة ومبررة وشرعية؟؟؟ وتسليم القيادة الفكرية والإعلامية لتوجيه طبقات غوغائية، لن تكون النتيجة مجتمعاً رقمياً، بل مجتمعاً زاد على التفسخ انعدام وجوده أصلا.
- الاعتقاد والفهم المقلوب للحرية والديمقراطية حول إبداء الرأي بالكراهية والمذهبية والعقائدية يفضيان إلى نقطة الموت بأشكاله المختلفة. والنتيجة العدم كما تفضلت يا دكتور... وأدرك ذلك

الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت في القرن السادس عشر حيث قال "الشيء المقرف في الديمقراطية أنك تضطر لسماع الأحمق".

- نعم.. المشكلة تكمن في أن كل عبثي يرى في نفسه وسيلة إنقاذ للآخرين من الهلاك بواسطة العبثية. وبما أنه منبوذ في محيطه، فله جمهور غفير في ما وراء بصريه. لم يعد الواحد زائد واحد يساوي اثنين، بل صار الواحد زائد واحد لا يساوي شيئاً في اللامنطقية الأشياء. إنه مفهوم ألا نفهم والأهم أن نتكلم.
- هذا موضوع خطير يا دكتور ويجب التعامل معه بجدية.
- سبق وناقشت هذا الموضوع مع مسعد حين تحدث عن صور الموتى المنتشرة على مواقع التواصل. أرى أن نتوسع في هذا الموضوع ونكون مادة ونناقشها، هذا موضوع يطول الحديث عنه ودراسته. وطرأت لي قضية في غاية الخطورة وهي أن الانسان العصري في زمن الرقميات إنسانان، الأول مادي واقعي والثاني افتراضي مع اختلاف السلوكيات والأخلاق بين الواقع والافتراضية لنفس الفرد. مثلا، الشخص أكس عندما تتحدث إليه، سيحترمك ويدعوك إلى تناول الشاي. ونفس الشخص في صفحة على الحياة الافتراضية يعلق على منشورك بقلة أدب وخشونة وغالبا ما تكون

الألفاظ غير أخلاقية. قارنت ذلك مع من أعرفهم فوجدت أن الإنسان صار مادياً بقلب ودورة دموية وعقل وإنسان افتراضي متجرد من القيم الواقعية وكأنها في حل من أمرهم..

***

نشرت اليوم مقالة للصحفي محمود عبدالوهاب في جريدة الحقيقة العلمانية وشارك المقال عبر حساباته على منصة التواصل الاجتماعي، تضاعف عدد المعلقين على منشوره وأغلبها سباب وشتائم واتهامه بالعمالة، هو يعتبر أن الهجوم يأتيه من الخصوم فلا يبالي ويعتبر ذلك وسيلة جيدة لمضاعفة التفاعل في صفحة حيث تُقاس نسبة النجاح في العالم الافتراضي من خلال عدد المتفاعلين. نسخ المقال وراح يرسله في مجموعات الوتساب المشترك فيها ومن ضمنها مجموعة تحوي صحفيين ومراسلي وكالات أنباء عرب:

هل فعلاً أمريكا تكرهنا؟!

"كل العرب يتهمون أمريكا بمعاداة العرب والمسلمين غيرة وكرهاً للإسلام. قضية العرب بالنسبة للغرب هي عالة وورطة. إنهم يعيشون معنا في نفس الكوكب ولو صح لهم لرحلوا عن كوكبنا بعيدا عنا أو

رحلونا إلى ابعد كوكب في مجموعتنا الشمسية. أمريكا دخلت حروباً في فيتنام غير المسلمة وفي دول أمريكا اللاتينية وفي أوروبا وأغلبهم يعتنقون المسيحية. إذا، لماذا يحارب الغرب الإسلام؟! عندما يقف داعية شيعي أمام شاشة التلفزة وتعيد القناة ندواته وخطبه على مدار الساعة وهو يكفر كل من لا يؤمن أو لا يحدث نفسه بالسبي والغنيمة وقتل جميع المشركين في هذا العالم، وإن الله وعد المسلم بفتح أمريكا وستخضع للمسلمين وتصبح أمريكا (إسلامية) وإن الله وضع ضوابط للتعامل مع النساء والأطفال الأمريكيين ونظم أسواق الرق.. في الطرف الثاني، يقف داعية سني يكفر كل من ينكر السبي والغنيمة، وأن الحل للأزمات المالية الإسلامية يكمن في عدم التقاعس عن الفتوحات لأنها مصدر مالي مهم لرفد خزينة الدولة وتقوية الاقتصاد، لأن البلاد التي ستُفتح سنغنم أموالها ونصبح اغنياء، وسنسبي النساء، ولا يجوز توزيع السبايا على من تقاعس عن الجهاد والفتح، ويحق للمتقاعس أن يشتري السبية من السوق، لأن المجاهد ربما لديه أكثر من حاجته بسبب تواتر الفتوحات. وحسب الطلب على شراء السبايا، سيتم تحديد بورصة الأسعار.. مادامت تلك نوايانا، ولا نرى حرجا بكشفها على مرأى ومسمع العالم أجمع وبالفعل وجدت فيديوهات من يقولون مثل هذا الكلام وقد ترجم للغات ويتبادله البشر عبر تطبيقات

الاتصالات كالوتساب وغيره من وسائل التواصل. أن رجال الدعوة يقولون إن في آخر الزمان لن يبقى كافر واحد في الأرض قبل قيام الساعة لأن الكفار سيدخلون الإسلام ومن يرفض سيقتل، وستدور الحروب بالسيوف لأن السلاح الناري سيتعطل!!! كل هذا ولا نريد من العالم الاحتراس من نوايانا السيئة والمُعلنة؟! كل هذا الفكر العدائي والجهر به وتدريسه وتكفير منكره ولا نريد من الغرب تحجيمنا والتعامل معنا على أننا أسلاك شائكة خطرة؟! وما الذي يمنع دول العالم من أن تعاملنا بالمثل وتقرر رمي مجموعة قنابل هيدروجينية علينا وتتخلص منا للأبد (على الأقل بطريقة أكثر أخلاقاً من فكرة سبي نسائنا واطفالنا واستعباد أحيائنا) وما لا شك فيه أن العالم لن يخسرنا ولا فائدة من وجودنا سوى صداع للكرة الأرضية. لا تقولوا لي معهم حق!"

***

كل يوم يرى فتحي من ميساء ما يميزها، حتى حدثت الجلبة في قلبه رغم أن ذكرى فقيدته نرمين مازالت تحتل حيزا كبيرا في داخله. جذب مسعد جانبا، طلب منه أن يجلس معه على طاولة خارج المقهى. على الطاولة أمنيات لا يسعها العالم. يبدأ بوصف ميساء ورجاحة عقلها، فهم مسعد

قصد صديقه قبل أن يصارحه. وكعادة مسعد، لا ينتظر الفكرة لتكتمل حتى يتدخل سلبا أو إيجابا، المهم يقول ما فهم:

- تزوجها يا فتحي، إنها تناسبك.
- كنت سأقول لك إني واقع في حبها، إن وقع خطاها يقرع قلبي.
- منذ متى وأنت تفكر بها؟
- أصارحك يا صديقي، منذ أن شرحت الإلياذة.
- جميل أن يكون عقلا الزوجين متقاربين. إذهب واخبر ميساء بحبك لها.
- ليتها تقبل بالزواج من رجل لديه طفل.
- لِمَ لا؟! ما دمت لست متزوجاً ولم تطلق. فقط زوجتك رحمها الله. وهذا بيد الخالق.

***

انتهى العميد عمر من عمله اليوم بعد نهاية الدوام بساعة وربع، خرج من مبنى الجهاز واستقل سيارة عادية. أحياناً، يستقل سيارات لا تخصه يوفرها الجهاز أو معاونوه أو تخص زملاء وهكذا. هذا من أساليب التمويه عند الرغبة في الولوج إلى الأماكن المدنية عند قرار مفاجئ يتخذه دون أن يعلم

أحد بوجهته. استقل سيارة برادو وانطلق بها خارج سور المبنى وتجاوز الحيطان الإسمنتية المرصوصة حول الشارع المقابل للسور بأكمله، انطلق بسرعة فائقة. ما بين الدقيقة والأخرى، ينظر للمرآة المثبتة على الزجاج الأمامي ويدقق إذا ثمة سيارة تتبعه. ككل مرة، لا توجد سيارة تتعقبه. توقف عند إشارة المرور وعند تحول الإضاءة للون الأخضر وداس البنزين ليتجاوز خط الراجلة، سمع صوت دراجة نارية يزداد صوت محركها كلما مرت ثانية، نظر عبر المرآة المثبتة على الباب الأيمن والأيسر ومن ثم من المرآة المثبتة على الزجاج الأمامي فلم يلمح شيئاً فالسائق محترف. ازداد الصوت وعيناه تتنقل ما بين المرايا على يمينه وعلى يساره وأمامه. من خلال الأمامية، بدت له خوذة السائق وشك أن هناك راكباً أيضاً. وخلال ثوان، تأكد. اقتربت الدراجة حيث تجاوزت السيارة الخلفية وأسرعت لتتجاوز السيارة التي يستقلها العميد على مسافة آمنة من يمين السيارة، داس العميد دوسة واحدة على الممهل (الفرامل) ولمح عبر المرآة يد الراكب وهي بوضعية لابد أن تكون مريبة. اقتربت الدراجة النارية أكثر لتتوسط السيارة ورفع الراكب يده الممسكة بمسدس، لم يستقر على خط الهدف حتى كانت رصاصة تستقر برأسه ليتهاوى من أعلى الدراجة يليها بثانية رصاصة تستقر برأس السائق ليتهاوى هو والدراجة بشكل دائري

وتصطدم بجزء منها أولا بإطار سيارة مركونة وتواصل دحرجتها وقد قذفت بالسائق بعيدا لترتطم أخيراً بالرصيف. كان العميد مذخراً لمسدسه عندما سمع صوت محرك الدراجة وتيقن أن هناك شيئاً عندما حافظ على سيره خلف السيارة من وراء سيارة العميد حتى بان لسائق الدراجة مكان مناسب لمناورته حيث صار في مكان لا يعرقل عملية الاغتيال. عبر اللاسلكي، طلب العميد تأمين الطريق، ودار بسيارته لطريق العودة باتجاه مكتبه. تجمع الناس حول جثتي القتيلين عن بعد وتوقفت حركة السيارات بهذا الخط. تنفيذ عمليات تحر لمعرفة هويتي القتيلين، ومن أرسلهما وزودهما بالمعلومات. العميد لم يخرج بسيارته بل بسيارة يستقلها للمرة الأولى، تابع التحري والتحقيق. متيقنا أن معلومات خروجه تسربت من الداخل لأنه خرج والأمر لا يثير الريبة لفترة تجاوزت النصف ساعة. من بعدها بدأت المحاولة الفاشلة، ولم يلحظ شيئاً منذ البداية يدل على أن هناك تعقب عالي المستوى يترصد حركته. من خلال رصد المكالمات الصادرة من مبنى الجهاز، صدر من هاتف واحد اتصال عند الوهلة الأولى لخروج العميد بسيارته، وهاتف المستقبل كان على بعد شارعين. ثلاث دقائق وصدر اتصال من هاتف المستقبل لهاتف آخر على مسافة في نهاية شارع طويل ويعتبر خطاً سريعاً وممنوعاً وقوف السيارات فيه. خمس دقائق

وصدر اتصال من هذا الأخير لآخر. تبين أن فريق الاغتيال جند متعقبين كثر لرصد توجه سيارة العميد حيث تتم العملية في مكان يسهل على المنفذ الهروب بسهولة. رقم الهاتف من داخل المبنى خاص بضابط برتبة دنْيا وحديث التعيين ولا يعمل تحت إمرة العميد. أمر العميد بمراقبته وعدم إشعاره بشيء، وفضل معرفة الرأس المدبر وأسماه "الهدف المشترك".

***

قبل الساعة الأدبية في المقهى الثقافي، مسعد في حالة تجلٍ، يدون ما يوحي له عقله. يقطع ذلك الإلهام شاب يمد يده للسلام ويقول "كيف حالك أستاذ؟ مسعد يريد الإشارة له أن الوقت ليس مناسباً مع حالة التجلي هذه لديه، تضيع الأفكار، يمد يده ويسلم على الشاب "الحمد لله". طلب الشاب الجلوس. بادره مسعد "أتدري ماذا صنعت؟" رد بالنفي، أجاب مسعد على سؤاله "شيطان يسترق السمع من عالمه ويسمعني أدب الشياطين، وأنت أتيت وصرفته"... وقف الشاب بأدب: "أوه، أستاذ، أعتذر، سآتيك في وقت آخر"... أمسك مسعد بيده وقال له: "إجلس، طارت الكلمات ولن تعود بهذه السهولة، إنها أشبه بالولادة، أراك مرتبكاً!" هنا طرح الشاب مراده، صاح مسعد: "جميل، هذا هو، هنا...

نعم هنا وليس مكاناً آخر"... وقف الأستاذ مسعد يطلب الصمت من الجميع ليسمعهم ما لديه هذه اللحظة:

"يا جموع الأدب والثقافة. اليوم، جاءنا إبداع يطلب نافذة على خشبة مسرح الدب الصغير. فعلا، إنه مسرح وبث مباشر لإبداع فني (يمسك بيد الشاب) هذا فنان مسرحي لم يجد فرصة لتقديم نفسه للجمهور وله أيضاً فرقة فنية شبابية من الممثلين الشباب، طلب إذناً بأن يقدم أعماله من خشبة مسرح الدب الصغير". انطلقت تصفيقات مهذبة وأصوات متنوعة ترحب. شعر الممثل الشاب بالارتياح وشكر الجميع واعدا أن يقدم أجمل ما لديه هو وزملائه وأن يكونوا في المستوى العالي. قال له الأستاذ مسعد: "ننتظر منك الإشارة، أخبر زملاءك الممثلين أننا ننتظر مسرحيتهم". سأل الفنان الشاب: "هل من ضوابط تخصكم؟ أقصد، هل لديكم مواضيع يمنع الخوض فيها؟" رد عليه مسعد: "العصبية، والكراهية. ما دون ذلك، قل ما تشاء".

وبالفعل عرضت على مسرح المقهى مسرحية للفرقة الشابة مستوحاة من تاجر البندقية لشكسبير باللغة العربية واليوم التالي أعادوها بالإنجليزية. كان الابداع مذهلاً إلى حد لا يُصدق. فمهما ماتت الثقافة في هذا البلد ولدت ثقافة وهكذا دواليك حتى يأتي اليوم الذي تعيش فيه الثقافة سيدة

وملكة على عرش العقول. (قالها مسعد مادحاً لهذا العرض المسرحي المذهل).

***

انتهى الصحفي محمود عبد الوهاب للتو من متابعة برنامج لناشط أوروبي في اليوتيوب. وقبل أن يخلد للنوم ومازال عقله يفكر بالبرنامج الأوروبي، تناول ورقة وقلماً وعلى طاولته في مكتبه راح يخط مقالة يتناول فيها بشاعة الحروب الدينية لينشره في الغد:

"الحروب الدينية"

"يقول عالم الفيزياء الألماني جورج كريستوف لشتينبرغ "من المستحيل حمل مشعل الحقيقة في الزحام دون أن تحترق بعض اللحى". لنحاول اليوم حمل المشعل ونخوض موضوع الحروب الدينية. فلا أبشع منها في هذا الكون لأنها تغذي نفسها كلما ضعفت. وأسوأ ما في الحرب الدينية أن الجميع راض عن الموت وكل خصم يقتل نفسه ببساطة وبدون تكلفة باهظة. ولكي يستمر التدين ويستمر تدفق رزق رجال الدين، يجب اختراع الحرب. الحرب الدينية ضرورية ليستمر الحاكم الفاسد في الحكم ولتستمر المعارضة الفاسدة في الركض خلف مصالحها ويستمر الشعب في حالة

تبعية مطلقة. هذا النوع من الحروب يبدأ كصراع ديني وينتهي كصراع سياسي. وأصل الصراع ليس الله وفق أي دين، بل إنها السلطة مغلفة بالدين. وهكذا هي كل حروب العرب منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم. فالأمر يبدو غريباً وباهتاً دون طعم أو لون لو أن صقور الحرب تصارح جماهيرها بأنها ستخوض حرباً من أجل الاستئثار بالسلطة لأنفسهم. حينها، لن تجد العدد البسيط من المقاتلين، ولكن بمجرد إدخال الدين عنوة وجعله عنواناً للحرب. حينها، ستكون الجماهير متشبعة بالموت وطعم الدم. كذلك حدث في أوروبا حتى انتصر العقل على السيف وتسبب ذلك في فقر مُدقع لرجال الدين وكانت النتيجة تنمية بشرية شاملة. في الوقت الذي ما زال المسلم يكفر العالم بدياناته جمعاء، وبل يكفر من يخالف مذهبه من أبناء دينه وينحو نحو ذبحه، فإن الأوروبي ينظر نحو الماضي بقرف شديد جداً وسخرية من جدوده الذين خاضوا حروباً رأوها مقدسة من أجل الله وهو يراها ذات أسباب مثيرة للضحك. ففي برنامج استقصائي يصوره ناشط على اليوتيوب في أوروبا حيث يستوقف المارة ويسألهم: "ما رأيك في الحرب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت؟! كانت الإجابات في الغالب ضحك وسخرية والملفت كره ما قام به جدودهم على أن ما استندوا عليه حربهم مجرد هرطقات سخيفة لا تستحق

الوقوف عندها. وعندما سؤل أحدهم مع من سيقاتل لو كان حاضراً في زمن الحرب. ضحك الرجل وقال: "هل تراني غبياً ومغفلاً حتى أشترك في حرب غير شريفة وغير منطقية ولا تستند على أي شرعية؟! إذا، الحروب الدينية تبقى الأبشع في التاريخ، والأصلح هو الأوروبي الذي أوجد لنفسه نظاماً وقواعد يحتكم لها الناس عند اختلافهم ومجرد التفكير بحمل السلاح يعد ذلك من المحرمات قطعاً وإلى الأبد تحت مظلة العلمانية والتي في كنفها ترسي قواعد السلام والوئام والحب والتعايش رغم عشرات الاختلافات الدينية والعقائدية والسياسية. وهنا يبقى السؤال الأبرز، متى يصل المسلمون إلى قناعة ابتكار قواعد ونظام حكم يعصم دماءهم ويحفظ كرامتهم ومعتقداتهم؟! المسلمون يخسرون الوقت ولا فرص مواتية فلحظات الوقت الضائع تعصف بهم فحروبهم باسم الاسلام بشعة جدا ولا مثيل لها لأن القتل مُفعل وآيات وأحاديث الرحمة حاضرة بقوة. مما يدل على أن النفاق بلغ ذروته. ولذلك أمثلة كثيرة واخترت على سبيل المثال لا الحصر (حرب الباكستان) تلك الحرب التي قتلت ما يزيد عن ثلاثة مليون مدني في بنغلاديش، واغتصاب ما يصل إلى ٤٠٠ ألف امرأة من قبل القوات الباكستانية خلال تسعة أشهر وتحت مبرر ديني وللاختلاف المذهبي تم قتل كل الكوادر والمتعلمين وإبادة كل حامل قلم

لتغدو بنجلادش دون متعلم واحد بعملية تدمير ممنهجة لكل البنية التحتية. وإلى اليوم، وباكستان تعوق أي نمو لجارتها وبل ترعى الفساد هناك دائماً. أما الهندوس، فقد عمد الجيش الباكستاني على كشف أعضائهم التناسلية فالختان شارة المسلم وغير ذلك يتم قتله فوراً. وهذا مالم يحدث أطلاقاً في بلداننا العربية لحسن الحظ فشارة الختان للجميع ولولا أن السنة والشيعة متساوون في الختان، لكان الكشف المباشر والتعرف على الخصم وقتله. في الأخير، رفض الانجرار خلف دعاة الحرب الدينية يعني موت الفاسد وجوع اللص وتبدد أحلام المجرم وكساد بضاعة تجار الدين.."

***

يتصفح العميد عمر أوراق الخطة التي أعدها المقدم قمر الدين لإلقاء القبض على منفذ جريمة اغتيال شرطي المرور، استحسن الفكرة وأمر:

- عند الإبلاغ عن جريمة مماثلة، أصدر أوامر تعطيل حركة المرور في الشارع المستهدف وتسجيل أرقام ومواصفات السيارات ومن ثم فحصها وتعقب المشتبه حتى بلوغه مكان توقفه.
- حسنا سيدي.

- ولا تهاجم سيارة المنفذ عند معرفتها، فقط مقصدها وجمع المعلومات وإبلاغي أول بأول.
- سيدي... اليوم وقبل نصف ساعة، رصدنا مكالمة مجهولة وفيها شفرة في الحديث وتعقبنا رقم هاتف المتصل والذي جاء من منطقة جبلية مازالت مضطربة.
- وماذا عن المُستقبل؟
- كان متحركاً من خارج العاصمة باتجاه المنفذ الشرقي.
- ليبقى هاتفه تحت المراقبة الحركية وابلغ نقاط التفتيش التعرف على السيارة وهوية من بداخلها في حال اقترابه من أقرب نقطة تفتيش.
- للأسف، أتلف شريحة الهاتف أو أطفأه.
- امم... توقع عملية إما تفجير سيارة أو اغتيال... أصدر أوامر تحذيرية لعناصرنا خاصة في الجهة الشرقية من العاصمة.
- حسنا.

الخطة تقضي بتعطيل حركة المرور في الشارع المستهدف بواسطة عناصر بلبس مدني لدقائق حتى يتمكن زملاؤهم من تدوين أرقام السيارات وأنواعها التي تهم بالخروج من الشارع وإرسال البيانات إلى قسم العمليات لفحص المركبات ومالكيها والمشتبه فيه يتم مراقبته ومعرفة من

معه. وصلت الأوامر إلى العناصر المقصودة ونقاط التفتيش باستنفار كبير. ما يقارب ثلاث ساعات حتى وصلت إخبارية عن عملية اغتيال شرطي مرور. فورا وحسب الخطة، تم إرسال أرقام المركبات وأنواعها التي خرجت من شارع مسرح الجريمة إلى عمليات الأمن وتم التعرف على واحد وعشرين مركبة ومالكيها ما عدا واحدة والتي رقمها مسجل باسم مركبة نقل كبيرة وتم استخدامه في لوحة مزورة تخص السيارات الصغيرة. هنا الخيط الأول تم التعرف عليه ومستمرون في متابعة نوع ولون المركبة ورقمها المزور لتحديد نقاط عبورها. خلال ساعة وربع، كانت المعلومات متوفرة أن السيارة دخلت حارة في إطار العاصمة. وهناك، توقفت لمدة دقيقتين أمام منزل فيه جراج قبل إخفائها فيه ووصد الباب. المنزل مستأجر منذ ستة أشهر من قبل شخص تم فحص بياناته وإذا بوثائق الإيجار مزورة والاسم مستعار. اتخذ قرار مداهمة المبنى بواسطة قوات المكافحة وبحضور عناصر المخابرات ومنهم المقدم قمر الدين للفحص بعد الاقتحام. تبادلوا إطلاق النار. ودقائق وصار المبنى مؤمناً حيث قتل ثلاثة من المجرمين وألقي القبض على واحد. وصلت نتائج العملية والتحقيقات الأولية للعميد عمر واتضح أن المنفذ كان ضابطاً في سلاح الهندسة العسكرية ومدرباً جيدا. وهو من ضمن المنشقين في بداية الأحداث وهو من طور

وسيلة الاغتيال حيث كانت ستنفذ على نطاق واسع بعد نجاحها وبعد أن استحسنها من يعمل لصالحهم الضابط المنشق. والوسيلة المطورة عبارة عن بندقية مزودة بكاتم صوت تعمل بالكهروميكانيكية مثبتة في مقدمة السيارة وتعمل آليا من داخل السيارة ولها ناظور للتقريب وشاشة صغيرة مخفية. والبندقية تم تطويرها بحيث تطلق بزر قريب من السائق. هذا الضابط كان مطلوباً للمخابرات العسكرية منذ سنوات لكنه استفاد من المناطق التي فقدت الدولة السيطرة عليها حيث عمل مع جماعة مسلحة وساعده تدريبه العالي وقدراته العسكرية والهندسية في خدمة من يعمل معهم حتى في تطوير وسائلهم الحربية ودرب الكثير من منتسبي الجماعات المسلحة على التفخيخ والفكفكة. اليوم، قتل ثلاثة ممن يعملون معه وتم إلقاء القبض عليه. وهو الآن، تحت الاستجواب والتحقيق المكثف.

***

من الواضح جدا لكل ذي بصيرة أن العالم المتقدم الآن يخرج من عصر اقتصاد المعرفة ويلج عصر اقتصاد الذكاء الاصطناعي. هذا النوع من الاقتصاد يحطم الحدود بين الدول بالتزامن مع الرقي بالإنسان إلى مرتبة الاكتمال وليس ما كان عليه المجتمع الذكي من واقع التعمق في الرفاهية بل

طور نفسه ليتعمق في الرقمنة. الآن، تتسابق الدول على الرقمنة بنسبة مائة بالمائة حيث تحل الآلة الرقمية محل الإنسان. ومن هنا، برز تداول العملة الرقمية والأعمال المكتبية الرقمية حيث ينجز المواطن أي شيء من المعاملات عبر الوسائل الرقمية. ومن هنا، سيتم تخفيض نسبة استهلاك الأوراق وتوفير الوقت وزيادة الدخل. العالم المتقدم دخل عصراً جديداً هو عصر المواطن الذكي وعصر الهندسة العقلية وهندسة الذكاء الاصطناعي وتطوير الإنتاج ومضاعفته. مما يساهم في سد احتياجات تزايد نسبة سكان الأرض. العالم المتقدم يخرج من عصر العلاج المادي إلى العلاج في التعديل الجيني وهندسة الخلايا والتحكم في الأمراض مما يزيد من عمر الإنسان حيث حدد العلماء سقف الطموح حيث لا يتوقف عمر الإنسان حتى المائتي عام مستقبلا وحتى أن الجنون وصل لحد تخليق جنود معدلين جينيا حيث تنزع منهم صفات الخوف والألم والتعب. هذا يحدث في جهة من الكرة الأرضية. أما على الضفة الأخرى العربية، فهي مشغولة اليوم وبضجة كبيرة طغت على كل عناوين الصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي وهي فتاوى لداعية بأن ممارسة الجنس مع الروبوت ليس زنا ولكنه حرام، فرد آخر بأنه حرام، ولكن الأقوى رد أن ممارسة الجنس مع الروبوت لا هو حرام ولا يُعد زنا لأن أصل الزنا هو ماء الأنثى. خاض

الجميع في هذا الازدراء الحقيقي للدين والذي يستوجب تحويلهم جميعاً للمحاكمة بتهمة ازدراء الدين والتسخيف والتسفيه والذي وصل لحد سخرية تناولتها كل وسائل إعلام العالم والإشارة بالأصبع نحو هذه البقعة من الأرض حيث التخلف والشذوذ الفكري ومن منظور علمي. وهذا الفرق حيث نوهت أغلب صحف العالم الناطقة باللغات غير العربية أن هنا في هذه الجغرافيا أمراض جنسية متعددة وراحوا يعددونها واحدة تلو الأخرى حسب ما أصدر ممن امتهنوا مهنة تفسيخ الدين (رجال دين) كفتوى زواج القاصر والتي هي مرض البيدوفيليا (ولع الجنس مع طفلة) وفتوى جماع الوداع والتي اختلف حولها رجال تفسخ الدين فمنهم من أفتى بجوازها ومنهم من حرم لأنها زنا والسبب بأن عقد الزواج انتهى وفُسخ حال موت الزوجة ولم تعد حلالاً للزوج وكذلك الزوجة يُحرم عليها النظر لوجه الزوج الميت أو هو ينظر إليها وحتى أن الزوج غير ملزم بشراء كفن الزوجة لنفس السبب ويتولى ذلك أهل الزوجة. وكتبت الصحف العالمية أن هذا النوع من الولع بممارسة الجنس مع الجثث مرض يسمى نيكروفيليا. أما ما يخص فتوى مضاجعة الروبوت فقد قالوا إنه مرض جنسي يتمثل في ولع وانجذاب جنسي لمضاجعة الدمى والتماثيل يسمى اجالماتوفيليا. فمن هنا، يأتي الفرق بين من ابتكروا واستفادوا من

الذكاء الاصطناعي في مجتمعات غير العرب وبين عرب مشغولين بصراع حول هل تصلح هذه الآلات للمضاجعة الجنسية؟! هذا الموضوع طغى على كل أخبار العالم. ولهذا، أصر الأستاذ مسعد على أن لا يتم مناقشة هذا الموضوع عبر صفحة المقهى الإلكترونية وإلغاء البث المباشر لهذا اليوم لأن الموضوع مقرف جدا ولا يرقى إلى مستوى حتى الرد أو التطرق إليه، وافق القائمون على إدارة المقهى الثقافي وكل أخذ لنفسه مع أصدقائه طاولة واختار لنفسه موضوعاً خاصاً للنقاش. فعلى إحدى الطاولات، يجلس فتحي ومسعد والدكتور رؤوف والنقاش شارف على نهايته حيث تناولوا موضوع الفتوى المثيرة للسخط وتحليل أسباب هذا الانحطاط وجذوره. ودائماً وكالعادة، يفشلون في اكتشاف مواطن العلل ويخرجون بنقاط مشتتة:

- العربي بطبيعته فوضوي وعنيد تغلبه شهواته ويعيش خارج أي منافسة علمية منذ الوجود الأول، فهو يعيش مرحلتين فقط المشاغبة والفوضى. المشاغبة هي حالات استقرار الوضع الطبيعي، والفوضى حالات الاقتتال عند كل ثورة ما بين عدة سنوات وعقدين حتى يعود إلى وضعه الطبيعي حالة المشاغبة. لا فائدة

أصلا من وجوده سوى لممارسة الجنس. (قال هذا مسعد في آخر نفسين لسيجارته).

قال فتحي وهو يتناول القداحة لإشعال سيجارة أخرى:

- يا للعجب، ما الفرق بيننا نحن العرب وبين الصين والتي كانت إلى عهد قريب غارقة في المجاعة وشعبها مدمن مخدرات. اليوم الصين تزود شرطتها بنظارات ذكية تدمج تقنية التعرف على الوجوه متصلة بقاعدة بيانات الأمن العام ويمكن للشرطي من خلال النظارة التعرف على الأشخاص من وجوههم من دون طلب بطاقة الهوية..

ضحك الدكتور رؤوف وعقب:

- تمكن الغرب من توليد عجل في رحم اصطناعي، فلا أستغرب يوما إذا تم تخليق حيوانات غريبة عبر تعديل الجينات أو التحصل على حمض حيوانات منقرضة ويتم تخليقها عبر الرحم الاصطناعي.

ضحك مسعد وهو يقول:

- الناقص نرى ديناصور في حديقة الحيوان...

عقب الدكتور رؤوف:

- يا صديقي، حتى علاج الأمراض سيتم دون أدوية تقليدية، فقط يمكن للطبيب الدخول إلى الخلية وتعديلها والتحكم في الإفرازات والانقسامات بسهولة وكذلك التثبيط، سيتم القضاء على أغلب الأمراض المزمنة..

تنهد فتحي وقال بوجع:

- لا فائدة من وجودنا في هذا العالم. أثبتنا للاستعمار أننا غير مؤتمنين على أوطاننا وأننا خطر على أنفسنا. ولولا أن هذا العصر لم يعد يصلح للاحتلال أو الاستعمار المباشر، لكان أقرب الحلول هو استدعاء تدخل المستعمر القديم لإدارة أمور الحكم.

قال مسعد متهكماً:

- أصلاً الاستعمار لن يقبل التورط فينا! تخيل يا صديقي، أن العمليات الإدارية المتواضعة أصلا والتي لم نطورها، موروثة عن الاستعمار وهي الغنيمة الوحيدة التي كان يمكن الاستفادة منها وتطويرها ولكننا لم نفعل. النظام الإداري والقضائي الذي كان يُناسب جيل الستينيات من القرن الماضي، وهو تركة الاستعمار، هو نفسه المستمر إلى اليوم في القرن الواحد والعشرين وقد يستمر لأن عقولنا لا تنتج النظام. وأزيدك من الشعر بيتاً، أي خلاف

داخلي تهرع قياداته نحو المستعمر للتحكيم والبحث عن حكم. المستعمر مازال ممسكاً بزمام الأمور عن بعد.

***

"المال لا يصنع السعادة... هكذا يقولون... وأنا حين أشتري مكياجاً أو وشاحاً جديداً أشعر بأني أطير من السعادة! المال يوجد السعادة ولكنه لا يشتريها...يصنع السعادة ويخلقها، هذه حقيقة واقعية. فلا نزور الوقائع وعلينا فهم معاني الأشياء بالمنطق والواقع. يتفنن الإنسان بتصبير الفقير على البلاء، فمن ناحية، الفقراء أول من يدخل الجنة. بل لهم الجنة، ومن ناحية أخرى، مقولات وقصائد تشجع الفقير على الفقر وتمدحه وتقنعه بأن المال ليس كل شيء، ويمكن شراء كل شيء إلا السعادة والحب. من يمكنه إطلاق العنان للخيال، فليتخيل صورة حقيقية لسبعيني من أثرى أثرياء العالم يستأجر ملكة جمال لتغسل له مؤخرته ويضع كاميرا تصور ذلك. تفعل ذلك وهي تبتسم، نشر هذا الثري الصورة مع مجموعة صور أخرى وملكة الجمال ترافقه إلى منتجع سياحي، وكأنه يقول لنا "بالمال، نشتري كل شيء". يا هؤلاء، أعيدوا ضبط الواقع بواقعية. فالمال حياة والفقر موت وذل. في المال تكمن السعادة وبه يكتمل الحب. كيف لإنسان

ألا يكون سعيد وهو يستطيع شراء سيارة له ولحبيبته؟! أو يستطيع إلحاق ابنه بأرقى مدرسة أو أهم جامعة ويشتري له منزلا جميلا ويموت وهو مطمئن على مستقبل ابنه أو ابنته؟! لا يوجد إنسان في هذا الكون لا يكون سعيدا وهو يرتدي ملابس أنيقة أو ساعة أو نظارة سويسرية أو يتعطر بعطور فرنسية. قالوا أن بالمال نشتري كل شيء ماعدا السعادة والصحة، دلسوا وفبركوا الحقيقة. لولا المال ما استطاع أحد شراء السعادة ودفع مهر حبيبته وإقامة العرس، ولما استطاعت سيدة كبيرة بالسن عشق شاب يصغرها بعشرين عاماً وبل الزواج منه. صحيح المال لا يمنح المريض الشفاء، لكنه يمنحه الرعاية الصحية الراقية التي تليق به وعلى أعلى مستوى وتخفف عنه وجعه. فالفقير لا يستطيع شراء المهدئات ناهيك عن دفع تكاليف العملية أو الفحوصات الطبية أو حتى رسوم سرير في أصغر وأهمل مستشفى. أضيف مثالا آخر مختلفاً نوعاً ما بخصوص اللا واقعية وعكسية الفهم والتعبير للإنسان بمستوى أعراقه وحضاراته وتاريخه ودينه. فالبشر جميعا يشتركون في ذلك، الذهب، نعم ذلك المعدن الأصفر. في الحقيقة، هو يعيش في كذبة كبرى صنعها الإنسان نفسه بأنه ثمين فقط لأنه لا يتغير مع الظروف على الرغم من أن هناك معادن لا تتغير أيضا وهي أكثر بريقا وجمالا أيضا. السؤال الذي سيبقى خالداً خلود الكذبة

"متى يتحرر الذهب من كذبته وليعود إلى صف المعادن؟"... أنهت ميساء مداخلتها وترجلت من على خشبة المسرح الصغير وتوجهت نحو مكتبة المقهى لتأخذ كتاباً وتهم بالمغادرة. مسعد يقول مستحسننا لفتحي:

- جميل أن تكون المرأة مثقفة، فهي تخلق عالماً من الوعي ينعكس إيجابيا على الأسرة والمحيط لأن تأثيرها يكون أقوى. المرأة المثقفة هي مرعبة للرجل الشرقي المستبد وتهدد كبريائه الذكوري.
- والأروع أن تكون متمردة علميا وثقافيا. فإبداعها وملاحظاتها تتجاوز حد الجمال والإعجاب. يستحضرني قول الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف: "شيئان في الدنيا يستحقان المنازعات الكبيرة... وطن حنون... وامرأة رائعة".
- لم يسبق لأي حضارة أن نمت بمعزل عن عقل المرأة ومع ذلك تبقى بعض التخصصات حكراً على الذكورية ولم أجد تفسيراً إلى الآن لعدم سماعنا في بلادنا عن محققة أو قاضية أو عالمة دين ومفتية... فلن أتطاول أكثر وأقول وزيرة دفاع ورئيسة مجلس الشعب..

قال فتحي مفنداً:

- لا أعتقد أن ذلك ممنوع في القانون ولكن المسألة اجتماعية وعدم استيعاب أن المرأة تكون مفتية مثلا.
- أصدقك القول إني لم أسمع أن القانون يمنع وصول المرأة.
- وأنا أيضاً... لكنه يبقى سؤال يحتاج لإجابة، لماذا لم تصل امرأة لمنصب نائب عام رغم أن هناك نساء محاميات؟!

أجاب فتحي باستغراب:

- والله غريبة يا صديقي.. رغم أن أنزه المحاميين نساء ولسن فاسدات ويعملن بتفاني وإخلاص. متى ما أدرك المجتمع أهمية المرأة يكون تقدم خطوات نحو الكمال. فقد قال سقراط: "متى أتيحت للمرأة أن تتساوى مع الرجل، أصبحت سيدة".
- صحيح، قل ما نسمع أن امرأة في منصب وفاسدة. بل قديماً كانت تحكم بلد وتنجح.
- غريبة يا صديقي. لم نتطرق لنقاش ذلك من قبل لا أدري لِمَ؟
- ذكوريتك الشرقية لها جذور وهكذا تربينا.
- فعلا، نحن تمردنا على شرقيتنا وبدويتنا وقبليتنا ومازال الأثر موجود لأننا اتصال ما بين ماضٍ متخلف ومستقبل ينتظر، وهنا أعنى أبناءنا.

***

الحس الأمني لدى العميد عمر مرتفع جدا إلى مستوى قياسي، هاجس الاغتيال يدور في رأسه بحرية مطلقة. عمليات الاغتيال بواسطة السم الهندي الذي صار معروفا بهذا الاسم أمر وارد حتى يتم التحكم بهذا النوع من الاغتيالات. الوقت ضيق واحتمال أن يكون من بين ضحايا السم أمر وارد. لذا، جاء اليوم إلى مكتبه مرتديا قفازات وأدعى أنه أصيب بالحساسية المؤقتة. استدعى العقيد خالد وكلفه:

- أبلغ المخابرات الهندية بتفاصيل الاغتيالات التي جرت لكبار الضباط عن طريق السم الهندي. أبلغهم أيضاً أننا على استعداد كامل لاستقبال خبرائهم وإجراء تحقيق. أبلغ ببرقيات مخابرات الدول التي نتبادل معها المعلومات بطريقة الاغتيال. يجب أن يخاف الجميع لتبدأ الضغوطات على الهند لإيجاد مُصنع السم والترياق المبطل للمفعول. بهذه الطريقة، لن يبقى مسؤول مهم في العالم ليس في خطر. لا يجب السكوت أكثر، خاصةً بعد ظهور ترياق يتناوله القاتل قبل التنفيذ.
- أمرك سيدي. مثل هذا السم، هو حصرا بأجهزة المخابرات.

- لا أعتقد أن جهاز مخابرات أرسل السم إلى بلادنا؟ إنه عمل عصابة. المخابرات تستخدمه لهدف مهم جدا وتتوقف ولا يبقى السم يدور بأيدي العصابات؟
- لنبلغ مخابرات الدول ونثير لديهم التخوفات وستنتهي لعبة السم.

طقطق العميد عمر أصابعه على الطاولة وقال:

- محاولات اغتيالي ستستمر.
- لن ينجحوا سيدي العميد.
- لنكن واقعيين أكثر ونتعامل مع الواقع ولا نترك شيئاً للصدفة. إذا قُتلت ستصلك ذاكرة إلكترونية فيها ما يجب عليكم فعله وإلا تواصلت عملية الاغتيالات.
- لنسبقهم خطوة سيدي.
- هذا ما سنفعله في القريب العاجل. وإن تأخرنا في سباقهم، حينها، سيصلون إليّ.

***

كون المدرسة إعدادية فقط، فقد طلب مدير المدرسة مسعد فتح فصل سنة أولى ثانوي ويليها ثانية وثالثة بمرور السنين كي لا يفقد طلاب النخبة،

ولو كان عددهم قليلاً، متعهدا هو وفريق التدريس بالتفاني وبذل قصارى جهدهم ليرى نجاحاً باهراً في مستقبل طلابهم. وافق مكتب التربية. مباشر عبر صفحة المقهى، تحدث عبرها، أن له تجربة مع طلابه. وغدا في بث مباشر من داخل المدرسة، سيشرح تجربته والنتائج التي بدأت تظهر على أداء الطلاب. في اليوم التالي، انتقلت مجموعة من رواد المقهى والمهتمين إلى المدرسة. ميساء مسؤولة التصوير ونقل الحدث. يشرح مسعد مشروعه حيث استطاع بنجاح خلق طبقة طلابية متمكنة علميا. البث تواصل لساعة كاملة، جالوا فيها فصول الطلاب وتحدثوا إليهم وإلى المدرسين. التعليقات أشادت بالتجربة وانتهى البث بارتياح من قبل الزوار المهتمين ومتابعين الصفحة. اليوم التالي، لجنة تحقيق تتواجد في المدرسة للتحقيق مع المدير بأنه انتهك قانون خصوصية الطلاب بتصويرهم مباشر. هنا، يصرح المدير مسعد معترضاً على إرسال اللجنة وعلى مبررهم. قال لهم إن مدير مكتب التربية على علم بالمشروع، ردوا عليه أنه هو من أحاله على التحقيق وأرسل لجنة ميدانية. سألهم "كيف يحيلني على التحقيق وقبل أيام وافق على فتح فصل ثانوي لاستكمال التجربة؟!" أجابوه أن هناك فرقاً بين المشروع وبين البث المباشر للطلاب حيث أن القانون يمنع استغلال الطلاب لأغراض إعلامية. يشتاط المدير مسعد غضبا ويترك المدرسة

قاصدا مكتب مدير التربية. هناك، حدث جدل شديد حيث أن الأستاذ مسعد له مبررات ومدير التربية له مصوغ قانوني يستند إليه. فسأله مسعد بعد الجدل الخشبي:

- هل هناك انزعاج من قبلكم أو من قبل مدراء المدارس من المشروع الناجح؟
- إطلاقا؟ نحن نحقق في واقعة تصوير الطلاب، وليس في تجربتك معهم.
- أين المشكلة الآن وما هو المطلوب؟!
- المشكلة تصوير الطلاب وانتهاك خصوصياتهم واستغلالهم إعلاميا حيث يمنع القانون ذلك.
- أنا أنقل تجربة لتعمم لنرقى بجيل مبدع من الطلاب ونكون نخبة. نحن في مدرستنا أوجدنا طريقة تعفي الدولة من بناء مدارس النخبة التي هي مطلب أقدم من أهرامات الجيزة.
- إنقل إعلاميا كما تريد، ولكن لا تصور الطلاب. أتفهم المنطق ولكن القانون يمنع ذلك.
- النتيجة إيجابية، لمَ يمنع القانون ذلك؟!
- يا أستاذ مسعد، المنطق والواقع زي والقانون زي آخر.

- من المعني بالضرر؟!
- أهالي الطلاب.
- غدا، يكون تحويل من أهالي الطلاب في مكتبك.
- بهذه الطريقة سيقفل الملف، وتنتهي القضية.

***

مؤخراً، لم يعد الصحفي محمود عبدالوهاب يستقل سيارته في المشاوير بداخل المدن ووجد أنه تخلص من ضغط الازدحام المروري حيث يتنقل سيرا على الأقدام بين الشوارع وما أن يصل إلى شارع خال من الازدحام، حتى يستقل سيارة أجرة. في سيارة الأجرة، يتخذ مكانه في الكرسي الأمامي ويتصفح الفيسبوك من خلال هاتفه الذكي، قرأ منشوراً أعجبه وقرر إعادة نشره عبر خاصية (مشاركة) التي يوفرها الفيسبوك. المنشور مجهول كاتبه. وكالعادة، ذيل المنشور بـــــــ(منقول):

"كتب أحد الجنود رسالة وتم العثور عليها في ملابسه بعد مقتله في الحرب الدائرة هناك، يقول فيها: إن مُتّ.. لا تصدقوا كل شيء، فإن قالت لكم أمي في برنامج تلفزيوني سخيف: "كان يتمنى الشهادة وكان يقول الوطن غالي ولازم ندافع عنه.."، لا تصدقوها، فأنا لم أقل ذلك، وأنا

مثلكم أحب الحياة ولا أتمنى أن أموت، لكنّ المذيعة ذاتَ الحُمرة الفاقعة أقنعتها أن تقول عني ذلك. أما صديقي ذلك الذي حمّل صورة لي على صفحته في الفيسبوك وكتب شعراً وهو يتغنى بشهادتي حداداً.. لا تصدقوه، فهو منافق كبير وكم من المرات طلبت أن أستدين منه مبلغاً بسيطاً من المال لكنه كان يتهرب مني. أما صاحب الفخامة.. فلا تصدقوه، أبدا وهو يتغنّى بروحي القتالية العالية وحبي للوطن في التأبين، أترونَ طقمه الأنيق ذاك؟ لقد اشتراه من سرقة المعونات المخصصة لنا، نحن أبناء الفقراء بهذا البلد وقود للحروب التي هم يوقدوها .أما أبناء صاحب السيادة والفخامة، فهم إما خارج البلد مترفين أو يتسكعون في الكافيهات والملاهي. أما سيّدي المقدّم فربما كانَ حزنه صادقاً قليلاً، فقد خسر برحيلي مبلغا كنت أعطيه إياه على شكل هدايا أو (رصيد شحن موبايل) كي آخذ بعضاً من حقوقي. وهؤلاء الذين يطلقون الرصاص في الهواء بتشييع جثماني، ترى من هم؟! لم أرهم أبداً في أي معركة ؟!! كما أني لم أكن بطلاً كما يقولون ولا أعرف شيئا عن البطولة أو شعارات حب الوطن والقائد ولكن البندقيةِ إغواء كما النساء تستفزُّ الرجولة الحمقاء. إن مُتّ.. برصاصٍ، أو بقذيفةٍ سقطت مصادفةً بقربي، أو إنْ مُتّ قهراً.. لا فرق، لا تصدقوا سوى تنهيدة أمي عندما تكون وحيدة وانكسار أبي ودمعةً خفيفةً

نبيلةً من حبيبتي لطالما وعدتُها أنْ أكون بخير. ولكني خذلتها حينما التحقت بالجبهة ليس للدفاع عن الوطن ولا للجهاد للأسف. ولكن للبحث عن لقمة العيش وحتى أضمن لي ولأسرتي مصدر دخل ثابت،، هذه حقيقة كل واحد منا بالجبهة ،، فلا نامت أعين الجبناء،، ومن يتغنون بنضالنا . سألت نفسي لماذا فقط أبناء الفقراء هم الشهداء؟! وهم المدافعون؟! وهم لا يملكون متراً على هذه الأرض؟! وتباع عليهم قبورهم؟؟ لماذا لم نسمع بموت مسؤول؟! أو ابن مسؤول من أجل الوطن؟! فهل وجدت الإجابة بعد موتي..!! أنا آسف يا وطني لم أمت لأجلك،، ولكني مت لأجل لقمة العيش في وطن لم يوفر أقل متطلبات حياتي.."

منقـــــــــــــــــــــول،،،

***

صباح هذا اليوم، يخرج العميد من منزله، يرافقه حارس شخصي يقف عند باب المبنى الداخلي، تقدم العميد يتبعه الحارس. عند السور الذي يبعد عن المبنى تسعة أمتار، يحصل انفجار صادر من مدخل الباب، يقذف بالعميد، شظايا تصيب الحارس الشخصي، هرعت حراسة الباب الخارجي، أحد

الحراس يتحدث عبر اللاسلكي، "طوارئ، طوارئ..." أجابه المعني، ابلغه بما حدث، أرسلت سيارة الإسعاف والفرقة العلمية وطوق الشارع. نقل العميد وحارسته على وجه السرعة إلى المستشفى العسكري. في قسم الطوارئ، بدأ الأطباء بعملهم. وقت ليس بطويل ويتواجد العقيد خالد في المستشفى، سمع من الأطباء أن الحالة ليست حرجة فقط شظية في الكتف وأخرى في البطن وحروق ليست خطرة. أجريت التدخلات الطبية اللازمة. في اليوم التالي، تقف سيارة مدنية خلف فناء المستشفى، وينقل العميد فيها إلى مقصد طبي سري وباسم مستعار. التحقيقات في مسرح الانفجار بينت أن عداد الماء تم تفخيخه. تم تفريغ كمرة المراقبة. ألقي القبض على عامل شركة المياه. أنكر أية معرفة لديه، فقط جاءه أمر بتغيير عدادات مياه المنطقة بأخرى جديدة لأن القديمة انتهى العمر الافتراضي لها وكثيرا ما يشتكي المواطنون من زيادة في فاتورة المياه لأن العدادات لم تعد تعمل بدقة. توسعت دائرة التحقيق لتشمل مدير شركة المياه وآخرين متورطين.



قلب الأستاذ فتحي فوهة بركان وكله توتر وصار هائما ولا أحد يعلم بعد ما في قلبه سوى مسعد وأمه التي رحبت بذلك. ينتظر الفرصة ليفاتحها:

- ألم ترها كيف تتحدث؟ كيف تفكر؟ ماذا تقرأ؟ إنها تخلج في قلبي، أخشى عزوفها عن المقهى إن هي رفضت طلبي. (فتحي يقول ذلك لمسعد...)

- لا تخشى ذلك إلا من مراهقة صفر العقل، ميساء ليست كأي أنثى تتنفس، ولا يمكن لمثلها ألا تتقبل أي أمر بعقل منفتح ولا تربط بين العواطف والندوات الثقافية.

- لكن للعواطف والحب مفعولاً إما أن يبدد العوائق، أو يصنع ملايين الحواجز.

- قلت لك إن كانت غير ميساء.

- اه... يا صديقي، يقولون إن المرأة كلما قرأت كتاباً سقط من عينها مائة رجل؟ وأخشى سقوطي من عينيها.

- مائة رجل غبي. إسمع، أنقل من حي الصفيح الزبالة قبل أن تتقدم لها.

- فعلا، فقد استأجرت منزلا في وسط المدينة، وأنا في مرحلة التأثيث.

- خطوة مهمة.

تقدمت ميساء نحوهما ونثرت ابتسامتها المعتادة وهي تضع على الطاولة ورقة كتبت عليها بخط يدها برنامج اليوم. تناول فتحي الورقة وتحسس الخط برأس أصابعه وكأنه يبحث عن شيء. فقد تصرف بعدم اتزان بعض الشيء، لاحظت ميساء ومسعد تلك الحركة ليبادر مسعد "إنها ورقة وليس فئة المائة دولار". رفع فتحي أصابعه وحدق بوجهه ثم بوجه ميساء، ابتلع ريقه وابتسم بارتباك.

"استأذنكما، الدكتور رؤوف ينتظرني" قالها مسعد وغادر.

"تفضلي بالجلوس أستاذة ميساء".

جلست تقابله، فبادرها فتحي بما يلطف الجو:

- لكِ ذوق باهر في انتقاء الكتب.

تموج شفتاها عند الحديث بأحمر الشفاه الخفيف:

- إنه إحساس وليس اختياراً. من الصفحة الأولى، اكتشف قيمة الكتاب الفكرية.

- بل ذوق أيضاً، فذوقك مميز في كل شيء.

مالت برأسها نحو كتفها الأيمن وأغمضت نصف عينيها مع انبساط خديها وهي تسأل:

- امـم، مثل ماذا؟!
- لمساتك في تزيين المقهى، و و...
- وماذا؟
- الوشاح الذي تضعينه.
- الأمر لا يعدو كونه تلبية لرغبات المجتمع وتناقضاته.

(ميساء ترتدي لبساً متعارفاً عليه في تنقلاتها خارج المنزل. وعندما تصل المقهى، تقوم بنزع الحجاب وتضع وشاحاً يغطي نصف شعرها).

- لم تخطئي، فأنت على حق، المجتمع يفرض علينا التشدد.
- كل المذيعات والممثلات يظهرن على التلفاز بلبس مختلف وكأنهن في المنزل بأريحية والمجتمع يشاهد لبسهن المنفتح. وعندما يخرجن للشارع، يخرجن بحجاب أو نقاب ولا يتقبل المجتمع أن يراهن بنفس اللبس الذي يظهرن به على شاشة التلفزة.
- تناقضات. (قالها وهو يهز رأسه تعجبا).
- وليس هذا فحسب، بل تعدى سخط المجتمع من الألوان. لا يقبل الناس من المرأة سوى اللون الأسود حصرا، وإلا تعرضت لمضايقات ورشق كلمات غير مهذبة.
- ليتني أعرف لِمَ اللون الأسود!

- مادامت المرأة تغطي كل شيء ولا تبقي سوى عينيها أحياناً، لمَ لا يكون اللبس أبيض؟! أو أي لون آخر؟! فالأسود يمتص حرارة الشمس ويشويها ويغسلها عرقا.
- مأساة يا ميساء، إنه التخلف. فكم من امرأة مصابة بالربو ضيق التنفس، ولا يسمح لها برفع غطائها لتمارس الحياة.
- لم يضع أهاليهن في الاعتبار أن الصيف يشوي اللحم، هم يلبسون الملابس الصيفية والألوان المناسبة، ونساؤهم يلبسن الأسود الشتوي.
- مازلنا في القاع، وما زالت المرأة في نظر الذكور آلة استهلاكية وليست روحاً ودماً.

***

عودة العميد عمر لمزاولة عمله بعد أسبوعين من التدخل الطبي. سلم الملفات الأمنية إلى مساعديه وتفرغ هو لملف يرى أن له الأولوية القصوى تحت اسم (الهدف المشترك)، قضى أياماً وليالي مختفياً في بيت (أحمد تامر) قرية التواليب يفكر ويخطط. استغرق ذلك أربعة أيام لينهي خطته والخطة البديلة ويرسم معالم المرحلة القادمة.. أحمد تامر، الرجل الريفي الذي برز

دوره وتحول منزله إلى مزار للعميد ورفاقه. رغم عمل أحمد معهم، إلا أنه يخضع لمراقبة هاتفه وتحركاته قبل دخولهم للقرية بأيام وأثناء مكوثهم في منزله. قبل مغادرة العميد عمر، دس يده في جيبه وقدم مبلغا ماليا لأحمد وفي حسبانه أن الرجل فلاح ومن المنطقي تقديم مبلغ مالي. لم يستحسن أحمد ذلك واحمر وجهه وقال بعتب:

- سيدي، أنتم نور في هذا البيت، وكم أسعد أنا وزوجتي بوجودكم وننتظر زيارتكم كونها فخراً لنا، فلا تحرجني بتقديم المال لي.
- لا نقبل أن نكون ثقالاً عليك. فلنا رواتبنا وميزانية لتحركاتنا. وما أقدمه لك هو حق لك.
- سيدي، في كل زيارة، تغدقون علينا بالمواد الغذائية ولم نقدم لكم سوى الحليب الطازج. سيدي، لا تحرجني وستغضب زوجتي إن رأتك وأنت تقدم المال.
- قدمت لنا الكثير يا أحمد.
- أعتبرها جزءاً من واجب ابني الذي سيكون واحدا منكم.

اعاد العميد المال إلى جيبه وربت على كتف أحمد تامر وقال هو يبتسم:

- ابنك يبلي بلاء حسنا، ونتوقع له مستقبل يا أحمد، لن تستطع رؤيته حتى نهاية العام.

- لا يهم أن نراه، المهم أن يكون ضابطاً معكم عندما يكبر.

في بداية اليوم الخامس، غادر العميد القرية والتقى العقيد خالد والمقدم قمر الدين وخبير البرمجيات يونس، أمرهم بالتواجد في بيت أحمد تامر في اليوم التالي.

تواجدوا ظهرا وبدأ اجتماع مهم. يضع العميد مجموعة أوراق فيها كل ما وصل له من تفكير وهو يقول:

- نحن في مهمة الحياة لنا وللوطن، أو الموت لنا والحياة للوطن. نشرع في تنفيذ مهمة ضد الهدف المشترك. هدف تبجح كثيرا، سنصل إليه في عقر داره. الخطة أن نعبر الحدود ونتجاوز البحر إلى إيطاليا.

كلٌ نظر للآخر باندهاش. حتماً هذا جنون، قالها العقيد قمر الدين (قبل أيام وصل لرتبة عقيد). رد عليه خالد، أوافق العميد. تبادل الإثنان الكلام والعميد يراقب نقاشهما، ويونس في صمت. فليس اختصاصه عبور وتنفيذ.

- نستطيع الوصول إلى الهدف عبر عملائنا. قالها العقيد قمر الدين

رد عليه العقيد خالد:

- بل نصل إلى هناك، وكم من عملية استخباراتية تكلل بالنجاح خارج الحدود؟

الفرق واضح بين العقيد خالد وزميله قمر الدين من حيث برودة الأعصاب. فخالد عنيف وشرس ولا يتمتع بصبر عكس قمر الدين والذي يدير عمله بهدوء وصبر وتفكير عميق كونه إلى جانب أنه رجل سري فهو أيضاً باحث ومفكر متخصص في الفلسفة السياسية والعمل السري. والكلام مازال للعقيد قمر الدين:

- سنواجه أخطار فقدان أو مقتل أو إلقاء القبض على الفريق. وما دام هناك من ينفذ من عملائنا، فلمَ نكون نحن بالصدارة؟! عملية كهذه لا يجب أن تكون لنا فيها بصمة لأن نتائجها زلزال قد يعصف ببلادنا. يجب أن نفكر بهدوء وندرس ردة الأفعال السياسية الدولية قبل تنفيذنا للعملية.
- وإن كشف عملاؤنا؟ وإن تنبه الهدف لمسعانا؟ تساءل العقيد خالد

قاطعهما العميد:

- سأنفذها بنفسي.

هنا، طفت الدهشة على الجميع وبدا العقيد خالد الآن مؤيدا لزميله قمر الدين على ألا ينفذها العميد بنفسه.

قال العميد مفندا:

- الخطة تحسم الموقف. عند معرفتكم الخطة، ستكونون مطمئنين أكثر. احتمال العودة سالمين بنسبة كبيرة. الأمر يتوقف الآن على القرار النهائي ليونس، هو من سيحسم القرار.

كلٌ ينظر إلى الآخر: وما دخل يونس بعملية كبرى كهذه، إنه خبير برمجيات؟!

أجاب العميد موضحا:

- لهذا، يونس هو مفتاح باب العملية.
- سيدي، أي شيء له علاقة بتخصصي لن أتردد.

هكذا قال يونس، فرد عليه العميد:

- نعم، لك علاقة. أريدك أن تصل إلى الهاتف المحمول للهدف وتحدد مكان تواجده في إيطاليا.
- حسنا، نصف ساعة يكون موقع الهدف جاهزا.
- أريد أيضاً متابعة مستمرة لتنقلاته وزرع برنامج التجسس على هاتفه ومتابعة كل شيء يصدر عنه وخاصة مواعيده. ليس لك أي عمل سوى الهدف المشترك.
- أمرك سيدي.

***

بالأمس، أنهى الصحفي محمود عبد الوهاب من قراءة بحث نشره الباحث د.أحمد بودراع في مجلة"جيل الدراسات السياسية والعلاقات الدولية" واقتبس منه ما يمكن الاستفادة منه على شكل مقال ونشره على منصة صفحاته في وسائل التواصل. قبل ساعتين وإلى الآن والتفاعل ضعيف جداً، ولم يهتم بها متابعوه لم يستغرب لهذا. فالمتابعون عبر وسائل التواصل الاجتماعي مزاجيون ولهم ذوق معين بما يُثير حفيظتهم ويفتح لهم باب الشتائم. المقال الفاشل خلال هذا الشهر بنسبة للصحفي محمود هو:

"ازدهار الفرد وانتعاشه، وهو يقوم على أسسٍ ثلاثةٍ هي الأرض والشعب والسلطة السياسية. وجدت الثلاثة شروط للازدهار ولم ننجح، أين الخلل؟ من يستطيع فك الطلاسم؟ هل الخلل من شعب غير قابل لفصل ماضيه وعصبيته وبقاياه من الإنسان البدائي عن واقع الحاضر؟ أم أن الخلل من هذا البلد الفقير؟ أم أن الخلل من الثقافة المغلوطة وعدم القدرة على التفرقة بين الدكتاتورية وبين الاستبداد؟ للعلم، كل حكومات العالم دكتاتورية ولا يوجد نظام يستطيع الحكم

بدون دكتاتورية، لكن المصيبة هو الاستبداد وهذا ما نعانيه كدول عالم ثالث. حقيقةً، ليس هذا البلد فقيراً، بل الشعب الفقير يعيش ويتعايش مع الجهل والفساد، هذا شعب طيب يصدق الكاذب والدجال ويضحي بنفسه وبوطنه من أجل بقاء الحكومة الفاسدة. هذا شعب ينتخب الفاسد والجاهل ليتولى سلطته التشريعية وكلٌ منهم يقاتل ويناضل ويموت من أجل بقاء فاسده في منصبه. يقول الروائي البريطاني جورج أورويل: "عامة الشعب مخلوقات هشة جبانة لا تتحمل الحرية أو مواجهة الحقيقة، لا بد من حكمها وخداعها بشكل منهجي عن طريق آخرين، يكونون أكثر قوة". هذا جزء مما يحدث الآن فعلاً. فهل الخلل في الجزء الآخر يكمن في السلطة السياسية؟! للعلم جميع الأحزاب في التاريخ بمختلف أنواعها وأصنافها تتبنى الثورة كمنهج ورؤية نحو التغيير والارتقاء بالشعب اجتماعياً وسياسياً وثقافياً وعلمياً. منها ما هو قائم على نظريات فلسفية متجددة والتي وصلت إلى الحكم بثورة واستمرت في الحكم ولم تطور نفسها حتى جاء حزب أكثر انفتاحاً وأعمق فكرا واستطاع الحصول على السلطة. وهكذا توالدت التجارب حتى توقف العالم عند الديمقراطية والمدنية والرأس مالية والتي تمتاز عن الاشتراكية بأدبيات النقد الذاتي والتطوير

ومعالجة الأخطاء وسد الثقوب حال تكونها مع تكريم العقول الفلسفية التي تعمل على ذلك عكس الأحزاب الاستبدادية التي اندثرت وصارت ذكرى ومادة دراسة المؤرخين والباحثين والتي كانت تحكم بالإعدام على كل مطالب بالإصلاح والتطوير وترقيع الثقوب من أجل الاستمرار. ذلك بالنسبة للعالم، أما العالم العربي والذي كل دولة فيه استوردت حزباً من الغرب وطبقته. ونجح الغربي وفشل العربي. ومهما كان العيب في الحزب المستورد، فالعقل العربي أكبر العيوب التقنية والذي أظهر وأثبت فشل إدارته ولم ينجح لا في الاشتراكية ولا الرأس مالية ولا الديمقراطية ولا الإسلامية ولا حتى القبلية".

***

فريق عمل العميد جاهز كلٌ بما كلف به. في بيت أحمد تامر، بدأ الاجتماع. أول نقطة طرحها العميد أن هذا آخر اجتماع في بيت أحمد حتى تنتهي مهمة القضاء على الهدف المشترك. نجح يونس في عمله وحدد مكان إقامة الهدف وهو يراقب تحركاته عبر برنامج تم زرعه في هاتف الهدف، عندما قام بتحديث برنامج سوما، كان التحديث وهمياً

أرسله يونس، وهو عبارة عن برنامج يتحكم في أداء الهاتف الذكي وصار يرصد حركة الهدف من خلال حمله للهاتف وأيضاً التنصت عليه.

قال العميد شارحا خطته:

- أنا والعقيد خالد من سينفذ العملية. العقيد قمر الدين سيتسلم مهامي كاملة في تشكيلنا السري. فهو الأجدر في هذه المرحلة وعليه مواصلة العمل. فهو القائد الجديد للتشكيل. لدينا عميل هناك كلفته بما يلزم لملاقاتنا، توفير سيارة، شرائح اتصالات ووثائق. (يستدير العميد نحو قمر الدين ويسأله...) هل السلاح جاهز؟
- نعم سيدي، سلاح المهمة، رشاشان مائيان، مسدسان كاتمان للصوت جلوك ٣١ طلقة ومزودان بالضوء والليزر، ذخائر، خنجران حربيان، العميل سيلقاكم في عرض البحر بقارب نفاث ويسلم لكما المتطلبات.
- ممتاز. القارب المطاطي ذو الانتفاخ الآلي، هل وفرته يا خالد؟
- نعم سيدي، ولون أزرق، ملابس الغوص مازال البحث عن لون أزرق.

استدار العميد نحو يونس وهو منهمك في العمل على حاسوبه وقال له:

- يونس، عند سفرنا تبقى تتابع الهدف المشترك، وأي تغيير في مكان أقامته تبلغني فورا بتغريدة عبر تويتر تتضمن نصائح طبية. حينها، سنؤجل العملية حتى يعود الهدف إلى مكان سكنه وتغرد عبر حسابك في تويتر شيئاً عن التفاؤل. وعندما نكون في خطر غرد لنا بموضوع فني.
- حسنا سيدي.
- تدربنا على الروبوت بما فيه الكفاية. في حالة ما توقف عن العمل؟ (تساءل العميد...)
- لا أتوقع ذلك. (أجاب يونس)
- لا يوجد في قاموس عملنا لا أتوقع، يا يونس.
- نزودك بلوحة إلكترونية إحتياطية ونريك كيفية تغييرها.

أعجب العميد بفكرة يونس، تلخصت الفكرة في التحكم في عمل كاميرات المراقبة التي تعمل بواسطة مُرحل فيديو لا سلكي (بلوتوث)، وهذه تكنلوجيا ترسل صور أللاّسلكي بحيث لا يتمكن أي مقتحم أو ما شابه أن يقطع خيط الإرسال وأيضاً الكاميرات مزودة ببطارية تستمر في العمل عند قطع التيار الكهربائي. هذا التحكم عبر روبوت بحجم سيارة

صغيرة (لعبة الأطفال) يتم صناعته على يد ميكانيكي زميل يونس. والأخير يصنع البرمجيات الخاصة بهذه المهمة. ينطلق الروبوت بتحكم عن بعد من نقطة خمسين مترا باتجاه ركن السور. وقبل الوصول لسور بأربعة مترات، تبدأ عملية التحكم، حيث يتولى الروبوت فصل كاميرات المراقبة عن واقع البث وتبقى ترسل آخر صورة التقطتها وتوهم المستقبل أنها مباشرة. المبنى من الخارج وعبر جوجل إيرث تم معاينته ومعاينة الطريق أيضاً. بقي هاجس في عقل العميد، هو شكل المبنى من الداخل وكيف يحصل على خريطة ترشده. فكر، وبإشراك الفكرة مع يونس، انتهوا إلى البحث عبر (برنامج الصور) عن صورة المبنى الذي تحصلوا عليه من جوجل إيرث. البرنامج قربهما إلى مبنى يشبهه. بالبحث المستمر، حصلوا على معلومة تفيد أن المبنى من تصميم (ايرو ارشتكت) ومالك مكتب التصميم له موقع الكتروني يعرض فيه أعماله المشهورة. تابعوا بحثهم حتى حصلوا على مخطط المبنى من الداخل. قال يونس للعميد إنه يعلم أن بهذا المخطط يمكن بناء المبنى عبر برنامج (ثري دي مكس) حيث تكون النتيجة مبنى مصوراً من الداخل. ولهذا، يستلزم الاستعانة بمهندس معماري. كلف العقيد خالد بالمهمة كون أخته مهندسة معمارية.

***

ميساء، فتاة لها حضورها الطاغي لقوامها الممشوق ولصوتها الإذاعي وطريقة طرحها وتفكيرها وثقافتها العالية وقوة شخصيتها وحدة نظراتها. هكذا هو منظرها من الخارج وكل عين تراها بهذا الوصف. من الداخل، نيران تشتعل وتوقدها حرقتها وأوجاعها. فعلا، هي منكسرة بداخلها وصراع مع نفسها في غرفة نومها يكاد يكون مألوفاً لها ومقلتيها فدائما ما تبكي لوحدها ودائما ما تجد نفسها تقلب الصور القديمة لتنهار أمام ذكريات تكبد أنفاسها وتبكي ما حصل بحرقة شديدة حتى التعب لتختتم البكاء بصداع شديد تهزمه بحبة دواء وتستلقي للنوم. وهكذا تدور ذكرياتها إن لم تنشغل بالقراءة أو بواجب أسري أو بدردشة ليلية عبر برنامج مراسلة مجاني مدعوم بخدمات إنترنت. اليوم، مع مساحة واسعة من الفراغ، تقلب الصور وتتذكر الابتسامات وتشهق منفعلة وتتذكر الدم وترتعد وكأنها هي من نال منها الموت الخبيث وتحس به يمر من بين شرايينها وأوردتها. مع كل شهقة ودمعه تقول بحرقة وشحوب الصوت وهي تتصفح الصور: "لعنكم الله، الله يلعنكم، الله ينتقم منكم ويحرق قلوبكم. آه، فطرتم قلبي أين ستذهبون من الله؟! كيف طاوعتكم أنفسكم بفعلها؟! ألم تتذكروا عقاب الله ودعائي عليكم وأنتم حرمتمونا منه.

أوجعوك ولم يرحموك يا حبيبي، كانت مؤلمة ويا ليتها كانت بي أو على الأقل قاسمتك وجعها... آه (تنحب...) آه يا قلبي الميت كيف تعيش وتنبض وهو قد رحل بسبب بشاعة إنسان؟! يا رب لمَ خلقت هؤلاء الوحوش ولماذا أرسلتهم إلينا؟! أزلهم من الوجود والعنهم أحياء وأمواتاً اللهم برد قلبي بهم وأرني فيهم ما يستحقون"..

***

مدير مقهى الدب الصغير هو الأستاذ مسعد، إنتزعه بحدة لسانه. هذا النجاح أعاده إلى تكوينه الشبابي ورؤيته للتاريخ وشكله وهندامه. ارتدى اليوم أقدم ملابس يمتلكها وهي طراز خمسينيات القرن الماضي مزركشة الألوان، أخضر ووردي وأصفر. وهو الطاغي وقبعة. جهز مادة الإلقاء لهذا اليوم وسيظهر عبر البث المباشر لصفحة المقهى. في داخل المقهى، استعداد قبل المباشر، بدأت ميساء بصوتها الإذاعي بالافتتاحية، تقدم الأستاذ مسعد وهو يمسك ورقة في ملاحظات. اعتلى المسرح وشرح موضوع (التاريخ يعيد نفسه). بينما هو يشرح، ميساء تقرأ تعليقات المتابعين، هي تعتمد على ذلك لترد عليهم وهذا نوع من التفاعل الاجتماعي. تكتم ضحكاتها على كم التعليقات على لبس الأستاذ مسعد

لهذا اليوم. تزداد التعليقات وتبلغ رقماً قياسياً. قبل انتهاء مسعد من شرحه، قال "هذا الموضوع رفضت كل الصحف في الماضي أن تنشره. الآن، لسنا بحاجة لهم هؤلاء المعقدين، شكرا مارك لأنك أوجدت وسيلة لا تجعنا نهتم بالنشر في الصحف الورقية، وشكرا للسادة المتابعين". ما إن ترجل، حتى صعدت ميساء للمسرح وقالت أمام البث المباشر "كم هائل من التعليقات على البدلة والمظهر العام للأستاذ مسعد. أود أن أحيطكم علما بأن الأستاذ مسعد هو أستاذ تاريخ ويعشق التاريخ وله معه رابط عُمر، ومن الجميل أن نجد أستاذ تاريخ مرتبطاً بالتاريخ ويعيشه بجوارحه ووجدانياته ويستحضره في حياته. هذا هو الأستاذ الجميل مسعد بروحه الطيبة وقف أمامكم كحلقة وصل بين الماضي والحاضر". من له القدرة اليوم على وصف شعور مسعد وارتياحه من كلام ميساء للجمهور عنه؟ جنون يخلده جنون. لم يشعر بالحرج وهو يقرأ التعليقات الساخرة في معظمها، بل يرد عليهم بوجهة نظره. كتب له أحد أصدقاء الصفحة "عندي ورَبْطَة عُنُق في مخزن البيت بين مقتنيات جدي، لونها قرمزي وفي منتصفها رسمة لدب باللون الأصفر" لم يجد مسعد حرج أن يكون تعليقه هو عنوان المقهى. فهمها صاحب التعليق ورد عليه بعلامة (أوكي). سبعة أيام والدراجة النارية الخاصة بشركة البريد السريع تقف أمام المقهى، دخل

سائقها يسأل عن مسعد. سلم له رسالة وطلب منه الإمضاء على الاستلام. فتح الرسالة وإذا بداخلها ورَبْطَة العُنُق ذات اللون القرمزي. صورها ونشرها عبر صفحة المقهى وشكر المرسل.

***

أنجزت المهندسة المعمارية المبنى إلكترونيا وعرض على العميد عبر برنامج ثري دي ماكس وشاهده عشرات المرات على شكل فيديو ثري دي، حفظ تفاصيل المبنى من الداخل. تذكر كلام مدربه ومعلمه الراحل العميد فاروق قبل سنوات عندما حاضرهم عن المعلومات المجمعة وأهمية التكنولوجيا وكيف تتحول المعارك من الأرض إلى العقول. وكيف لمهمة في الماضي تستنفر لها الجهود الجبارة وفي هذا العصر، الجهود تحولت إلى جهد ومن خلف شاشة موصولة بالشبكة العنكبوتية حيث أخذت في أغلب الأعمال الاستقصائية مكان المخبرين. ترحم على العميد الراحل وذكر فريق عمله المصغر في هذه المهمة بأهمية التكنولوجيا ومواكبتها وتنمية قدرات الرجال السريين في هذا الجانب.

***

يقف فتحي منذ وقت طويل أمام مبنى المقهى، الوقت طويل جدا لا يمرّ كالمعتاد، طال وطال حتى وصلت ميساء، استوقفها وطلب منها الذهاب إلى مكان عام لمناقشة موضوع، قالت له إن بإمكانها المناقشة في المقهى. فرد عليها أنه يستحسن الحديقة العامة. وجدت فيه شيئاً من الإلحاح لتقبل الذهاب معه، سألته قبل أن يستوقف سيارة أجرة إن كانت هناك مشكلة مع أحد الزملاء. أجابها بلا. "غريب أمر الأستاذ فتحي، تصرفه يدل على أن شيئاً ما حدث، دقائق وسيتضح سبب تغيره" هكذا حدثت نفسها ميساء. في الحديقة، جلسا على مقعد فارغ بالكاد وجداه. ميساء في طرف المقعد وهو في الطرف الآخر. يتركها تحت موجات صمت رهيب ويقف ويمشي خطوات نحو كافتيريا ويبتاع علبتين من العصير ويعود. ميساء تمشط الكون بناظريها "ما دهى فتحي؟". لكن حدسها وطريقة التعامل تبين أن هذا أسلوب عاشق. تبقى في شك وتراقب عينيه وهما تجولان في عينيها وشفتيها وصعوبة بلعه لريقه ونسيانه أن بيده علبة عصير. دقيقة صمت ليعود فتحي إلى شخصيته الأصلية التي لا تعرف مواربة أو مقدمة للأشياء ليهاجم ثكناتها "أريد الزواج منكِ". أخذت نفساً وابتلعته حتى سمعه. تزحزحت بجسدها إلى الخلف قليلاً، نصف قطرة دمع من عينها اليمنى وما يوازيها أو أقل بقليل من اليسرى. ظل فتحي صامتا يشاهد

تقلبات طقسها الجسدي، ارتعدت يداها ووضعت إصبعيها على فمها لتغطي ارتعاشهما. "لا بارك الله بك يا مسعد" هكذا قال فتحي بداخله لأنه ألح عليه بصدمها بالموضوع دون مقدمات لأنها متنورة وتختلف عن النساء. "آسف يا ميساء، ربما كان يجب عليّ أن أسبق طلبي بمقدمات". وقفت، شعرت أن تماسكها بدأ يضعف، وقف، أشارت له بيدها ليجلس، انحنت بجسدها وخطت خطوات لترتمي في حضن شجرة سامقة وتنهمر عيناها سيلا من دموع. فتحي لا يدري ماذا يصنع، لم يخطئ ولم يتوقع أنها مرهفة المشاعر. هكذا شخصها هو ومسعد. فشخصيتها البائنة للجميع تنم عن امرأة قوية الشكيمة صلبة وجلمدة. دقيقة حتى فتحت ميساء حقيبتها اليدوية وأخرجت منديلا ومسحت دموعها وأنفها، استقامت تدريجيا وأخذت نفسا عميقا. تقدم منها فتحي عندما وقفت وتلاقت أنظارهما. "لا أقصد إبكاءك، اعتذر عن تصرفي الصادم" هكذا بادرها. "لا عليك، لست أنت السبب" ردت عليه. خطت خطوات لتعود إلى مقعدها، عاد هو أيضاً. استدار نحوها ومازالت في حالة جمع أنفاسها وقال لها:

- لم أتوقع ردت فعلك هذه.

ظلت صامته وهي تحدق فيه، فتابع كلامه:

- توقعت أن تتقبلي طلبي إما بالرفض المباشر مع ضحكة، أو بالصمت والتفكير.
- وجدتني ضعيفة؟! أليس كذلك؟
- لا، بل مرهفة المشاعر، كنتِ تبدين لي ولغيري بتماسكك وسلطتك على المحيط.
- امم، لكنني أملك قلباً وأحاسيس.
- لكنكِ قوية الشخصية، وهذا السيل من الدموع لأني أفصحت على ما أشعر به نحوك؟ لم أكمل ما أريد قوله حتى حدث لكِ ما حدث.
- لست أنت السبب.
- إذا ماذا؟!
- تذكرت ماضياً يبكيني ويمزق قلبي... (راحت تحكي له ماضيها...) "قبل بداية السنوات الحمراء كان لي حبيب قلبه الصغير يغطي عين الشمس، كان روحا تمتزج بداخل روحي، أحببته وهو كذلك، ارتبطنا رسميا، ورحنا نجهر بعشقنا الجميل ونترقب قدوم عصافيرنا ونرسم خيالاً لمستقبل سعيد. بدأت السنوات الحمراء. وبعد ثمانية أشهر اتصلت على هاتفه النقال فرد

عليّ.... (شهقت وانفجرت بكاء واصفر وجهها وكورت يديها وتشنجت عضلاتها مع كل شهقة ودمعه تقول...) فرد عليّ رجل بصوت غريب، قلت "حسام"... فرد عليّ الرجل "لا، لست حسام". سألته "من أنت وأين حسام؟" تعالت ضحكات ساخرة من جانب المتحدث وضحك هو وقال بخبث "أنا من ذبح حسام" صرخت، لم أصدق أبدا... لم أصدق. ومرت الأيام وأنا أتصل على هاتفه المغلق على أمل أن يكون الخاطف يطلب فدية. وذات يوم، تناقلت صفحات في الفيسبوك صوراً لرؤوس مقطوعة ومعلقة (تصرخ وتقول يا ويلي وتهدأ لتكمل...) من ضمنها رأس حسام.

اقترب فتحي من جسدها وأمسك يديها وحاول فتح راحتيها وعيناه تغرقان وهو يقول:

- لعنهم الله، كلنا دفعنا ثمن أمور لا علاقة لنا بها، وأنا ماتت زوجتي نرمين بعد أن ارتفع لها الضغط والسكري بسبب الخوف من أصوات الانفجارات ولم أجد لها طبيباً، غادرت روحها وتركتني.

يوم تعيس وذكريات مآسٍ أوجعت قلبيهما. لم يعد أي شيء قادراً على تبديد الحزن، اتفقا على مغادرة الحديقة. لم يعودا للمقهى، فالجراح تستوجب

زوايا منعزلة. صباح اليوم التالي، يبكر المدير مسعد وكله فضول كعادته، ما الذي دار بين فتحي وميساء؟ لمَ لم يعد فتحي وميساء إلى المقهى؟! ولماذا اقفل فتحي هاتفه؟! ظل طوال الليل يحلل ويفسر. لمح جسد فتحي يسير في ساحة المدرسة، أسرع المدير مسعد نحوه، بادره: "نقول مبروك يا فتحي". نظر فتحي في وجهه وقال: "عليك ما تستحق أنت ونصائحك العقيمة، لماذا لم تقل لي إنها كانت مخطوبة واختطف خطيبها وذبُح؟" رد عليه:

- لم أكن أعلم ذلك. (أجاب بفزع...)
- تذكرت خطيبها وتشنجت وأكملت يومها بكاء.
- اممم، هذه نقطة ضعفها، ولكنها تقبلت طلبك؟
- لم ترد على طلبي بعد، حزنها كبير وجرحها عميق.

***

(الحقيقة ثمينة لدرجة يجب الدفاع عنها بسرب من الأكاذيب...) هكذا قال تشرشل، السر الدفين لمسعد والذي لا أحد يعلمه سوى زوجته، استطاع إخفاء ما يعانيه عن زملائه لسنوات. مسعد لم يشف ولم يتغلب على حالته النفسية بعد تعرضه لمحاولة الإعدام ذبحا. فهو يعاني من قلة النوم

والكوابيس وضعف الشهية. ومؤخرا كنتائج تراكمية، اكتشف أنه مصاب بمرض السكري. وللتغلب على عذابه ليلا والنوم قليلا فقد أدمن شرب الخمر بكمية محدودة ليساعده على حياة مستقرة زائفة مؤقتة. يخوض دائما معارك كلامية مع زوجته بسبب ذلك وبالكاد تتحمل رجوعه مخمورا في آخر الليل. عندما يقرر الإقلاع عن شرب الخمر يبيت في جحيم، من ثلاث إلى أربع ساعات نوم تمرّ عليه نارا شديدة اللهب تغزوه الكوابيس المرعبة والخوف من الليل، فعلا لا تحتمل. أشد الكوابيس التي لا تفارقه تتمثل في ذبحه أو رميه في النار وآخر سحله وسلخ جلده حيا ومطاردات يصحو على إثرها مفزوعا يتعرق وبالكاد يتنفس. وهذا أثر ايضا على زوجته التي تبدو الآن أكبر من عمرها الحقيقي هرما وتعبا. في الصحو، يسترجع حدث الصدمة ويشعر أحيانا بأنه لا يزال يعيش فيها وترجع ذاكرته كالفيلم الذي يعرض مرارا وتكرارا. ثلاثة أيام ومسعد لم يشرب الخمر، شكله مضطرب ولاحظ ذلك زملاؤه وتساءلوا عما ألم به حيث زاد السواد والانتفاخ تحت عينيه وبدا مرتبكا من انعدام النوم. لذا اليوم، اشتد فيه التوتر ولم يذهب للمقهى الثقافي وغير اتجاهه نحو بار شعبي. وهناك، شرب الكمية المعتادة ووجد في نفسه شغفاً للمزيد ولم يستطع التوقف وشرب أكثر من طاقته. خرج من البار بجرأة عكس المألوف حيث يذهب سرا، توجه نحو المقهى،

ركل سلة مهملات بجانب الباب بقدمه، التفت نحوه الأصدقاء والزملاء المستغربين وهو واقف يناظرهم بارتياب، اقترب قليلا ومرّ من جانب ميساء، تراجعت للخلف وقد أدركت أن مسعداً مخمور وهو يتمايل، وقف فتحي واقترب منه وأراد مسك معصمه وهو يسأله "خير يا مسعد؟!" دفعه مسعد ورفع كم قميصه اليمين وتوجه نحو المسرح ووقف يقابل الحضور وقال لهم: "وجودكم وعدمكم سواء، لا قيمة لكم حتى أمام أنفسكم، لا تصلحون حتى قطع غيار بشرية... سحابة من الضحك اجتاحت المقهى، توقف لؤي عن الكلام المباشر عبر صفحة الفيسبوك حيث هو منهمك في موضوع (خطر السموم الزراعية التي تستخدم دون سقف علمي مما يحولها إلى سم قاتل مسرطن بدلا من قتل الحشرات في ظل انعدام الرقابة والتوعية.) استدار مسعد ليصعد للمنصة وكاد أن يقع، أزاح لؤي وأخذ مكانه، أشار فتحي لميساء لوقف البث المباشر، تدخل رؤوف بعدم إيقاف البث وفتح المجال لمسعد لقول ما عنده. وعندما يبدأ في الكلام غير المناسب، يقطعون البث "لربما لديه ما يقوله" هكذا قال رؤوف. رد عليه فتحي أنه سكران، فقال له رؤوف: "الوحيد الذي لا يفقد عقله هو مسعد، دعه يقول ما يريد، وعندما نرى أنه يلخبط في الكلام، نقطع البث". راح مسعد يشير بيديه تحية للجمهور وبدأ بالكلام: "أنا مسعد

أستاذ فشل في تربية طلابه ومسؤول عن سلوكهم الهمجي. أنا شريك في قلة أدبهم لأني لم أحسن تربية طلابي، ثماني ساعات في المدرسة ومثلها فترة النوم وثماني ساعات لباقي تفاصيل حياتهم. بمعنى أني وزملائي فشلنا في أداء دورنا التربوي، ومن أحسبه أحد طلابي هو من يذبحني، كان مقنعا، أعرف عينيه وأحس في قلبي أنه أحد طلابي وضع حادة السكين على رقبتي (يشير لأعلى حنجرته ويتابع...). هنا، كان يرتل آيات الله زورا قبل ذبحي، تلقى الأمر وأعتقد أنه سينال أجراً من الله مقابل ذبحي. والتهمة أني كافر بسبب حملي مجموعة جرائد ودفتر تاريخ وخواطر. خلال قراءته لتراتيل ذبحي، حدثت المعجزة والتي لم تحدث لغيري إطلاقاً وسقطت قذيفة أو قذائف لا أتذكر والشظايا شتت الجميع ونجوت بمعجزة وهربت وكأني في فيلم هندي. من ذلك اليوم إلى اليوم، وأنا متعب. كذبت عليكم جميعا (يشير للحضور ويتابع...) تعافيت من الصدمة. لا، لم أتعاف وها أنا أعترف لكم بسر أخفيته كي لا أبدو ضعيفا أمامكم، لا تفارقني الكوابيس والانفعالات. كذبت عليكم، هل هناك من يستطيع العيش أو الاسترزاق دون كذب؟! الكذب خبزنا العصري واليومي بتبادل الأدوار بين الكاذب والمكذوب عليه، فلا الكاذب ينجح في مهمته مع المكذوب عليه ولا المكذوب عليه سيقتنع بما طُرح عليه إن لم يتخللها على الأقل

كذبة. الكذب هو سيكولوجيا الإنسان السيئ. نحن سيئون جدا واحذيتنا أغلى من عقولنا.. (جذب رؤوف رأس فتحي ووشوش في أذنه: "الوحيد العاقل لو شرب بحراً من الخمر هو مسعد" فتحي مازال متوتراً من أن يزل لسان مسعد بكلام غير لائق. وما زال كلام مسعد مستمر وقد انتقل إلى موضوع آخر...) "بعد حساب نصيبي من السبايا عند فتح الصين والهند وذلك لو حصلت المعجزة وصار المسلمون طائفة واحدة سنة وشيعة وقرروا استئناف الفتوحات، فلن تقل أملاكي عن سبعين سبية صينية وهندية وعشرات العبيد. صحيح، سيتوقف نصف مصانع العالم لأننا سنحرقها. ولكن ما يشغلني هو كيف أنقل نصيبي من الجواري والإماء والعبيد إلى مدينتي ومن أين لي ثمن مائة وعشرين مقعد في الطائرة مثلا؟! بل من سيستخرج لنا وقود تلك الطائرة؟! ومن أين أصرف عليهم؟! وأين أسكنهم؟ وكيف أتحدث معهم لغويا؟ ومن أين لي زواحف لأطعم بها الجواري والعبيد الصينين؟ (يضحك الجميع وتحول المقهى إلى ضحكات صاخبة... صرخ فيهم مسعد ليسكتوا...) صه... اسكتوا... من سيصنع لنا مكونات الفياجرا وعلماؤهم صاروا موزعين علينا بين عبيد وسبايا؟! من سيصنع لنا مكونات الأسبرين والمضادات الحيوية وبرامج الهواتف وإطارات السيارات وحفاظات الأطفال والنساء والواقيات

وحبوب منع الحمل؟! إيه...إيه... رحم الله عقلاً صينياً يفكر ويخترع ويصنع... (فتحت ميساء التعليقات المباشرة وإذا بها كثيفة جدا، إشارة لفتحي ليقترب ويطلع عليها. من المتابعين من يلمس على شاشته الذكية علامة الضحكات والإعجابات ومنهم من يلمس علامة أغضبني أو غير معجب واختلفت التعبيرات في التعليقات وتوسع الجدال سواءً حول المواضيع المثارة أو حول مواضيع يبتكرها بعض المتابعين لا علاقة لها بما يُثار). يواصل مسعد كلامه: لم يأت السائح الغربي لمشاهدة الرقص الشعبي من أجل الاستمتاع بالرقص، لا، بل جاء ليتفرج على رقص يكسوه الغبار القديم والسنوات وكأنه يتفرج على متحف، انه يشاهد مومياء ترقص. وإن كان الأمر متعة بالرقص، فلديهم في الغرب آلاف الرقصات والأكثر تعقيداً من ناحية الأداء وأكثر حرفية. مثلا الرقص الشرقي هي رقصة الجواري والإماء ولبسهن يدل على ذلك، سقطت العبودية كحالة واقعية وظلت كحالة افتراضية لصيقة بالعقل وحنين غير مباشر ولا شعوري للعبودية وزمنها. هكذا نحن ستقوم القيامة ونحن نطمح ليوم تعود فيه أسواق النخاسة للعلن، يضربون ويحقرون النساء، ويفجرون أنفسهم وتموت نساء من أجل النساء في الجنة، مسكينة الجنة. فهي في ورطة... فعلا، نحن سيئون ولا أسوأ من الغير إلا نحن. ويلا لنا من أنفسنا، أشعر أن وجودنا

غلط، (يتأرجح مسعد ويكاد يسقط، لكنه تابع...) لم يعد فينا ذوق لصوت فيروز ولا شوق لتنهيدة سومة ولا لهفة لتغريدة العندليب ولا رغبة في قصائد نزار ولا حس للحن بليغ وشدو ميادة ولا رقة نجاة. لم تعد للحياة سحر أحمد زكي ولا جدية البردوني. لم يعد يضحكنا عادل أمام ولا دريد لحام ولا سعيد صالح لأن أيامنا ليست سعيدة ومجتمعنا ليس بصالح... هذا زمن الحرب ورائحة الموت المتسلل من بين ثنايا أزقة المدينة ومن بين شروخ الشوارع المعبدة بنكهة الفساد ومن بين أنفاس الرجال الزائفين والشيوخ الكاذبين والأطباء القتلة. طعم الأعيرة النارية لاذع يغلب الأمل، ومتعة النظر للأزاهير يورث العمى .. هذا زمن التكفير والتفجير والتهجير والنحر والنهب والنحيب. نعم، هذا قدرنا أننا خُلقنا عرباً وهذه تكفي لموتنا بلا سبب وبيد عرب ولنثبت لأنفسنا أننا حقاً عرب.. وصدق ابن خلدون القائل: العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.. (يفهق ثم يتابع...) غير العرب ستروا عوراتنا بالملابس الداخلية رجالاً ونساء وأطفالاً،،، لولا غير المسلمين، لكنا بلا ملابس داخلية ورأيتني الآن استر عورتي بأوراق الشجر. فالإبرة معجزة صناعية لا نصل لها، وأفضل حل لنا هو ما فعلته الملكة سيرسي في مسلسل لعبة العروش، جمعت رجال الدين والسياسة وأصحاب النفوذ وفجرت القلعة بهم جميعا.

(همس الدكتور رؤوف بأذن فتحي وقال له "مسعد يقول ما نريد قوله، قلت لك هذا رجل لا يتأثر بالسكر، يتعب جسديا ولا يتعب عقله إنه مسعد أعرفه جيدا" ومازال الكلام لمسعد...) من كان يتخيل أن أبناء بلد واحد يذبحون ويغتصبون بعضهم بعضاً ويعذبون بعض بتهم الهوية والمذهب والطائفة والمنطقة. أتدرون ما هو الفرق بين الشيعة والسنة الذين أغرقونا في بحور الدم؟ هو أن الأول جلد نفسه. والثاني، يفجر نفسه، الأول يحلل زواج المتعة والثاني يحلل زواج المسيار والعرفي، الأول والثاني يحللان زواج الأطفال والاستمتاع بالتفخيذ، الأثنان يوجبان ذبح الكافر والمخالف ويحللان سبي نسائهم وذراريهم وغنم أملاكم. فالله بريء من هذا الجنون والدين بريء من هذا المرض... لا بارك الله بالحرب، لا بارك الله بمكن كان السبب وشارك بالسلاح أو الترويج لها أو تأييدها. وأنا من بينهم لأني صدقت وخرجت لساحات الاعتصام وأنا كالغبي أتحدث لقنوات الأخبار وهم يستحمرونني، لا بارك الله بموظف مارس الأخطاء وتسبب بكره المواطن لدولته. لا بارك الله بوظف لم يداوم في عمله أو قصر فيه. لا بارك الله بمن كان يستطيع وقف العبث ولم يفعل. لا بارك الله بمواطن يصدق إعلام الفتن ولا بمن تناقل الإشاعات الكاذبة. لا بارك الله بكل من كفر ومن أستمع للتكفير ومارسه. لا بارك الله بتاجر يستورد

البضائع الفاسدة. لا بارك الله بمن أخرج الناس للشوارع وليس لديه مشروع دولة ولا من تربح ماليا من ذلك. لا بارك الله بكل من نهب ودمر أملاك الناس والدولة، لا بارك بصحفي فبرك خبراً وصورة ليثير مشاعر الناس، لا بارك الله... هنا، اشار رؤوف لميساء لقطع البث المباشر عبر الفيسبوك، صعد فتحي للمنصة وأمسك بمسعد وأخرجه إلى خارج المقهى وهو يقول لفتحي "لم أفقد عقلي يا صديقي، فقط أشعر بالخمول". استوقف فتحي سيارة أجرة وأخذه إلى منزله، فتحت زوجته الباب وبدت محرجة من فتحي. أجلس مسعد في صالة الاستقبال وهم بالخروج فنادته زوجة مسعد، استدار وهي تقدم له الاعتذار من حالة زوجها، رد عليها أن الأمر طبيعي، لكنه تفاجأ بأن صديقه مازال يعيش صدمة الحرب وما جرى له. فقالت له بجزع:

- مسعد متعب جدا من هذا. ليله جحيم. (شهقت تستجمع قواها كي لا تجهش بالبكاء وتابعت...) نعاني الكثير.
- سنبحث عن حل، سيتدخل الدكتور رؤوف لمساعدته. مسعد يسعى لعلاج الآخرين ولا يعالج نفسه.
- مسعد طيب القلب، ما بقلبه على لسانه. الشيء الوحيد الذي يخفيه وهو سره الكبير. مازال يعاني من الصدمة.

- وكيف يتعامل مع أولاده؟
- شديد من وقت لآخر خاصة الأشهر الأخيرة.

اليوم التالي، التقى مسعد وفتحي صباحا قبل دخول المدرسة وقدم مسعد اعتذاره عما بدر منه بالأمس وسمع من فتحي كيف كانت حالته. قال في قرارة نفسه أن عليه الاعتذار لجميع رواد المقهى. عصرا، تواجد مسعد في المقهى. وقبل أن يقدم اعتذاراً، وجد أن الدكتور رؤوف أعد برنامجا طبيا جماعيا لتخفيف حالات الصدمات السيكولوجية ما بعد الحرب. قابلته ميساء للحديث معه بادره بالاعتذار، ردت عليه أنها تتفهم ما حدث وأن ما قاله بالأمس عبر المباشر لاقى انتشارا واسعا والتعليقات جميعها تتعاطف وتتفهم تصرفاته وأنه فتح أعينهم على خطر لم يثره أحد وهو حالة المواطن النفسية بعد الحرب.

سلم الدكتور رؤوف لرواد المقهى أوراقاً فيها أسئلة يجيبون عليها بـــــ "نعم" أو "لا" ومساحة لكتابة وصف عام لما يشعر به الفرد. بدأ كل واحد يجيب على الأسئلة. وبعد الانتهاء، جمع الدكتور رؤوف الأوراق ووضعها في حافظته ليدرسها لاحقا وراح يفرز بمساعدة لؤي ما اشتراه اليوم من طاولات اللعب ولعبة الدمنو على كل طاولة وأقر في برنامج المقهى ساعة لعب يوميا ونصف ساعة يعرض المقهى مادة فلمية عن الطبيعة. وهذا

جزء من العلاج العملي في تغيير الصورة وإلهاء حالات الاصابات بالصدمات ما بعد الحرب والآثار النفسية المصاحبة للإنسان طيلة حياته كنتيجة حتمية للحروب ومحاولة التخفيف عنها لتستعيد نفسها تدريجيا واستبدال صورة ونمط عالقين في العقل الباطن بصورة ونمط طبيعيين قد يعيد الفرد المصاب إلى حالة التأقلم العام والاستقرار النفسي والتعامل بإيجابية مع المحيط.

***

يقول المثل الألماني: "الحرب تخلف دولة منقسمة إلى ثلاثة جيوش، جيش من المشلولين وجيش من المشيعين وجيش من اللصوص". لذا، الغبي وحده من يعتقد أن وقف إطلاق النار نهاية للحرب، بل هي مستمرة في حصد الأرواح لأجيال قادمة. فرفع مخلفات الحرب أصعب من الحرب ونزع الألغام أصعب من الحرب وجبر القلوب الموجوعة والعواقب النفسية الناتجة عن اضطرابات ما بعد صدمة الحرب أصعب من عشرات الحروب. فخلل البنية النفسية للمواطن يظهر بشكل مباشر وقت الصدمة ويتبعه ما بعد الصدمة التي تصاحب المواطن طيلة عمره وتبقى آثار الحرب لزمن طويل تصاحب أجيالاً لم تشهد الحرب وترث المآسي وآثار الصدمات

من الجيل المصاب. الرصاصة في الحرب لا تقتل واحداً فحسب، بل تقتل عائلة بأكملها وتولد سنوات من الأوجاع والمعاناة وكما قال المفكر اللبناني ميخائيل نعيمة "والحرب لو يعلمون لا تستعر نيرانها في أجواف المدافع بل في قلوب الناس و أفكارهم أيضاً"..

الدكتور رؤوف درس حالات رواد المقهى وخرج بنتيجة مفادها أن الجميع يخوضون معارك بنسب متفاوتة داخل أجسادهم. فالنفوس كالأجساد تقل مقاوماتها وتتعب وتُصاب. وكل واحد يصاحبه نوع من آثار الصدمة الناجمة عن الحرب واتفق الجميع في الإجابات بإصابتهم بمرض التوجس والشك المجتمعي. فالجميع صاروا لا يثقون بالغرباء ولا بالأقارب البعيدين ولا حتى بالجيران ويفضلون عدم فتح الباب لأي طارق عند نزول الظلام ولا تلبية أية استغاثة وانعدمت النخوة والغريزة الانسانية تقريباً في التواصل المجتمعي. وقف الدكتور رؤوف أمام رواد المقهى وراح يمارس مهنته بشكل جماعي لتقديم العون الطبي رغم أنه هو نفسه مر بمراحل إحباط أرهقته وبالكاد استعاد نفسه وعمله. بيده ورقة كتب عليها ملاحظاته ليشرح لهم خلاصة ما يعانون منه وأقرب الحلول العلاجية الممكنة والمتاحة، وبدأ بسؤال:

- هل توافقون على تسجيل مباشر عبر صفحة المقهى لتعم الفائدة ولربما نشارك في تعافي من يشاهدنا من باب الإيجابية بالشيء؟

تعالت أصوات "نوافق" فوجه سؤالاً آخر ليتأكد من عدم التحفظ:

- هل من متحفظ عن النقل المباشر لما أقول من تشخيص طبي للعلن؟

لم يعترض أحد، تولت ميساء المهمة وكتبت إعلاناً عن بث مباشر بعد دقيقة بعنوان (سيكولوجية الإنسان بعد الحرب) استعد الدكتور رؤوف وأشارت له ميساء بالبدء:

- تحية طيبة أنا الدكتور رؤوف طبيب الأمراض النفسية. اليوم، أقدم لكم حلقة قصيرة بعنوان (سيكولوجية الإنسان بعد الحرب) سأتحدث باختصار ولنا حلقات قادمة عن هذا الموضوع وسأجيب على أسئلتكم مباشرة عبر صفحة المقهى الثقافي (الدب الصغير). حقيقة يا أصدقاء، بعد وضع الحرب أوزارها الحرب مازالت مستمرة وآثارها باقية لأجيال قادمة. لاحظنا أن الكثير ممن نعرفهم مصابون بأمراض نفسية متنوعة مصدرها الصدمة أثناء وبعد الحرب وما لها من أثر خطير على حياة الأسر والتنمية المستقبلية والأجيال القادمة. الخراب نتيجة الحرب نوعان المادي البشري

والمتمثل في القتلى والجرحى وتدمير البنية التحتية للمواطن ولمؤسسات الدولة. والخراب النفسي يأتي لحظة صدمات الحرب وما بعد الحرب بأشكال مختلفة. الصدمة عبر الأجيال، حيث يرث الجيل القادم وما يليه سلوكيات جيل عايش الحرب منهم من اكتسب الصدمة مبكرا ومنهم من تظهر عليهم أعراض الصدمة على المدى الطويل عند سن الستين كنوع من الأمراض المتأخرة لاضطرابات ما بعد صدمة الحرب. (توقف عن الكلام لثوان يتصفح الورق، وتابع كلامه...) بين يدي احصائيات لم يتم التأكد منها عن نسبة الأمراض النفسية في بلادنا ولم يتم إلى الآن اتخاذ خطوات في الدراسات والأبحاث. ولكن الواضح أن النسب عالية كون الحرب كانت للأسف شاملة وداخل المدن، خسر الناس بيوتهم وممتلكاتهم وتشردوا لسنوات. والأمراض المنتشرة الآن مثل الخوف والكوابيس والاكتئاب والعوارض الهستيرية والتفكك الذهني، اضطراب السلوك والمزاج والعواطف لدى الأطفال، ونشوء الاضطرابات السلوكية كالعنف، واضطراب النوم والنمو الجسماني والتبول اللاإرادي. هذه الآثار والاضطرابات ستبقى لأجيال عدة إن لم تعالج. أيضاً الأمراض

المزمنة كنتيجة لهذا مثل السكري والضغط والقلب. العلاج النفسي العام ويبرز في دور الإعلام بنقل صورة إيجابية وسن قانون عقابي لمن ينقل صور عنف أو جثث وعدم التذكير بسنوات الحرب والانتقال للحديث عن المستقبل والبناء ووردية الحياة. دور الفن (يسمى العلاجات الإبداعية_ العلاج بالفن) هو الأكثر أهمية من رسم وسيرك ومسارح وسينما ودراما وأدب يعزل ماضي ذكريات الحرب عن المستقبل الذي هو قادم ويجب نقل صورة متحركة عن شكله وتشكيله. العلاج بالفن هو مهنة في الدول الغربية والدول التي تعرضت لحروب وتحولت لدول منتجة وتجاوزت المحن. العلاج بالرواية أو العلاج بالسرد هو شكل من أشكال العلاج النفسي الذي يسعى لمساعدة الناس على تحديد القيم والمهارات والمعارف والتجارب التي يجب أن يعيشوا من خلالها حتى ينجحوا في التصدي بفاعلية للمشاكل التي تواجههم مهما كانت. على الجهات المختصة القيام بواجباتها في ما ذكرت إنشاء النوادي الرياضية وحدائق الألعاب للأطفال والاهتمام بوسائل الترفيه العامة وتخصيص طبيب نفسي لكل مدرسة. في صدمة بعد الحرب إذا لم يتدخل الطب النفسي، فالنتيجة الأكيدة ستتمثل في صعوبات

التحصيل العلمي للطلاب. (قدمت له ميساء قصاصة كتبت عليها بأن المتابعين لديهم اسئلة مباشرة وكثيرة وبأنها ستقرأ له السؤال ثم يجيب، أشار إليها بالموافقة، وتابع كلامه...) أما العلاج على مستوى الفرد، فواجب عليّ أن أنبهكم إلى أن نسبة استهلاك المنومات بعشوائية تشي بخطر من الصعب التحكم فيه، توجهوا للعلاج الايجابي بالخيال فقط وتخيلوا كل ما هو جميل أو بالممارسات اليومية. الكثيرون للأسف يعتبرون الاستعانة بالعلاج النفسي قلة إيمان أو أنه طب المجانين، ويريد التغلب على ما يمرّ به من اضطراب نفسي من دون علاج أو استعانة طبية. هذه الفئة هي التي تغامر بصحتها. فيمكن أن تتحسن، لكن يمكن أيضاً أن تسوء الحالة وتظهر مضاعفات. وأشدد دائما على أن الاستشارة الطبية لن تضر بشيء بل هي مفيدة دائما. والملاحظ أن اضطرابات ما بعد صدمات الحرب، فعلت دور المشعوذين بتضاعف مرعب وأبرزت دور أعشاب لا علاقة لها بالطب النفسي. هناك مرضى يعتقدون أن السحر أصابهم أو ركبهم جن ودائما ما يترددون على المشعوذ أو الراقي ولا يجدون بذلك حرج عكس الطب النفسي. النصائح العامة يا أصدقاء تستوجب الرعاية والاعتناء بالنفس، وذلك بأخذ

قسط وافر من النوم والتغذية الصحية السليمة. كما لممارسة الرياضة يوميا دور مهم في دعم الصحة النفسية والجسدية. يجب تجنب مادتي الكافيين والنيكوتين، نظرا إلى دورهما في زيادة مشاعر التوتر والقلق. شغل النفس بممارسة الهوايات بدلا من التفكير السلبي ومشاعر القلق. التواصل مع العائلة والأصدقاء للحصول على الدعم والمساعدة والحنان. استعادة الشعور بالأمان، تأكدوا أن الحدث قد مرّ وأنكم بأمان الآن، أنظروا إلى الأمام بدلا من الخلف، توقفوا عن لوم النفس. التفكير في المستقبل بدلا من إهدار الوقت في تذكر ما مضى. لا تتابعوا ما حدث في قنوات الأخبار، فهي المسيخ الدجال وهي من اشعلت النيران وغذتها وجعلت الجميع يشارك في الحرب ويعيش الحرب عن بعد ولن تتوقف عن تذكيركم بالمآسي حتى يُعلى الدور الرقابي عليها..

***

قبل سفر العميد عمر لتنفيذ عملية خارج البلد، ذهب إلى منزل يونس، تفاجأ بهذه الزيارة غير المتوقعة ظانا أن أمرا ما طرأ على سير الخطة "سيدي العميد!" قالها وصمت أمام الباب، ابتسم العميد وقال: "أريد الحديث

معك". "مرحبا سيدي تفضل، أهلا وسهلا". يمد يده مرحبا بالعميد ليدخل. جلس العميد في غرفة الاستقبال طلب يونس من زوجته إعداد مشروب للضيف، بقي هو والعميد يرحب به فقال له العميد بابتسامة:

- عملت معنا يا يونس بتفان وإخلاص وأنا هنا لهذا السبب.
- أنا أخدم وطني يا سيدي وهذا أقل ما أستطيع فعله.
- لم نقدم لك شيئاً ولم تحصل على حق من حقوقك...
- سيدي، أنا أتقاضى راتب في الجامعة وهذا جعلني في حالة جيدة ويسعدني أني أعمل معكم ولم أنتظر مقابلاً.
- حسنا.

أدخل العميد يده إلى جيبه وأخرج رتبة رائد وبطاقة عسكرية ومدها ليونس وقال:

- هذا يخصك، أنت أحد رجال الدولة رتبة رائد وبطاقة عسكرية..

شيء ما أرعد قلب يونس رهبة وهو يقول بتقطع المندهش:

- سي... سيدي... حقا أنا.
- نعم أنت سيادة الرائد. تأخرت عليك لكنها وصلت ومنذ اليوم الأول وأنت تعمل معنا وهي في ملف عملك ولكننا لم نمنحك إياها لكي تبقى مدنياً وبعيدا عن الأنظار. والآن، حان وقت

وصولها لك وعملك مستمر سواءً بوجودي أو بوجود غيري في غيابي.

- سيدي لا أدري ماذا أقول، لكن هل يجب عليّ كتمان الأمر، صحيح...
- طبعاً، أنت منتسب لجهاز المخابرات العامة ولا يمكن لأحد معرفة ذلك.
- حتى زوجتي؟!

هز العميد رأسه وهو يقول:

- يفترض ذلك يا يونس. ألا تعلم قواعد منتسبي المخابرات.
- بلا، لكني الآن أشعر بالمسؤولية وأستفسر للحرص فقط.
- أدخل مقتنياتك إلى جيبك وأتمنى لك التوفيق.
- سأكون دائما عند حسن ظنكم.
- هذا ما يجب أن يكون.

***

بعد أنهار الدماء وسنوات النار والموت والدمار، لم تتعلم الأغلبية فن الحياة، ومناجيات المستقبل بصبح مشرق ونور مشع من أفلاق العقول.

هكذا قال الدكتور رؤوف عند خروجه من مسجد يخص مذهب غير مذهبه، حملقت عيون المصلين لطريقة صلاته واحمرت الوجوه. ولولا الصلح مؤخرا، لقتل أو ذبح. مهما اختلفت الطريقة، فالنهاية واحدة لاعتقادات منها التكفير أو فهم الاستفزاز. بما أنه أقرب مسجد إليه اليوم وقربت انتهاء صلاة الجمعة، وجد نفسه في الركعة الأخيرة بداخله متناسيا ومتجاهلا ملكية كل طائفة لمسجد خاص لنفس الخالق والقبلة والنبي والكتاب السماوي. والاختلاف بالعابد الطائفي فحسب. يحكي حدث اليوم للؤي بعد تلاقيهما قبل الجلوس على مائدة الطعام للغداء في منزله. بدا لؤي منزعجا مثله مثل غيره ممن يكرهون هذا التعصب الأجوف والذي يشكل في هذا العصر مجرد مخلوقات تمشي على أربع وتنتصب فقط لتقتل بخنجر مصنوع من صخرة. فآلة القتل البدائية كانت العصا المدبب ذات الرأس الحاد أو صخرة مصقولة بواسطة صخرة وتحويلها لخنجر أو هراوة عظم فخذ الإنسان. فمنذ البداية الأولى للإنسان وهو يبحث عن وسيلة فعالة للقتل. وهي أول ما فكر به الإنسان وصنعه واستخدمه. قال لؤي باستهجان يصاحبه توتر: "في أستراليا موسم الضفادع، يزعج السكان لأنها بالملايين تتواجد في موسم واحد، تتطفل على البيوت وتحول مستنقعات الأمطار إلى مبيت لها، تسكن الشروخ والنوافذ. كثرت شكاوى

السكان وقررت الحكومة وضع حد لذلك. وبعد تفكير وأبحاث، توصلوا لطريقة تجميع الضفادع إلى خزانات عبر إضاءة تجذبها إلى تلك التجمعات، وعندما تمتلئ الخزانات يتم عصرها وتحويلها إلى وقود. ومن هنا، جاءت فائدة من هذه الظاهرة المزعجة. لو تم تطبيق التجربة الأسترالية مع الطائفيين والمناطقيين والعصائبيين لتحويلهم إلى وقود، لأن بقاءهم حرب واقتتال وكراهية وجميعهم سيموت لأسباب غامضة. وبالأصل خلقوا ليقتلوا ويُقتلوا. لتستفد منهم البشرية وتعصرهم وتحول أجسادهم النتنة إلى وقود عسى نرى منهم نور مصباح يفيد طالب علم أو يشحن كمبيوتر يفيد عالماً أو حتى نشحن بهم هاتفاً نقالاً، لا أرى منهم فائدة سوى تحويل أجسادهم إلى وقود".

ضحك الدكتور رؤوف وعقب:

- لن يبقى من أوطاننا العربية سوى العشرات. جميعهم طائفيون ومناطقيون وقبليون.
- حينها، سيرتاح العالم من هم كبير اسمه التخلف العربي وتتحول مصانع الأسلحة إلى مصانع صواريخ فضاء وعلوم وتكنلوجيا..

***

مقال أخر للصحفي محمود عبدالوهاب لم يُثر اهتمام متابعيه، نشر المقال قبل ثلاث ساعات وها هو جالس على الأريكة يتابع حركة التفاعلات. وإذا بها في أدنى مستوياتها. أغلق هاتفه ووضعه جانباً وقرر الخلود للنوم وفي قرارة نفسه بأن يفكر بمقال يثير ضجة على مستوى البلد ليعود كالعادة إلى مستوى الصدارة الإعلامية. المقال الفاشل الثاني هو:

عناصر الإصلاح:

عالم السياسة ألفريد ستيبان تحدث عن تأكل السلطوية بواسطة فطنة وذكاء المجتمع بشقيه السياسي والمدني عبر ضغط مكثف لإجبار المستبد إلى تقديم تنازلات مهمة كالإصلاحات السياسية وإن كانت على استحياء في طريق الديمقراطية ليكون العائد تضييقاً تدريجياً على بنية الاستبداد. وهذا لا يكون دون نشر الوعي السياسي بين المجتمع لينفتح على القيم الإنسانية والحرية والديمقراطية. يأتي التغيير من الحراك المجتمعي نحو الإصلاح السياسي، حيث لا ينتظر من الاستبدادي أن يفكك آليات التسلط تلقائيا. الإصلاح السياسي له قواعده والتي هي من صميم تركيبة المجتمع الإيجابي غير الفئوي والمناطقي والمذهبي والطائفي. فمهما اختلف الجميع في الرأي، فالتشاور والحوار واحترام الرأي وسيلة لحل الخلافات أيا كانت. وفلا

طاعة شعبية لدعاة العنف بل أن للقضاء المستقل كلمته التي يخضع لها الكبير والصغير.

للتعليم الحقيقي والنقي فائدة تحصينية للمجتمع من الأفكار البدائية والتي دائمة تذهب حيث التبلد والعنف. وكما يجب رفض الافكار المتضاربة بين المذاهب الدينية والتي من خلالها يستمد الفوضويون شرعيات للعنف نتيجة فهم خاطئ للتفاسير وما شابه ذلك. الأمر أدوار متبادلة، فساد السلطة وتسلطها يولد فساد مجتمع وتسلطاً بداخله، فكل ذي سلطة متسلط سواء كان الأب على مستوى الأسرة أو المعلم على مستوى المدرسة.

***

في مقر إقامته في إحدى الدول الأوربية، يدخل أحد مساعدي جاسر نبيل إلى مكتبه، يقدم له ملفاً وهو يقول:

- سيدي، شركة المسح المعدني اكتشفت منجم ذهب في المنطقة الشرقية.
- أهو منجم كبير؟ هكذا سأل جاسر.
- نعم، سيكون أكبر منجم مكتشف إلى الآن في المنطقة.

هز رأسه مستحنا:

- بلادنا غنية جدا والخير وفير. سنعمل على استثماره. هل اقتربنا من امتلاك شركة الاتصالات الحكومية؟
- مازلنا نواجه صعوبة سيدي. الشركة تطورت وزاد دخلها المالي وأسهمها التي طرحتها الدولة للاكتتاب قبل سنوات تضاعف ثمنها كون المشتركين فيها كثراً وخاصة بعد انخفاض أسعار الهواتف النقالة وظهور هواتف ذات خاصية شريحتين. فالجميع تقريبا لديه شريحة لشركتنا وأخرى للشركة الحكومية. والعروض التي تقدمها الشركة الحكومية منافسة وجعلت من المشترك تقريبا يتقاسم مع شركتنا الدفع المسبق.
- امم... (يهز رأسه وهو يقول...) شركة الاتصالات الحكومية هي التي ساعدت في استمرار الدخل المالي للحكومة طيلة سنوات الحرب رغم انقطاع أغلب الإيرادات العامة. الدخل من الاتصالات كبير جدا، فشلنا في شرائها لأن ٤٩٪ أسهم بيعت لناس أغلبهم موظفو الدولة بجميع مستوياتهم وعادت لهم بأرباح سنوية ولا يمكننا تحمل خصخصة نصف شركة لنا. علينا الآن العمل على تدميرها ولن ندفع أموالاً طائلة لشرائها وسيتحول

المشتركون لشركتنا تلقائيا وسيصبح الدخل المالي مضاعفاً لشركتنا بمقابل نسبة بسيطة للشركة الحكومية حتى تعلن إفلاسها.

- وكيف ذلك سيدي؟!

- إسمعني جيدا... لا أحد يعرف دهاليز بلادنا غيري أنا، والذي لا يأتي بالشراء يأتينا بثمن زهيد لا يتجاوز ثمن الطاولة التي أمامي. اعملوا على تجنيد مدراء ومسؤولي الشركة الحكومية بمنح مالية تُقدر بألف دولار شهريا لكل واحد منهم ووعود بالانتقال للعمل لدى شركتنا وقولوا لهم أننا سنؤسس شركة اتصالات جديدة ونحتاج خبراتهم وأوهموهم بذلك. قولوا لهم بأن الامتيازات المقدمة لموظفينا كثيرة ورائعة من دورات خارج البلد ورواتب ممتازة. وبعد التأكد من استمالتهم، اعملوا معهم على تعطيل تطوير الشركة الحكومية بالشكل الصحيح والتوقف عن تقديم عروض الاتصالات المغرية ونستمر نحن بتقديم العروض. والأهم من ذلك إضعاف شبكة الإرسال والتغطية. وتلقائيا، سيتوقف المشتركون عن إعادة شحن شرائح الشركة الحكومية كون خدماتها سيئة ويتوجهون لشركتنا. وعندما يضعف دخل الشركة الحكومية، ستقل أسهمها تدريجيا ولن نشتري سهماً واحداً بل سنواصل

تدميرها من الداخل حتى تعلن إفلاسها. وحينها، سنفكر هل نشتريها بمبلغ بخْس أو نتركها تموت.

- حسنا سيدي.

- إنصرف لعملك.

غادر مساعده المكتب وبقي جاسر يفكر وهو يتصفح التقرير عن المنجم إلى أن جاءته رسالة عبر هاتفه، تناوله وفتحها (أُعلن عن موت الدكتور ناصر الحمراوي). أغلق هاتفه وقال بخبث: "هذا هو وقته، لم تعد له فائدة ولا قيمة مستقبلية".

***

كل شيء ممكن، لا شيء غير ممكن في هذه الأرض. فالتيار المعاكس ضد قانون الطبيعة هو سمة تميزت به تفاصيل حياة المجتمع. المنطق يُقرأ من الشمال في اللغة العربية وهذه إشكالية بنيوية سيكولوجية عامة ونقطة البداية لها كان انحراف مفاجئ ومربك. لم تكن التصرفات عند الانحراف نتيجة تمرد عام، بل فهم معاكس لكل التصرفات والسلوكيات والدفاع عنها باستبسال حتى مستوى الدم وبل تطويرها لتأخذ أشكالاً متعددة ومعقدة عصية على الفهم وكأن الناس شياطين تم برمجتهم ليكونوا

معتوهين أيضاً. فلا حدود للعته بل إن التطوير مستمر. كل يوما، يكتسبون عادة سلبية جديدة جماعية وتصبح بين ليل وصبح عادة اجتماعية وسلوكاً واقعياً. في قلب الأستاذ فتحي الكثير من الأوجاع وسنوات البقاء في مخيم اللجوء الداخلي أطلعته على مالا يتخيله إنسان ورأت عيناه مصائب الأقوام وأدرك عقله تغيرات الطباع ابتداء من الأنانية والكراهية وانتهاء بالتوحش والتوجس. في مخيم اللجوء. سمع قصة صفاء وهي قاصر مطلقة في الخامسة عشرة وكأن القدر، حينها، كتب عليه سماع القصة والمعناة من صفاء نفسها في نفس المخيم وكان عاجزاً تماما عن تقديم أية مساعدة لها سوى النصح لها بنسيان ما جرى لها والتأقلم مع الحياة الجديدة. لقرابة الثلاث سنوات وهما في نفس المخيم، حتى جاء اليوم الذي اختفت فيه صفاء وترددت معلومة أنها رحلت مع شاب (لحس عقلها).

ظاهرة الزواج من قاصر لم تعد ظاهرة بل إنها تحولت وبسرعة إلى عادة وكأن أعداد المصابين بـــــــرغبة ممارسة الجنس مع الأطفال (بيدوفيليا) منتشرون في كل مكان. الأمر غريب دون الاعتراف بالمرض وإلصاق التشريع بالدين للتمكن من الاغتصاب الشرعي لطفلة تحت عنوان الزواج. سنوات الحرب كانت قاسية والتجمعات السكنية للهاربين من الحرب تعرضت للابتزاز الجنسي وزواج الأغنياء الطاعنين في السن من

قُصر تحت شعار الستر، الرواج كبير جدا في تلك التجمعات واستغلال مرعب ودون رقابة أو فتح ملف تحقيق واحد. فقط جمعيات تتخفى خلف المساعدات الإنسانية قصدها الظاهر لكل منكوبي الحرب هو الزواج من قُصر بعد انتقائهن. بعد سنوات من انطلاق الرصاصة الأولى للحرب إلى الآن، ها هو الزمن يلاقي بين من يريد في مكان غير متوقع. الأستاذ فتحي يخرج للتو من مخبز وهو شارد الذهن وتكالب الزمن عليه وغير جزءاً من ملامحه حتى شعره غادر رأسه وما تبقى على جوانبه كساه الشيب. رغم أنه تجاوز الثامنة والثلاثين عاما، ومازال في هرم شبابه. لم يلتفت إلى يمينه وهو يمشي ببطء حيث يترامى على جدار المبنى المتسولون مثله مثل جدران الوطن من جائعين إلى معاقي حرب ومشردين، جميعهم يتسولون. يسمع الأصوات تتعالى "لله يا محسنين، أعينوني، الله يبعد عنك البلاء.." وهكذا من تقربات وتوسلات وأياد ممتدة منتظرة العطف من المارة، يسمع صوت رقيق ينادي باسمة "استاذ فتحي..." استدار إلى الخلف، لتقع عيناه على فتاة ملابسها وشكلها لا يختلف عن أشكال المشردين تحتضن طفلة في سن الخامسة. اقتربت منه أكثر وهو يسألها باستغراب "عفوا... هل تعرفينني؟" ردت عليه من فورها وهي تمضغ علكة "أنا صفاء يا أستاذ، هل نسيتني؟!" ثوان حتى تذكرها وتعرف على ملامحها وردد "صفاء، الحمد لله

على السلامة، أين اختفيتِ؟!" أجابت بغنج لم يكن من سلوكياتها بل مكتسب: "في الدنيا الواسعة". ومع زحمة المارة، جذبها إلى جانب جدار المبنى وسألها باستغراب:

- أين اختفيتِ؟! بحثت عنكِ وأبلغت ادارة المخيم عن اختفائك.
- رحلت لمخيم الوسط وتزوجت هناك، وقتل زوجي في المعركة قبل أن تولد ابنتي شادية (تربت على ظهر ابنتها...).
- رحمة الله عليه.
- رحمه الله الشهيد. لم يرسلوا لي جثته، ولا أدري أين دفنوه.
- لِمَ لم يخبروكِ بمكان دفنه.
- من هم؟! سمعت خبر استشهاده من زوجة أحد المقاتلين بعد الحدث بأشهر، قالت لي زوجك شهيد في سبيل الله.
- مع من كان يقاتل؟!
- مع المعارضة.
- رحمه الله. أين تسكنين يا صفاء؟
- في الشارع. (أشارت لمكان بعيد وهي تقول...) هناك، أبات مع ابنتي والحمد لله رزقنا من العابرين.

في خضم ذلك وفتحي يتوجع لشكل صفاء وكيف عانت كثيرا وظلمت بقسوة شديدة، تبكي ابنتها، تعنفها بقسوة، يتدخل فتحي لينصحها بعدم فعل ذلك ويستغرب لسلوك صفاء كيف تغيرت وتحولت لشرسة وعنيفة مع ابنتها. تغير جذري في طباعها. قدم لها فتحي بعضا من المال وغادر متوجعا. حال وصول فتحي إلى المقهى الثقافي بعد الغداء والتوتر يلازمه من منظر صفاء ملابسها شديدة الاتساخ وجلدها المقارب للأسود من الأتربة الملتصقة فيه ورائحتها الكريهة. جذب فتحي ميساء جانبا وقص عليها قصة صفاء وتناقشا في حل لها وانتهيا إلى تولي ميساء أخذها من الشارع والاعتناء بها وبطفلتها ريثما يجدون لها غرفة إيجار وعملاً مناسباً يعينها على استمرار حياتها بالشكل الطبيعي والمناسب حيث أن ميساء اقترحت تعليمها وتدريبها على التسويق وبيع منتجات للمحلات أو البيوت حسب متطلبات السوق. فعلا، قامت ميساء بواجبها في نفس اليوم وأخذت صفاء إلى منزلها حيث اغتسلت وزودتها بالملابس وكذلك ابنتها التي اشترت لها اليوم التالي ملابساً. الغريب في الأمر الذي لاحظته ميساء أيضاً أن صفاء اكتسبت صفات عنف مع طفلتها وتغيراً في سلوكها لا يتطابق مع كونها مظلومة تزوجت طفلة وكانت نقية وبريئة وفيها شيء من الجمال المقبول وطلقت وهي قاصر ولا تعرف السبب سوى أن زوجها زاد

جنونه كما تقول وبقي السبب في قلب زوجها (المكنى بأبو إيمان واسمه الحقيقي مجيب القاف) ولم يفصح لأحد ونجح في إخفاء سره بل ودفنه في صدره. صفاء اليوم ليست صفاء الأمس، السنوات والمتغيرات غيرتها واكسبتها من السلبيات ما يجعل التساؤل مطلوباً عن نتائج زواجها صغيرة وهذا ما بدا لميساء وتوجعت كثيرا لما تراه عينيا بعد اغتسل صفاء. إنها أصيبت بالبرص. ليس هذا فحسب، بل حدث اليوم ليلاً ما يكشف الحالة التي تعيشها صفاء... بينما ميساء تغط في نوم عميق، استيقظت صفاء على بكاء طفلتها وهي منزعجة من بكائها، تناولتها بعنف لا يليق بأمومة أنثى، كانت تتذمر حتى من صغيرتها التي نمت في أحشائها تسعة أشهر، ووهبتها أجمل إحساس تتمناه كل أنثى، إحساس يدفع البعض عمراً من الانتظار ليعيشوا لحظاته. مسكينة هاته الرضيعة كما هي صفاء، فكلتاهما تعيش حرمانا عاطفيا روحيا وماديا. استيقظت ميساء على صوت بكاء مستغربة ارتفاعه بوقت متأخر من الليل. قفزت من فراشها متوجهة نحو مصدر الصوت، اقتربت وإذا به يصدر من الغرفة مجاورة، اقتربت أكثر ووقفت أمام الباب لتسمع بكاء أشبه بنحيب يخالطه كلام غير مفهوم، اقتربت أكثر ووضعت أذنها على الباب وفتحته قليلاً لتلقي بناظرها على صفاء وطفلتها وهي تقول بعضاً مما يستوطن أعماقها:

- ماذا فعلت يارب حتى تبتليني بهذا الشكل...(تصرخ في وجهها وهي تشد يديها...) لا تنظري إلي هكذا أنا أكرهك... أكرهك... أكرهك.

تدفع ابنتها وتبعدها عن صدرها والدموع تنهمر على وجنتيها وتسيل كالأمطار لتصل حتى صدرها. رمت بالطفلة أرضاً وهي تبكي: "أين أنت يا أبي أين أنتِ يا أمي لمَ تركتماني؟! أحتاجك يا أمي. ياربي لمَ أنا؟! والله تعبت. تقترب منها الصغيرة وهي تمسك بطرف ثوبها (ماما... ماما) "ركلتها وهي تصرخ بوجهها "ابتعدي عني لست أمك. سأرميك والله سأرميك ولا أندم وستتيتمين كما تيتمت أنا وستتعذبين كما تعذبت. ستموت روحك كما ماتت روحي." تسمرت ميساء في مكانها وهي ترى وتسمع كلام صفاء. وللحظة، وجدت نفسها غير قادرة على البقاء متفرجة دفعت الباب وهرولت لتحمل الطفلة بين يديها. انطوت صفاء على نفسها وضمت ركبتيها إلى صدرها وأدخلت وجهها بين ركبتها لتشد رأسها بيديها وهي تبكي بحرقة. تعودت صفاء على هاته الحركة منذ طفولتها. بعد كل موجة غضب وقهر تعتريها، تجلس لتخرج ما تبقى بداخلها عن طريق النحيب والصراخ. هدأت ميساء الصغيرة وقلبها يتقطع لما رأته. جلست

إلى جانب صفاء ولفتها بذراعيها محاولة التخفيف من حالتها وقد غرغرت عيناها بالدموع:

- إبكي عزيزتي إبكي ولا تخافي. أنا إلى جانبك لن أتركك وطفلتك بعد اليوم.

رفعت صفاء رأسها، نظرت إلى وجه ميساء وارتمت في حضنها. بعد أن هدأت صفاء، هرولت إلى صغيرتها تحملها بين ذراعيها وهي تتقطع ندماً، ضمتها وهي تقبلها:

- سامحيني يا صغيرتي، أنا لا أكرهك أنا أحبك ولا أحب أحداً غيرك. أنتِ فرحتي، أنت حبيبتي التي تملأ دنياي. ليس لي سواك يا عمري. لن أتركك يا حبيبتي. لن نفترق أبداً. لن يحدث لك ما حدث لأمك. (نظرت لميساء بانكسار وخجل وتابعت...) أنا لست سيئة يا ميساء، لكني تعبت من الحياة وظلمها. لم أعرف يوماً سعيداً في حياتي كلها.

- لا عليك يا صفاء. أنتِ طيبة القلب وأم جيدة، إرتاحي الآن وغدا يوم جديد.

لم تنم ميساء ما تبقى من الليل وهي تفكر بحالة المسكينة صفاء. فكرت أن تعرضها على الدكتور رؤوف فهو الحل الوحيد لهكذا حالة. صفاء تبدو

مرتجة في قراراتها وغير مبالية بمستقبلها حيث وصل بها الإهمال إلى حد تجاهل المنطق. ليست الآن امرأة تتقبل العمل أو استقرار الحياة فقد تداخلت مع الشارع ليكون جزءاً من حياتها وتقبلها. وها هي ترفض كل ما يمت للاستقرار بصلة وتفضل العودة إلى الشارع حيث تمارس التسول والسلطة في قرارة نفسها في التعامل مع صغيرتها. حاول معها الأستاذ فتحي بالنصح ووجد أنها تميل إلى الكسل والتحرر في الروتين اليومي وحرية الحركة والتنقل دون أوامر أو توجيهات. وفقط جلسة واحدة مع الدكتور رؤوف لعلاجها ثم اختفت في زحام الشوارع.. "نتيجة زواج صفاء وهي طفلة وعدم ممارستها لطفولتها بالشكل الطبيعي ولا مراهقتها بالشكل الطبيعي أيضاً. وزد على ذلك آثار الحرب النفسية ومقتل زوجها الثاني. مع كل ذلك، لربما تبقى صفاء قوية مقارنة بمثيلاتها اللاتي انتحرن أو قتلن نتيجة النزيف الحاد أو صدمة الرعب من زوج أربعيني أو خمسيني. في غمضة عين، تكون في حالة تعر أمام غول عار في غرفة مؤصدة ومن خلفها موسيقى صاخبة احتفالا بهذا الحدث". هذا ما قاله الدكتور رؤوف لفتحي حيث تواصل النقاش بينهما حول هذه الحالة..

***

كان الصحفي محمود عبدالوهاب قد اتخذ قراراً مسبقاً في كتابة مقال يُثير ضجة كبيرة يُعيده للصدارة الإعلامية. كتب المقال ونشره بالأمس، تلقى اتصالاً هاتفياً من مسؤول الإعلام في المخابرات وعاتبه بشدة، اعتذر له الصحفي ووعده بتلميع الجيش في لقاء تلفزيوني وفي كتابات قادمة وأنه لم يكن يقصد الإساءة للجيش فقط استخدم المساحة المتاحة للمناورة للم الجماهير من حوله ممن لا يتقبلون كلامه لينضموا لشريحة متابعيه. تلقى اتصالاً هاتفياً من ضابط في الجيش، قدم اعتذاره فوراً وكرر ما قاله لضابط المخابرات ووعد ضابط الجيش بأنه سيوضح اللبس بطريقة لطيفة حيث أنه سُلقي بهذه التهم على عاتق المنشقين من الجيش في بداية الأحداث الدامية وممن الآن هم في مواقع المسؤولية وقلوبهم مع المعارضة. نقل ضابط الجيش ما دار بينهما لقيادته التي وجدت فرصة للتخلص عبر الإقالة من ضباط وقادة يُعتقد أن قلوبهم في واد آخر سوى معارض أو منافس. المقال الذي نشره الصحفي بالأمس هو:

الحال كما هو عليه

"توقفت الحرب بعد سنوات من بدايتها، فهل سألنا أنفسنا لماذا لم ينتصر طرف على آخر بسرعة لتضع الحرب أوزارها؟! الثورية أوعزت ذلك

لنقص الدعم وتخاذل المجتمع الدولي من جهة. ومن جهة، أن الله أخر النصر بسبب الذنوب التي يمارسها الناس يوميا. أما الدولة، أوعزت تأخر الحسم للدعم الخارجي الذي أطال من أمد الأزمة وأن حجم المؤامرة كان كبيراً جداً وأن لو تعرضت أمريكا لما تعرضت له بلادنا لما صمدت شهراً فقط. لا يا دولتنا الموقرة، سأقول لكم لماذا تأخر الحسم وطال أمد الحرب، إنه الفساد في المؤسسة العسكرية الذي لا يتحمله ملف. صفقات الأسلحة خارج نطاق المساءلة مهما كان نوع الفساد والعمولات والتي تصل أحياناً إلى غاية ٨٠ ٪ من ثمن الصفقة. في المعسكرات، تُسرق وجبات الجنود منذ قيام الدولة وإلى اليوم وتؤكل مستحقات الجنود، قادة الألوية والفصائل يُعينون في مناصبهم حسب أمبير الفساد. فكلما كان الضابط فاسداً، فكلما عُين في منصب كبير يناسب فساده. إلى اليوم، منذ قيام الدولة، وجرحى الجيش يتسولون في الشوارع دون حقوق والخصم يتلقى راتبه بعد الحرب من الدولة، الجندي يدفع دمه ثمن الاستقرار ورعونة القائد والدولة تجحد حقوق الجندي وتمنح الحقوق الباطلة للخصم. في المؤسسة العسكرية، فساد يشيب لهُ الرأس والقلب معاً، نسبة كبيرة من أسماء الجنود وهمية وتذهب رواتب وهمية للفاسدين لا أحد يستطيع محاسبتهم، هناك رواتب عسكريين تذهب لمرافقة وحماية متنفذين ممن يهتكون كرامة هذا الوطن.

نطالب بإصلاح المؤسسة العسكرية ومكافحة الفساد بداخل المؤسسة الوطنية والتي هي الحامي لهذا الوطن الغالي.

***

جاء العقيد خالد إلى العميد عمر وقدم له فيديو لأحد قادة المعارضة وهو مفتي أشتهر منذ الأيام الأولى لبداية السنوات الحمراء في تحشيد الناس دينيا للقتال ضد الدولة وله محاضرات كثيرة في هذا الجانب وعمل ميدانيا في التجنيد وله حساب في تويتر والفيسبوك وملايين المتابعين. كان يقول لأتباعه إن الحرب حق وهي بين الكفر والإسلام وأن من يعمل مع الدولة كافر حلال الدم والمال ويؤجر قاتله عند الله. وإن قُتل، فهو شهيد وتحدث عن نبوءة النصر وإعلاء كلمة الله وكل مرة يتحدث بأن صحابي أو رجل صالح من العلماء التاريخيين قد زاره في المنام وبارك الجهاد في سبيل إسقاط نظام الحكم. اختفى هذا الرجل الأشهر الأخيرة واليوم أصدر تسجيلاً يتحدث لأتباعه فيه أن النصر حق ولكن الله أخر النصر ولعل في ذلك خيراً وأن لا يجزعوا أو يحزنوا فالله وعدهم بالنصر والمستقبل لله وفيه رايات جهاد وليست راية واحدة. وقال أشياء كثيرة أخرى تتوعد بتكرار ما

حدث وكرر تكفير كل من لم يتبع النهج الذي أسماه الحق. انتهى الفيديو، هز العميد رأسه وقال للعقيد خالد:

- يكفر مسلمين ومن ليس مدوناً بقائمته فهو كافر. يضمرون الشر ومؤكد أن أي زمان أو مكان تسنح لهم الفرصة لتكرار ما حدث، فلن يترددوا. هذا الرجل لم يقدم ولا شعرة من رأس أحد أبنائه في الحرب.
- ما حدث والذي لم يكن يخطر على البال أن يكون بهذا الحجم يجب ألا يتكرر. فالجميع أبناء وطن واحد.
- بل ستتكرر وأبشع من الماضي وبوسائل جديدة إذا لم تتم معالجات منهجية على أسس حقيقية تنهي بؤر الفتن.
- سيدي، تغذية المجموعات المسلحة تمت بالفتاوى الجهادية. ولو لم تكن هناك فتاوى، لما تكتلت جماعات حملت السلاح. وبساعات، تشكلت وبقيادات ميدانية ودعم لوجستي لا تقدر عليه دولة بكل إمكانياتها ورواتب شهرية ووسائل إعلام وكتائب إدارية وتوجيهية وتخطيطية وتدريب وحتى بطائق شخصية باسم مشروعهم الجديد.

- حجم الذخائر المستخدمة، يا سيادة العقيد، أضعاف مخزون استراتيجي لدول وبكثافة نارية ضعف المطلوب في الدقيقة. وكل هذا حدث بفتاوى من تم صناعته.
- يجب إيجاد حلول للتعامل معهم. وكما قلت سيدي، على أسس حقيقية تنهي بؤر الفتن.
- هذا لن يكون دون مواجهة الحجة بالحجة قضائيا من روح ديننا الحنيف. دائما أتساءل، لماذا لا توجد نيابة دينية لتعقب منتحلي صفات الدين بغية مآربهم ومصالحهم الخاصة وإن كان ذلك على حساب الدين؟! لم يحدث في التاريخ الحديث إطلاقا أن تمت محاكمة رجل انتحل صفات الدين وتسبب بالفساد الديني وبالفتن الدينية وأصدر فتاوى القتل، ألأنهم ذوي حصانة دينية؟! الحصانة الدينية تمنح فور تربية اللحية ومسك السواك بيد والسبحة باليد الأخرى، إنها صك الغفران. ومن يجرؤ على منتحل صفة دينية، يكون تجرؤ على الدين بمنطقهم. بل لم يتوارد إلى مسامعي أنه تم تكفير منتحلي صفة رجال الدين أو تكفير الإرهابيين والسبب أنهم يشهدون أن لا أله إلا الله..

- نعم سيدي، إنها حصانة. ولو قلنا ما قاله هذا الرجل لاتهمونا بالازدراء، ولأنها صادرة من إنسان له لحية فلا تعتبر ازدراء.
- فعلا، نصف كلامه في تسجيلاته ازدراء للدين. لذا، يفترض محاكمتهم دينيا أمام محكمة دينية والكلمة تواجهها حجة ودليل. ومن يُثبت عليه تربحه من الدين أو ازدراؤه والتدليس، يتم معاقبته. ولا حصانة لمن يكذب باسم الدين ليتربح أو من تم تجنيده لمهمة إضعاف الدين من الداخل.

***

عند الساعة التاسعة ليلاً، وهو وقت الذروة في نسبة تصفح مواقع التواصل الاجتماعي، نزل منشور أثار حفيظة المتابعين لصفحة الصحفي محمود عبد الوهاب على الفيسبوك، دقائق، حتى زاد رقم المشاركات والردود والصفحات الكبيرة تشارك هذا المنشور. ساعة، حتى صارت صورة المنشور تنتشر كالنار في تويتر. وقت قصير، ويصل لساعة، نزل منشور إلحاد واحد مع رسم كاريكاتوري مسيء للذات الإلهية. ويليه مشاركة منشور لموقع متخصص في الإلحاد في صفحة الصحفي محمود عبد الوهاب. ما جاء في المنشور الأول والمشاركة الثانية كلام خطير جدا. في

هذه الأثناء، الصحفي محمود يتناول العشاء، رن هاتفه، أجاب ليسمع ما لا يسره، دهش وصعق، ضغط على إغلاق المكالمة وفتح حسابة الإلكتروني تم اختراقه، عمل على استعادة الحساب بواسطة البريد الإلكتروني حيث أرسلت إدارة الفيسبوك رابط التفعيل وتغيير كلمة السر. يمسح المنشور والمشاركة وينشر بياناً يعلن فيه اختراق حسابه ولكن حجم التفاعل مع البيان ضعيف والتعليقات أغلبها اتهامية له (الموضة العامة من يتسرع في نشر موضوع جدلي، يمسحه ويتحجج بالاختراق). إلى هنا، يُعتبر الحدث عادياً مجرد اختراق ويحدث هذا لكثير من مشتركي مواقع التواصل الاجتماعي، لكن المستغرب طبيعة المنشور والهدف من الاختراق لحساب الصحفي محمود ومن هو المخترق؟ تلك تبلورات على شكل أسئلة وضرب أخماس في أسداس في عقل الضحية ولم يبات الليل وجله تفكير وقلق أيضاً. في الصباح، يوم عادي ومن هم حول الصحفي الدائرة الضيقة تفهموا الاختراق، لكن المفاجأة غير السارة جاءت من مواقع إخبارية ظهر هذا اليوم بأن محاميين تقدموا للنائب العام بطلب رفع قضية ضد الصحفي محمود عبدالوهاب بتهمة الترويج للإلحاد مستندين إلى منشورات سابقة له تتحدث عن العلمانية. وأيضاً، ما زاد الطين بلة نشر مقالات سابقة له يدعو فيها للإصلاح ومراجعة الموروث ونقده اللاذع لرجال دين اشتهروا

بالفتاوى المثيرة للجدل والتي تستند على أسس من التراث. بهذا تفطن الضحية للفخ والقصد من اختراق حسابه في الانترنت ولكنه لا يعلم من قام بذلك وهو الآن قادم على حبال طويلة من المحاكمات والمشادات. هو معتاد على تحقيقات نيابة المطبوعات والصحافة ووقوفه أمام هيئة القضاء في قضايا عديدة جدلية وربحها جميعا بفضل ثقافته وعلمه وأيضاً محاميه الكبير والخطير (وجيه عزيز). عند سماعه في اليوم الثالث من الاختراق بقبول النائب العام لفتح تحقيق معه بتهمة الترويج للإلحاد بصورة عاجلة، تزامن هذا مع تلقيه عدة رسائل من المواقع التي ينشر بها كتاباته بقرار إيقاف أي نشاط صحفي وفي الطليعة جريدة "الحقيقة اليوم" الورقية. قرر الاستعداد للدفاع عن نفسه وكشف المؤامرة عليه وأن هناك من يتربص به. ذهب إلى محاميه لكي يدرسا القضية، وإذا باللقاء فاتر والتغير واضح على وجه المحامي. وبعد مناقشة القضية لأزيد من نصف ساعة، كان المحامي قد اتخذ قراره مسبقاً وقال بصوته الجهوري:

- أستاذ محمود، منذ تسعة عشر عاماً وأنا محاميك ولم أتأخر عليك في الدفاع عنك أو في رفع قضايا ضد خصومك. وكنت لك صديقاً وفياً ومحامياً مخلصاً. اليوم، يختلف الحال يا صديقي، أنت في موضع اتهام خطير، أعرف أنك بريء لكن من الصعب إقناع الناس

بذلك، سنناضل وخصومك محاميون وصحافة تهاجمك ورأي عام يطالب بمحاكمتك. وأي قاض تحت هذا الضغط الإعلامي والجماهيري سوف يتأثر وهم قد نصبوا لك الفخاخ ومجهزون جيداً ومتسلحون بمقالاتك القديمة والتي كانت علمانية ودعوة للإصلاح الديني ونبذ الموروث. ولك مقالة تتحدث عن الزمن الذي كتب فيه البخاري وتدعو للبحث عن المخطوطات لكي يتم التأكد مما هو صحيح وإلغاء ما هو دخيل وكأنك غير مؤمن به.

قاطعه الصحفي محمود:

- لم يكن المقال رأيي بل هو طرح تحليلي ودعوة للدراسات.
- هذا صحيح، ولكن النصوص القانونية تحتمل الشك بمن يُقدم على الإلحاد وعقوبة ذلك القتل. فمثلا، الردة وحكمها الاستتابة أو الإعدام ومصادرة الممتلكات. الزندقة: "مَنْ يُظْهر الإيمان ويُبْطِن الكُفْر" وهذا النوع لا يستتاب في بعض المذاهب ويُعدم. لم أفهم إلى الآن، كيف يقرأون النوايا ويعلمون الغيب في قلوب وعقول المتهمين؟ ورغم الاختلاف الفقهي بين المذاهب في الدولة الواحدة، الدستور ينص على أن الإسلام هو مصدر التشريعات للدولة، فعلى أي مذهب سيتم الحكم عليك أو على غيرك؟ يمكن

أن يفهم نص أنه تجديف (كلام على الله بالسب أو الإهانة)، وهنا استتابه وبعدها الإعدام ومصادرة الممتلكات حسب مذهب والعكس عند مذهب آخر. أما لو فُهم النص أنه اتهام أو سب للنبي عليه الصلاة والسلام، فليس هناك استتابة والحكم بالإعدام فورا. فمن سب النبي أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزدراء عليه أو التصغير من شأنه أو الغض منه والعيب له، فهو ساب له. والحكم فيه حكم الساب ويقتل. في قضيتك، الأمر مزيج من كل التهم التي ذكرتها لك، ما تم نشره على صفحتك في الفيسبوك مزيج من الردة والتجديف والزندقة ويعزز الأخيرة مقالات قديمة لك، ولو لم تكن تنشر فيديوهات مباشرة من خلال صفحتك على الفيسبوك، لكانت إمكانية نفي ملكيتك للصفحة واردة.

- هل يمكننا قراءة شكل الحكم بناء على ما ذكرت؟
- من غير الواقعي الآن في عصر العولمة الإعلامية والمنظمات الحقوقية أن يتم الحكم عليك بالإعدام الفعلي، بل بالإعدام المعنوي ولربما السجن لخمس سنوات وبعد سنة يُصدر العفو

عنك. نصيحتي لك مجددا أن تغادر البلد إلى دولة غير عربية حتى تستوضح من يقود الحملة ضدك. حذاري من بقائك في دولة عربية. فجميع الدول تخضع لنفس الضغط العام الشعبي والحزبي والجماعات الدينية، بل إنها تخضع لنفس القوانين في هذا الجانب حقيقة _القانون الجزائي العربي_ الصادر عن جامعة الدول العربية واعتمده وزراء العدل العرب" بالقرار رقم ٢٢٩ – د١٢ عام١٩٩٦ والذي يعاقب المرتد بالإعدام. المادة ١٦٢ من الفصل السابع الردة، التعريف "المرتد هو المسلم الراجح [الراجع] عن دين الإسلام ذكرا كان أم أنثى بقول صريح أو فعل قاطع الدلالة أو سب الله أو رسله أو الدين الإسلامي أو حرف القرآن عن قصد." العقوبة في المادة ١٦٣ "يعاقب المرتد بالإعدام إذا ثبت تعمده وأصر بعد استتابته وإمهاله ثلاثة أيام." تليها المادة ١٦٤ "تتحقق توبة المرتد بالعدول عما كفر به ولا تقبل توبة من تكررت ردته أكثر من مرتين." والمادة ١٦٥ "تعتبر جميع تصرفات المرتد بعد ردته باطلة بطلانا مطلقا وتؤول الأموال التي كسبها من هذه التصرفات لخزينة الدولة".

– ما الذي تريد الوصول إليه من كل هذا؟!

- أنا أحد قراءك، وقرأت لك مقالة في خضم آراء كتابة الدستور بعنوان (مصدر التشريعات غير واضحة). وحينها، قلت "بالإضافة إلى تعدد المذاهب الإسلامية واختلافها، كيف هو حال الإسلام دين الدولة ومصدر كل التشريعات في دستورنا؟! فلكل مذهب فقه خاص به، فإن "_مصدر كل التشريعات" عبارة عن أربعة مصادر، القرآن الكريم والسنة والإجماع والقياس. الناجي من الأول والثاني، سيقع تحت حكم الإجماع أو حكم القياس. المصدر الأول، القران السماوي. المصدر الثاني السنة، أحاديث وسيرة النبي. المصدر الثالث الإجماع: وهو اتفاق المجتهدين والدعاة في هذه الأمة بعد النبي. المصدر الرابع القياس، تسوية أو مقاربة أصل بفرع للجمع بينهما ومنها أقوال الصحابة (يدخل في هذا المصدر عدة مصادر. مثل، الفرعية، الاستحسان، المصالح المرسلة، سد الذرائع، العرف، الاستصحاب).
- نعم، وحينها ذكرت المراجع وما كتبته ليس حراماً.
- أعرف أنه ليس حراماً ولم تخطئ في نظري، لكنني أذكرك ما سينطبق عليك مادامت والحملة مقصودة وربما تم اختيارك لتكون حديث رأي عام تحت ستار حماية الإسلام من موجة الإلحاد. وتحت

الطاولة، هناك مشروع قذر تمرره الحكومة والمعارضة معاً. نتوقع كل شيء غير أخلاقي في هذا الزمن. لأنني متفاجئ من حجم تنظيم الحملة ضدك وأنت فرد لست حزباً سياسياً. نصيحة، أن تسافر وتطلب اللجوء السياسي في دولة غربية. وهي تعتبر فرصة لك يحلم بها الكثيرون. وعلى مضض، يمكنك النفي لأكثر من مرة وتذهب للمحكمة لتدافع عن نفسك وتثبت أنك تتعرض لحملة مغرضة وأن حسابك تم اختراقه، ومازلت أحثك على السفر فوراً. فصدقني يا صديقي، هذه تهمة كالغبار، لا يسلم منه مستنشق. هذه المرة ليست ككل مرة، الرأي العام والأحزاب والجماعات الدينية والناشطون والإعلام كلهم انخرطوا في حملة ضدك ويطالبون بمحاكمتك. القضاء سيكون تحت ضغط رهيب.

أغمض الصحفي محمود نصف عينيه:

- حتى أنت؟! أنت يا صديق؟!

تنهد المحامي ورد عليه بصوت خافت:

- أعتذر عن الدفاع عنك، هذه تهمة تلحق كل من يقترب منها. لو أقتنع ببراءتك ثمانية وتسعين بالمائة، فالباقي يرونك كافراً. وهذا

يكفي لتدمير مجتمع. نحن في مجتمع غريب الأطوار يصدق كل ما يسمع ولا يصدق شيئاً مما يراه..

قال الفيلسوف عبدالله القصيبي: "إنه لمجتمع مخيف في تخلفه، ذلك المجتمع الذي تصبح فيه خائفاً من أن يتهمك غيرك بالإلحاد أو تصبح فيه مخيفاً لأنك قد تتهم غيرك بالإلحاد". مشكلة أن يتخلى عنه محاميه الذي رافقه ودافع عنه طيلة ما يقارب العقدين من الزمن وربح كل القضايا. مشكلة أن يبقى الصحفي محمود وحيداً، أوجعه قلبه وشعر بنوع من الهزائم التي تجتاح المرء فجأة وتختفي عندما يستعيد عزيمته وإصراره. هو يعلم أن هذه الحملة ليست للتشويه فهي ليست فضيحة جنسية أو اختلاس أو الاشتراك في عصابة مسلحة والقتل، بل حملة تكفير ونتيجتها معروفة إن بقي لساعة بين الوحوش. وكما يقول المثل الشهير (العيار الذي لا يُصيب، يدوش). في هذه الأثناء، الصحفي محمود في طريقة إلى إدارة الأمن العام وقد قرر الدفاع عن نفسه حتى آخر نفس. بدأ يكون خطته أولا بالذهاب إلى الأمن العام قسم مكافحة جرائم المعلومات وتقديم بلاغ كونه ضحية جريمة الكترونية، وأيضاً طلب من النيابة العامة التحقيق في اختراق حسابه. في هذه الأثناء، أخرج هاتفه مستغلا الوقت في سيارة الأجرة وولج إلى صفحته في الفيسبوك بعد استعادتها بواسطة بريده

الإلكتروني ورقم هاتفه. كتب نداء للمحاميين العرب ممن يرغب في التطوع للدفاع عنه ونشره في صفحته، تصفح بعض الصفحات فوجد نجوم اليوتيوب جميعا يهاجمونه بحدة ويصفونه بأبشع الصفات وهذه فرصة لزيادة عدد المشاهدين وبالتالي الدخل المالي من اليوتيوب. قضم جبينه وتنهد بوجع وحسرة وهو يقرأ خبر فصلة من نقابة الصحفيين، أعاد هاتفه إلى جيبه وهو يفكر بما قاله المحامي وقد أوصله حدسه من تصرف محاميه أنه واقع تحت ضغط وأن الأمر دبر بليل وهناك من يريد رحيله من البلد. "فجور في الخصومة، خبثاء حقاً، ليتني أعلم من خطط ونفذ، حتى من استند عليهم سواءً في الحكومة أو المعارضة يرفضون الرد على اتصالاتي، أمر محزن أن بعد نجاحي ونجوميتي أتعرض لمثل هذا الهجوم الشرس، أزمة وتمرّ، فقط أمتص الصدمة وسينسى الرأي العام تدريجيا هذا الموضوع فقد نسوا وطناً وماضياً ومستقبلاً". هذا ما قاله الصحفي محمود في سره وهو يدخل إلى إدارة الأمن. هناك، قدم طلب تحقيق وتعاملوا معه بصلاحيات القانون، دونوا أقواله وكونوا ملفاً، وقع على أقوله وطلب حماية. لم يتم التعامل معه بهذا المطلب بجدية، أبلغه الضابط أنه سيفعل ما بوسعه بصدد حمايته وطمأنه بأن لا يقلق وأن عين الشرطة على الموضوع. انتهى من ذلك وخرج الصحفي محمود من إدارة الأمن في طريقه لبيته،

تجاوز المبنى كون وقوف سيارات الأجرة ممنوع في تلك المنطقة وعليه لزاما المشي ثلاثة كيلو مترات حيث يُسمح للسيارات بالتوقف المؤقت، وصل وانتظر سيارة أجرة، فجأة دوى صوت عيار ناري صادر من داخل سيارة تحركت من أمام الصحفي محمود ليدمغه العيار ويسقط صريعاً مضرجا بالدماء قبل بداية تشكل الازدحام المروري نتيجة وجود قتيل على الأرض، سيارة الجريمة واصلت طريقها ومن خلفها توقفت حركة المرور وحدثت الجلبة المعتادة في مثل هكذا اغتيالات والتي تعود عليها البلد منذ اندلاع المظاهرات. ساعة فقط من زمن الاغتيال وفيديو العملية بدقة عالية عبر كميرا مجهزة لهذا الغرض وتم رفع الفيديو مع بيان نشره موقع حديث تبنى العملية (حراس الخلافة) مع توعد كل ملحد بالمصير نفسه. حجم الارتياح لدى الرأي العام داخليا وخارجيا كبير لقتل الصحفي محمود عبد الوهاب. وذلك واضح من خلال حجم التفاعل وتناقل صوره وهو قتيل في وسائل التواصل الاجتماعي والتشفي. أما المواقع الإلحادية العربية، فقد تبنته وكأنه رمز وملهم للإلحاد. وها هي فرصة سنحت لهم لتسويق الضحية الصحفي محمود عبد الوهاب ولتشويه الخصوم بأنهم غير متسامحين وسفاحين وقتلة ونظموا هشتاق وصنعوا الحداد. الاستنكارات المحلية تُصدر باستحياء وقليلة جدا تحت مطلب التحقيق بالواقعة لربما

الصحفي محمود بريء وضحية فخ قذر وأيضاً وجب إلقاء القبض على القاتل وتقديمه للمحاكمة لأنه قتل خارج إطار القانون وتطبيق حكم بمجرد إشاعة. وهذا خطير جداً، هذه الاستنكارات تعرض أصحابها لموجة غضب، بل وصل الأمر بأن من يستنكر قتل الصحفي محمود، فهو عميل مدعوم من الغرب لتشويه الدين والمجتمع. ومن يؤيد، فهو ممن يدافع عن الإسلام. وهكذا استمر الطرح _كجهاز قياس الإيمان_ حتى بعد ثلاثة أيام من عملية الاغتيال حيث كان موضوع الكفر والإلحاد ومحاربة دين الله محور خطبة الجمعة. وكأن هناك رسالة من ذلك لا أحد يعلمها سوى عدد قليل من صناع السياسة والقرار.

***

حالة حزن في مقهى الدب الصغير الثقافي على رحيل الصحفي محمود عبدالوهاب كونه عُرف عن قرب عندما كان يزور المقهى في أوقات متباعدة. فمهما اختلف مع أفكاره بعض المثقفين، إلا أنه كشخصية لها تأثيرها الإعلامي الواسع. أسبوع مرّ على حادثة اغتيال الصحفي محمود عبد الوهاب، فريق العميد عمر أنجز ملف تحقيق سري للغاية حول الواقعة. في مكتب العميد، تقدم العقيد قمر الدين ومد الملف وهو يقول:

- سيدي العميد، ملف التحقيق في قضية الصحفي محمود جاهز.

العميد منهمك في تصفح مجموعة أوراق على مكتبه، ترك الورقة التي كانت في متناوله ورفع رأسه قليلا ونظر وثبت ناظريه في عيني الضابط وسأله:

- ليس الأمر عفويا؟!
- نعم سيدي، للأسف مخطط لها وبعناية.

وضع العميد عمر قلمه على الطاولة ووقف واستدار من جانب الطاولة وسحب الكرسي المقابل وجلس وأشار للعقيد قمر الدين بالجلوس وسأله بصوت هادئ وهو يتناول الملف ويتصفحه:

- من خطط للعملية؟
- سيدي، التخطيط قام بها وكيل وزارة الداخلية بالتعاون مع زملائنا في الجهاز، والدوافع شخصية بحتة التي عجلت بنهايته. ولولا هذه الدوافع لكانت نهايته قريباً جداً حيث يرى القطب الآخر أنه صار عبء يجب إزالته والتخلص منه وبدعم قوي جداً في الدولة.
- والمنفذ؟!
- زملاء. هم من اخترقوا حساب الصحفي وحركوا القضية إعلاميا ونفذها العميل ٨٩. والموقع الذي تبنى العملية انطلق من مبنى

الجهاز. والبيان الصوتي الذي أصدرته جماعة إرهابية تتبنى فيها العملية هي ذات صلة مباشرة بعناصر من الجهاز.

- ما هي الدوافع الشخصية التي تجعل من مسؤولين يتورطون في هكذا عملية غبية؟!

أغلق العميد الملف ووضعه جانباً على مكتبه وراح يسمع للعقيد:

- سيدي، التخطيط والتوجيه صدر من نائب وزير الداخلية كخدمة شخصية يقدمها لرئيس الوزراء. فكما تعلم، وزير الداخلية مريض جدا وفي الأسابيع القادمة سيتم تعيين بديل له، ونائب وزير الداخلية يسدي معروفاً لرئيس الوزراء لكي يرشحه بالمقابل لمنصب وزير الداخلية. والسبب أن الصحفي محمود اختصم مع رئيس الوزراء الحالي عندما كان عضو الأمانة العامة لحزب الجماهير الديمقراطي (المعارض) قبل خمسة عشر عاماً وكتب مقالاً عن علاقة الأخير بملكية بيت دعارة خمسة نجوم خاص بالمتنفذين. وحينها، الجهات المختصة أغلقت بيت الدعارة وكانت فضيحة في الوسط السياسي. وبما أن رئيس الوزراء في منصبة نتيجة تفاوض ولتنصيب حكومة وحدة وطنية، فقد وجد الفرصة لتصفية حسابات قديمة وشخصية.

تنهد العميد عمر وقال بحسرة:

- المصيبة، توريط عناصر من الجهاز بهكذا قضايا غير شريفة، وكيف لنا أن نتعامل مع هذه القضية وهي تمس الجهاز وسمعته. الاستهتار وصل إلى هذا الحد. رئيس الوزراء هو مرشح المعارضة ومن خلفها جماهير خاضت حرب السنوات الحمراء لكي يصلوا إلى هذا المنصب فلا يمكننا كشف حرف من هذا الملف للعلن، على الأقل في الوقت الراهن. خطير جداً أن تتمكن عناصر محدودة من تحريك الرأي العام المحلي والعربي إعلاميا مستخدمين هذه الحيلة القذرة. والخطير أن تصفية الحسابات مستمرة بواسطة تهييج الجماهير.

- نعم سيدي، سبق ورصدنا عشرات المواقع الكبرى والصفحات ذات مئات الآلاف من المتابعين والناشطين من نجوم البث المباشر، كل متنفذ له صفحة الكترونية أو ناشط فيسبوكي يتبعه أو يستأجره للتشهير بالخصوم. والدعم يتم عبر الإعلان الممول ليصل إلى أكبر عدد ممكن. لكل متنفذ ذباب إلكتروني، في ما مضى كان المسؤول يستند على مسؤول أكبر منه. اليوم، كل مسؤول يستند على ناشط

فيسبوكي أو صفحة بل يضغط على المسؤول الكبير بواسطة هذه الأدوات.

- ضع هذه المواقع والصفحات والناشطين تحت الرقابة ويتم اختراق حساباتهم ونسخ الرسائل ومتابعة حساباتهم البنكية وبياناتهم. السيئون دائما صوتهم أقوى من الشرفاء لأنهم وقحون. هذا البلد لن يتعافى وهؤلاء يستمدون شرعية الجريمة من شعار حرية الرأي والرأي الآخر.
- تحت امرك سيدي، ماذا عن ملف التحقيق؟!
- نرفع التقرير إلى الجهات العليا تحت سري للغاية مع نسخة من التحقيق في ملف كل متورط في أرشيف الجهاز حتى يأتي يوم الحساب.

***

في المقهى، مسعد يؤكد لفتحي بأن ميساء لن تترك المقهى وأنه دقيق في معرفة شخصيات الآخرين. دخلت ميساء، انتعش فتحي وطرب مسعد فقط لأن حدسه لا يخطئ. خطت خطوات، وزعت ابتساماتها كالعادة وتوجهت نحو المكتبة على أحد الجوانب وراجعت كتاباً استعارته وتناولت

آخراً، ثم انتقلت لتدوين مشاركات اليوم الأدبية. في الجانب الآخر قلب يحترق، يترقب لحظة يقتنصها ليقترب من ميساء. مسعد بدأ يتنقل من موضوع لآخر يختلف عن تفكير فتحي الآن. مرّ الوقت كأنه دهر حتى فرغت ميساء من التدوين وبقيت طاولة يجلس عليها فتحي ومسعد. كلما تقدمت خطوة نحو الطاولة، كلما نطق مسعد كلمات يريد منها إثبات صحة وجهة نظره وقراءاته.

- عمتا مساءً. "هكذا بادرتهما بنفس ابتسامة ووجها المشرق"
- عمت مساءً. "نطقا الاثنان وهما يتصفحان وجهها"

سحبت الكرسي إلى الخلف قليلا وجلست، وضعت الورقة على الطاولة وسألت مسعد عن موضوعه اليوم، أجابها بأنه سيتحدث عن (كتاب الطفل في العالم العربي) دونت ذلك، ثم سألت فتحي، أجابها أن موضوعه سيجهز للغد. وقف مسعد وتركهما وحدهما. وما إن فرغت من الكتابة حتى بادرها فتحي بعد صمت دام قليلا من الوقت:

- تبدين اليوم أكثر جمالا.
- لم أرد بعد على طلبك يا أستاذ فتحي حتى تتغزل بي.
- امم، آسف. لكنني سأكون مخلصا لكِ.
- أعرف في طبعك الوفاء.

- إذا أتمنى قبولكِ. فعلا أنا أحببتك، ولا أحب المقدمات والأساليب الملتوية، أنا واضح و...

قاطعته بأدب:

- أعرف ولست رافضة لك، وهناك ذكرى تحرق قلبي وأخشى أن تكون سبباً في تعاستنا.
- أية تعاسة، وأنا قلبي يقطر دما مثلكِ، أننا متساويان بالحزن، لنصنع سعادة ونبدد الحزن.
- وهل تتوقع أنني أنسى رأس حسام المذبوح؟!
- لا أطالبك بنسيانه، ولا أنت تطالبينني بنسيان نرمين، إن للموتى حبا في قلوبنا، ولا يعني ذكراهم عودتهم للحياة مجددا ونفترق. بل ذكراهم واجب لأنهم كانوا جزءاً من حياتنا، وقمة الرقي أن أترحم على خطيبك وأنت تترحمين على فقيدتي. أنتِ تملكين عقلا راجحا ولست بحاجة لتوضيح في هذا الجانب.
- صدقت وأتفق معك.
- إذا نحن مشتركان في هذه الجزئية. يبقى ابني، وكم تمنيت أن تكون له أم، فهو هادئ وأشعر بحنيته.
- هذا أمر بديهي، فداخل صدري قلب طيب.

شعر فتحي بنوبة ساخنة تجتاح جسده لتستقر كتلة دموية في رأسه وتراقص قلبه طربا، تظاهر بالتماسك:

- إذا هناك موافقة ولو مبدأية.

ابتسمت وهزت رأسها قليلا:

- لا أعتقد أبدا أنك تمانع عملي أو نشاطي في المقهى.
- يا إلهي، وهل أنا شيخ قبيلة حتى أعاملك معاملة خيمة أو ملك اليمين؟! لو كنت أريد ملك يمين واستهوي الاستعباد، لتزوجت امرأة بسيطة تعشق عبوديتها ولا طلبت امرأة لا أستطيع وصفها إلا بقاموس. أنت بالنسبة لي ملهمة.
- ومع ذلك، لم أعطك إجابة بعد.
- ماذا يدور في بالكِ؟
- بصراحة، أريد توضيح، ما الذي أعجبك بي؟
- عقلك، جمالك، وقفتك، طريقة كلامك، قلبك، وأشياء كثيرة.
- هناك من هن أجمل مني.

هنا، استرسل في كلام ليس له علاقة في الغزل أو استمالة أنثى:

- ما أجمل من أنثى تشرح الإلياذة؟ ما أجمل من أنثى لا يغيب عنها جملة في الفلاحة النبطية. أي أنثى أنتِ؟ لستِ مثلهن، زوجة وعالم معرفة إني أراك أجمل نساء الكون.

***

هناك ما يريد العميد عمر فعله قبل تنفيذ عملية الهدف المشترك، ذهب لوحده إلى القرية حيث يسكن الفلاح أحمد تامر. قابله على بعد من مدخلها بعد تنسيق هذه المقابلة، تقدم أحمد من العميد وتبادلا التحية. وفوراً، عرض أحمد عليه تناول الغداء، رفض العميد وقال له أنه جاء ليقول له ما لم يقله من قبل، "أنت وطني جدا يا أحمد وكذلك زوجتك، نشعر بالفخر ونحن نعمل مع مواطنين شرفاء مخلصين. قبل سنوات، عندما ساهمت أنت وزوجتك في إنقاذ حياة قائد في الجيش، شعرنا بالفخر وازددنا إيمانا بهذا الوطن وتضحية من أجل الشرفاء من أمثالكما، ووثقنا بكما إلى حد اعتبرناك أحد رجالنا فعلا. فشكرا لك". رد أحمد بفخر شديد بأنه قدم واجبه وأنه وأن سعادته لا توصف وهو يقدم شيئاً شاءت الأقدار أن يكون جزءاً منها رغم أنه فلاح بسيط لم يلتحق بركب التعليم. وقال أيضاً إنه دائما

يتباهى أمام زوجته ويشعران معا بالفخر والاعتزاز. ابتسم العميد وقال له وهو يدس يده في جيبه ليخرج بطاقة:

- من العدل والحق أن نقدم لك شكرنا، ونحن اعتبرناك أحد رجالنا في وظيفتك كمراسل سري حيث نجحت في كل المهمات وتبين لنا أنك مخلص شريف وأوجدنا لك ملفاً عندنا ندون ملاحظات عنك طيلة السنوات الماضية وجاء الوقت الذي نسلمك رقمك الوظيفي في جهاز المخابرات العامة (يمد له البطاقة ويتابع...) هذه بطاقتك مراسل مخابرات، أنت أحد رجال المخابرات وعملك سيتواصل في المراسلات...

من شدة الصدمة والانبهار، رد أحمد:

- بربك يا سيدي، لا تقل إنك تمزح معي أو تجربني.
- منذ متى أمزح في أمور العمل؟! أخفي بطاقتك في جيبك، لا تخبر أحدا بهذا. إخف البطاقة واحفظ الرقم ومستحقاتك ستصلك. والعقيد قمر الدين سوف يأخذك لدورة لمدة ثلاثة أشهر ليدربك على بعض المهارات..

***

خطة للقضاء على الهدف المشترك، تتمثل بانتقال العميد والعقيد خالد إلى دولة تطل على البحر الأبيض المتوسط، تهريب عبر الحدود. وهناك، يوجد عميل سيوفر لهم متطلبات الرحلة على أنهم لاجئون يقصدون السواحل الإيطالية. العميل أبلغ العقيد قمر الدين بإشارة أن حالة الطقس ملائمة لرحلة البحرية والطلبات جاهزة من نوعيات الأسلحة وأغراض السفر. وحدد للعميل مكان الالتقاء في عرض البحر عبر نقطة متفق عليها تم تحديدها عبر جهاز الجي بي أس. انطلق العميد عمر والعقيد خالد برا، تجاوزا الحدود والحدود الأخرى، مسيرة أيام حتى وصلا عرض البحر حيث تنطلق من تلك النقطة قوارب سميت (قوارب الموت). حدد موعد الانطلاق عند التأكد من حالة الطقس وهدوء البحر. كان العميل بانتظارهما، استقلا القارب، وحددا نقطة الالتقاء بقارب التزويد بالاحتياجات في عمق البحر. وهناك، أخذا احتياجاتهما من سلاح مطلوب حدد سلفا ومؤونة. واستمرت الرحلة باتجاه مقصدها شاطئ إيطاليا. تجربة يخوضها لا تقل عن تجارب اللاجئين وأهوال الموت، عمق البحر وغضبه لا يفرق بين سباح ماهر ومبتدئ، جميعهم لقمة الموج بالتقاسم مع أسماك القرش. في صدر البحر، السماء زرقاء، البحر أزرق، أينما ولوا وجوههم مدى أزرق. نهارا، خيوط الشمس ولحيفها ينير زرقة الكون.

ليلا، وحشة الظلام والسكون تتداخل الأمواج. تجربة لاجئ يفر من الموت إلى الموت بلا كفن وقبر، يجد الحياة في براثن الموت، مجهول ينتظر الوقت للعبور إلى أقدام البحر. ليلا نهارا، نفس المنظر. أمواج تتلاطم ببعضها وتتكاتف لتنال من القارب. أسماك القرش تمّر بهلوانيتها ورشاقتها بامتطاء الهواء والعودة سقوطا لمخادعها البحرية. من هنا، مرّ الهاربون العابرون نحو سقم الأحلام، منهم من تناولته القرش وليمة ومنهم من نجا بألم حزين يلملم ما تبقى من سخم الذاكرة في بلاد الأحلام. في كل قارب، عشرات الجثث الحية متراكمة فوق بعضها. نعم، العميد والعقيد خالد ومساعده في الرحلة محظوظان لأنهم، في قارب لوحدهما، وغيرهما تكدسوا أحياء فوق بعضهم البعض عطشى وجوعا ومرضى. آه، ما أقسى الوجود وما أحن الموت المهدى من البحر. يشعر العميد بتجربة بكل معانيها، ويستحضر صورا وتقارير عن رحلات كللت برحيل الأرواح نحو البدايات الأولى وبكت عيون أحيائها عند حبة التراب الأولى في طريق الوصول، أمهات تحتضن رضعانها وترتل أدعية النجاة وتدعو بأن تجود بأرواحها لصغار لعل خبز الحياة هناك خلف هذا البحر حيث لم يصل أجدادهم وإلا لما وصلوا. كلٌّ يحاور نفسه، ويسأل نفسه، كل ما جرى ويجري هو يؤدي إلى هذا العبور من هذا الطريق البحري، من أجل أن

يعيش القليل ليرحل ويموت الكثير. يدرك رجال المهمة في هذه الغيوم الزرقاء الآن وعورة التجربة وكيف؟ ولكن، كل طرف يرى نفسه الأحق بالوطنية ويمارسها من حيث يفهم ويقاتل من أجل ما يفهم واختلف أبناء الوطن على الوطن واختلف البحر مع العابرين عبره. حقا، يتمنى العميد في نفسه لو تنازل الطرف الآخر قليلا، لربما توفر الدم والجثث ولما غرق شعب في بحر. وفي الطرف الآخر، يرى أن العدو لو تنازل وقبل بالعروض لوفروا نصف الدم على الأقل. ويبقى الجدل بين ذا وذاك في الصدر قبل الوسائل الصوتية، ويبقى الجدل عند الله يفصل في ما اختلفوا فيه ولكن ليس الآن، فلقد أخبر البحر الله أن من هنا رحل بشر نحو الموت يناجون الحياة. البحر ينكر جريمة إغراق الهاربين، والمُستقبل يتهم البحر والمهربين، والطارد يتهم البحر والمجهول. لو نطق البحر يوما لقال ما غرق أحد على صدره، ولكنهم غرقوا عندما قرر الإنسان. وللإنسان في جريمته شؤون..

***

جاسر نبيل رجل المال والطامع في السلطة والموعود بدور معين له في المرحلة الانتقالية إلا أن الفوضى وتعدد أقطاب الحرب وتدمير البنية التحتية والشعبية وخوض الدولة قتال شرس ضد جماعات مسلحة وضد

النصف المنشق منها حال دون تحقيق الوعود كاملة والتي على أساسها غاص جاسر بأمل شديد في وحل الحرب من دعم مالي وإعلامي قوي بأمر من واعديه إضافة إلى الدعم الخارجي المباشر والمعلن. تجارة الحروب مربحة لجميع قادة الحرب ضعف الأرباح بزمن السلم. ولذا، الجميع نشدوا مواصلة الحرب بالشعب في بعضه البعض والشعب بغباء مركب انخرط بعمى مطلق دون تفكير كلٌ لجهة رأى أنه الأصلح لتمثيله وإدارة شؤونه. جاسر يعلم أنه واجهة ولم يمانع استخدامه مقابل تحقيق تطلعاته ورغباته التي تنم عن غريزة منذ الطفولة متصلة للحال مطالبا نفسه بإثبات نجاحاته أما شخصيته. أخذ من الدنيا ما يريد وانسجم مع الدور وعاش رفاهية مطلقة ومرات كثيرة راجع نفسه بمسألة الزواج وينتهي إلى أنه يشبع رغباته متى شاء بتنوع وبدون حدود وما الزواج إلا إنجاب فقط بالنسبة له. وهذا من الخطوط الحمراء، فصورة طفولته ماثلة أمامه ولا قبول لطفل ربما يكون في نهاية المطاف عالقاً في عجلة الاستغلال إذا حدث لجاسر مكروه خاصة أنه كان معرضاً لأخطار عدة. والآن، بعد اتضاح الرؤية له وقد انتهت سنوات الحرب وتبددت أحلام السلطة واستقراره الدائم في أوروبا مع القدرات الإدارية لشركاته عن بعد بفضل تقنيات الاتصالات والشبكات الإدارية الالكترونية، قرر أخيراً إنجاب طفل: "لا

أحبذ الزواج ولست ممن يرتبط بنقطة إلى الأبد، لتبقى حياتي كما هي وأستأجر فتاة لتنجب الطفل وتختفي من حياتي". هكذا قال الاسبوع الماضي وسعى حتى وجد له مساعده امرأة في سن الواحد والعشرين، قبلت العرض دون أن تعرف الشخصية التي ترغب بالطفل، تحقق منها وقرر دفع مبلغ مالي يكفيها لتعيش حياة جيدة وألزمها بأن توقع عقد كتم السر وعقد عدم المطالبة بالجنين. كل هذه الاتفاقات مرت عبر محام فاسد ولم تعلم الفتاة من هو أب الطفل فجاسر لم يقابلها وجها لوجه ولكن الخطة جاءت بعد التأكد من نجاحها، تكفل مركز أبحاث طبي بتخصيب بويضة ذكرية وزراعتها في رحمها. وعند دخول الفتاة للمركز الطبي المتخصص، ستكون كاميرات المراقبة متوقفة عن العمل حتى تخرج الفتاة من المركز وتتوجه إلى المطار فورا وتسافر إلى دولة زنجبار حيث رتب لها إقامة خلال مدة الحمل لتضع مولودها هناك ومن ثم تنفصل عنه وتعود لبلدها. وفي زنجبار، حيث الفساد مستشر، سيخرج الطفل إلى دولة مجاورة دون جواز سفر. وهناك، سُيمنح جواز سفر مؤقت وأم مؤقتة وينتقلان إلى بلاده الأم. ومن ثم يسجل عقد زواج له من ميتة حديثا ويسجل الطفل باسمه الحقيقي وباسم الأم المزورة الميتة وهكذا يفصل بين الطفل وبين أمه الحقيقية إلى الأبد والتي لن تعرف ولا تستدل على أثر عن ابنها الذي

تقاضت ثمنه بعد إن كانت حياتها المالية متعسرة ومنهكة بالديون وهي مازالت بالسنة الثالثة في الجامعة. والأهم من ذلك أن يكون له طفل ليس له أم، ليرث اسمه وعمله دون أي ارتباط. هكذا تصرف من المؤكد لا يصدر من شخص متزن ذوي أحاسيس وشعور. بل تصدر عن مضطرب ومعقد من الانتماءات الأسرية مهما كانت درجات ذكائه ومستوى نجاحه العالي.

***

يقول نيكولو ميكافيلي "الدين ضروري للحكومات، لا من أجل الفضيلة، ولكن لغرض السيطرة على الناس". ولهذا، الدولة حريصة كل الحرص مثلها مثل جميع الدول العربية بأن يكون لها فيالق من رجال الدين في كل مكان لتبقي سيطرتها الدينية على الناس وتوجههم نحو اي أتجاه ترغب فيه. فرجال دين الدولة يضفون شرعية يحتاجونها لتثبيت دعائمهم ولمواجهة العواصف المحتملة التي تظهر فجأة والدين يساعد في تبديد الأخطار وحشد الجماهير الذين يسهل خدعهم بأدوات دينية بسيطة وتجيير حياتهم لتغدو رهن إشارة الحاكم للدفاع عنه والموت في سبيله لأسباب

صُيغت باسم الله بفضل مجهودات متوارثة منذ العهد الأموي وتطورت في العباسي واستفاد منها المغول والعثمانيون.

رجل سري يزور رشيد أبو حفيظ في منزله وعرف عن نفسه بأنه مرسل من المخابرات، رحب به وأدخله إلى بيته، جلسا وتجاذبا أطراف الحديث حيث بدا لرشيد أبو حفيظ أن الرجل ملم بأمور الدين بشكل جيد وطليق اللسان. في نهاية الحوار بينهما، طلب الرجل من رشيد أن يفتح أذنيه جيدا ويستمع لما سيقوله له:

- بلادنا مرت بمراحل صعبة وكانت قاسية وخسرت خيرة شبابها وتناقص نسبة الشباب وانتشرت الأمراض وهتكت الأعراض ودمر كل شيء تقريباً. وها نحن عدنا إلى الصفر.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. يعلم الله أني اعتزلت الفتنة من اليوم الأول لها.
- ما وقع قد وقع، ولكننا نتذكر ما حدث كي لا ننسى أن المتشددين هم سبب ما حدث، هم من أفتوا بالقتال وأفتوا بقتل موظفي الدولة وذبحوا وفجروا وكفروا واغتصبوا. والدولة كانت في وضعية دفاع عن النفس وعن شعبها حسب الشريعة المحمدية والدستور ومن منطلق مسؤولية أخلاقية.

- لا بارك الله في كل من استباح الدم.
- لذا، نحن قررنا أن لا نترك الساحة للمتشددين لأنهم يجيدون العمل تحت الارض والترتيبات السرية. ويجب علينا محاصرة أفكارهم الظلامية والرجعية.
- نعم سيدي..
- بناءً على ما ذكرت لك، عليك الالتزام من الآن فصاعداً بمواضيع خطبة الجمعة التي نرسلها لك كل خميس ولا تخرج عنها.
- حسناً سيدي..
- ولنا طلب منك يا شيخ رشيد.
- إذا كان بمقدوري يا سيدي..
- بمقدورك، وتستطيع... نريدك أن تكون عيناً لنا ساهرة لا تنام وترفع لنا تقارير.

اهتز رشيد أبو حفيظ وشعر بأنه سيكون جاسوساً:

- سيدي... الله يرضى عليك أعفني من مهمة رفع التقارير. فلا طاقة لي...

تغير أسلوب الرجل:

- إما أن تكون معنا وإلا أنت ضدنا ومع الإرهاب.
- أعوذ بالله يا سيدي، عافاك الله ...
- قال الله سبحانه وتعالى "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". هذا أمر من الله يا شيخ رشيد. فهل ترفض أمر الله؟! أنت لن تفعل الغلط، أنت تحرس دين الله من العبث. وهذا لعظيم جداً عند الله سبحانه وتعالى ولك حسنات. فأنت جندي يسهر على أمن الناس من أطفال ونساء..

تابع الرجل محاضرته حتى قال له رشيد أبو حفيظ:

- سيدي، سأكون خائناً للوطن لو وعدتك كذباً، يصعب عليّ رفع تقارير، وكمواطن صالح لو وجدت ما يستوجب إبلاغ الشرطة به سأفعل كون هذا واجب الجميع.

***

رحلة طويلة جدا، وصل القارب إلى قرب ساحل شبه جزيرة كلابريا في جنوب ايطاليا في منتصف الليل، نفخا القارب المطاطي وركباه باتجاه نقطة محددة في الشاطئ. أما القارب الذي قدما به، فقد تراجع إلى مسافة بعيدة

وعليه يحتفظ بالأسلحة حتى العودة لأن الهدف منها دفاعي. وفي حالة اكتشاف مكان القارب واقتراب حرس السواحل، فالأوامر أن يرمي السلاح في البحر. مضى بعض الوقت حتى وصلا إلى النقطة المحددة عبر الجي بي أس وكان العميل في انتظارهما، نزلا من القارب، أفرغا الهواء منه ليسهل أخذه كي لا يكون دليل الشرطة على متسللين. عبرا الشاطئ مشيا حتى وصلا إلى مكان فيه السيارة. استقلا سيارة من نوع رونو، أخذ العميد مكانه في المقعد الأمامي، انطلقت السيارة، جرس أنذرا حزام الأمان يرن، ربط العميد الحزام.

سأل العميد العميل الذي سماه باسم مسيحي (جورج):

- أكل شيء على ما يرام؟
- نعم سيدي. سنذهب إلى منزل لتبيتا الليلة بعد هذا السفر الطويل.
- جيد، نحتاج الراحة.
- نصف ساعة ونكون في المنزل. (يمد يده نحو خزانة السيارة الأمامية ليفتحها ويده اليسرى تتحكم بالمقود، تناول وثائق وتابع قوله...) هذه هوياتكما هنا، بها سنتجاوز أي دورية محتملة للشرطة.
- حسنا.

- يبدو عليك الإرهاق سيدي.
- نوعا ما. تبقى رحلة شاقة.

وصلا إلى المنزل قبل بزوغ الضوء، أخذوا حماماً ساخناً وتناولوا وجبة الإفطار. وعندما استيقظوا، راجعوا نقاط عمل جورج. جورج مقيم ويحمل جنسية إيطالية وهو مجند منذ سنوات يعمل تحت أمرة العميد، يتقن اللغة الإيطالية واستطاع خلال سنوات حياته الاندماج في المجتمع وبالشخصيات الخفية. هو مفتاح إنجاز المهمة. فقد رتب لكل شيء في إيطاليا من وثائق ثبوتية وأسلحة ومعرفة الطريق إلى موقع الهدف والطرق الممكنة كخطوط احتياطية. اقترح عليهم الانتظار إلى الغد حيث تكون عطلة الأسبوع ويسهل التنقل. قضوا الوقت في المنزل ولم يخرج العميد ومساعده، حتى بدأ المساء يدغدغ الأبصار، استعدوا للذهاب، نزلوا إلى جراج السيارة. السيارة مسروقة وتم تغيير رقمها وتحويلها إلى سيارة أجرة بواسطة لصق هيكلها كاملا بلاصق أصفر تسهل إزالته إذا أرادوا. تفحصوا أسلحتهم وعدتهم، الذخائر التي أحضرها جورج وهي نفس ما تستخدمها إحدى العصابات هنا لحرف مسار التحقيقات. استبدلوا شرائح الاتصالات. انطلقوا عبروا الشوارع. كل ربع ساعة، يستبدلون شرائح الاتصالات. الإشارة أن الهدف المشترك في سكنه. المسافة للهدف

طويلة، جورج يعرف جيدا الشوارع والمداخل والمخارج. هذا ما استحسنه العميد:

- جيد أن تؤدي عملك بحرفية.
- نعم سيدي، هنا في أوروبا لا حياة بلا معرفة.

سأل العقيد خالد من المقعد الخلفي مستوضحا:

- ماذا عن جاليتنا من اللاجئين، هل يندمجون في المجتمع كما يفترض؟

نظر إليه جورج من المرآة المثبتة على الزجاج الأمامي وأجاب:

- اللاجئون العرب هربوا من وسائل حياة لم تناسبهم إلى أوروبا، ويطالبون بنفس الوسائل هنا التي هربوا منها، بل انشأوا حارات خاصة بهم ونقلوا معهم سلبياتهم. ومن الصعب تجريدهم منها إلا بعد أجيال. تخيل، أن هناك بعض افراد الشرطة الأوروبيين الذين يعملون في مناطق تواجد العرب تعلموا الإكرامية، نحن فيروس فساد لا لقاح له يا سيدي. اللاجئ هنا في أول يوم لقدومه لا يستهله بتعلم اللغة والتحول إلى عنصر فعال، بل يبحث عن نقاط ضعف القانون ووسائل الاحتيال على المساعدات.

نظر العميد إلى جورج وقال:

- الفائدة الوحيدة للاجئين تعليم أبنائهم والتحاقهم بأهم الجامعات.
- يا سيدي، القليل من سيلتحق، جاليتنا تبحث عن دخل مالي سريع أو حيلة قانونية للحصول على مساعدات مالية إضافية. إلى الآن، لم نسمع بمبدع من جاليتنا. إنهم يحملون أعباء نفسية، لا تنسى أنهم قادمون من وسط دوامة الحرب.
- حتما، سيتأقلمون.
- سيدي، من جاء بفكر متأصل في عقله من الصعب تأقلمه. وأنا اختلف مع نظرة الحكومات هنا حيث تعقد عليهم أملاً مستقبلياً. أغلب اللاجئين هنا والذين حصلوا على اللجوء وتعمل الدول على إدماجهم في المجتمع، لم تغب عنهم فكرة أنهم في بلاد الكفار، وأن مصيرهم النار وأن ما حصلوا عليه هو من حقهم المشروع. سيبقى الارتباط بأصل التفكير موجود بين زمنين.
- تمرّ شعوبنا بما مرّ به الأوربيون قديما.
- الأوروبيين تعبوا من الموت وكانت تجربة الحرب العالمية قاسية، قال هتلر إن من ينتصر في الحرب سيحكم العالم لعشرة قرون، أدرك الأوربيون أنهم في حرب حكم العالم. لذا، قرروا أن يكونوا

الإنسان سواء كانت الدول المنتصرة أو المهزومة، المنتصر تفاوض مع المهزوم لبناء الإنسان وتضافر جهود الطرفين.

- خرج الأوربيون من الحروب أصحاء.
- نعم سيدي. عكس بلداننا، المهزوم لا يقف أبداً، يبقى مسحوقاً وتغذي الأحقاد وإمكانية استثارتها مجددا أمر وارد. الأوربيون يتذكرون حروبهم الدينية وبين الدول ويشعرون بالقرف والعار ويستغربون كيف كان أجدادهم دمويين لا يفكرون. في بلادنا، انتهت الحرب بتفاهم سياسي وليس بمنتصر ومهزوم، وهذا هو الخطر لأن الحرب ستنشب مجدداً لنفس الأسباب والمصالح والأدوات وربما نفس الأشخاص.
- لماذا لم تكتب تقييماتك بالتقارير الدورية؟!
- سيدي. أنا مكلف بمهمات عملية وليست تحليلية، ويجب أن أنجح بمهمتي، وعندما أجد الوقت الإضافي، سأفعل.

أدار جورج المقود ليخرج من الشارع المقارب لطريق الهدف المشترك. تأكد العميد من الإشارات القادمة أن الهدف في ذلك المبنى. بدأ التحظير الأخير، لبس القفازات المضادة للأسلاك المعدنية. بدا الشارع هادئاً، توقفت السيارة على بعد مائة متر تقريبا، بقت استدارة ليظهر لهم المبنى

جليا. ترجل العميد بعد أن تأكد خلو الشارع من الراجلة، وضع الروبرت على شكل سيارة صغيرة على الأرض، بدأ بتسييره آليا. الساعة ١١:٣٠ ليلا. عند خمسين مترا من المبنى، أوقفت عمل أجهزة المراقبة للمبنى. بدأت كاميرات المراقبة تنقل آخر صورة التقطتها لتوهم المراقب أن الأمر على ما يرام. ترجل العقيد خالد أيضاً وأغلق باب السيارة. بخطوات محسوبة، تقدما نحو سور المبنى. يصعد العميد فوق كتف خالد ويبدأ في قص الأسلاك المعدنية التي تعلو السور الإسمنتي باحترافية. استطاع إزالتها في الوقت المحدد حسب الخطة والتدريبات التحضيرية لهذه العملية. نزع القفازتين المضادتين للأسلاك المعدنية، أعادهما لحقيبة الظهر واستبدلهما بشفافتين، ارتفع بجسده إلى أعلى السور، مد خُطافاً يمسك به ليتبعه العقيد خالد، تجاوزا السور بحذر. انقسما، كلٌ أخذ مدخله المحدد سلفا. واجه العقيد جسدا فأرداه قتيلا بمسدس كاتم الصوت، يتقدما بدون ضجيج ضجيج يذكر. خطوة تتلوها خطوة، كلٌ منهم مسؤوليته الاقتحام من باب باب مخصص له. بدأ الدخول للمبنى. من خلف حائط، لمح العميد اثنين، اثنين، فبادرهم بطلقة بالرأس لكليهما. تابع تقدمه وكذلك العقيد الذي للتو أطلق رصاصة لتستقر في قلب شخص قابله. باب المبنى زجاج مضاد مضاد للرصاص. خلال دقيقة ونصف تقريباً، تم إحداث فتحة بواسطة آلة

تثبت عليه وتدور شفراتها وتحدث فتحة، أدخل يده من الفتحة وفتح الباب وسيطرا على الدور الأرضي، تلاقى العميد وخالد عند سلم الدور الثاني، صعداه بحذر. وفي نهايته، تظهر مساعدة الهدف المشترك، نالتها رصاصة خاطفة لتترنح أرضا غارقة في دمائها. تابعا تقدمهما نحو الغرفة المقصودة، فتح الباب بهدوء، صوت جاء من هناك من على الأريكة "تقدمي يا بتلة" يجلس وظهره يواجه الباب من بعيد. تقدم العميد ومسدسه موجه نحو الهدف. العقيد أخذ مكان الدفاع لأي اقتحام للغرفة. أمتاراً ومسدس العميد فوق رأس الهدف. استدار الهدف، ليجد نفسه في موقف الموت:

- العميد عـــــــ....؟! كيف دخلت؟!

جاءته الإجابة:

- لا يهم كيف دخلت، يهمني مغادرتك الدنيا.

(للعلم، محاولات الاغتيالات الأخيرة ضد العميد كانت بأوامر من جاسر نبيل...) ارتمى أرضا ويمد يداه كأنه يحاول أن يدفع شيئاً ويقول متوسلا:

- سأعطيك ما تريد، طلباتك...

تقدم العميد خطوة وصفع خده بقدمه ليرميه جانبا، سال الدم من أنفه وفمه، رفع رأسه قليلا يتوسل:

- لا تتهور، سأعطيك ما تريد.

تقدم العميد نحوه وحدق في عينيه وهو مصوب مسدسه نحو رأسه وقال:

- جاسر نبيل، أنت أحقر إنسان على الأرض، تسببت بسحق شعب، واعتقدت أن لا أحد يصل إليك، ها أنا وصلت إلى عقر مخبئك.

قال جاسر متوسلا:

- "لا تتهور، نتفاهم.....

انطلقت رصاصات لتستقر في رأسه ليرتطم أرضاً. اقترب العميد خطوة وانحنى، وضع أصبعيه على رقبته ليتأكد من النبض، توقف النبض، استقام العميد. فورا، غير العقيد موضعه إلى خارج الغرفة بغرض الدفاع وإعطاء فرصة للعميد لجمع ما يريد من الأوراق التي في المكتب المقابل ومن الكمبيوتر. تسع دقائق والعميد جاهز للخروج على ظهره حقيبة مليئة بالوثائق. وكذلك حقيبة خاصة بالعقيد سلمها له عند خروجه من الغرفة. وكما دخلا المبنى خرجا إلى الفناء، تأكدا أن طريقهما آمن، تجاوزا السور، خطوا خطواتهما نحو السيارة. أخذا مقاعدهما. أدار جورج المحرك وهو يقول:

- سيدي بقي الروبوت.

أمره العميد:

- انطلق فورا، يجب أن يبقى الروبوت متحكما بكاميرات المراقبة حتى نغادر البلد.

انطلقت السيارة نحو نقطة الانطلاق لعبور البحر. أسند العميد رأسه على المقعد وأخذ نفسا عميقا، شعر أنه أنجز أهم مهمة في حياته العملية. ما بعد هذه اللحظة لا يهمه أبدا مهما كانت النتائج الافتراضية. المهم أنه قضى على رجل المال جاسر نبيل. أغمض عينيه لثوان، رفع رأسه واستدار نحو العقيد في الخلف، وجده يشرب الماء من زجاجة بلاستيكية فسأله:

- أأنت على ما يرام؟
- نعم سيدي، نجحنا...

هز العميد رأسه مستحسننا وعاد إلى وضعيته.

- كم بقي حتى نصل النقطة التالية؟ (هكذا سأل العميد جورج).

أجابه أنهم قريبون.

- متأكد أنه لا توجد كاميرات مراقبة هناك؟
- العصابات لا تضع كاميرات مراقبة في أهم معاملها. كن مطمئنا سيدي.

دقائق ليدخلوا بالسيارة إلى حوش خاص بإتلاف السيارات القديمة. توقفوا تحت الرافعة، ترجلوا جميعا، هبطت الرافعة فوراً وأحكمت قبضتها

بالسيارة ورفعتها ليتم إعدامها وتحويلها إلى قطع لتذهب للفرز لصالح شركة إعادة التدوير. تحركوا نحو سيارة مرسيدس حديثة منزوع منها جهاز التعقب بواسطة محترف ووضعت سلفا في هذا المكان، أخذوا مقاعدهم قاصدين الشاطئ. تخلصوا من أي أثر محتمل لهم، هذا المكان يتبع إحدى العصابات المنتشرة في أوروبا ويتم فيه التخلص من أثار الجرائم المرتكبة. على مقربة من الشاطئ، توقفت السيارة، ترجلوا وأخذوا مقتنياتهم، جورج تكفل بنقل القارب المطاطي من صندوق السيارة إلى الشاطئ والبدأ بتشغيل جهاز صغير يضخ الهواء لنفخه خلال دقائق. العميد يرسل توجيهاته المشفرة ليقترب القارب إلى نقطة محددة في عرض البحر عبر الجي بي أس. القارب جاهز. أمسك العميد بكتف جورج وهو يهز رأسه ويقول:

- "أبدعت، وأوفيت، وبمساعدتك نجحنا في أهم مهمة".

ابتسم جورج وقال:

- أديت واجبي، أنا تلميذ العميد فاروق رحمه الله.
- شكرا.

احتضنه للوداع ثم احتضنه العقيد وانتقلا إلى القارب المطاطي وبدأت رحلة العودة.

***

من آخر الموجعات التي واجهها مسعد انفجار عبوة ناسفة من مخلفات الحرب كانت ستودي بحياة ابنه، إلا أن الله كان رؤوفا به حيث أصيب بشظية واحدة في قدمه. تعمق في التفكير كثيراً وجمع نتائج الحرب وسيكولوجيتها وتأثيرها على الفرد وأحس بحجم المصائب وناقش زملاءه وانتهوا إلى الاستمرار في إثارة الموضوع عبر صفحة المقهى في الفيسبوك والتي تجاوز متابعوها المائة ألف من جميع أنحاء الدول العربية. نشروا عن ذلك ولكن الاكثر غرابة هو وصول رسالة من إدارة الفيسبوك بأن تبليغات بالآلاف عن الصفحة بأنها تدعو للكراهية والإرهاب. صدمة رواد المقهى الثقافي لا توصف حين أجمعوا جميعا أن صفحات الإرهاب والكراهية لم تغلق يوماً وتغلق الصفحات التي بالأصل هي ضد الفكر الدخيل على المجتمعات وضد أي عمل لا إنساني، نصحوا بإعلان طلب الدعم من المتابعين بالتعليقات والإعجابات لتخفيف ضغط البلاغات القادمة من الغرف السوداء. هذا نتاج أسبوع من النقاشات والتوترات واكتشافات حجم الكارثة الحقيقية، وانتهوا جميعا أولا إلى فتح صفحة احتياطية في الفيسبوك باسم المقهى وتأسيس موقع باسم المقهى برسيفر

خاص ليكون محمياً من الهجمات ولا يتعرض للإغلاق. وثانيا، التواصل مع الجمعيات والمنظمات العالمية للحديث عن مخلفات الحرب وإثارة القضية لتثير انتباه الناس والتواصل مع الكوادر العربية ذات الاختصاص لتزويدهم بمعلومات واقعية وملموسة لعل ذلك يعزز من قدراتهم المعرفية في تأليف كتب ولو جماعي تنقل للأجيال القادمة حقيقة المآسي لكي لا تعاد تجربة الحرب. وهكذا، أرادوا مع يقينهم أن العرب لا يتعلمون من المصائب والكوارث والأخطاء بل يكررونها بلا مبالاة وحماقة شديدة. مسعد تذكر أنه يوما ما كان مدعوا لمحاضرة للدكتور الباحث الأكاديمي وحيد فهمي والذي اختلف معه بالرأي يوما ما قبل الحرب، أراد الاتصال به ونقل مقابلة معه مباشر عبر صفحة المقهى والقناة التابعة لهم في اليوتيوب يتحدث فيها عن وجهة نظره للحلول التي قد تمنع نشوب الحرب مجددا. حينها، لؤي شكك بأن أي مشروع سيعيق نشوب حرب مستقبلية لأن لا شيء يدل على ذلك، وقال إن الطبقة المتوسطة عماد توازن المجتمع انتهت ونصف الشعب يعاني من مخلفات الحرب المرضية والتعليم صفر والأمراض المعدية غير متحكم بها والقطاعات الخدمية مدمرة. حينها، أجمع البعض على الرد أنهم يحاولون وسيشتركون في تأليف كتاب عن ذلك وربما أكثر وعلى الأقل أنهم لم يقفوا موقفاً سلبياً. وكما قال فتحي،

أن أي محاولة ستجعله يشعر بأنه حاول ويحترم نفسه لأنه لم يسكت ولم يختبئ خلف أصبعه ليحجب ضوء النهار.

***

أبو أحمد البقال ركبه الغرور وصار واثقا من نفسه ويرى أنه يتمتع بحصانة في تجارته الصغيرة دون خوف عند بيعه المنتجات منتهية الصلاحية. فهذه عادة تعود عليها منذ القدم ويراها تقديم خدمة للحي لأنه يبيع المنتجات الفخمة منتهية الصلاحية بسعر مقبول، هذه الجرأة قادمة من تجنيده كمخبر ويتقاضى راتب أيضاً مقابل ذلك. "آه... أين كان هذا العز من زمان، لو كتب لي وصرت مخبراً من زمان لم يذلني مندوب الضرائب ولا الرقابة". هكذا قال في سره وهو يرى بعينيه مندوب الرقابة يتجاوز محله ولم يعد يجرؤ على الاقتراب منه. قبل أشهر، جذبه أبو أحمد وأبرز له جزءاً من البطاقة مما أرعب المندوب وحرمه الاقتراب من هذه البقالة. وها هو لديه حصانة أجاد استخدامها مخالفا لقوانين العمل وتحذير من جنده لمهمة مراقبة الحي وممارسة مهنة المخبر.

***

وسيم وشخص يدعى (موسى) رفيقه في السلاح أيام الحرب، كانا في خندق واحد وخلف مترس واحد وفي نفس جماعة الهجوم أو الكمن. وكلٌّ منهما يحرس الآخر، بينهما قصص وحكايات لا تنتهي، حالفهما الحظ في البقاء على قيد الحياة رغم ضراوة المعارك التي خاضاها وأصيب موسى بطلق ناري في بطنه ونجا من الموت وتعافى وعاد لمترسه. صديقان جمعهما السلاح وكلٌّ منهما له سبب منطقي جعله يشترك في الحرب مثل سائر المقاتلين وقادتهم. فكلٌّ له سبب منطقي وشرعي مشرعن تم شرعنته وقاتلوا من أجله وصار للجميع أسبابهم المنطقية لاستمرار الحرب والمكافأة بالشهادة بعد الموت وانغمس جميع الأطراف وصاروا هم من يحددون من يطلقون عليهم لقب شهداء. يحدث موسى رفيقه وسيم عن شيء راح يتردد على عقله عندما يتذكر مواقف معينة حدثت أيام الحرب. ومنها مرحهم الشديد عند القتال. وعندما يسقط لهم قتيل يتفاجأون ويبكون بحرقة وكأنهم لم يتوقعوا موت أحد منهم، فيرد عليه وسيم بأن العمر يلعب دوراً. فالشجاعة تكون في ذروتها في الشباب وتتناقص تدريجيا مع تقدم العمر حتى يصبح الإنسان حريصاً إلى مستوى تجنب القفز خشية التواء مفصله فما باله بكسر عظامه ونوه أن هذا يشعر به الآن ومن تجربة شخصية. ويستمر بينهما تبادل أطراف الذكريات والتحليلات

السياسية كلٌ من وجهة نظره مثلهما مثل باقي الشعب يختلفان في موضوع ويتفقان حول آخر ويبقى سؤال يتفقان على الإجابة عليه بشدة وهو "لو عاد الزمان للوراء، هل سيشاركان في الحرب؟" الإجابة لكلاهم بنعم مع الإصرار وأحقية شرعية في الحرب وانتقامية ولو نشبت الحرب اليوم "هل سيشاركان بها؟" الإجابة نعم وأيضاً بإصرار وشرعية موجودة لخوضها مجددا. وكما جمعت الحرب بين وسيم وصديقه المقرب موسى، جمع بينهما مشروع تجاري صغير بحسب مدخراتهما من رواتب صرفت لهما شهريا من قيادة الفصيل المسلح. قبل شهر، افتتحا محل بهارات، لم يؤت المشروع أكله ومن الواضح أنهما لم يخططا جيدا وكان القرار ارتجالياً وخاصة أن لا أحد منهما يجيد مهنة التجارة. وبما أنهما يتشاركان في صفة الانفعال التلقائي، فقد تجادلا وكلٌ يحمل الآخر مسؤولية فشل المشروع المبكر. ودون وعي ولو صبراً قليلا، لربما يتعلمان كيف تدار الأمور. كلمة تليها كلمة، حتى تجاذبا وتشابكا. وفي وسط المحل، نشبت بينهما معركة ساخنة حتى تمكن موسى من الإمساك بقفل المحل وهو من النوع الكبير وضرب به رأس وسيم ومع كل ضربة يفقد تفكيره ويشتد بسالة وكأنه في معركة مع استحضار صور من مخيلته لاقتحامات زمن الحرب وتغير كل ما تراه عيناه واقعيا إلى الخيال المحض وكأنه في ساحة من الدم يرقد تحته عدو وجب قتله، لم يتوقف عن

الضربات القوية والسريعة والصراخ الحماسي، تطاير الدم وهشم رأس وسيم وفقد الضحية الحركة تماماً وإلى الأبد واستمر حتى دخل البعض من الشارع إلى المحل وامسكوا به بصعوبة بالغة، فهو هائج جدا وخارج واقعه...

***

تميز رشيد أبو حفيظ بخطبه التوعوية غير التحريضية ونقل للمصلين صورة إيجابية للتعايش وحب البعض ونبذ العنف وراح يدون المشاكل طيلة الأسبوع. ومن على منبر الجمعة أو بعد فرض الصلاة، يطرحها على المصلين ويقدم النصح. هذا الرجل جاء بطريقة تختلف عن غيره في هذا الزمن. فقد رفض تقاضي راتب إمام مسجد وبقي كما هو بائع خضار. وقبل الصلاة، يذهب للصلاة ويعود لعمله حال انتهائها. نقل صورة إيجابية أن الأمل موجود ويمكن تصحيح الوضع ومتابعة القيمين على الناس دينيا ومن الجيد وضعهم تحت الرقابة لمنع المتربصين والمتطفلين والمتربحين والمغرضين من امتهان هذه المهنة والتي يفترض أن تكون لمن لا يتربح منها بأي شكل من الأشكال وإنشاء محاكم لمحاكمة كل من يستخدم نص الدين لغرض دموي أو تربحي أو استغلالي أو تشويهي. فلا حصانة

لكل مغرض يلبس لبساً دينياً. أداء رشيد أبو حفيظ لفت أنظار الناس بمكان المقارنة الموجودة بينه وبين غيره ممن بيدهم ناصية الدين. وهذا فتح عليه مجددا باب الصراع مع منابع لم تجفف بل بقيت نشيطة في مختلف الظروف والأحوال. وها هي تكون نفسها، فكلما تراجعت تكونت لأن لا قيود وقوانين ونصوص تحد من نشاطها على حساب المخلصين من المتدينين ولا محاسبة ولا وقوف أمام محكمة متخصصة تفرق بين الحنطة والتراب وبين العلم الشرعي الرباني والعلم الشيطاني وتبقى هذه من معضلات التاريخ وستستمر إلى ما شاء الله كصراع بين رجال الله فعلا وبين رجال الشيطان باسم الله. في هذه الجمعة، حدث المخطط المسبق للسيطرة على المسجد وباستبسال كبير جدا وشعبية منظمة من يتفق مع رشيد أبو حفيظ هم الهادئون دائما ومتجنبو المشاكل. وهم من الطبقة الشعبية التي تمشي جنب الحيط ولا صوت لها وتتجنب الصدام وحياتها مجرد حذر فحسب. انسحبوا من المسجد بهدوء واحداً تلو الآخر وبقي من يريد السيطرة على المسجد والمؤيدون من الناس والفوضويين وفعلا طردوه وأقاموا الجمعة، وتحت اسم حرية الاختيار، اختاروا لهم إماماً بالتزكية وجهزوا قائمة شعبية تطالب بالإمام الجديد وتعرض عن القديم. حتى الجهة الحكومية الخاصة لم تدافع عنه وتركوه لوحده رغم مهاتفته لمن طلب

منه التعاون معهم. وهكذا هو الحال حتى تتخذ قرارات شجاعة بتأسيس جهة تحقيقية دينية لها الحق في معالجة هكذا فوضى يدفع ثمنها شعوب منذ مئات السنين حتى اليوم. فكل طائفة ومذهب يصارع ويقاتل ليكون هو ولي الله في الأرض. يجب أن تعمل المحكمة الدينية على تعقب منتحلي صفات الدين بغية مآربهم ومصالحهم الخاصة على حساب الدين؟ لم يحدث في التاريخ الحديث إطلاقا أن تمت محاكمة رجل انتحل صفات الدين وتسبب بالفساد الديني وبالفتن الدينية والقتل. هل هم ذوو حصانة دينية؟ الحصانة الدينية تمنح فور تربية اللحية ومسك السواك بيد والسبحة باليد الأخرى، إنها صك غفران.. وتبقى العقبة الكبرى تحصين أنفسهم من أي مساءلة بنص عبارة لابن عساكر الدمشقي "لحوم العلماء مسمومة". ومن تشجع على نقد سلبيات هي جلية وأوضح من ضوء الشمس؟! ومن يتجرأ على منتحل صفة دينية، يكون بمثابة التجرؤ على الخالق.

***

رجل شديد القوة. جثة مترامية الأطراف وعينان جاحظتان منهما ينبعث شعاع النار ووجه تحول إلى مجرد فم فحسب، يضرب براحة يده طاولة المدير حتى تطاير ما عليها وكأن الأرض زلزلت "أنت المدير؟" هكذا سأل بصوت مرتفع والغضب عنوان. وقف المدير وتراجع للخلف ودفع الكرسي جانبا ليستطيع المناورة أو التراجع عن الانقضاض عليه. أجاب بارتباك شديد "نعم أنا هو. خير إن شاء الله؟!". يعض الرجل على أسنانه بقوة ويقول "أنت هو مفسد ابني بعلوم الكفار؟". صدم المدير بهذا وراح يحاول تهدئة الرجل "إهدأ، ما هذا الذي تقوله؟!" كما هو انفعال الرجل وراح يصرح بأعلى صوته "كيف تجرؤون على تدريس ابني علوم الكفار؟! دمرتم الإسلام بأفكاركم العلمانية. وها أنتم تدمرون ابني.". سأله المدير عن اسم ابنه فأجابه أنه محمد عبد العليم. رد عليه المدير بأن ابنه عبقري وليهدأ ليفهمه، اشتاط الأب غضبا أكثر وراح كالثور الهائج يقترب من عنق المدير وهو يردد "كفار... كفار..." تزامن ذلك مع توافد الأساتذة نحو مصدر الصوت، وبالكاد، أمسكوا بالأب الهائج وآخرهم الأستاذ فتحي، حاولوا تهدئة الأب لكن فشلوا وهو مصر على سحب ملف ابنه من المدرسة نهائياً. لبوا طلبه خلال دقائق ليغادر تاركا خلفه المدرسة. ارتمى المدير على كرسيه وأمسك جبهته براحة يده مصدوماً مما حدث، اقترب

الأستاذ فتحي وهو يحاول الاستيضاح تفاصيل ما حدث، فقال له المدير ولباقي الزملاء بأسى:

- ابن هذا المتخلف عبقري، اكتشفه أستاذ العلوم بالصدفة وهو من نوع خاص، لديه تساؤلات معقدة يفسرها بخياله ويقترب من الإجابة الفطرية. ولو ولد قبل مائة عام، لكنا الآن ندرس هذا العبقري العلمي.
- هو من بين مجموعة النخبة؟! (سأله الأستاذ فتحي).
- لا. لم نتعرف على عقله، ليس جيدا في الاختبارات التحريرية، وعبقري عندما يُناقش ويسبح بخياله. اكتشفه استاذ العلوم بالأمس وأخبرني بذلك وذهبت وناقشت الطالب. ورغم أنه مازال في الأول إعدادي، إلا أنه عبقري. لا يجيد المعادلات الحسابية عبر الورق بل ويجيدها شفهيا، استدعيت أستاذ الرياضيات وكان يضع له معادلات ذات مستوى عال ويحلها شفهيا وبسرعة غير عادية كأنه آلة حاسبة...

قاطعه الأستاذ فتحي:

- أهذا سبب جنون الأب لأن ابنه عبقري في الرياضيات؟!

- لا. الطالب سأل أستاذ العلوم سؤالاً لمعرفة هل تصوره للإجابة صحيح.
- ما هو السؤال؟!
- سؤاله كان "الشمس مصدر الحرارة، فما هو مصدر البرد؟" راح الأستاذ يشرح له وكلمتان فقط قالهما الأستاذ حتى قاطعه وقال "يا أستاذ أنا أتصور أن السبب انحراف الشمس عن مسارها وتغير مكان شروقها وغروبها خاصة في موسم البرد، الشمس مصدر الحرارة، فهل البرد ناتج عن ابتعاد الأرض عن الشمس مما يؤدي إلى انخفاض الحرارة لأن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس؟"
- معلومة قرأها أو سمعها يا استاذ؟
- لا. سأله أستاذ العلوم من أين جاء بالمعلومة فأكد أنه يتخيل وراح يدخل في تفسيرات يسأل عن مدى صحتها. حدثني الأستاذ بذلك حسب توجيهاتنا لاكتشاف المواهب. ذهبت إلى الفصل وأحضرت الطالب إلى هنا ورحت اتحقق بنفسي ووجدته عبقرياً في الفلك والرياضيات واستدعيت أستاذ الرياضيات. وجدت من واجبي تبني هذا العبقري وتنويره والأخذ بيده وأعطيته كتاباً في علم

الفلك وكتاباً في الفلسفة لكي يتوسع أفق عقله ويتعلم نظريات التساؤل والاحتمالات والابتكار الفلسفي للأشياء وبدأت أرسم خطة للتعامل مع هذا العبقري ليكون لنا عالماً في المستقبل. اليوم، جاء أبوه المتخلف، أزعجه الكتابان واعتبرهما كفراً وعلمنة ومؤامرة واعتبرنا كفاراً نعلم ابنه الكفر بدلا من العلم الشرعي.

تحسر الأساتذة وكلٌ ينظر للآخر بعدم الرضى لما بدر من الأب المتشدد والذي يبدو أنه مكتسب وليس برجل دين فقط متلقي. بعد صمت لثوان، تابع المدير كلامه بمرارة:

- هذا المتخلف دمر مستقبل ابنه العبقري، هذا المتخلف حرم الأمة من عبقري قادم، هذا المتخلف هو أبو ذاك العبقري، رباه كيف يكون ذلك؟! (قالها وعيناه نحو السماء...) ويلاه من القادم، الآن عرفت سبب تخلفنا.

اقترب أستاذ العلوم وقال مقترحا:

- علينا ابلاغ مكتب التربية وبدورهم يبلغون الجهات المختصة لوقف الأب عند حده ومواصلة تعليم الطفل بمستوى يوازي عبقريته ونباغته.

ابتسم المدير بمرارة وكذلك بعض الأساتذة، رد عليه المدير بتساؤل:

- أين تعيش يا أستاذ؟! أنت في دولة عربية، سيسخرون منا في مكتب التربية فما بالك بالجهات المختصة والقانون الذي لا يعطي أحداً صلاحية التحكم دون الأب والقاضي إذا وجد خطر يهدد حياة الطفل كتعرضه للتحرش أو القتل. لسنا في أمريكا حيث يعاقب القانون من لا يرسل ابنه للمدرسة. فما بالك بحرمان عبقري من التعليم؟! هذه قضية تحرك البيت الأبيض بنفسه وتتدخل ناسا والإعلام والجمعيات. فتلك جريمة فدرالية. في بلادنا، لا تبعات قانونية على الأب الذي يقتل ابنه فقط صيام ثلاثة أيام. هنا في بلادنا، نتعرض لهجوم لأننا حسنا بعض الدروس وأضفنا أشياء عصرية لأننا بنظر الجهات الرقابية ننتهك البروتكولات العلمية والقوانين التربوية رغم أني تقدمت لمدير التربية ليسهل لي المهام. وكل مرة، يستدعونني للتحقيق وأنجو ويستدعونني وأنجو وهكذا حتى أني متوقع في أي لحظة قرار تقاعدي أو عزلي ولربما محاكمتي، من يدري؟ لمَ لا؟! فنحن في بلاد العجائب والغرائب واللاّ منطق. وربي، أني أتوقع محاكمتي ولن أفاجأ، ففي مدرسة أبو موسى الأشعري أحيلت أستاذة إلى نيابة الأموال العامة بتهمة استغلال أملاك الدولة عندما شحنت هاتفها النقال في الفصل

الدراسي والكهرباء ملك الدولة وليست للاستغلال الوظيفي.

توقعوا، يا زملائي، العجائب في بلاد الغرائب..

***

اليوم موعد المقابلة مع الدكتور وحيد فهمي الأكاديمي والباحث في جامعة الصربون. تم التجهير لبث المقابلة مباشرة عبر صفحة المقهى الثقافي وقناة اليوتيوب. كل من له رغبة في طرح سؤال جاهز بها لديه. من مدينة ليون الفرنسية، سيظهر الدكتور وحيد فهمي حيث وافق على المقابلة رغم أنه في إجازته السنوية وقام بالنشر عن موعد المقابلة حيث ستبث عبر منتديات وصفحات في مواقع التواصل الاجتماع والتي هي متابعة للدكتور وحيد منذ سنوات ومن المعجبين به وبآرائه رغم اختلاف شرائح كبيرة من المثقفين معه. لكنه يبقى مثيراً للجدل بكل ما يطرحه من حلول اجتماعية. ميساء مسؤولة البث جاهزة وأعلنت عن ذلك، وهي الآن على تواصل مع الدكتور وحيد إيذانا ببدء البث بعد دقائق. جاهز دكتور وحيد؟ أجابها نعم عبر نافذة سكايبي. عبر (مايك) يعمل بواسطة تقنية البلوتوث ومن أمام كاميرة الهاتف أي فون (بث تقنية عالية وهذا نتاج محاولات كثيرة في مجال التصوير وبناء على نصيحة تقني متخصص أن الأي فون فعال) وقفت

ميساء وقالت بصوتها الإذاعي وحضورها المتميز "أعزاءنا المتابعات والمتابعين في صفحة الفيسبوك وقناة اليوتيوب لمقهى الدب الصغير وكل الصفحات الناقلة لهذا المباشر، السلام عليكم جميعا وطيب الله أوقاتكم، أنا ميساء المسؤولة الإعلامية في المقهى الثقافي الدب الصغير أحييكم وأقدم لكم اليوم مقابلة مع الباحث الأكاديمي الكبير في جامعة الصربون والمثير للجدل في أبحاثه الاجتماعية الدكتور وحيد فهمي، نرجو من السيدات والسادة من لها أو له اسئلة فلتكتبها أو يكتبها في التعليق وستظهر لدى الدكتور وحيد فهمي وسيجيب عليكم جميعا... (نظر مسعد في وجه فتحي وقال له: ميساء تدافع عن المرأة وتذكرها قبل الرجل. ابتسم فتحي ورد عليه: من حقها يا صديقي...). بدأ الدكتور وحيد الحديث بعد إلقائه التحية وملحقاتها من المقدمات ثم دخل في صلب الموضوع: "لكل دولة مجتمع، ولكل مجتمع ظروفه المختلفة باختلاف الموقع والجغرافيا والتنوع العرقي والقبلي والديني والمذهبي والطائفي والجهوي. صحيح، هناك بلدان عربية ديانة الشعب فيها هي الإسلام. ولكن هناك دول أخرى فيها تنوع ديني، والدول التي ديانتها الإسلام فحسب بداخل الإسلام وجدت إسلامات متعددة وتتمثل بالمذاهب والطوائف والتي جميعها تكفر بعضاً وتحارب بعضاً ومنها من تحرم الصلاة مع غيرها مع أن توجه الجميع لعبادة

نفس الإله وقراءة نفس الكتاب السماوي وطاعة نفس النبي، أختلف مع مصطلح الفرق الاسلامية وأشدد على مصطلح الإسلامات المتعددة بداخل الإسلام نفسه. والجميع يعلم كيف تكونت الفرق ومتى ولا داعي للتفاصيل كي لا نضيع الوقت ونركز على الأهم في هذا اللقاء. لو أخذنا مثالاً بسيطاً جدا من بين آلاف الأمثلة الحية والتي يتم استحضارها بعد اختفائها لسنوات وهي فتوى تسببت في سفك دماء وصلت إلى الركب في بغداد بين مذهبين من نفس الطائفة. فحين ذهب سائل للمفتي واستفتاه في الزواج من المذهب الآخر، حرم المفتي المتشدد الزواج. وأما المفتي المتسامح، فقد كانت فتواه بأن تُعامل معاملة الكتابية وكان الأكثر انفتاحا. وفي نفس الوقت، المذهب المنافس أفتى المفتي بحرمة أكل الطعام الذي يقع عليه النبيذ فيرمى للكلب أو يعطى لأحد أبناء المذهب المنافس والخصم لهم، لن أذكر المذهبين اللذين تسببا في سفك الدماء بسبب فتاوى للتو ذكرتها لكم كي لا أكون ممن يشعل الفتن لأن عقولنا صغيرة ونبحث عن أي سبب مدفون في التراب وننبش عنه لنتقاتل. إن الأسباب المؤدية بشكل دائم للاقتتال كنتيجة لوجود إسلامات بداخل الإسلام وكلٌ يرى أحقيته الإلهية في الحكم. وكنتيجة لوجود العصبية القبلية والمناطقية واللغوية والقومية والعرقية والدينية واللهجية والجهوية، بات من الصعب التحكم

في المجتمعات والقضاء على مسببات الاقتتال والتي توجد نفسها في أي مناسبة وكلٌ يرى في جماعته أحقية الحكم وصفاء السلالة والعرق ونقاء المنبع. ومن هذا المنطلق، جاء منهج العلميين والذي سبق وناقشناه وعملنا على تطويره. والآن، نعمل على تحصينه ليكون بديلاً في الحكم والتنظيم بدلا عما ذكرته قبل قليل من فوارق. ولا أعني الغاء الدين أو استبداله لأن في الدهماء كثراً سيقولونني مالم أقل. العلميون باختصار هي نظرية حكم تعمل على حلحلة العقد وإلغاء الخلافات المتنوعة والحكم لا يكون لطائفة أو عرق أو مذهب أو قبيلة أو سلالة، الحكم يكون لحملة الشهادات الجامعية العلمية وفي علوم الإنسانية فقط. أختلف العرب في مفهوم العلمانية واستخدم البعض الغموض والبعض الآخر المغالطات وقيل عنها ما هو بها أو ليس بها وجاء تكفير العلمانية وتخويف الجماهير منها والسبب بقاء المستفيدين والمتربحين من هذا العبث. وهم رموز العبث في الأصل. لذا، جاءت الآن العلمية وهي واضحة ولا يمكن تفسيرها عكس واقعها ولا يمكن اتهامها بما هو ليس بها من باب التضليل. وأحسب أن الكثير سيكتشف التضليل من أول كلمة. تعريف العلمية: هي فصل الدين عن العلم. العلميون هم: حاملو الشهادات العلمية في جميع المجالات العلمية والأدبية، الفاعلون وغير الفاعلين في المجتمع كون العلم مستوطناً في

العقل. بالتوجيه، تستثار وتحفز الكتلة العلمية في عقول حامليها ليصيروا أدوات فعالة في المجتمع كلٌ حسب اختصاصه. وعدم السماح للمتطفلين على المهن العلمية والأدبية بالتطفل والتلصص لا باسم الدين ولا القبيلة، وتحت حماية القانون العلمي النافذ المنبثق من روح الدستور (العلم مصدر التشريعات الأرضية وهو الحكم القاضي للخلافات الدنيوية). العلمية نظام حكم متكامل مع استقلال سلطة القضاء العلمي ليكون هو القاضي والفصل في جميع الخلافات من بينها العلمية والعصبية والدينية والمذهبية والطائفية. شكل الدولة علمية وحملة الشهادات وحدهم من يحق لهم الاقتراع وتحديد من يمثل الشعب في البرلمان ومن يمثل الدولة. العلميون الناخبون وإن كان عددهم مثلا نصف مليون، فهذا الرقم كاف لاختيار من يمثل أهم مؤسسات الدولة ولن يكون اختياراتهم عشوائية وكلٌ سيصوت لمن يساوي مكانته العلمية ولا مكان لجاهل ينتخبه شعب جاهل ليقودهم نحو التعمق في الجهل. حان الوقت لاستعادة الدولة من يد الجهلاء ونقلها إلى العلميين. وهذه العملية الانتخابية تحدد فتراتها في الدستور العلمي ويمكن تجديدها لفترة. وخلال هذه الفترة، سيكون للعلمين منحى نحو الاهتمام بالتعليم العالي وستُخلق المنافسة. فالجاهل لن يكون له حق تقرير مصير بلد حتى يتعلم أو يهتم بتعليم أبنائه ليصلوا إلى

مرتبة الأحقية في المشاركة في الانتخابات. وعندما تصل نسبة حملة الشهادات الجامعية خمسة وثمانين بالمائة، سيسمح لكافة الشعب بالمشاركة في الاقتراع لأن العشوائية الجاهلة لم تعد مسيطرة انتخابياً ولا شعبياً ولن تنجح في التصويت لمن يتساوى مع فكرها العشوائي الجاهل والفاسد. مثلا، هل من العدل أن يتساوى صوت برفسور قضى عمره في العلم بصوت مشرد أو نشال أو عاطل فاشل لم يحمل قلماً في حياته ولم يسبق له وقرأ زاوية في جريدة توجهه برامج تلفزيونية سخيفة في سبيل خدمة لص؟! هذا غير معقول وغير مقبول وغير منطقي. وهو الجنون بعينه. دائما عندما يترشح أستاذ جامعي وينافسه زعيم قبيلة أو قاطع طريق، فنتيجة الانتخابات فشل الأستاذ الجامعي، لأن الشعب الجاهل يختار من يعتقد أنهُ الأصلح في مجال الجهل ويصدق اللص ويشك في المتعلم ذوي الخبرة. وهذا ما حدث في أوطاننا منذ خمسين سنة. وهو عمر النهضة العلمية الحديثة وما زلنا أفشل الأمم لأن من انتخبتهم الشعوب العربية هم الجهلة واللصوص وأنصاف المتعلمين. وعندما يتحد الجهلاء مع أنصاف المتعلمين، فالنتيجة تكون زلزالاً يشبه القيامة. قديما، كان يصل إلى السلطة اللصوص. اليوم، يصل إلى السلطة أغبياء اللصوص. إلى هنا، أيها السادة، أترك المجال لطرح الأسئلة.

انتقل الكلام إلى ميساء التي شكرت الدكتور وحيد فهمي وقرأت سؤالاً كتبه مسعد:

- أنت قلت يا دكتور إن نظرية العلميين هم حملة الشهادات العلمية والعلوم الانسانية، هل هذا ينطبق على شهادات المراتب الدينية؟ وهل تتوقع أن تقضي نظريتك على فوضى الفتاوى الدينية؟!

تنحنح الدكتور وحيد فهمي وشرع في الإجابة:

- مؤخرا، هناك من حصل على دكتوراه في نواقض الوضوء على سبيل المثال لا الحصر، هذه أمور دينية نحترمها ولكن ربطها بمراتب علمية لم يكن بالأساس موجوداً طيلة ١٤٠٠ سنة. فهذا بالأصل خرق واضح لمبادئ وقواعد التعليم الديني واحتكاره لشخص تقدم لشهادة دكتوراه ببحث بالأصل هو تجميع للمعلومات وليس فيه جديد بمعنى بحث واكتشاف ورأي. لذا، من المهم إعادة تنظيم مفهوم شهادات الدكتوراه وإعادة الاعتبار لها بدرجة علمية أو علوم إنسانية بعيدة عن الدين وإعادة توصيف المراتب أو الدراسات الدينية بـــ (شهادة **عليا** في الشؤون الدينية) وليست دكتوراه في الشؤون الدينية. فليس من المنطق أن ندعو أستاذاً في كلية الطب بلقب دكتور وندعو داعية أو مشعوذ بالقب

دكتور، يكفيه شيخ رغم أنه لا يوجد في الإسلام مرتبة شيخ ولا مرتبة علمية دينية لا ماجستير في الزكاة ولا دكتوراه سقيفة بني ساعدة. مؤخرا، احتكروا لقب دكتور وشيخ وصار الداعية يعرف بنفسه الشيخ الدكتور وليس الدكتور الشيخ. فهم يبجلون المشيخة أكثر، يكفيهم لقب شيخ ودارس الشؤون الدينية. في ما يخص الشق الثاني من السؤال بخصوص فوضى الفتاوى الدينية، إذا فشلنا في كبح جماح هذا النوع من الفوضى، فلم يبق لنا غير تخيل كوميديا سوداء تمنح الضحك حتى البكاء وهو ابتكار حل "الإخصاء الجراحي" لرجال الدين المتورطين بفتاوى غريبة تزدري الدين، وتعتبر هذه إجازة لمن يتبوأ مرتبة الفتوى، ولا يُسمح بفتوى تخرج ممن لم يتم إخصاؤه جراحياً وبتخدير ودون ألم. وبما أنهم سيفقدون قدراتهم الجنسية، فلن تكون هناك فتاوى جنسية لا زواج قاصر ولا تفخيذ طفلة ولا متعة ولا مسيار ولا جواري ولا إرضاع كبير ولا جماع الوداع ولا عمليات انتحارية في سبيل حورية. كل هذا سيتوقف بمجرد توقف شهواتهم..

ميساء تقرأ سؤال لؤي:

- ما هو الفرق بين العلمانية والعلمية؟

أجاب الدكتور وحيد فهمي:

- بوضوح، العلمانية هي فكر يعني فصل نظام الحكم عن الدين وليس التخلص من الدين. فهي تمنح الحرية للمعتقدات وممارسة العبادات. هناك دول غربية مسيحية تعتمد على نظام العلمانية وهذه الدول تسمح بالتنوع الديني وبناء المساجد مثلا، وهذه الدول تمنع مالم تمنعه الدول العربية مثل منح تراخيص منتجعات التدليك بواسطة الحسناوات. استطاع رجال الدين إقناع الشعوب بأن الحداثة انحلال وكفر ولم يعملوا على اقناعهم بأن رمي القمامة في الشوارع والبول في الأزقة حرام؟! واستطاع الدعاة من اقناع شعوبنا بأن العلمانية كفر وتبيح الدعارة وتلغي الدين وذلك خوفا على مصالحهم القيادية من فقدانها وتعددت التعريفات والمفاهيم. العلمية هي نظرية تنظيمية أكثر من أنها فكر عقائدي، وتسعى لتنظيم حياة الفرد والمجتمع على أسس علمية وتسعى لاستعادة زمام الأمور وتحويلها إلى منهج مدروس على أيدي حملة الشهادات وتسعى لتصفير البطالة لخريجي الجامعات. مثلا، العلمية لا تسمح للمشعوذ بممارسة الشعوذة. وعليه أن يثبت أن شعوذته تداوي المرض ويخضع للتحقيق في النيابة العلمية ويتم إحالته للمحكمة

العلمية. وإذا لم يقدم الدليل الذي يثبت صحة شعوذته، سيرمى في السجن. العلمية لا تسمح حتى بترخيص بناء دون المرور على مهندس معماري ولو كانت توسعة غرفة واحدة، ولا تسمح لشيء أو قرار ارتجالي دون ذكر المبررات العلمية وبمضمونها الشامل، المنطقية والإيجابية والسلبية مع وضع الاحتمالات وفرضيات لسلبية وإيجابية ما بعد التنفيذ مع الحلول. نظرية العلميين لا نقصد بها رياضيات وفيزياء. هي عقول تختزن بداخلها سائر العلوم من الرياضيات والكيمياء إلى المنطق والأدب والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافيا.

ميساء تقرأ سؤال الأستاذ فتحي:

- لو طبقت هذه النظرية قبل الحرب بأشهر، هل كانت ستحدث الحرب؟

أجاب الدكتور وحيد فهمي:

- نظرية العلمية تمتاز بدراسة احتمالات وماذا لو وكيف ستكون الأمور وما هي الحلول وما هي المطبات الافتراضية. فصيغة هذا السؤال هي أحد أشكال النظرية. سبق أن حذرنا قبل الحرب من التفسخ وأن تحويل نظام الحكم الى نظام علمي هو إنقاذ البلد

والشعب من الفناء. الآن، لن تستقر الأمور بدون تغيير نظرية الحكم الحالية وارتباطاتها المتنوعة في أصول الخلاف. لأنها تجربة فشلت وبدلا من تغييرها بما لا يدع ثغرات لعبور الشياطين، تم سحب المنتج وإعادة طرحه في الأسواق باسم آخر. وهو نفس المضمون وأومن جازما أن عمره أقصر من سابقيه. صقور الحكم يدركون ذلك تماماً لكنهم يعتاشون من هكذا وضع متراخ، فليس لديهم أدنى شعور بالمسؤولية. حقيقة، أستغرب قرارات غبية تزيد من اشتعال النيران وكأنهم مستعمرون لهذا الوطن وهم على فكرة يتحملون جزءاً كبيراً من المصائب التي حلت على هذا الوطن. فالطبيب الحقير هو الذي يحقن مريضه بفيروس سي فقط لكي يضمن تردد المريض عليه بحثاً عن دواء ودفع الثمن مالياً ويتوسل إليه. الساسة هم بذرة الشر ولعنة هذا الوطن فلم يكلفوا أنفسهم تبني حل واحد يخفف احتقاناً واحداً وهم يعلمون ذلك لكنهم يتلذذون بأوجاع الناس. لذا، دائماً ندعو الناس للعلم والقراءة والثقافة. فكلما ارتقى العقل الجمعي معرفياً كلما سقط ألف سياسي فاسد. فالحاكم نسخة طبق الأصل من الشعب.

ميساء تقرأ سؤال الدكتور رؤوف:

- عندما يكون أغلب الشعب جاهلاً، كيف يمكن تطبيق نظرية العلميين وتجاهلهم؟ كيف نقنعهم بنظريتك؟

أجاب الدكتور وحيد فهمي:

- لم ننس غير الحاملين لشهادات الجامعية، بل أوجدت لهم نظرية العلميين فرصاً للتساوي مع الجامعيين في الحقوق ومنها أولا فرص تطوير المدارس وتطوير الجامعات. ويمكنهم الاستفادة منها. فلا عيب من الالتحاق بمركب العلم متأخرا. ولكن العيب أن تبقى جاهلا. ثانيا، النظرية أوجدت لهم فرصة نظام حكم إلكتروني شعبي تحت اسم (نظرية الحكم الشعبي الإلكتروني). كل مواطن يستطيع المشاركة في الحكم الإلكتروني. برنامج حكم إلكتروني خاص بالوزارات والمحافظات والإدارات على مستوى البلد... الفوائد تكمن في إفراغ طاقة الشعب المهووس في الفضول السياسي وإهمال عمله ومهنته، تشغيل العقول، منافسة ومحاولة ابتكار، اكتشاف مشاريع وأفكار، اكتشاف قدرات بشرية على الإدارة... إنقاص بلبلة الديمقراطية في الحياة العامة إلى أداء عملي الكتروني. تجربة ديمقراطية جديدة وفرز عقلاء المواطنين من الدهماء. إيجاد منصة للصوت واستغلال الطبقة المستقلة والتي

تسمى في بعض الدول (حزب الكنبة)، انشغال المجتمع بأفكار التنمية وليس بصراع مع الأقطاب حول مؤسسة الرئاسة. جوائز سنوية للأفكار الإبداعية والأبحاث التطويرية. الاهتمام بأفضل العقول المفكرة وتأهيلها لدور إداري تطويري.... وهذا يخلق موجات من التنافس لأن كل فرد سيخرج أجمل ما في عقله للوصول إلى هذه المراتب. وإن فشل الفرد، يكون في صراع دائم مع نفسه وتنتقل الملامة وشماعة الفشل من عاتق الدولة إلى عاتق الفرد. ولِمَ لا، لعبة حكم إلكترونية فيها قاعدة بيانات، ينظم إليها مدمن السياسة من المواطنين وينمو بمراحل ليصل إلى مراتب عليا ويمارس سلطة افتراضية ويزيل ويعين من يريد. ونتخلص من فوضى المشاغبين والجهلة ممن ساوت بينهم الديمقراطية وبين الكوادر المتعلمين، وتستحضرني مقولة الأديب الأيرلندي جورج برنارد والذي أتفق معه تماماً "إن الديمقراطية لا تصلح لمجتمع جاهل لأن أغلبية من الحمير ستحدد مصيرك".

ميساء تقرأ سؤال أحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجها للدكتور وحيد:

- العالم العربي يعيش فوضى إعلامية، وزد على ذلك سيطرة العشوائيين والأغبياء على الإعلام الاجتماعي وتحوّلهم إلى موجهين وقادة افتراضيين للشعوب والنخب حتى على المستوى الثقافي المزور. وهذا عمق الجهل ووسع أفقه ليصبح ظاهرة متغلغلة في الدول العربية. فهل هناك حلول لاحتواء هذه الظاهرة المدمرة؟

الدكتور وحيد يجيب:

- هذه قضية عالمية وهي نتيجة لحداثة التواصل الاجتماعي. ولكنها أكثر تأثيراً إلى حد السوقية في الدول العربية بسبب أزمة الأخلاق وشغف الكثير بهذا النوع. وعليه، الإنسان ملزم بخلق قوانين عالمية تحمي الإنسان أمميا وتضمن خصوصياته إعلاميا، وأيضاً سد الثغرات القانونية الحالية في قانون الإعلام وسن قوانيين ضد التحايل لما يلقاه الأمي من ضرر على الصعيد العام أو الشخصي. مثلا التحريض على العنف إعلامياً أو اقتحام خصوصيات تفضي إلى التشهير أو ما يسمى الكاميرا الخفية المرعبة والتي غالبا مالها آثار نفسية ومرضية من أجل الشهرة الإعلامية والدخل المالي باطنيا وامتاع المشاهدين ظاهريا وإن قضى الضحية عمره مريضا في سبيل تسلية المشاهدين، وسن قوانين تلزم مواقع التواصل

بكشف ملاك الصفحات ومن هم ليعلم الآخر مع من يتحاور. ويجب أن يكون الاشتراك في هذه المواقع عبر الكاميرا مع أخذ بصمة العيون وعبر المايك لأخذ بصمة الصوت إلى قاعدة بيانات كلٌ في دولته. وترتبط مباشرة بالأحوال المدنية ليخرج التعريف باسم المشترك الحقيقي. كلامي هذا ليس حلاً ناتجاً عن دراسة اجتماعية، بل مجرد رأي في الحل مع مراعاة أن حل هذه القضية اولوية عالمية لتحصين الشعوب من تطفل المجهولين وسرقة بياناتهم. وهنا، نتذكر كلاماً في غاية الأهمية للفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو حيث قال: إن أدوات مثل تويتر والفيسبوك تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع. وكان يتم إسكاتهم فوراً، أما الآن، فلهم الحق في الكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل، إنه غزو البلهاء.

ميساء تقرأ سؤال أحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجهاً للدكتور وحيد:

- على أي مبدأ استندت في نظرية العلميين؟

الدكتور وحيد فهمي يرد:

- ينقسم الناس في الحياة الطبيعية إلى ثلاث فئات رئيسية: صُنّاع الحدث (المبادرون) والفاعلون في الحدث وأصحاب ردة الفعل (الانفعاليون). يبقى الخطر متمثلاً في تحول المجتمع إلى فئة رابعة وهي ممارسة الثلاث فئات في نفس الوقت. وهنا مكمن البلاء الاجتماعي المضاد لنظام السلوك الإنساني. والنتيجة تحول الفرد في أوطاننا إلى مبادر وفاعل ومنفعل. والنتيجة عشوائية، فانعدمت الفئة الأولى وارتبكت الفئة الثانية، ونشطت الفئة الثالثة. وهم الانفعاليون المشاغبون المشجعون المتحملقون. سطوا على الفئة الأولى والثانية وصار الجاهل يبادر ويفعل ويتفاعل مع نفسه ويقاتل دفاعا عن ذلك معتقدا أنه الأذكى والأدهى والأهم في المجتمع. إذا، نحن نعمل على منهج يعيد الأدوار كلاً حسب قدراته العلمية والذهنية بالشكل الصحيح ومع ذلك، فنحن لا ندافع عن النتائج بعنف بل نعتبرها صحيحة حتى يُثبت العكس. ونحن أيضاً نمرّ في حالات شك دائم لأن العلم والأبحاث في متغيرات وتطويرات مستمرة. وهذا طبيعي، وهكذا هي قواعد البحث العلمي، فاسمحوا لي أن استشهد بعبارة الفيلسوف وعالم المنطق البريطاني: "مشكلة العالم أنَّ الأغبياء والمتشددين دائمًا

واثقون بأنفسهم أشد الثقة. أما الحكماء، فهم يشكون دائماً في قدراتهم".

ميساء تتلو سؤال أحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجه للدكتور وحيد:

- الثورة الفرنسية تعرضت لما نتعرض له. وفي نهاية المطاف، نجحت. هل هناك بوادر نجاح وتقدم دون نظريات جديدة ليست أقوى وأنشط من سابقاتها التي اختفت كالاشتراكية مثلا؟

رد الدكتور وحيد فهمي:

- الثورة الفرنسية كانت ضد الإقطاع والعنصرية وفساد الكنيسة وإعفاء رجال الدين من دفع الضرائب وتملكهم للعقار والثروات وانصرافهم عن أمور الدين لشؤون الدنيا. التحرك الشعبي العام لم يكن جاهزاً للثورة فكريا ومعرفياً في بادئ الأمر حتى قيل في الثوار أن سبب تحركاتهم كانت لرفضهم طريقة الاعدام حيث يعدم النبيل بقطع الرأس ويُعدم عامة الناس بالشنق. وهذا تدنٍ في المطالبة بالحقوق للتساوي بعدل طريقة الإعدام، اخترعوا المقصلة وساد الارتياح مبدئيا. وحدثت مجازر فعلا واستمرت لعشرات السنوات الثورة الفرنسية ومن حقنا ألا نمرّ بنفس مراحل دمويتها

والعاقل يتجنب مطبات مرّ عليها غيره ويتعلم من التجارب. الثورة الفرنسية لم تحقق النجاح بالدم الذي استمر وكان سيستمر لولا الحركة الثقافية التنويرية. فقد نشطت المسارح والفن وانتشرت المؤلفات الأدبية وكانت حركة توعوية بامتياز حتى سيطرت الحركة الثقافية على وزارات الحكم فتم تعيين وزير الثقافة كاتبا ووزير الرياضة رياضيا ووزير الصناعة خبيرا صناعيا وهكذا. مشكلتنا نحن العرب أننا نريد أن نكون مثل الدول الغربية الناجحة ونرفض طرق وصولها للنجاح ونتمسك بمسالك فشلنا ونريد تطبيقا لتكون النتيجة أوروبا (كمن يزرع الأرز بمنطقة جافة وهو يعلم أن الأرز يزرع في مناطق مائية). خذوا دستور فرنسا مثلا وطبقوه بحذافيره. سيقولون هذا دستور كفار وهم في نفس الوقت يقاتلون بحجة أن تصبح البلد مثل دول أوروبا. من يكفرون العلمانية والدولة المدنية هم أنفسهم من قادوا الحروب الداخلية تحت شعار الدولة المدنية لجمع الجماهير حولهم. وهي كفر في فتاويهم وكتبهم. إذا، الأمر مغالطات، لأن من بيدهم في سلطة القرار من جماعات وأحزاب ودول هم ممن لا يفقهون في علم إدارة الدول شيئاً وليس لأحد منهم مطلقا مشروع يرقى إلى مستوى

إدارة مدينة فكيف بمشروع دولة؟! وزد على ذلك التخلف السياسي. فالمعارضة السياسية وجماهيرها لا يستطيعون التفريق بين الدكتاتورية وبين الاستبداد. الدكتاتورية ضرورة لاستمرار أي حكم في العالم. وهذا منطقي. لكن الاستبداد هو أساس البلاء المتسبب بالتآكل الداخلي للدولة وللمجتمع معاً. وهذا ما نعاني منه.

ميساء تلقي سؤال أحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجه للدكتور وحيد:

- ماهي الحلول الاقتصادية التي تقدمها من خلال طرحك؟

الدكتور وحيد فهمي يرد:

- لا يمكن لأية حلول أن تنجح دون استقرار الكلمة التي اختلف عليها فقهاء القانون في تعريف الدولة وانتهوا إلى اتفاق بينهم بأن الدولة تعني (الاستقرار) وهي كلمة لاتينية الأصل status. ما نراه الآن من حلول اقتصادية متاحة لدى عقل العرب وتبناها باستماته التيار المتشدد دينيا هو مشروع إفطار الصائم، مشروع أضحية العيد، مشروع الحقيبة المدرسية. هذا هو تصور القيادات الدينية للحلول الاقتصادية في بلادنا منذ عشرات السنين وإلى

اليوم وربما في المستقبل. والحلول لدى وزارات الاقتصاد العربي متمثلة في جذب الاستثمار لتشغيل اليد العاملة فقط رغم قوانين الاستثمار التي تنفر رأس المال المحلي فما بالكم بالاستثمار الأجنبي؟! الحلول التي يقدمها العلميون تستند إلى نصوص علمية وتليها افتراضيات النجاح والفشل وللنجاح فرضية التطوير وللفشل فرضية التصحيح ولا مجال للصدفة. نظرتنا هي تعامل مع الواقع من منطلق علمي يتطور ويتم تحديث قوانينه بتوازٍ مع الحاجة إلى ذلك. لم تعد الإدارات الاقتصادية الحديثة تتعرض للفساد المعروف عربيا، بل وصل العلم إلى تطور إداري ورقابي محكم من شبكات إلى كاميرات مراقبة في كل زاوية من زوايا مكاتب ومخازن المشاريع وبورصة المشتريات لمنع التلاعب في هذا المجال وأجهزة تتبع عن بعد لخطوط حركات شاحنات نقل الشركات إلى تطوير علم الهندسة المالية والشركات العالمية المتخصص في إدارة المشاريع مقابل نسبة من الأرباح فقط الكادر الإداري يتبع الشركة والرقابة مشتركة من قبل الدولة والشركة. وهي المسؤولة عن إيجاد سوق للتصدير لأن هذه مهمتها ولها خبرة عالمية في هذا الميدان. وهذا طبعا تحت حماية تسمى استقلالية

القضاء. وأيضاً يجب تحويل الطبقة الوسطى إلى طبقة صناعية صغيرة (الاقتصاد الصغير) بتأهيلها في امتلاك آلات الصناعات الخفيفة والتي لا يتجاوز سعر الواحد منها سعر سيارة، حيث يتم توجيه وتأهيل وتكوين هذه الطبقة لتكون طبقة صناعية تحرك الاقتصاد وتكفي الاحتياجات الداخلية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأثرياء في العالم الآن ليسوا هم الصناعيون والتجار، بل هم مبتكرو البرامج والإدارات عن بعد مثل مسيري وملاّك موقع التجارة الصيني وميكروسوفت وفيسبوك وغيرهم من أثرياء العالم، هؤلاء لم يصدروا كرتوناً واحداً ولم يستوردوا، فقط ما ابتكره العقل وهم الأثرى عالمياً وأغنى من دول غنية وما يمتلكه ٨ أشخاص يعادل ما يمتلكه ٣٫٦ مليار شخص يشكلون النصف الأفقر من البشرية."وهي حقيقة تدل على الاختلال واللا تكافؤ في امتلاك المال، وتلك الأموال قادمة من تنشيط العقل والابتكار الإبداعي وهذا ما يجب أن يكون كخط سير مهم، وهؤلاء صاروا منظرين وناصحين لشكل المستقبل التقني مع أن أحدهم تبرع بأمواله لفقراء العالم ومازال يتربع على عرش أثرى أثرياء العالم، كيف؟! لا أعلم.. (يضحك...)

ميساء تعرض سؤالاً وارداً من أحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجهاً للدكتور وحيد:

- نسمع دائما مقولة "إذا كان ترك الدين يعني تقدما فيا نفس موتي قبل أن تتقدمي"، هل يعتبر التقدم شرطاً للتخلي عن الدين؟!

رد الدكتور وحيد فهمي:

- أشكر طارح هذا السؤال، هذا السؤال هو بمثابة حجة لظلاميين لبقاء الحال كما هو. ومنه انطلقت حركات تحارب حتى المدارس والتخصصات في الجامعات وحرمت أغلب العلوم وحتى الآلة الطابعة على أنها شكل من أشكال مؤامرة لهدم الدين فلزهاء قرنين ونصف القرن، والعالم الإسلامي متوقف عن الحركة الثقافية والعلمية بسبب فتوى تحريم الآلة الطابعة. ولقرنيين، وتاجر البن يُطارد ويُقتل لأنه تاجر الحرام (القهوة) مفسدة العقل والبدن وكذلك شارب القهوة. وكذلك مطاردة زارع الطماطم فهو زارع مؤخرة إبليس. تخيلوا أنه تم تحريم الوضوء من مياه الصنبور ووحدهم فقط الحنفيون من أجازوا الوضوء من ماء الصنبور ولهذا سمي (بالحنفية). أيضاً حرموا ركوب الدراجة والراديو والتلفزيون وقراءة الصحف وحتى وصل الأمر إلى حد تحريم

لقاح شلل الأطفال بدعوى أنه مؤامرة أمريكية لقطع نسل الأطفال رغم أن مخترع هذا اللقاح هو العظيم الطبيب جوناس سولك والذي منح هذا الاكتشاف للبشرية جمعاء فقد سأله صحفي: "من يمتلك براءة اختراع لقاح شلل الأطفال؟" أجاب بأن لا أحد يملك ذلك وقال بالحرف "هل يمكنك استخراج براءة اختراع للشمس؟". بوضوح، مادام التقدم يُتهم بالمؤامرة لطمس الدين وإباحة الخمور والدعارة، فالتقدم غير جاهز لهكذا عقول، إذا كان الشعب يعتقد أن الانفتاح يعني دعارة، فالانفتاح غير جاهز للشعب. ومادام العربي يستخدم الدعاء لحل المشاكل بدل العقل والتفكير، فلن نغادر الحفرة التي استوطنا بها إلا بتغيير الفكر العام واستخدام المنطق في التحليل والتدبير والتصرفات وتعطيل عمل القابلية السلبية في العقول. وبسبب التحجر، تولد في مجتمعنا قابليات دخيلة. تحدث أحد الفلاسفة العرب عن القابلية للاستعمار وزاد آخر قابلية القصف. واليوم، تطور الأمر إلى القابلية للعبودية والقابلية للاستغباء. إذا، يجب علينا العمل على عصرنة العقول وتفعيلها بشكل صحيح والتوضيح بدقة بأن

التقدم لا يلغي وجود الدين وأننا لسنا نحارب الدين ولا مقصد لنا. ومن يفهمنا غلطاً وعكس ما نقول فهو مريض بالوهم.

ميساء تقرأ سؤالاً انتقته لأحد متابعي صفحة المقهى على الفيسبوك موجهاً للدكتور وحيد:

- برأيك هل من السهل تغيير أفكار وممارسات أناس هم بالأساس يقاتلون من أجلها. وهي أفكار خاطئة؟

ضحك الدكتور وحيد فهمي وقال:

- هذا سؤال المليون كما يقولون. التفكير العربي فقط يمتدح السلبية فيقدسها ولا يفكر بجزئياتها بل يقاتل على أنها إيجابية برغم سلبيتها المُعيبة. ولو حاولت تصحيح الفكرة السلبية في الأساس والفهم العكسي لمعناها لهاجموك. وفي مواضع أخرى، يكفرونك ويقتلونك. مثل بسيط على ذلك قصة قيس وليلى حيث أن جنون قيس بحبه لليلى وصل إلى حد الجرأة وذهابه إلى ورد زوج ليلى في شتاء قارص وممطر. وكان ورد جالسا مع كبار القوم وتتوسطهم النار، فأنشد قيس:

بربك هل ضممت إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبلت فاها

وهل رفت عليك قرون ليلى   رفيف الأقحوانة في نداها

كأن قرنفلاً وسحيق مسك   وصوب الغانيات شملن فاها

فقال له ورد: أما إذا حلفتني فنعم. فقبض قيس بكلتا يديه على النار ولم يتركها حتى سقط مغشيا عليه. العبرة لدينا أنه جنون شاعر ووله وحبه وطلاقة لسانه ونفتخر بشعره. والحقيقة أن التضليل تم في التوصيف. والصواب أن لا إبداع ولا شجاعة ولا وله. هي قلة أدب لأن ليلى متزوجة وليس له أي حق لا أخلاقي ولا قبلي في قول ذلك. قس على ذلك كل القضايا العربية كانت بسيطة أو معقدة. فإمكانية قول الحقيقة للعربي مستحيلة لأنه مدافع شرس عن السلبية التي تلقاها وسيموت في سبيلها. إنها العصبية والتعصب للأفكار المسبقة ولا يمكن تعديل ما تحصل عليه من معلومات غلط وإن اقتنع واحد قاتلك عشرة... لذا، الحل في التكامل مع العربي وليس بتصحيح الفكرة أو الحدث الغلط وتصويبها التي سبق وتلقاها بل في اختراق الفكرة وتشكيل زوبعة من حوله بحدث مشابه مع نتائج إيجابية واجعله هو يتساءل. وحينها، أجب عليه ليقع تحت تأثير قيادتك نحو درب الإيجابية بالتدريج، اخترق سلبيات العربي بفكرة جديدة ولا تصحح له القديمة واعمل على أن تأخذ الفكرة الجديدة مكانها بالشكل الصحيح وهي ستلغي سابقاتها تدريجيا. وفي أحوال أخرى،

يكون التحسن في جيل يعقبه تدريجيا. ونعود إلى المثل السابق بحيث يكون نفس الطرح مع تصحيح مفهوم ومنطقية النتيجة للطرح بأن ما قاله قيس عيب لأن المرأة متزوجة ولا يعقل أن زوجها ديوث يسمح بمثل هذا الكلام عن زوجته وأن الشاعر غير محترم يتحدث عن متزوجة ولا قوم لهم نخوة وغيرة لا يكون لهم ردة فعل سوي تجاه قيس أو اتجاه ابن عمهم ورد الذي سكت. بل وصل لحد الدياثة وأجاب على قيس، واين المنطق بأن قابض جمرة بيده يخر مخشيا عليه؟ والصح أنه يحترق وخلال فترة زمنية يرمي الجمرة أو يفقد الإحساس في يده. إذا من المهم تدريب الناس على المنطق والتساؤل والتفكير وتغيير التوصيف إلى ما يتناسب مع المنطق.

ميساء تقرأ سؤالاً لأحد المتابعين عبر صفحة الفيسبوك:

- هل تتوقع خروج المواطن من المآزق المتعددة، أم أنه سيطور مأزقه ويتحول إلى كائن مأزوم معزول عن الإنسان العاقل ولا يختلف عن الإنسان المنقرض من الناحية العقلية التي كانت بالأصل سبب لانقراضهم لأنهم لم يطوروا وسائل عيشهم ولا دفاعهم من الحيوانات المفترسة ولا حتى التعرف على عشب نافع؟

ابتسم الدكتور وحيد فهمي وهز رأسه مستحسنا وأجاب:

- شكرا للسائل. الأدلة القطعية والملموسة أن الإنسان العاقل هو الوحيد غير المنقرض من جنس الأناسي والذي سبقه أناسي منقرضة بسبب صغر حجم عقولهم وعدم قدرتهم على تطوير وسائل الحياة كما ذكر صاحب السؤال. ليس أمام العرب حل غير الالتحاق بالأمم العاقلة أو الانقراض كما حصل للأناسي من قبلهم كإنسان النياندرتال. ولولا الوسائل العلمية القادمة من الغرب، لكان الإنسان العربي انقرض لضعفه في تطوير وسائل عيشه، حيث اعتقد أن التمر ولبن الناقة هي وسيلة حياة فحسب كما اعتقد إنسان النياندرتال أن منافسة البهائم في أكل العشب وأحيانا المشي على أربع أو الفوز بفريسة سهلة يأكلها نيئة هي وسائل الحياة فحسب. دائما لدينا الأمل وعلى سبيل المثال هذا المنبر عبر مقهى ثقافي جميل وتجربة مبهرة عشرات الآلاف من المتابعين لصفحة المقهى الإلكترونية من العرب المهتمين والمثقفين نشعر بالأمل ونتمنى تعميم التجربة في كل مدينة عربية. على العرب أن يرتقوا بعقولهم إلى مستوى إنسان بتعريفه الفلسفي مثلا. حسب تعريف أرسطو فالإنسان، هو حيوان ناطق واكتشف العلماء أن هناك حيوانات ناطقة فعرف الفلاسفة الإنسان بأنه حيوان يفكر،

فاكتشفوا أن هناك حيوانات تفكر وتواصلت التعريفات حتى انتهى العلماء إلى تعريف هو أن الإنسان حيوان فنان لأنه وحده من يستطيع ممارسة الفن. فهو يؤلف ويلحن ويعزف هو من يبتكر الرسم والهندسة والأدب ودقة الجراحة. فهو فعلا حيوان فنان وحيوان طباخ. فهو أيضاً الوحيد الذي يتفنن في الطبخ من بين سائر المخلوقات. لذا، ليس أمام العرب خيار ثالث سوى الارتقاء إلى مستوى إنسان بتعريفاته الدقيقة الفنية الإبداعية أو الانقراض كإنسان النياندرتال. أنا متفائل وفيكم الأمل، فقد هزمنا من حرم آلالة الطابعة وحرم تعليم المرأة ومستمرون في هزيمتهم. فقط تابعوا نهضة العقول ونحن معكم، انشروا المعرفة، استقطبوا الشباب وأدمنوهم على القراءة، تهادوا الكتب، لا تهدي صديقك قنينة عطر في عيد ميلاده واهده كتابا، اهدي حبيبتك كتاب، تهادوا الكتب، ترتقوا. تهادوا الكتب لتكتسبوا صفة الإنسان العاقل بمعانيه الفلسفية القيمة. إن أعظم الجهاد تربية الأولاد على الحب والعلم والفن وتقديس العمل والحياة.

ميساء تقرأ سؤالاً كتبه لؤي في ورقة:

- كل من يتبنى فكرة تحررية من التخلف، تُصدر عليه عشرات فتاوى تكفره ويتناقلها جمهور من الأغبياء الذين لم يتسألوا عن حيثيات ضحية التكفير به ولم يتحققوا من ذلك، كيف يأمن المفكر على رأسه؟!

- أولاً، لم ترد آية واحدة تُجيز لأي رجل في الأرض أو تمنحه توكيل مهما كانت قدسيته الفقهية بإصدار فتاوى تكفر إنساناً وتحلل قتله ابتداءً إلى تخلفه عن صلاة الجمعة ومروراً بولادته في مذهب إسلامي معاد لقرينه وانتهاءً بتكفير باقي البشرية جميعاً. فتوى التكفير ليست حتى سنة يقتدون بها. وهناك فرق بين حكم يُفضي إلى الإعدام وبين تكفير يُفضي إلى الإعدام. الأول حكم مُشرع دينياً وقانونياً ومرّ على محاكمة رسمية والثاني مجرد قرار لرؤية فرد أجاز ومنح لنفسه حقاً في تقرير مصير حيوات بشر حسب فهمه والتي هي حصراً بيد الخالق دون صك ذلك ومهره بختمه وتوقيعه مع توضيح أن فلان كافر ويُقتل على مسؤوليتي، لكنه يتبعها بـــ "والله أعلم" ويبرر الجريمة بعد وقوعها وانكشاف الزيف بحديث يستخدمه كحصانة تحول بينه وبين المسؤولية. والمسألة "أن المجتهد إذا أصاب له أجران وإن أخطأ له أجر واحد". فهو ينظر لنفسه

بصاحب أجر واحد وهكذا فسروا وسوقوا لنا. على حملة مشاعل النور والتعليم عدم الرضوخ والخوف من هؤلاء. وكلما زاد عدد معارضيهم، كلما قل تأثيرهم إلى حد أن يأتي يوم ويبحثون عن الوسطية والقبول بكل فكرة كفروها سابقا إلى أن يصل اليوم ينشدون العلمانية ليحافظوا على أنفسهم من الانقراض.

ميساء تقرأ سؤالاً وصلها عبر تعليقات نافذة البث المباشر:

- كمية العنف والجرائم التي نفذت فظيعة جداً ولم نكن نتوقعها. برأيك، كيف تجرأ ابن بلدي على قتل أخيه لسبب غير مباشر؟!
- هذا سؤال يحتاج لمحاضرات كاملة للإجابة عليه. لكنني سأجيب بما قاله علماء في تفسيراتهم لهذه الظاهرة وباختصار شديد جداً. إن مفهوم التوبة بعكس التفسير الحقيقي يمنح الفرد رخصة للقتل ثم التوبة ويدخل الجنة، هكذا فهم أو فُهم تفاسير مغلوطة حيث يُمني الجاني نفسه بتبديل السيئات إلى حسنات. ولا أعمم كي لا يُساء فهمي. ولكن هذا فرق بين الجريمة في بلادنا والجريمة في بلاد الغرب. القتل غريزة شائعة تجد لنفسها تبريرا متأصلاً في عمقنا ومتمثلة في كره الأديان المخالفة وكره ما في داخل الإسلام سواءً مذهب أو طائفة أو كره ما في داخل الوطن من قبيلة أو عرق أو

حتى جار. عند صناعة القاتل، تتم زراعة الكراهية نحو الآخر ثم تليها تبريرات القتل ثم تليها الجائزة المالية وثم الوعد بجائزة بأجل بعد الموت. وهناك نوع من الجرائم تنفذ بالإكراه في إطار طاعة القائد.. المنخرط في القتال المباشر أو بالدعم الإعلامي الشعبي يحمل صفة فلسفية اسمها (الرجل الصائب) والذي لديه قناعات أن ما يفكر به هو المنطقي والطبيعي وكل من يعترض عليه يستحق التعنيف. من الملاحظ أن في بلادنا العربية المنتصر في المعركة هو الأكثر شراسة والأكثر ارتكاباً للجرائم والاستباحة لأنه أثار الرعب في الخصم. إنسانياً وبشكل عام، الفرد المتمرد لديه غريزة السلطة والهيمنة. فاستحضار الغريزة الحيوانية الفعلية في قتل صغار المهزوم لا يختلف عن الحيوانات في تصرفها عندما تهزم خصمها، فتتوجه لقتل صغار المهزوم. القاتل ليست لديه مشاعر نحو الضحية. لذلك، هو يستحضر الغريزة الحيوانية للقتل والتي يُفترض أن الإنسان بواسطة العقل وقوة القانون يعصي هذه الغريزة ويرفضها إلا أنه عندما يتصور أنه بمأمن من بعد ارتكابه للجريمة فإنه ينفذها فورا بقلب بارد. فعندما أشاهد الجرائم التي

يرتكبها الإنسان، لا يساورني أدنى شك أن أصل الإنسان حيوان، ببساطة هو يعود لجذوره الأولى.

ميساء تقرأ سؤالاً انتقته من مجمل أسئلة وصلت عبر صفحة المقهى في الفيسبوك:

- كيف يرى الغرب علماء الإسلام؟!
- لم يوضح السائل أي علماء يقصد، هل هم علماء البحث العلمي شركاء المختبرات العالمية في البحث أم يقصد ما يسمون علماء الدين؟! على العموم، الأول يُنظر لهم باحترام وتقدير وتسهيل وتسخير المختبرات العلمية للعقول أيا كانت. ففي المختبر، يجتمع كل العلماء من كل الأديان: مسلم ومسيحي ويهودي وبوذي وهندوسي وكونفوشيوستي إلخ... ويضعون المعتقد الوطن والقبيلة خارج المختبر. وفي الداخل فقط، علم ونظريات وتحليل وكل شيء خضع للمنطق والدليل المُثبت. ولهذا، يخرج العالم كل ساعة بإبداع مذهل. أما الثاني علماء الدين، فهم من سموا أنفسهم علماء ولم يطلق عليهم العلم شيئاً من مرتباته. فهم ظلاميون. وإلى اليوم، يكفرون العلم ومن يتعلم. وأهم الكتب مازالت حراماً ودائماً في الصدارة كتب الفلسفة ولا تستغربوا إن قلت لكم إنهم

حرموا حتى كتاب "اللامذهبية أخطرُ بدعةٍ تهدد الشريعة الإسلامية" والذي من عنوانه واضح أنه سلم لا تكفير وحرب. وستضحكون لو قلت لكم إنهم حرموا "ألف ليلة وليلة" (ضحكات رواد المقهى كانت مسموعة...) ما ذكرته ليس إلا قطرة في بحر جهلهم ولا يوجد مستشرق ولم ينقل هذا من كتبنا.. ففي القاموس الفرنسي، بعد أن عرفوا عالمنا المريض منذ البداية فقد فرق الأكاديميون بين عالم العلم وعالم الدين الإسلامي حصراً كي لا يقع أحد في خطأ الترجمة وأضافوا للقاموس كلمة Ouléma (نفس نطق علماء بالعربية) لتوصيف عالم الدين الإسلامي لكي لا تُستخدم كلمة عالم بمعناها الحقيقي في اللغة والتي تُنطق بـــــ Savant. هنا الشيء بالشيء يُذكر في دقة التوصيف وانتقاء المصطلحات بعناية. في اللغة الفرنسية على سبيل المثال العسكري معنا ه Militaire أو جندي ومعناه Soldat لكنهم أضافوا كلمة Askari (نفس نطق عسكري بالعربية) وتعني باختصار المرتزق العميل في جيش غير جيش بلده.

ميساء تقرأ سؤالاً لأحد رواد المقهى الثقافي:

- القوميون كان لديهم مشروع بأيديهم وهو الوحدة العربية، والإسلاميون كان لديهم مشروع الخلافة، خمسون عاماً لم ينجح أيٌّ منهما. برأيك أين الخلل؟
- الخلل أن الإسلاميين يعبدون وهم الخلافة والقوميون يعبدون وهم الوحدة العربية. وكلاهما متساويان في الوهم لجعل الجماهير تعلك الهواء. كلاهما يعرف حق المعرفة أن الخلافات تملأ الشروخ العربية وأن المجتمعات العربية مفخخة بالعصبية والكراهية وحب التسلط، فما بالنا بمساحة أوسع تدعى العالم الإسلامي بكل تنوعاته وخلافاته وعصبياته أيضاً. العصبية غريزة متواجدة في إطار القبيلة نفسها تحت مسمى الأفخاذ وكل فخذ في القبيلة يدعي أن له الحق في حكم القبيلة وتخوض القبيلة حرباً داخلية طاحنة بين الأبناء طمعاً في التسلط والسلطة. علمياً، كلما توسعت جغرافية السلطة كلما ضعفت. وهذا ما حدث للخلافة قديماً. فالعباسية كانت مشتتة ولم تحكم بشكل مطلق سوى عاصمتها وكذلك العثمانية والتي فقدت حواضرها ورزحت تحت احتلال ولم تقدر على استعادتها. الوحدة العربية والخلافة الإسلامية وهم فقط لركب الجماهير

وزجهم في سجون الخيال ذات المحض الفاسد. قبل أن يحدثوننا عن الخلافة، فلتتفق المذاهب الإسلامية أولاً، وهذا مستحيل، لأن التكفير قائم وتعطيله يعني عدم الاعتراف بتراث ١٢٠٠ سنة. تلك تجارب فاشلة ولا يفترض إعادة التجربة الفاشلة بنفس الأسلوب ونفس الخطوات وانتظار نتائج مختلفة!! فهذا غباء كما قال أنشتاين..

(استمر الحوار، تساوى تقريباً عدد الإعجابات وغير الإعجابات في صفحة البث المباشر، استمرت التعليقات وكالعادة اختلف الجميع حول كل شيء، تعليقات اختلفت مع وجهة نظر وطرح المحاور وتعليقات اتفقت معه وتعليقات شتائم لمن اتفق معه وشتائم لمن اختلف معه، تطور الأمر إلى إطلاق التهم ثم إلى صراع مذهبي وكلٌ يسب الطائفة الأخرى. من المتابعين ممن لم يستحسن الموضوع وراح يرسل تبليغات عن الصفحة إلى إدارة الفيسبوك. أما سياسة البث المباشر في هكذا مقابلات، فهي تخضع في المقهى لقواعد مسطرة مسبقاً حيث تُقرأ الأسئلة التي تتساوى مع الفكر العام للضيف وعند الدخول في مهاترات تحرف القصد من الحوار، وهذا ما حدث فعلاً، فوجهة نظر الجانب المعارض لما يقوله الدكتور وحيد لا

يتم طرحه خاصة الذي يدخلهم في جدل عميق يخرج الحوار عن سياقه والغاية منه.)

***

بالأمس، عاد العميد عمر من السفر إلى أرض الوطن وأخذ لنفسه ثلاثة أيام ليستعيد عافيته بعد مشقة رحلة منهكة. وبعدها، ذهب إلى عمله في مقر الجهاز. عناق حار مع أقرب مساعديه. نشوة نجاح العملية لا وصف لها في قلبه وقلوب فريقه الذي اشترك فيها من التخطيط للتنفيذ. لم تستمر حالة النشوة الكاملة كثيرا حتى استدعي العميد عمر إلى رئيس المخابرات على عجل. توجه العميد إلى الغرفة السرية (الغرفة السوداء) والمزودة بأجهزة تشويش ومضادة للتنصت وعازلة للصوت. وهي أهم ما في الجهاز من حيث الأمان. هذا الاستدعاء إلى هذا المكان بالذات ليس بالأمر البسيط. ويعلم العميد أن حدثا جللاً قد وقع أو سيقع والدخول للغرفة يمر بإجراءات منها عدم حمل السلاح الشخصي أو أي شيء حاد وما شابه. أدخل العميد عمر إلى الغرفة حيث ينتظره رئيس المخابرات، وفورا بادره:

- العميد عمر، كان في سفر إلى أوروبا لتنفيذ عملية قتل جاسر نبيل.

(اجتاحت موجة التساؤلات عقل العميد ورئيس المخابرات يرفع

صوته موبخا...) من أعطاك الأمر بذلك ومن أنت لتتصرف دون أمر وتكليف؟!

- سيدي، تصرفت من منطلق واجبي بما يخدم البلد بالقضاء على أخطر جاسوس تجاري وشارك في تمويل المسلحين.
- أي واجب مع توريط البلد بقضية عالمية ولجان تحقيق دولية قد تصدر عن مجلس الأمن الدولي؟!
- الخطة محكمة سيدي...

يرتفع صوت رئيس المخابرات:

- أي خطة محكمة وأنا علمت بها؟! وصلتني صورة تعميم من المخابرات الإيطالية تشبه صورتك تم تجميعها بطريقة استخباراتية. بفعلتك أنت ستحمل الجهاز والدولة كارثة إلى يوم القيامة. من تظن نفسك؟! قل لي، أجبني من تعتقد نفسك حتى تتصرف بها من شأنه أن يتسبب بكارثة ومحاكم دولية؟!
- تصرفي هذا هو إنقاذ للبلد من أنياب قانون القوة القاهرة (الميجر فورسس) والتي ستبقي البلد رهينة مالية لشركات جاسر لأجيال قادمة واتخذت قراري لأخلص البلد من هذا العبء الذي يؤدي إلى موت شعب جوعا وبقاء حالة إفلاس الدولة لأجيال قادمة.

- عملنا داخل البلد وهذا قرار سياسي. نحن لا ننفذ عملية كبرى دون دراسة التبعات السياسية والقانونية. هل أخذك الغرور لتعتقد أنك أذكى من في الكون وأن لا أحد سيكتشف خطتك؟! هل هذه صفات رجل المخابرات المحنك؟! أنسيت أننا من دول العالم الثالث والأجهزة الغربية تساعدنا بتقنيات تحديث أجهزتنا؟! تسللت وفعلت كما فعل ملايين اللاجئين وخرجت كما دخلت. تجاهلت عمدا أنك ذاهب إلى منظومة العقول المفكرة المتكاملة وأنك خارج من منظومة لا يفكر فيها سوى القليل. تعرف أنهم يعلمون كل شيء. فهم من يبتكر ويطور ونحن نتبع وقليلا ما تكون لنا بصمة مميزة. فمهما كان مستوى تفكيرك العالي، ففيهم ملايين ممن يفكرون. هؤلاء من تعتقد أنك نجحت في الوصول إلى بلادهم ولن يتعرفوا عليك. بتقنية بسيطة متوفرة في شوارعهم وهي بصمة العيون وتقاسيم الوجه، وصلوا إلى صورتك وجار البحث عنك. ولو نجحت في التخفي من نظام بصمة العيون، فتقنية العين الجنائية تصورك وملونة أيضاً (يقصد التقنية العلمية بالتقاط آخر صورة شاهدها الضحية من حدقة العين).

- سيدي، أنا مستعد لتحمل كل تبعات العملية. وما يهمني هو أن البلاد الآن حرة وخالية من العميل التجاري والاستثماري الذي كان من ضمن الأسباب التي أدت إلى تفاقم الوضع الاقتصادي وتسبب في نقمة الناس الذين انضموا للجماعات المسلحة والممول لها جاسر نبيل.
- بلد بأكملها تتحمل تبعات رعونتك وتصرفات اللاّ مسؤولية. وجاسر نبيل كان رجل اقتصاد سلبا أو إيجابا. هذا شأن رجال السياسة والجهات المعنية. ولست أنت سلطة قضائية أو تنفيذية.
- سيدي، مادام لن يخضع لمحاكمة أو مسائلة وهو أحد مموّلي الحرب التي تسببت بمقتل عشرات الألوف من الأبرياء وتدمير مقومات شعب ودولة، كان واجبا علينا التخلص منه لتستريح البلد وتتنفس.
- قلت لك ليس لنا حق في أمور القضاء، تم إبرام صلح وعفو عام. والجميع يتأقلم مع الواقع والوضع الجديد.
- بكل بساطة، يا سيدي، من تسبب بنهر الدماء يصبح شريكا في الحكم وينعم بالسلطة والمال والضحايا لهم التراب في قبورهم. كيف لنا ألا نتصرف؟ كيف لنا ألا نعمل على عدم تكرار الفيلم من

جديد بعد سنوات ونعود لنفس العجلة؟ كيف نسكت على عدم معالجة الأخطاء وتصحيحها ومراجعة التصرفات والمواقف؟ تقدمت بخطابات لا حصر لها بطلب إنشاء لجان تحقيق سرية عن الحرب. وعلى الأقل، نخرج بتوصيات ونشعر بأننا دولة أسوة بباقي دول العالم.

وقف رئيس المخابرات وتقدم نحو العميد وقال بهدوء:

- أنت تعلم أن هناك خطوطاً حمراء، وكم قلت لك ذلك مراراً، لجان التحقيق ليست من اختصاصنا!!
- أعلم ذلك سيدي، في تاريخنا، ومنذ نشأتنا إلى اليوم، لم نكوّن لجنة تحقيق واحدة بحرب واحدة لكشف الأسباب ومعالجتها بحيث لا تتكرر المآسي. هذه ليست ثقافتنا وهي أحد أسباب تكرار الحروب والتي ستستمر إلى أن نتصرف بمسؤولية.
- العميد عمر... بات وجودك في الجهاز يشكل خطراً على البلد بشكل عام، بقاؤك من منتسبي الجهاز سوف يكشف ما قمت به وسيتعرض البلد لعقوبات ومحاكمات دولية. لذا، اتخذنا قراراً وهو الحل بإنهاء خدمتك وإعدام قاعدة بياناتك واسمك ورتبتك وتعود لاسمك الحقيقي ولمدينتك وسيتوقف حتى راتبك

العسكري وستتحول للسلك المدني أستاذاً في منطقة معزولة وتبدأ حياتك من جديد. وهذا تكريما لك. بهذه الطريقة، نحاول أن لا تُكشف للمخابرات الخارجية أن اغتيال جاسر نبيل له علاقة مع مخابرات بلادنا. دقائق ويتم إعدام كل بياناتك في الجهاز. من بعد خروجك من مبنى الجهاز، ينتهي اتصالك بكل منتسب للجهاز. العميل الذي ساعدك بأمرنا اختفى من أوروبا. سلم مقتنيات الجهاز وانتهى عملك. ولتعود إلى حياتك القديمة.

ابتسم عمر رغم المرارة وقال:

- تحت أمرك سيدي.
- هذا هو الحل الوحيد المتاح. أنت تعلم أن رجل المخابرات خُلق لمهمات، وأنت قدمت الكثير. وحفاظا عليك وعلى البلد، ستكون بعيداً عن الجهاز ومنتسبيه. نحن نتابع التحقيقات الاستخباراتية في أوروبا وإذا اقتربوا من تحديد جنسيتك، سيأتي إليك أحد رجالي لنقلك إلى مكان ما لتغيير ملامحك وجهك وزراعة عظم صناعي كزوائد لنخفى تقاسيم وجهك حتى يبقى الوصول إليك صعباً لأن لا قضية دولية بدون أدوات التنفيذ والمنفذ والأدلة. والأهم

عدم استخدام التكنلوجيا لا الإنترنت ولا الهواتف فقط حياة تكون بدون وسائل العصر.

- تحت أمرك سيدي.

خرج العميد عمر من الغرفة محمر الوجه، دخل العقيد خالد إلى الغرفة ليكون له ما كان للعميد عمر. في أروقة الجهاز، يمشي عمر وخلفه عنصران يرافقانه لتسليم مقتنيات الجهاز ويسلمانه لبوابة الخروج. وبشعور المودع، يتصفح بعينيه الجدران ويمر من أمام أبواب المكاتب وهو يعلم أنه لن يعود إلى هنا للأبد. اقترب من مكتبه، رفاقه صامتون فهم يعلمون أن الداخل للغرفة السوداء مفقود والخارج منها مولود. اقترب عمر من طاولة مكتبه ووضع بطاقته العسكرية وأخرج مسدسه من خزانته ووضعه، وأيضاً كلمات وشفرات دروج المكتب والخزانة، أخذ بطاقته الشخصية من الخزانة والتي فيها هويته كمواطن عادي. استدار للمغادرة، رفع يديه إلى الأعلى كإشارة أنه خالي الوفاض، ونظر للعقيد قمر الدين وأشار له بطرف عينه، وسلم على رفاقه. وما إن احتضن قمر الدين حتى قرصه قرصة خفيفة وهي إشارة استمرار الخلية بقيادته ومواصلة المهمات الوطنية.

بجاكت جلد وسروال جينز وحذاء رياضي، يمشي في شارع عام، تجرد من كل صلاحياته وعاد إلى ما كان عليه قبل التحاقه بسلك المخابرات. لا شيء

يربطه بذلك سوى ذكريات ستبقى حبيسة صدره إلى ما شاء الله. بجيبه بطاقته الشخصية باسمه الحقيقي (أشرف عبد السلام) ابن مزارع بسيط في قرية تتبع مدينة صغيرة إداريا. "آه، وها أنا أعود لنفس أشرف عبد السلام، كل شيء كان كأنه نوبة حلم وإفاقة على الحقيقة، العميد عمر إلى ما قبل ثلاث ساعات. ما أصعب أن يعيش شخصان بهويتين في جسد واحد. من جديد، أبدأ (يدس يده في جيبه ويخرج قليلا من المال ويبتسم وهو يحدث نفسه...) الأجمل في الماضي أني لم أتربح. وكما دخلت، خرجت وأنا ابن الفلاح البسيط الذي يأكل من قمح أرضه ويشرب حليب ماشيته". ينظر نحو يساره فيجد رجلا يشوي أكواز الذرة، يقترب منه ويشتري واحدة ويتابع مشيه وهو يأكل ويشعر بلذة غير عادية. جلس على أطراف مقهى شعبي وهو يشعر بحرية النفس. ارتشف الشاي وتابع مشيه إلى إن وجد طفلة في الخامسة تتسول، أعطاها ورقة مالية ذات قيمة صغيرة وابتسم لها وتابع مشيه وهو يقول لنفسه: "لست نادما. من أجل هؤلاء، كنت وعملت. ها أنا بينهم، واحد منهم ولا أحد يعلم أن المار من بين زحامهم لم يخنهم أو يخذلهم. وبقرار من نفسي، أوقفت مص دمائهم. لا يهمني خسارتي. فأنا لم أخسر، بل كسبت نفسي وكسب الناس أرزاقهم... تبقى لهذه الأرض زهورها، وربيعها الحقيقي وأشواكها نوقدها حطبا... مهما

طمع الطامعون وعاث الفاسدون بفسادهم، فالأرض باقية. بل ستبقى هي سيدة الدنيا. والشعب باق. ومن مات خلقه الله ثانية وإن مات كرر الله خلقه للمرة الثالثة. فالحياة مستمرة وإن كره الكارهون وعبث العابثون..." يتابع مشيه حتى وصل إلى حافة الطريق، نظر على يمينه ويساره، اقترب قليلا من خط الوقوف. وما هي إلا أربع ثوان زمن، حتى انطلقت سيارة مرسيدس ذات محرك ٦١٢ حصان أوروبي بي أس لتتسارع من ٠ إلى ١٠٠ كم/ س في ٣.٥ ثانية وتخطفه بل تقتلعه قلعاً، يرتطم فوق الأسفلت، واصلت السيارة طريقها نحو مرادها وبقيت الجثة تنزف، تجمع الناس من حولها، اقترب شاب أنيق من الجثة وتصرف وكأنه ملم بالإسعافات الأولية وهو يطلب ممن حوله الاتصال بسيارة الإسعاف. وضع أصبعيه بلطف على حنجرة المصاب ثم هبط بهما إلى الفراغ بين الحنجرة والعضلة المجاورة وتحسس النبض، مازال حياً. بخفة المتمرس، سرب حبة من تحت كم يده وقذف بها إلى فم المصاب. ثواني قليلة وتوقف النبض، تظاهر الشاب بأنه يتصل بالإسعاف تزاحم الناس من حول الجثة. وتدريجيا، تراجع الشاب ليختفي بين الزحام ويختفي معه لغز الاغتيال.

***

عندما يموت فينا "نحن جوهر الإنسان"، تشرق خيراتنا ليلا لنزيد على الليل ظلامه ونعيش بلا وجود. نمتطي أنفسنا لنفرغ على ذاتنا عفنا، نصير حُبلاً بنكهاتنا، تحمل بطوننا أجنة العبث. ها نحن بشر نلد أشباهنا رداءة. ها نحن بشر نلد أشباهنا المقتولين بأيدينا، أشباهنا المصلوبين في أعناقنا، نلد اللا قلوب واللا عقول واللا أوجه. يا ماضينا الأسود! ها نحن صرنا أبناء أنفسنا، ظلاماً من فوقه ظلام ومن تحته ظلام، كظلمات متداخلة مع بعض. نستهدي الطريق في سراديب الهلاك في صور الفبركة وكلام الشيطنة وفي الدعاية الملتوية وفي أشاعتنا الخجولة من الإشاعات. أوطاننا تركض وراءنا ونحن نركض باتجاهنا هربا من أثداء أمهاتنا وسواعدنا تلتف للخلف لعل أصابعنا تبطش بأثداء أمهاتنا ونعتبرها غنيمة. ألد أعداءنا أوطاننا. في لحظة، اقتنعنا أن أوطاننا لا تريد لنا الخير وبأن أوطاننا قتلتنا، ولم نكتشف حقيقة أن سوءاتنا في رؤوسنا وأن عقولنا في سواءتنا.. نحن أبناء السوق السوداء، نبيع أكبادنا في السوق السوداء، نتنافس في ما بيننا من هو الأكثر سوءاً؟ !! ولا أسوأ منا سوى نحن! في نهاية هذا الطريق الطويل، وميض لا يبصره الراكضون. ولو أبصروه، لغيروا اتجاههم. عندما تنتصر الشياطين على الملائكة، تراها شياطين مدمرة. وهذا ما حدث. وها هم قد نجحوا ولو مؤقتا بغلق صفحة المقهى الثقافي (الدب الصغير) في

الفيسبوك، آلاف البلاغات في الصفحة، وجاء الرد من إدارة الفيسبوك بأن الصفحة محظورة لمدة شهر لأنها تروج للإرهاب. هكذا كانت البلاغات. حجم الاستغراب والدهشة لدى رواد المقهى بحجم السماء وباتساع الأرض. جميعهم يتساءل كيف؟! لا إجابة معلومة، فقط الجهل ينتصر دائما ويحقق ارتجاجات مأساوية. وما دامت السلطة الإعلامية بيد الغوغاء الكثر الطاغية على المثقفين القلائل، فليست الأمور مبشرة بالخير. من الجولة الأولى، يُهزم النور.

***

ميساء تقف على ضفاف فصل جديد من فصول الحياة ودوراتها وهي متزوجة الآن وتنجب من يكون لهم فروع منها، لم يشهدوا الماضي بل ستبقى لهم آثاره ويبقى السؤال الأبرز: هل ستختلف أساليب حياتهم ونمط تفكيرهم عمن سبقوهم؟ أم أن عجلة الدوران بنفس الدائرة والجميع يُغلق بها؟! ميساء تقف ومن ورائها ذكريات خطيبها الفقيد وبين يوميات زوجها مثلها مثل النساء في المعمورة من ناحية النمط والنظرات التي لا تختلف وجميعها ذات أوجه كئيبة سواءً مات الزوج أو تطلقت فلها ذكريات عيش وسرير. إن تذكرته، فلن يغفر لها العشيق أو الخطيب أو

الزوج الحي وهي أبغض ما يقترب منه. وإن نسيته مجبرة، فهي تخون العيش والسرير مع من أعطاها الحنان يوما وقال لها أحبك وردت هي كذلك. وحتى الفقيد لن يكون بسلام في قبره إن هو علم بأن غيره أخذ مكانه. تبقى القضية شائكة وهنا يعيش النفاق ونكران الجميل. أنه يُوجد السر بين الذات ولا يُكشف دون توجه وإرادة بذلك من قبل صاحبه. ميساء ليست ممن ذُكر، وضعها مختلف، صحيح أن خطيبها وعشيقها رحل، لكنه لم يرحل بموت لطيف بقدر كمرض أو حادث سيارة مثلا، بل ذُبح ونشر ذلك في اليوتيوب، فكيف تنساه وتنسى كل ما جرى والملابسات وتوابعه؟! هي في الغالب لا تتذكره بمقام عشيق رحل، بل الأمر أعمق بكثير. فكلما تذكرته، يبدر لها وجعه لحظة ذبحه دائماً تتساءل: كيف تحمل خطيبها وجع الذبح وبرودة السكين الحارة؟! وكيف تقبل الألم وهي تعبر رقبته وتُشحذ لفصل الرأس بعد ذهبات وجيئات وقوة دفع تعبر شلال الدم وتمزق كل ما يصادف حادتها حتى تنفذ من الخلف؟! كيف كان شعوره المسكين وهو يُهيئ للذبح؟ وكيف شعر ورأسه ينفصل وبعد فصله؟ هل شعر برفع الرأس وهو خفيف دون جثة؟ عندما رفعه الذباح وهو يمسك خصلة الشعر ويطلق صيحات التكبير والتهليل بما أنجز وبما أضاف لرصيده من حسنات لقاء فعله كما يعتقد _الذباح_؟! هل استطاع

اختلاس نظرة من رأسه المفصول عن جسده الممدد أرضا حينما مازال العقل يبعث بأوامره للجسد بضخ أكبر كمية من الدم لتعزيز عمل الأعضاء؟! كم من الوقت تعذب حتى سلم الروح والإحساس لبارئه واستراح ممن حوله وهولهم وحيوانيتهم؟!

عندما خُلقت الأقدار وكلٌ نال نصيبه المقدر له من تفاصيل وحياة وعمر، هذا هو الحق السماوي ولا نقاش في ذلك. لكن أن يأتي إنسان ويعتدي على الله بوضع حد لحياة إنسان آخر مبكراً ومتخطيا بتحد لعمر مقدر له ومكتوب لدى الصحف المحفوظة، فهذا يُعد انتهاك للجلالة الربانية والتي من المؤكد بما لا يدع مجالاً لا للنقاش ولا للشك بأن الله كرم الإنسان بالحياة والموت المُقدر المعلوم. لذا، تبقى جريمة قتل إنسان لسبب مبتدع ودون مصوغ قانوني حقيقي من الفظائع البشرية التي لا مثيل لها، وزيادة على الفظائع وقاحة عند استخدام اسم الله مبرراً لهكذا بشاعات. الآن، تقف ميساء على جادة الحياة والمستقبل الوليد، والغد الضبابي أو المشرق حسب حالة الطقس. تقف ومن أمامها أنفاس الحياة ومن خلفها موت انقضى، تتحسس بطنها لعل أرضها تنبت. هو الحق حتماً، ستنبت يوماً..

انتهى



إصدار

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية

برلين – ألمانيا

الطبعة الأولى

2019